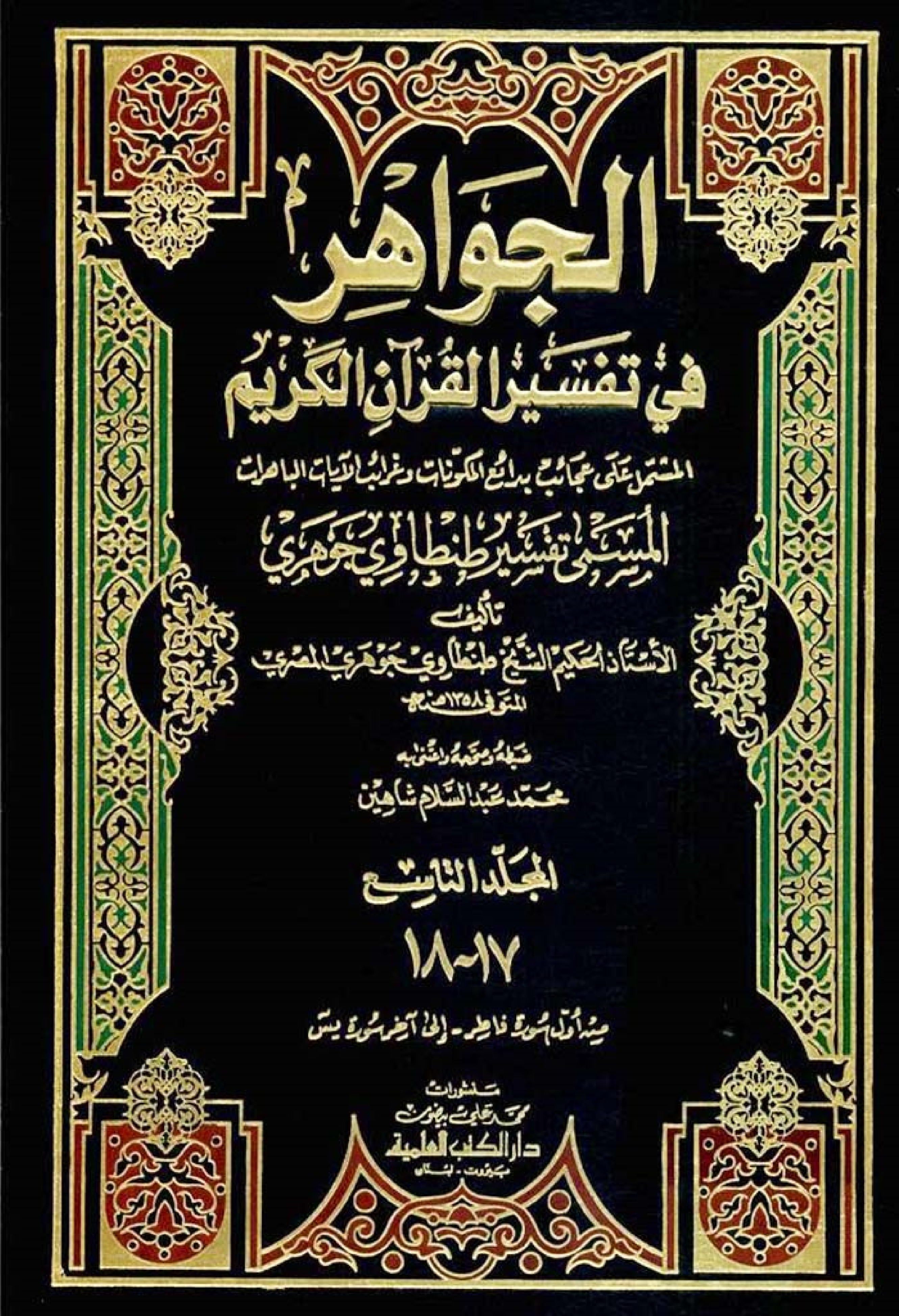

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨ هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد التاسع
١٧-١٨
من أول سورة فاطر - إلى آخر سورة يس
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨ هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

الجزء الثامن عشر

المحتوى:

من أول سورة الصافات - إلى آخر سورة الزمر

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾[النحل: ٦٩]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة «الصافات»
هي مكية
آياتها ١٨٢، نزلت بعد الأنعام

وفيها أربعة فصول:

الفصل الأول: في تفسير البسملة.

الفصل الثاني: في التوحيد ووصف إبداع الله في السماوات وخلق الإنسان وأن الله خلق ما هو أعظم منه شأناً، كما جاء في آخر سورة «يس» من قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾[يس: ٨١]، فأول هذه مرتبط بآخر تلك ارتباطاً وثيقاً، ثم كيف جهل الإنسان فأنكر البعث، وما يتبع ذلك من محاورة أهل الجنة وهم يطلعون على أهل النار، ثم وصف أهل الجنة ونعيمهم الخ.

الفصل الثالث: في قصص نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وموسى وهارون وإلياس وهو الياسين ولوط ويونس.

الفصل الرابع: دفع فرية أن الملائكة بنات الله وإثبات أنهم صافون مسبحون كما جاء في أول السورة، لا أنهم بنات الله، وفذلكة السورة بمدح المرسلين والسلام عليهم.

الفصل الأول: في تفسير البسملة

مذكرة عن فكرتي قبيل فجر يوم الأحد ٢٤ مايو سنة ١٩٣٠

ذكرت في أمثال هذا المقام أني أنام في فصل الربيع وما بعده فوق السقف تحت النجوم إجابة لداعي المحافظة على الصحة واتناساً بالنجوم وإشراقها وأنوار القمر وبهجة السماء.

ففي هذا التاريخ استيقظت حوالي الساعة الثانية بعد نصف الليل، والظلام حالك، وأنوار النجوم متلألئات، بهجات مشرقات، يتخلل نورها تلك الظلمات الحالكات، والرياح مهتاجة لها دوي وصرير وصفير على الحيطان وفي الشبابيك والأبواب وفي الثقوب اللاتي تلاقيها في ذلك المكان، ولقد عجبت لهذه النفس تذكرها النسمات وتهتاجها عواصف والرياح وقواصفها، فكأنما هذه الدنيا قيثارات والرياح نوافخها، أو مثان ومثالث بفنون الطرب وطرف الألحان وقعتها يد الزمن الغزير

المواهب، الجليل الفوائد، الباهر الحكم، هنالك غادر الخيال حاستي السمع والبصر، وأخذ يجري على سننه، فيجوس خلال العوالم ليحظى بفنون الحكم وبدائع العلم فيما وعاه من صور جميلة مخزونة يستثيرها، وحكم غوال يأنس بها، فأشرقت النفس بأنواره وازدانت بلؤلئه ولألائه، وأخذ العقل يجول في ميدانه وهو يقول: الأنوار أحاطت بالناس من كل جانب، النهار والليل مشرقان زاهران، تغرب الشمس فيظهر القمر والنجوم، وما أرضنا إلا ذرة واحدة طائرة في عوالم لا حد لنهايتها ولا آخر لمداها، اللهم إلا ما افترضه المفترضون من كرات المجرات وشموسها وكواكبها إذ يجري حولها فلا يقطعها في أقل من مائة ألف مليون سنة، مع العلم بأنه يقطع في الثانية الواحدة (١٨٦) ألف ميل أي (٣٠٠) ألف كيلو، ولا يزيد جريه حول أرضنا عن جزء من سبعة من الثانية الواحدة، وما أبعد الفرق بين سبع الثانية وبين مائة ألف مليون سنة.

ثم إن النور يحيط بهذه العوالم كلها، بل كلها أنوار بل المادة كلها نور قد تراكم فأظلم، ولا ينيره في عقولنا إلا العلم. انظره عند آية: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور: ٣٥] في الكلام على «قطرة ماء».

الدنيا عجوز شوهاء عند الجهلاء وهي عروس لبست الحلل وحليت بحلي الماس والياقوت والدرر جميلة هيفاء، حوراء عند الحكماء، فكأنها السور الذي باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، هنالك أخذت أفكر في الجمال الظاهر في هذا الوجود، ومنظر النجوم وأصوات الرياح تزيدان الذكرى وتلهبان في القلب نار الشوق والحكمة والعلم.

يا سبحان الله: أنحبس في سجن هذه الأرض فلا نعرف ما وراءه، أنعيش ونحن جامدون خامدون، ألمثل هذا خلقنا؟ نحن نرى الجمال يحيط بنا والرحمات لا تدعنا. هذه الأنوار الشمسية لو أطفئت لمات أهل الأرض، النور هو الحياة، الرحمات لم تذر حشرة ولا بهيمة ولا إنساناً، بالرحمة والرأفة والعطف، رأينا للنملة (٤٠٠) عين، اقرأ رسالة عين النملة في سورة «النمل» في هذا التفسير، و(٤٠٠٠) عين للذبابة، ولغيرها أعين تعد بعشرات الآلاف كما في نفس تلك الرسالة، وإذا تعمقنا في البحار في الأماكن التي لا تصيبها الأنوار الشمسية وجدنا للسمك أنواراً تشع له من نفسه كما تقدم في هذا الكتاب، أينما قلبنا وجوهنا أبصرنا نوراً، وأينما فكرنا في العوالم أدركنا رحمة، ونحن لنا عقول تفهم الرحمة وتنظر النور، هنالك تجسمت أنواع الرحمات نصب عيني وتلألأت الأنوار في المخيلة، إذن هما زينتان: زينة ظاهرة، وأخرى باطنة، والزينتان قد تجلتا معاً في: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

هذه البسملة التي يقرؤها الجهلاء وتمر على أكثر الناس مرور الرياح في هذه الليلة والأنوار على الآذان والعيون، فلا يأبهون لها وهم بها جاهلون، فمن عجز عن إدراك الجمال في هذه الأنوار والظلمات والرياح الهابات فما أعجزه أن يدرك الرحمة في البسملة، لا تدرك معاني هذا القرآن إلا بدراسة هذا الوجود، ألم تر أن الرحمة التي ذكرت في البسملة في أول هذه السورة قد سيقت للتذكرة بما فيها من الرحمات والعجائب، ذكرى يصبو لها قلب الحكيم، وعلم يهفو له فؤاد الواله المغرم اللبيب.

(١) ألم تر كيف أبرزت الزينات الظاهرات في ذكر السماوات والأرض والمشارق والمغارب وزينة السماء الدنيا بالكواكب، يا للعجب أليس ما شاقني الليلة وألهب في قلبي نار الشوق للحكمة والبحث هو نفس هذه الزينة، ذكرت في هذه السورة لملاءمتها لصفاء النفوس التي تقل في نوع هذا الإنسان الأرضي، إذ أكثره محجوب عنه وهو غافل لا يستمع منادي الملأ العلمي الأعلى، لأنه أقرب إلى الحيوان مغمور في الطين والمادة.

(٢) وكلما سنحت له سانحة أعرض وتولى وشمخ بأنفه ورجع إلى بني نوعه، وأخذ يتبجح بالمجادلات ويفرح بالغلبة في مجالس الأقران، ويسخر من الحكمة والحكماء، ويعرض عن مناظر الآلاء ويهزأ بالمباحث العقلية والآراء الفلسفية.

(٣) فهاهنا تجلت الرحمات: (أ) أولاً في ظهور الأنوار كما بيناه وفي عمومها.

(ب) ثانياً في حوار القرناء إذ يلوم كل منهم الآخر بعد فوات الفرصة، تقريعاً للمقلدين في هذه الأرض، وتذكيراً للمفكرين منهم وتبياناً لنا أن لا نعيش محمولين على أجنحة آراء غيرنا، ونحن في ذلك مسخرون، ففي الأنوار رحمة الحياة الجسمية لكل حي على الأرض، وفي الاعتبار بتساؤل أهل النار إذ أقبل بعضهم على بعض رحمة أخرى، فبها تكون الحياة العلمية، فهاهنا رحمتان: رحمة جسمية، ورحمة عقلية، موضوعتان في السورة وضعاً منظماً مرتباً.

(جـ) وثالثاً تساؤل أهل الجنة إذ قصّ قائل منهم قصصه مع قرينه وهو في الدنيا، وأنه أهمل دلائله الجدلية وآراءه اللاتي كاد يغويه بها، فتولى عنها معرضاً وسلك سبل السعادات في الجنات، وهذه أشبه بنتائج ما قبلها من الحياة الجسمية ومبادئ الحياة العقلية، فإن من اعتبر بالمقلدين الضالين يحفزه ذلك أن يكون هو من المفكرين العاقلين، وهذه هي قصة هذا الإنسان، تدب فيه الحياة ومن أهم أسبابها الأنوار، فإذا استوى وقوي أخذ يتفكر في شؤون هذه الحياة فتعرض له الشبهات، وهذه هي المرتبة الثانية، فإذا صدّ عنها ووصل إلى الحقائق فقد كملت حاله في الدارين. هذه هي قصة هذا الإنسان أوله وآخره، إذن لم يبق إلا تطبيق أحوال الأمم السابقة على هذه المقدمات.

(د) فذكر نوحاً وأنه نجا وفاز هو ومن معه وهلك أعداؤه، فالفائزون كالقسم الثالث، والهالكون كالقسم الثاني فيما تقدم.

(هـ) ومثل نوح في ذلك إبراهيم الذي نظر في النجوم المذكورة في أول السورة، وهي مناط فكر العظماء وأجلهم الأنبياء، مع تبيان ما أصابه من الأعداء فنصر عليهم، وما أصابه من الابتلاء بذبح ولده وكيف رحمه الله تعالى. فهاهنا تجلت الرحمتان: رحمة في دعوته للناس، ورحمة في فداء ولده، وكل ذلك تذكرة للمسلمين اليوم، وأنهم إن صبروا نجوا.

(و) ومثل إبراهيم ونوح وإلياس ولوط ويونس.

وهنا انتهى التطبيق على المقدمات الثلاث، فسير هؤلاء الأنبياء تقص علينا أنباء الرحمات الواردات على الأنبياء وأتباعهم، بعد ما قصّ علينا رحمات الأنوار ورحمات النجاة من قرناء السوء، ثم الوقوف على الحقائق، ثم لخص السورة كلها.

لما كانت السورة مبدوءة بالقسم بالملائكة الصافين على أن الله واحد؛ وهم أرواح لها سلطان على عالم المادة؛ وهم بإذن ربهم يدبرون الكائنات فتكون الأنوار والظلمات والحياة والأمم؛ وتبع ذلك أن الأنبياء فائزون منصورون، وأن أعداءهم هالكون، ختمها بإفاضة الكلام. أولاً: في الملائكة فأخذ يفند ما يفتريه الكافرون عليهم من أنهم بنات الله ونحو ذلك، فلم يبق إلا أن الملائكة هم الصافون المسبحون، كل له عمل يخصه لا يشاركه سواه. وثانياً: أن المرسلين منصورون والجنود الذين معهم غالبون، ثم لخصها تلخيصاً أكثر إجمالاً، فهو منزه عما يصفونه به، وإذن تكون ملائكته القائمون بأمره على حال غير ما وصفوها، والمرسلون كتبت لهم السلامة. فلا جرم أن الهلاك لأضدادهم، والحمد لله رب العالمين. ومن عجب أن سورة «يس» لخصت في آخرها كما لخصت الصافات كما تقدم. هذه هي الرحمات التي تجلت في هذه السورة تبياناً لآية: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[الصافات: ١٨١]؛ بينه وبين: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[يس: ٥٨] صلة أن الأمان من المخاوف هو أعظم الرحمات في الدنيا والآخرة، فمن كانت الخواطر النفسية ثائرة عليه مضجرة له منهكة لقواه، فلا سلام له، والمرسلون لم تبق لهم في أنفسهم خواطر السوء، لأنهم مطلعون على الرحمات الواسعات المحيطات بالناس والحيوان، ولم يحجبهم عنها ما يحجب أكثر هذا الإنسان من جدال وحوار وعداوات وذنوب ومطامع وكبر وعجب وما أشبه ذلك، فهذه كلها حجب أسدلت على أكثر عقول هذا النوع الإنساني الذي حكم عليه بالسجن في هذه الدار المملوءة جمالاً، وقد صده عن جمالها الحروب والكروب وما تقدم من فواجع الدهر وقواطع الأخلاق الشائنة، فلا يفقه أكثر الناس، ولا يعقل بهجة الأنوار، ولا جمال النجوم والشمس والقمر، ولا عجائب الرياح وغرائبها وأنها تحمل السحب الماطرات، فلا يكاد الضوء ينقطع عنا بالسحاب حتى نرى آثاره بالقطرات التي أمطرها علينا فنحيا بها. ومن عجب أن الدارسين لهذه العلوم أكثرهم غافلون كأنهم جاهلون أيضاً، لأنهم نظروا إليها باعتبار غاياتها ومنافعها المادية، ولم ينظروا إليها باعتبار مبادئها من الرحمات العامة، فضلت عقولهم وتاهت في بيداء المادة، ولم تجتمع تلك العجائب عندهم في موجود واحد منه كان صدورها، حتى تفرح به قلوبهم ويشعروا بحب عظيم، بل حبهم مفرّق لا اجتماع له. هذا هو سر البسملة في أول السورة. فهذه العوالم إن لم تكن النفوس العالمة بها ملاحظة الرحمة المتجلية فيها المبسوطة المنشورة في كل ذرة وحشرة كما تقدم فإنهم لا يشعرون بالرحيم. ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾[الزخرف: ٣٦]، ومن لم يشعر بأن هذا الوجود إنما ظهر برحمة وعلم وأن هذه هي نتائجها؛ فإن حياته كلها ذلة، ولا سلام له، لأن الأمان لمن يعلم أن روحه في يد رحيم حكيم، فأما من يرى أن هذه الدنيا لا مدبر لها؛ وأنها هكذا تائهة من الأزل إلى الأبد؛ فإن روحه أبداً معذبة متألمة لا يدري من أين يأتيه البلاء أمن الفقر أم من الذل أم من المرض أم من الموت، أما الآخر فإنه يرى نفسه سعيداً لأنه يشعر بذات رحيمة تقوم بأمره، ومثل هذا ينال الأمان في هذه الحياة وبعد الممات. هذا معنى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في سورة «الصافات». وبهذا تم الكلام على الفصل الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا (١) فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا (٢) فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ (٤) رَّبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ
(٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ
جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)
فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ
(١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّبِينٌ (١٥) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ
وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ
ٱلدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ
وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ
(٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَسَآءَلُونَ (٢٧) قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٢٩)
وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ
(٣١) فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا
لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ (٣٦) بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟
ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠)
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ
مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ (٤٥) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ
وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩)
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ
ٱلْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤)

فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ
ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا
لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾
إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ
رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا
مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾
فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ ﴾ أقسم الله بالملائكة. (١) يتمون صفوفهم في مقام العبودية في مراتبهم. (٢)ويزجرون الكواكب المسخرات وهن جاريات مدبرين شؤون العالم رادعين الناس عن الشر بالإلهام والشياطين عن الوسوسة لهم. (٣) ويتلون آيات الله على الأنبياء والأولياء، وبالعلماء الذين يحذون حذو الملائكة صفاً في العبادات وزجراً عن الجهالات وتلاوة الآيات، وبالغزاة الحاذين حذو العلماء صفاً في الجهاد وزجراً للعدو وتلاوة للكتاب، وهذه المعاني كلها تحتملها الآية، فكل هذه صافات وكلها زاجرات وتاليات، والعطف لاختلاف الصفات لا الذوات، وكل وصف لاحق أرقى من سابقه، فالصف للعبادة كمال، والمنع من الجهالة والمعاصي تكميل بالمنع من الشر، والتعليم بالكتاب إفاضة للخير، وهذا غاية المقاصد السامية من الأرواح العالية، أقسم الله بالملائكة الذين اتصفوا بالكمال في النفس وبتكميل الناس ونظام العالم وبالعلماء الذين حذوا حذوهم وبالغزاة التابعين لهم، ولا جرم أن تناسق الصفوف وانتظام الأحوال دليل على وحدة المبدأ.

ثم أخذ يفيض بذكر صفاته في جواب القسم، فقال: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾ أي: مطالع الشمس وهي (٣٦٥) مشرقاً لكل يوم من أيام السنة الشمسية مشرق، فأما رب المشرقين ورب المغربين فإنما هما للصيف والشتاء، وأما رب المشرق والمغرب فهما جهة المشرق وجهة المغرب، ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ القربى منكم تأنيث الأدنى ﴿ بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾ بالإضافة وعدمها، أي: بزينة هي الكواكب من حيث جمالها ولألاؤها وبهجتها وتناسب أشكالها وحسن أوضاعها، لا سيما عند الخاصة الدارسين لنظامنا المفكرين في حسابنا، إذ يرون أن السيارات مثلاً بينها مسافات متناسبات بحيث يكون كل سيار بعده عن الشمس ضعف بعد الكوكب الذي قبله. ولن يعرف هذا إلا الدارسون المفكرون الناظرون في ملكوتنا الحاسبون الذين هم يعقلون. فالزينة إذن زينتان: زينة للعامة والجهلاء وهذه تظهر بالعين في الليلة الليلاء، وزينة عند

الخاصة وهي لا تظهر إلا للعلماء، ولذلك أردفه بقوله: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ خارج عن الطاعة متمرد عات سواء أكان من شياطين الإنس أم من شياطين الجن، ثم بيّن حالهما فقال: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ إلى كلام الملائكة والكتبة ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ يرمون ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ من جوانب السماء إذا قصدوا صعودها ﴿ دُحُورًا ﴾ أي: مدحورين مطرودين ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ ﴾ آخر ﴿ وَاصِبٌ ﴾ دائم شديد وهو عذاب الآخرة. يقول الله: لا يسمعون إلى عالم الملائكة، واستثنى من اختلس من كلامهم مسارقة فقال: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ كوكب يثقب الجو بضوئه.

يقول الله: أقسم بهذه العوالم المنظمة المرتبة من ملك وكوكب ونبي وعالم ومجاهد بحيث تلاءمت وتضامت واتصلت، وكانت متناسقات الوضع منظمات، وهي زاجرات كزجر الملك للكوكب والمجاهد للعدو والعالم للجاهل، ولا جرم أن الملك والنبي والمصلي والعالم والمجاهد تالون للذكر.

هذه العوالم ينسب بعضها إلى بعض وهي أسباب ومسببات، فكأنها عالم واحد بحيث ترى وحدة منظمة، فالعالم علويه يفيض على سفليه، وسفليه قابل من علويه، فنرى الشمس والقمر والكواكب مفيضات أنوارها على الأرض ولا نرى في خلق الرحمن من تفاوت، بل نرى اتحاداً وائتلافاً نظم وحدتها وجمع مفرقها، ولا جرم أن ذلك دلالة على وحدة الصانع، وذلك برهان ذكره فيلسوف يوناني وهو أفلاطون: «إن وحدة العالم دلالة على وحدة الله عز وجل»، ثم أخذ يوضحه فقال: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وأنتم ترونها متصلات منتظمات، فالوحدة فيهما ظاهرة والألفة بينهما معروفة مشاهدة.

الدنيا بيت فرشه الأرض وسقفه السماء وسراجه الكواكب، فلذلك قال: ﴿ وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ ألا وإن البيوت الرفيعة العماد كما تضاء بالأنوار تزين بالنقوش وبأنواع الجمال والبهجة والصور الجميلة، ولا يكون البيت مسعداً لأهله ساراً لسكانه إلا إذا أشرقت جوانبه، وازدانت أركانه بأنواع الجمال والصور الحسان التي تهواها النفوس وترضاها الشرائع، وأي سقف أجلّ من السماء؟ وأي فرش أبهج من الأرض؟ وأي سراج أجمل من الشمس؟ وأي زينة أبهج من النجوم؟ فلذلك قال: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ لا تكون القصور المشيدة والبيوت الرفيعة حافلة بالسرور مأموناً على جمالها وزخرفها إلا متى حفظت من اللصوص السارقين ومتسوّري محاريبها، فلذلك حفظ الله السماء أن يتطاول لدرك جمالها واتساق صافاتها وبهجة بنائها ومحاسن نظامها إلا الملائكة الصافون والأنبياء والعلماء المخلصون، فأما الجهال والشياطين فأولئك عن جمالها غافلون، وهم عن آياتها معرضون، فالسماء منهم في حصن حصين، ولقد يعيش المرء ويموت وهو في غفلة من درك هذا الجمال، لأن السماء حرست منه، وهل يعرف الفضل إلا ذووه، فالعيون مفتحة ولكن أين أبصارها؟ وهل ينال العلم إلا عاشقوه؟ أو يبهر الجمال إلا عارفيه؟. ومن لم يحركه العود وأوتاره والربيع وأزهاره فهو فاسد المزاج يحتاج إلى العلاج. ولقد تلوح للمرء لمحة من الجمال، وتعنّ له سانحة، وتبدو له بارقة من المحاسن، فتخطف بصيرته كالشهاب الثاقب، فيحنّ إلى مثلها ويصبو إلى

أختها ويتعلق قلبه بالجمال. ذلك تأويل قوله: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ﴾، ولكن ظاهر القول كما هو مشهور أن الشياطين يسترقون السمع فيحترقون بالشهب، وقد تخطئهم الشهب فيعودون ليسمعوا كالسارقين من نوع الإنسان والقاتلين، رجاء أن لا يقعوا في قبضة الحاكمين، وهذا المعنى إذا أريد كما هو المشهور فليكن كناية، وهي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي، فلنقل هذا هو المعنى وهو كناية عن المعنى المتقدم، فيكون المنع الحسي رمزاً للمنع العقلي، والكناية من أجمل أنواع البلاغة فاصطلح المعنيان وتسابقا في الميدان، وأبقينا الظاهر على ظاهره وتمتع الحكيم والذكي بباطنه. ألا ترى رعاك الله أن كثيراً من الناس حولك محبوسون في هذه الأرض غائبة أبصارهم لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ولا يفهمون رموز هذه الدنيا وعجائبها، وقد قذفوا من كل جانب مطرودين طردتهم شهواتهم وعداواتهم وكبرياؤهم وحروبهم وطمعهم وشرههم عن تلك المعاني العالية. فهم مغمورون في حمآتهم تائهون في سكراتهم، تخطفتهم من كل جانب الأهواء والشهوات وانغمسوا فيها، فلا يخلصون إلى ذلك الجمال ولا يفقهون ذلك السقف المنقوش، إن النجوم أشرقت بجمالها للحكماء، وبهرت بمناظرها العلماء، وزينت السماء للناظرين، وهي من جهة أخرى أزجت الحرارة إلى الأرض، فأينع الزرع ودرّ الضرع واغتنى الجمع فتلظت الشهوات وكثرت اللذات فأعمت البصائر عن النظر، والعقول عن الفكر، وأصبح الناس صرعى أوهامهم قتلى أهوائهم مطرودين عن الحكمة، ثم إن شياطين الجن كشياطين الإنس، غاية الأمر أن الأولين ليسوا في الأجسام البشرية وأن الآخرين فيها، ولكن البصيرة واحدة، ومن كان في الجسم أعمى فهو إذا جرد منه أعمى، فشياطين الجن وشياطين الإنس كلاهما محرومون من الحكمة العالية، ألا ترى أن الخواطر الحكمية لا ينالها في هذه الدنيا إلا أهلها، ولكل أناس في الأجسام البشرية وفي الحال الروحية خواطر خاصة بهم كأنهم صفوف لا يتعدّون مراتبهم، فمن خطف الخطفة على أحد حالين: إما أن تهديه إلى الصراط السويّ، وإما أن تقف في طريقها الشهوات وتجتثها اللذات والأهواء. فعلى المعنى الأول يكون الاستثناء متصلاً كما قدمناه. وعلى المعنى الثاني يكون منقطعاً على ما هو مشهور، وكلا المعنيين حق، فكم من الناس جاءتهم بارقة العلم فاستضاؤوا بها. وكم أناس سمعوا الذكر فأعرضوا عنه وهم بجهالتهم مشغولون ذلك تفسير هذه الآية.

فتش الناس حولك. انظر تجد هذه المعاني متجلية، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، لقد قلّ الذين بهرهم الجمال وذاقوا حلاوة الحكمة، وأكثر الناس لا يعلمون، لأنهم عنها مصروفون.

مثال يوضح المقام

قرأ قارئ: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الكهف: ٤٦]، فالآية معناها معلوم، وهو أن زينة الحياة الدنيا لا بقاء لها، فالباقيات الصالحات خير، أي أن يكون سعي الإنسان لثواب الآخرة. فهذه الآية يذهب عندها السامعون مذهبين: مذهب لفهم المعنى المقصود والتفكير فيه. والآخر للتحسر على الدنيا ولذاتها، ويقول الإنسان: أين المال. أين الولد. أين زينة الدنيا؟ يقول ذلك وهو يعلم المعنى المقصود، لماذا؟ لأن بصيرته لم تستعد للمعنى بل هو مشغول بالعاجلة.

فهذان القسمان من الناس : أولهما خطف الخطفة فاهتدى ، وثانيهما : خطفها فتبعته الهواجس فقتلت الفكرة في مهدها ، وكأنما ذلك شهاب تارة يهدي بضوئه وتارة يهلك بناره . هدى الأول بضيائه وأهلك الثاني وأمات وجدانه بناره .

فجلّ العلم وجلّت الحكمة وجلّ الله الذي جعل هذه المعاني في تلك المباني ، وصرف عقول العارفين عن نقائص المعاني إلى النظر إلى العالم العلوي والحكمة القدسية .

إن خواطر الناس الشريفة كلها خطفات من الملأ الأعلى . إن المعارف والعلوم والمعاني الشريفة تشرق على النفوس لتصلها بعوالم مشرقة فيها هذه المعاني . وما عقولنا إلا كالعين . وما تلك العوالم إلا كالكواكب المضيئة .

وما المعرفة إلا انكشاف المعاني بتلك الأنوار الباطنية ، فنسبة تلك العوالم إلى عقولنا كنسبة الشمس إلى أبصارنا ، ونسبة انكشاف المعاني إلى بصائرنا كنسبة انكشاف المرئيات إلى أبصارنا . فلولا الضياء ما رأى الناس الأجسام ، هكذا عالم الملائكة . ذلك كله تقرير الحكماء السابقين والعلماء المحققين .

لطيفة

اعلم أن مسألة الشهب كانت عند القدماء من المشكلات الدينية . ألا ترى أن السماء كانت في رأي قدماء الفلاسفة لا تقبل الخرق ولا الالتئام ، فكيف تكسر الكواكب وينزل شهب منها في الأرض؟ فكان علماء التفسير رحمهم الله يؤوّلون تارة ويكذبون علوم الفلاسفة أخرى . أما الآن فما أجمل العلم !فإن العلم الحديث يعتبر الشهب من نفس الكواكب السماوية ، وهي قطع صغيرة تقدم إيضاحها في هذا التفسير في النصف الأول من القرآن ، فاقرأه في سورة « الحجر » وما قبلها فلا إشكال ، وذلك معجزة القرآن ، خالف الفلسفة البائدة ووافق الحاضرة .

أسرار القرآن في علم الأرواح وعلم التصوّف

يقرأ القارئ هذه الآيات ولا يخطر بباله أن الكشف الحديث أبرزها . لقد سأل علماء النفس في أوروبا بعض الأرواح عن اتصالهم بالناس وحضورهم إذا طلبوهم ، فأجابوا قائلين ما نصه : إن الأرواح العالية لا تناجي إلا نفوساً صافية لا تريد إلا الخير للناس مع استعدادها للحكمة ، ومستحيل أن تناجي من شوّه قلوبهم الكبرياء وألهتهم الشهوات .

أما الأرواح الناقصة فإنها تسرّ جداً بمحادثة الجهلاء من الناس ، وتعطيهم أكاذيب وأساطير ، وتفرح بذلك كما يفرح جهلة المسلمين والمسيحيين بالكذب الذي اعتادوه في أول أبريل . وفوق ذلك قالوا : إن كل ما كان من حديث الأرواح لأمور العاجلة فهو من سقط المتاع لا تهواه إلا الأرواح الشريرة ، وما كان من قبيل العلم والحكمة والمنفعة العامة فهو شغل الأرواح العالية السماوية تلقيه إلى من هم مستعدّون . اهـ .

فتبين من ذلك أن الملأ الأعلى من الملائكة والأرواح لا يأنسون إلا بما هو نفع عام ، ويأنفون من الأمور الخاصة كالمال والبنين وزينة الحياة الدنيا .

علماء التصوّف

أما علماء التصوّف فإنهم قد يأمرون تلاميذهم بالجوع والسهر وترك الكلام والعجب وما أشبه ذلك مع الذكر وحسن السير. فبعض هؤلاء يكشف لهم، وهذا الكشف قد فصلوه تفصيلاً فقالوا: إن كان للأمور العاجلة كموت زيد وحياة عمرو وغناه وفقره فذلك من الكشف الظلماني. فأما إن كان كشفاً للأمور العلمية والحكمة والمعارف فهو كشف نوراني.

أليس ما يقوله الفريقان قديماً وحديثاً هو عين هذه الآية. أليس هو سرّها؟ فالصوفي ومحضر الأرواح إن قصدا بالكشف الدنيا والمال والعظمة تركتهم الأرواح العالية وأحاطت بهم الشريرة، ويكون العلمان وبالاً على من تعلمهما، وإذن الجهال أفضل، وهم ممن قال الله فيهم: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾[الجاثية: ٢٣]، فهؤلاء كتجار الخمر وباعة الخنازير وشاربي الخمور والحشيش، بل هؤلاء أشدّ، وهم الذين لا يسمعون إلى الملأ الأعلى بل إلى الملأ الأسفل ويقذفون من كل جانب دحوراً، لأنهم مطرودون عن التلقي عن الأرواح العالية التي لا تناجي إلا من هم مستحقون. يقول مؤلف الكتاب: فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. لقد ظهرت معاني القرآن اليوم، أي: بعضها، وظهر سرّ قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، وسرّ قوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣].

ولكم سألني سائلون عن هؤلاء المتصوفة الذين ظهروا ببلاد الإسلام كقوم ببلاد مراكش، لا يصلّون ولا يصومون وينتسبون لوليّ عظيم، وإذا جلسوا معاً وتواجدوا طار أحدهم إلى قبة المكان الذي هم فيه جالسون، وإذا جيء لهم بشاة أو عنز خرقوا بطنها وشووها وأكلوها. فهذه فتنت كثيراً، وظن الناس أن هؤلاء عندهم سر عظيم، وما هي إلا توجه نفوسهم إلى أمور جزئية فنالوها، ولكنها أمور منحطة قذرة دنيئة لا ترقي النفوس البشرية، بل هي أمور ظلمانية. فإذا عجز المصلي والمزكي والعالم المسلم عن هذا فليس معناه ضعف حاله، وأن هؤلاء يعلون عليه، بل هم قوم حصرت نفوسهم في أمر جزئي صغير، فلا هم في العير ولا في النفير، بل تجب محاربتهم وقتلهم. إن هؤلاء لا يسمعون إلى الملأ الأعلى. وإذا رأيت أمثال هؤلاء يخبرونك بشيء في نفسك فلا تظنن الأمر عظيماً. فهذا الكشف حقير، لأنهم لا يسمعون إلى الملأ الأعلى، لضعف نفوسهم، وإنما يسمعون إلى الملأ الأدنى، ويقذفون من كل جانب دحوراً، ولهم عذاب دائم يوم القيامة، لأنهم أضاعوا أنفسهم في أمور جزئية، وغفلوا عن هذه الدنيا وجمالها وعلومها، ولم تصلح نفوسهم لعالم الملائكة فينشروا العلم والحكمة بين الناس.

ذكر نظير هذا في المعروف بين الناس

إن هذه الأحوال هي التي نشاهدها في العالم الإنساني، انظر ألست ترى أن أكابر العلماء والحكماء لا يستطيعون أن يذكروا شيئاً من حكمتهم وفلسفتهم أمام الجهلاء، ولو ذكروها لم ينلهم منهم إلا السخرية والاستهزاء، ألست ترى أن العلماء قالوا: إن الحكماء خلقوا ليعلموا العلماء، والوعاظ ليعلموا العامة.

فهل يخاطب الحكماء الجهلاء؟ كلا. ثم كلا. هكذا هذه الآية، يقول الله: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[الصافات: ٨] لأن الملأ الأعلى لا يخاطبهم لعدم التلاؤم. فسبحان من أظهر هذه المعاني حتى صارت من المألوفات، وأشرقت الأرض بنور ربها في سرّ الكتاب، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ فاستخبر بني آدم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ من الملائكة والسماء والأرض وما بينهما والكواكب والشهب الثواقب، فكيف ينكرون البعث؟وأين هم بالنسبة لهذه العوالم التي خلقناها؟﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي: لاصق، فأين هم من كواكب السماء وعالم الملائكة وتلك العوالم النورية المشرقة فإذا قدرنا أن نخلق تلك العوالم العظيمة؛ فهل يعجزنا أن نعيد ما هو مخلوق من طين لا يصلح للحياة إلا بإشراق الأنوار عليه، ووصول الآثار إليه من العوالم الأخرى، ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ يا محمد من تكذيبهم إياك ومن إنكارهم البعث، وهم ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ من أمر البعث ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ معجزة كانشقاق القمر ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يستدعي بعضهم بعضاً أن يسخر منها أو يبالغون في السخرية، فهؤلاء كالذي خطف الخطفة فأتبعه شهاب قتله وأمات فكرته وأضاع رشده وأضل عقله، فأمثال هذا أحياء وما هم بأحياء، كما قال تعالى: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾[النحل: ٢١]، وقال الشاعر:

ففز بعلم تعش حيًّا به أبداً   الناس موتى وأهل العلم أحياء

فهؤلاء يسخرون ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ سحر ظاهر ساحريته ﴿ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ استفهام إنكاري ﴿ وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أي: أنبعث إذا كنا تراباً وعظاماً، ﴿ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ أي: أيبعث أيضاً آباؤنا مستبعدين ذلك زيادة استبعاد، لأن آباءهم أقدم منهم فيكون بعثهم أشد غرابة، ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ صاغرون، وإذا كان كذلك ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ صيحة واحدة وهي نفخة البعث ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أي: فإذا هم أحياء بصراء ينظرون إلى سوء أعمالهم أو ينتظرون ما يحلّ بهم ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ إذا قاموا من القبور ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ يوم الحساب فتقول الملائكة: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم الفصل بينكم وبين المؤمنين ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾ في الدنيا ﴿تُكَذِّبُونَ ﴾ فتقولون: إنه لا يكون، ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أي: اجمعوا كل ظالم بشرك أو غيره ﴿ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ وأشباههم وأمثالهم بحيث يكونون في مباءة واحدة، كما يرى في هذا العالم المادي.

إن المواد الأرضية مجذوبة إلى الأرض والهوائية إلى الهواء والمائية إلى الماء، وأصحاب الحرف المتفقة يتفقون ويتفاهمون، وأصحاب الأخلاق الوضيعة يتحاورون، وذوو النفوس الشريفة يأتلفون، فهذا العالم المادي الروحي على نسق واحد، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، فالمحبة في الدنيا لاتفاق الأشكال، وفي الأخرى لاتفاق العلوم والأخلاق، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣]. وهل تألف الغربان إلا سربها، أو الحمام إلا إلفها، أو الزنابير إلا أخواتها، أو النمل إلا طائفتها. فيا عجباً! تشاكلت الدنيا والآخرة، وما يذكره القرآن عن الآخرة نشاهده في الدنيا. فالمسألة في الدارين باتفاق الصفات واختلافها، لهذا نزلت الديانات وقرئت العلوم ونظمت الدروس

وألفت الكتب وبنيت الكليات وأقيمت الجامعات. كل ذلك لتربية العقول وصقلها بصقال واحد. إن ذلك هو النظام العجيب.

يقول الله: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام، زيادة في تحيرهم ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ فعرّفوهم طريقها ليسلكوها، لأنهم على مشرب واحد. وفي الحديث: «أنت مع من أحببت»، وذلك كله بطريق الجاذبية والاستعداد، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦]، ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم في الموقف ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ عن العقائد والأعمال ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ لا ينصر بعضكم بعضاً ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون لعجزهم ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: الرؤساء والأتباع أو الكفرة والقرناء ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً للتوبيخ أو يتخاصمون ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي: من قبل القهر والقوة، لأن اليمين موصوفة بالقوة، أي إنكم تحملوننا على الضلال وتقهروننا عليه، أو من قبل الدين فتضلوننا وتقولون لنا: إن الدين ما تضلوننا به، ﴿قَالُوا﴾ أي: الرؤساء للأتباع ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه وأنتم مختارون، وهل لنا سلطان على ضمائركم، وهذا قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ تسلط نسلبكم به اختياركم ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ مختارين الطغيان ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ فلزمنا جميعاً وعيد الله بالسخط والعذاب ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ العذاب في النار ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أي: فدعوناكم إلى الغي لتكونوا أمثالنا، لأن الطيور على أشكالها تقع، والناس مولعون بتكثير سوادهم ومن هم على شاكلتهم، ليأنسوا بهم كما تفعل الأمم كلها يعلمون الأمم لغاتهم وعلومهم وتاريخهم ليكونوا على شاكلتهم وينتفعوا بهم ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ فإن الأتباع والمتبوعين ﴿يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الفعل ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ بالمشركين، وبيّن سببه فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن كلمة التوحيد وعن الداعين إليها ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم، فردّ الله عليهم قائلاً: كلا ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: ما جاء به قام عليه البرهان وتطابق عليه المرسلون، ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ بالإشراك وتكذيب الرسول ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا مثل ما عملتم ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ هذا استثناء منقطع.

وصف أهل الجنة

مآكلهم، ومجالسهم، وشرابهم، ونساؤهم

مآكلهم: هي الفواكه للتلذذ مع الإكرام وعدم النصب في التحصيل وهم في الحدائق، وهو قوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

مجالسهم: يجلسون على سرر وهم متقابلون، وقد جاء في آية أخرى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾[الحجر: ٤٧]، وذلك قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

شرابهم: يشربون الخمر من نهر ظاهر للعيون أو خارج منها، وهي بيضاء لذيذة لشاربها ليس فيها غائلة تفسد عقولهم كما في خمر الدنيا وتصدعهم، وتحدث فيهم البول والقيء والعربدة وأمثالها يقال: غاله، إذا أفسده، ولا يسكرون منها، وهذا قوله: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ ﴾ بإناء فيه خمر ﴿ مِّن مَّعِينٍ ﴾ من شراب معين أو نهر معين ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ صفتان للكأس ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ يقال: نزف الشارب فهو نزيف ومنزوف.

نساؤهم: قصرن أبصارهن على أزواجهن فلا يحببن غيرهم، نجل العيون أي واسعاتهن جمع عيناء يشبهن بيض النعام المصون من الغبار ونحوه في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة فإنه أحسن ألوان الأبدان، وهذا قوله: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾.

وصف حديث أهل الجنة

بعد أن ذكر الله مآكلهم ومشاربهم وقلوبهم المؤتلفة ونساءهم أخذ يذكر أحاديثهم في شؤون مضت وانقضت في الدنيا قبل البعث، كما قال الشاعر:

وما بقيت من اللذات إلا ... محادثة الرجال ذوي العقول

وهذه لذة عقلية أشرف من اللذات الحسية السابقة، فهؤلاء يطاف عليهم بكأس من معين وهم يتحادثون، كما يحصل بعد الانتصار في الحروب العظيمة، فيقول أحدهم: لقد كان لي جليس في الدنيا يوبخني على التصديق بالبعث. ويقول: أنحن ندان ـ أي نجزى ـ إذا أصبحنا تراباً وعظاماً؟ كلا. ثم كلا. انظروا، انظروا أيها الإخوان، هاهو ذا فلان الذي كان شأنه ذلك، ﴿ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين ﴿ فَٱطَّلَعَ ﴾ عليهم ﴿ فَرَءَاهُ ﴾ أي: قرينه ﴿ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي: وسطه فلما رآه ﴿ قَالَ ﴾ له ﴿ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ لتهلكني بإضلالك ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى ﴾ بالهداية والعصمة ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ معك في جهنم، يا هذا أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين إلا موتتنا الأولى، بخلاف الكفار فهم يموتون الموتة الأولى مثلنا ثم هم في جهنم يتمنون الموت كل ساعة. قيل لحكيم: ما شر من الموت. قال: الذي يتمنى فيه الموت. وهذا القول يقوله المؤمن تحدثاً بنعمة الله عليه بمسمع من قرينه، ليكون توبيخاً له فيزيد تعذيبه. ثم قال لقرينه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ الأمر الذي نحن فيه ﴿ لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾، قال الله: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾.

وصف جهنم

قال تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا ﴾ تميز ﴿ أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ أي: أنعيم الجنة وما فيها خير نزلاً أم شجرة الزقوم؟ والنزل ما يقام للنازل بالمكان من الرزق، والزقوم شجر مرّ بتهامة ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴾ محنة وعذاباً في الآخرة، أو ابتلاء في الدنيا، إذ قالوا: كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجرة، ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فمنبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي رؤوس الحيات القبيحة المنظر التي يسميها العرب شياطين أو نفس الشياطين التي لم يرها الناس ولكن وقع في وهمهم شناعتها وقبح منظرها، كما في بيت امرئ القيس: * ومسنونة زرق كأنياب أغوال *.

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ من الشجرة أو من طلعها ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ لغلبة الجوع ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا ﴾ أي : لخلطاً ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ ماء حار يشوي وجوههم ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ فملخص ذلك أنهم يؤتى بهم من دركات الجحيم إلى شجرة الزقوم فيأكلون ثم يسقون، ثم يرجع بهم إلى محالهم من الجحيم. ثم بيّن السبب الذي أوقعهم في الكفر المسبب لذلك فقال : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ الإهراع : الإسراع الشديد، كأنهم يحثون حثاً ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي : ضلّ قبل قريش الأمم الخالية بالتقليد وترك النظر ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أنبياء حذّروهم العواقب ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ الذين أنذروا وحذروا أنهم هلكوا جميعاً ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين أخلصوا دينهم لله فإنهم لم يهلكوا. انتهى التفسير اللفظي للفصل الثاني.

لطيفة في التقليد والنظر

نبين في هذا الفصل ما تكون عاقبة التقليد، فجاء أولاً في قول القائل في الجنة لقرينه في النار : إنه نجا من إغوائه، ولو أنه اتبعه لوقع في الجحيم، وثانياً في قوله : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات : ٦٩-٧٠] . ثم زاد على ذلك أن كثرة الأمم الخالية ما هلكوا إلا بالتقليد، فظهر من هذا المثال أن التقليد أوله وآخره شؤم على المقلد وعلى من يتبعه، إن العالم الإنساني لا سعادة له إلا بالنظر والفكر والبحث في حقائق الأشياء دنيوية وأخروية، فلينظر العقلاء في التعاليم الإسلامية الحالية، وليفكروا في نظام الدين الإسلامي، وليعلموا أن اتباع الأمم الإسلامية المتأخرة في تعاليمها قد أضاع الأمم الكثيرة في الشرق، فلينظم تعليم الإسلام بجميع العلوم والصناعات باعتبار أنها فرض، وإلا فليعلموا أنهم لاحقون بالأمم التي أبادها الجهل وأضاعها الجاهلون.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ الخ

لقد تقدم الكلام على الكواكب والكشف الحديث فيها في أول سورة « البقرة » وفي سورة « الأنعام » وسورة « يونس » وغيرها، ولا بد هنا من ذكر أبدع ما جاء في الكشف حديثاً لتبتهج أيها الذكي بالعلم والحكمة، فهاك ما جاء في « مجلة السياسة » الأسبوعية وهذا نصه :

اكتشاف علمي جديد

المجرّة ومركز الكائنات

نظرية الدكتور شابلي في سعة هذا الكون

نحن نطلق لفظة الكون على ما نشاهده وما لا نشاهده من الأجرام العلوية التي تسبح في الفضاء، وقد كانت النظريات العلمية تؤكد حتى الآن أن الكائنات ـ على سعتها وكثرة أجرامها ـ محدودة، وأن وراءها ظلمات فوق ظلمات، وفراغاً لا أول له ولا آخر. على أن الدكتور شابلي مدير مرصد جامعة هوفارد الأمريكية ومن أشهر علماء الفلك في الوقت الحاضر قد جاءنا اليوم بنظرية جديدة، وهي أنه ليس في الكون فراغ بالمعنى العلمي، وأن الأجرام الفلكية تملأ هذا الوجود إلى ما لا

نهاية له ، وقد نشرت إحدى المجلات العلمية الأمريكية مقالة في هذا الموضوع رأينا أن نلخصها فيما يلي :

يؤخذ من أحدث المباحث العلمية أن الفراغ الذي تسبح فيه الأفلاك شفاف ، وأنه ليس منه جزء فارغ كما كان يظن حتى عهد قريب ، بل هو يعج بالأجرام الفلكية في كل ناحية من أنحائه ، وليس فيه مجرة واحدة ، بل عدة مجرات ، وأن بعضها كبيرة جداً حتى إن المسافة بين طرفيها تزيد على ألوف الملايين من السنين النورية ، ويرجع فضل هذا الاكتشاف إلى الدكتور شابلي ، فقد أثبت بعد البحث العلمي الدقيق هذه الحقيقة العلمية الجديدة ، وهي أن نظامنا الشمسي ونظام المجرة هما في الواقع نظام واحد يدور بسرعة مائتي ميل في الثانية أو بسرعة تزيد على ستة آلاف وثلاثمائة وسبعة ملايين ومائتي ألف ميل في السنة ، وأنه يكمل كل دورة من دوراته في ثلاثمائة مليون سنة . وبعبارة أخرى : إن اليوم من أيام هذا النظام يعادل ثلاثمائة ألف ألف سنة ، لأن اليوم بالاعتبار الفلكي هو دورة الجرم على محوره ، دورة النظام الذي نحن بصدده على محوره تستغرق ثلاثمائة مليون سنة ، وتبلغ المسافة التي يجتازها هذا النظام في كل دورة من دوراته ثمانمائة واثنين وتسعين ألفاً ومائة وستين ألف ألف ألف ألف ميل . ويعتقد الدكتور شابلي أنه لن ينقضي زمان طويل حتى يتوصل العلماء إلى اكتشاف سر الحياة في أحد تلك الأجرام ، فإن معظمها قديم جداً ، وليست كرتنا الأرضية بالنسبة إليه سوى طفل حديث الولادة ، وقد كان الأقدمون يعتقدون أن الكرة الأرضية هي مركز جميع الكائنات ، وأن الشمس وجميع الأفلاك تدور حولها ، ثم تقدم العلم فثبت أن الأرض لم تكن مركز الكائنات ، وقام الاعتقاد بين جمهور العلماء أن الشمس هي ذلك المركز ، وظلت النظريات تتغير وتتقلب إلى أن جاءنا الدكتور شابلي بنظريته الجديدة ، وهي أن مركز الكائنات هي نقطة اتصال الأبراج المعروفة بالعقرب والحية والرامي ، وتبعد هذه النقطة عن الكرة الأرضية نحو خمسين ألف سنة نورية ، أي : نحو ثلاثمائة ألف ألف ألف مليون ميل ، فالنور الذي نراه الآن منبعثاً من ذلك المركز هو النور الذي انبثق منه منذ أكثر من خمسين ألف سنة ، أي قبل أن يظهر الإنسان على هذه الكرة .

ومما يجدر بالذكر أن الأستاذ « ادنجتون » الذي يعتبر أعظم علماء الفلك في الوقت الحاضر ـ وهو أستاذ الفلك في جامعة كمبردج بإنكلترا ـ أعلن منذ عشر سنوات أن الشمس هي مركز المجرة ، وأن طرف المجرة يبعد عن الكرة الأرضية عشرة آلاف سنة نورية ، وأنه ليس وراء ذلك الطرف سوى فضاء لا حدود له ، أما الآن فقد أثبت « الدكتور شابلي » أن الكائنات أوسع من ذلك بكثير ، إذا نظرت إلى السماء في ليلة صافية الأديم أمكنك أن ترى بالعين المجردة نحو خمسة آلاف نجم من النجوم المختلفة الأحجام والدرجات ، وهذه النجوم مبعثرة في قبة الفلك بلا نظام ظاهر ، ويخترقها في الوسط طريق المجرة الذي هو أشبه بنهر متعرج ، على أن ما نراه بالعين المجردة ليس سوى جزء صغير من مجموع النجوم التي يتألف منها عالمنا ، أي نظامنا الشمسي والمجرة معاً ، فإن عدد نجومه عشرة آلاف مليون نجم ، وما شمسنا سوى نجم تافه يدور هو والأرض وجميع أجرام النظام الشمسي حول مركز الكائنات الذي سبقت الإشارة إليه .

ويقول الدكتور شابلي أيضاً: إن حول هذا المركز نحو مائة مليون نجم ــ والنجم هو الشمس بعينه ــ ومن هذه المجموعة تتألف نواة المجرة، ولكن بقية أجزاء المجرة لا تزال محوطة بحجب الكتمان، وإنما هنالك قرائن تدل على أن ثخانة نظام المجرة تبلغ نحو خمسة وخمسين ألف سنة نورية، وأن قطرها أكثر من ذلك بكثير.

ترى ما الذي وراء مركز الكائنات؟

يعتقد الدكتور «شابلي» أنه لن يمر وقت طويل حتى تتجلى لنا أسرار كثيرة، أما النظرية القائلة بوجود شمس عظيمة تستمد منها جميع الشموس نورها وهي مركز الكائنات فهي خرافة لا طائل تحتها، ونظرية النسبية ـ وهي أحدث النظريات العلمية وأصدقها في الوقت الحاضر ـ تؤكد لنا أن لكل جرم حدوداً لا يتعداها، فالنجم المسمى «منكب الجوزاء» هو عبارة عن شمس هائلة يمكن وضع خمسة وعشرين مليون شمس كشمسنا في بطنها، ومع ذلك لا يمكن ـ بحسب مذهب النسبية ـ تصوّر شمس أكبر من منكب الجوزاء، لأن قوة الجاذبية فيها تكون هائلة جداً تصطدم بقوة إشعاعها وتمزّقها شرّ ممزّق.

فمركز الكائنات يشرف على نظامنا الشمسي ونظام المجرة معاً، ويحفظ التوازن بين جميع أجرام النظام، وقوة جاذبيته تفوق قوة أي جرم آخر يفرضه العلم، وتدل المباحث العلمية الحديثة أيضاً على أن مركز المجرة محوط بألوف الملايين من النجوم المبعثرة في الفضاء، وللدلالة على سعة الفضاء الذي تشغله تلك النجوم نقول: إن محيطه لا يقل عن ثلاثمائة ألف سنة نورية، وثخانته لا تقل عن مائة وخمسين ألف سنة نورية، أما نظامنا الشمسي فواقع خارج محيط المجرة عند أحد طرفيها، ولا يخفى أن جميع أجرام الفلك تدور على محورها بلا انقطاع، وقد قلنا: إن اليوم يتكون من دورة الجرم على محوره، فاليوم باعتبار كرتنا الأرضية يتكون من دورة الكرة على محورها، وهو بحسابنا أربع وعشرون ساعة، أما الكائنات التي يتألف منها نظامنا الشمسي ونظام المجرة معاً فهو يعادل ثلاثمائة مليون سنة، لأن هذه الكائنات تدور مرة حول محورها كل ثلاثمائة مليون سنة، وعليه فإن ستة أيام أو سبعة من نوع الأيام التي نحن بصددها تكفي لنشوء كائنات بأسرها، أما الذي حمل «الدكتور شابلي» على القول بأن نطاق الأفلاك أوسع كثيراً مما يتوهم العلماء؛ وأن عدد الأجرام التي تتألف منها الكائنات غير محدود؛ فهو النجوم المعروفة بالمتغيرة، فقد اكتشف منها عدة آلاف، وهو يعتقد أن الكون مملوء بها، وقد درس حالة هذه النجوم درساً مدققاً فابتكر طريقة علمية لقياس درجة نورها ولمعانها، والمجال لا يتسع لشرح تلك الطريقة، وإنما نقول: إن الدكتور شابلي توصل بواسطتها إلى معرفة أبعاد تلك النجوم، وقد أثبت أنها تقع خارج الحدود التي كانت مفروضة للكائنات، أي في الفضاء الذي كان يقال حتى عهد قريب: إنه فراغ ليس فيه شيء من الأجرام الفلكية، وقد وجد أن قوى إشعاع بعض تلك النجوم تفوق قوة إشعاع الشمس أكثر من ثلاثين ألف ضعف، فتأمل.

وبناء على هذا الاكتشاف أصبحت حدود الكائنات أوسع بكثير مما كان العلماء يتصورونها حتى أوائل هذا القرن، ويظهر الآن أن النجوم المتغيرة توجد بشكل مجموعة مبعثرة حول أطراف

المجرة، وأنها حدود الكائنات التي يتألف منها نظامنا الشمسي ونظام المجرة معاً، أما حقيقة شكل الكائنات المذكورة فهي أنها تشبه قرصاً ثخيناً مستطيلاً يتألف من نظامنا الشمسي ومن المجرة، وليس نظامنا الشمسي مركزاً لتلك الكائنات، بل هو يبعد عن ذلك المركز نحو خمسين ألف سنة نورية كما سبق القول فيه.

ووراء هذه الكائنات كلها؟

كان العلماء يزعمون حتى عهد قرب أن وراء الكائنات فراغاً لا حدود له، وأن هذا الفراغ يبتدئ بعد المجرة بقليل، وليس له آخر، إلا أن الدكتور شابلي قد أثبت اليوم أن مجرتنا ليس هي المجرة الوحيدة، بل إن هنالك مجرات أخرى ومجموعات نظم شمسية لا عداد لها، وهي تدور حول نواة مركزية، وقد أطلق عليها الدكتور شابلي اسم جزائر كونية، ويمكننا رؤية عدة مئات منها بواسطة التلسكوبات الحاضرة، ومتى أنشئ تلسكوب مرصد «مونت ويلسن الجديد» الذي سيبلغ قطر عدسته مائتي بوصة فالأرجح أننا ستتمكن من مشاهدة ألوف كثيرة من تلك الجزائر، وتظهر هذه الجزائر لأول وهلة بشكل مجموعات مظلمة من النجوم أو السدم المبعثرة في الفضاء، ومع أن هذه الجزائر ليست من مكتشفات «الدكتور شابلي» إذ قد كانت معروفة من قبل؛ إلا أن القول بأن كلًّا منها هي مجرة قائمة بذاتها هو قول جديد، وقد ثبت الآن أن بعضها يبعد عن نظامنا الشمسي نحو مائة مليون سنة نورية أو أكثر.

ومما يدلك على سعة هذا الكون أنه لو أصيبت مجرتنا ــ وفيها نحو عشرة آلاف مليون جرم فلكي ــ بمصيبة محقتها وأزالتها من الوجود؛ فإن الذين في أقرب الجزائر الكونية ــ إذا صح أن في تلك الجزائر مخلوقات ــ لا يشعرون بتلك المصيبة إلا بعد مئات الألوف من السنين، لأن أنوار المجرة تظل سائرة في الفضاء، ولا تصل إلى أقرب جزيرة إلا بعد انقضاء مئات الألوف من السنين. انتهى ما جاء في المجلة المذكورة.

هذه هي المقالة التي أحببت أن أثبتها هنا قبولاً لنعمة الله علينا بالعلم والحكمة، فانظر أيها الذكي إلى عظمة الله التي لا تتناهى وكواكبه التي لا حد لها.

اللهم إن هذه هي السعادة الحقيقية أن تزيد معارفنا بجمالك وبهائك، ونرى أنفسنا بيد رحيم لا نهاية لرحمته، عظيم لا نهاية لعظمته، إن القلب إذا أدرك هذه العظمة وعقل هذه الرحمة يكاد يذوب وجداً على بعده عن مسدي هذه النعم ويتمنى لو يراه، بل كثير من قراء هذا التفسير العاشقين للعلم ستكون حياتهم كلها سعادة بعمل نافع للأمم جمعاء، ويرون أن الموت نعمة من أجلّ النعم، بل سعادة لا حد لها، لأنهم يودون أن يروا مسدي هذه النعم صانع هذه العجائب، مبدع هذا الجمال، بعد أن يكونوا قد أتموا ما أعدّهم له في هذه الأرض.

يا سبحان الله، كأني أشاهد كثيراً من قراء هذا التفسير قد امتازوا بأنهم في الدنيا مشرقة أنوارهم العلمية وقد اشتاقوا لمسدي هذه النعم وحققوا معنى الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»، ولا سبيل لهذه المحبة بغير دراسة هذه الدنيا، وأنا أحمدك يا الله أن جعلت هذا التفسير جامعاً لأجمل ما

في العلوم وزهراتها، إن قراء هذا التفسير، فضلاءهم إذا سمعوا قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[الحج: ٤٧]، وسمعوا قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[المعارج: ٤]، لا تطيش سهامهم ولا يضل سعيهم ولا يظنون التنافي والتناقض، بل هم يعلمون علماً ليس بالظن أن الله يخاطب الناس كما يخاطب أحدنا طفلاً صغيراً، بل كما يخاطب الدواب، إن منزلتنا من الله أبعد من ذلك، وإنما ضربنا ذلك مثلاً، إذ ليس المقام مقام تحديد اليوم بألف سنة ولا مقام تحديده بخمسين، وإنما يراد مدة عظيمة عبر عنها بما نعقله، ولا جرم أن اليوم (٢٤) ساعة وهذا هو المعروف عندنا، وهذا مبني على دوران أرضنا، ولكن هناك كواكب أخرى أكبر من أرضنا، وهناك مجرات وسدم، وهذه مجرتنا التي فيها شمسنا يومها (٣٠٠) ألف ألف سنة كما رأيت، وقد يكون أكثر لمجرة غيرها، فإذن ألف سنة ليس قيداً، وخمسون ألف سنة كذلك، وثلاثمائة ألف ألف سنة كذلك، ولا يعلم أيام جميع الكواكب وجميع المجرات وجميع السدم إلا من لا نهاية لعلمه، إذن هنا فهمنا قول علمائنا رحمهم الله: إن العدد لا مفهوم له. قالوا: هذا عند الكلام على أن السماوات سبع وأن الأرضين سبع، أفلست ترى أن هذا زمان عجائب القرآن، يقول: إن يوماً عند الله يبلغ ألف سنة، ثم يقول: خمسين ألف سنة، لماذا؟ ليفتح للعقول أبواب الفكر، فيفكر العاقل ويقرأ العلوم، فيعلم أن ذكر العددين يفتح باب الدرس حتى يعرف أنه لا حد للسنين، ولا وقوف لها عند حد، والله واسع عليم ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[البقرة: ٢٦٩]. انتهى نصف الساعة الثانية من ليلة الأحد (٥) يناير سنة ١٩٣٠م، وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث

في قصص الأنبياء الذين أجملوا في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ الخ

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا
ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾
۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا
تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً
فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ
﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا
فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى

سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ
قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ
سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ
(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦)
وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ
إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤)
وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا
الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩)
سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ
(١٢٢) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ
أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧)
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠)
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣)
إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ
لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ
إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)
فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ
وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧)
فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾

التفسير اللفظي

قصة نوح عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ لما أيس من قومه المقلدين لآبائهم، فأجبناه ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ أي: فوالله لنعم المجيبون نحن ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ من الغرق ومن أذى قومه ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ إذ كان له ثلاثة أولاد: سام وهو أبو العرب وفارس والروم، وحام وهو أبو السودان من المشرق إلى المغرب، ويافث وهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج. هذا

هو المشهور على ألسنة المؤرخين، وليس في القرآن نص على هؤلاء ولا على غيرهم، ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ من الأمم ثناء حسناً وذكراً جميلاً فيمن بعده من الأنبياء إلى يوم القيامة، ثم قال الله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: سلامة وسعادة منا على نوح من بين العالمين في زمانه ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ هكذا ﴿ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ بالقول والفعل بالثناء الحسن والنجاة تبشيراً بالنجاة والذكر الحسن لكل من آمن وعمل صالحاً ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾ وهم كفار قومه.

قصة إبراهيم

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ ممن شايعه في الإيمان وأصول الشريعة ﴿ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ «إذ» ظرف متعلق بـ «شيعته» لما فيها من معنى المشايعة، وسلامة قلبه: خلوصه من الشرك ومن آفات القلوب، وهي المهلكات من الذنوب القلبية كالكبر والحسد، ﴿ إِذْ ﴾ بدل من «إذ» الأولى ﴿ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ آزر ﴿ وَقَوْمِهِۦ ﴾ عبدة الأوثان ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ من دون الله، قالوا: نعبد أصناماً. قال لهم إبراهيم: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً ﴾ أي: تريدون آلهة دون الله لأجل الإفك أي الكذب ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره وعلمتم أنه المنعم على الحقيقة فكان حقيقاً بالعبادة ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴾ أي: نظر في النجوم رامياً ببصره إلى السماء ليريهم أنه ينظر إليها لاعتقادهم علم النجوم، فأوهمهم أنه استدل بأمارة على أنه سقيم ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أي: مشارف للسقم وهو الطاعون، وكانوا يخافون العدوى كما هي الحال اليوم في جميع الأمم، فتفرقوا عنه بهذه الحيلة وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد، ففعل بالأصنام ما فعل، وهذا من معاريض الكذب، لأنهم فهموا أنه سقيم الآن وهو يريد سأسقم، بل إن كل من كان الموت لاحقه فهو به سقيم أو نفس السلامة داء كما في المثل: «كفى بالسلامة داء»، أو أني سقيم بكفركم ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ مولين الأدبار، ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ مال إليها ﴿ فَقَالَ ﴾ استهزاء ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ من الطعام الذي أمامكم، فلم يجبن، ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ لا تجيبون ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ فأقبل عليهم ﴿ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ أي: ضارباً بسبب الحلف السابق منه ليبرّ في يمينه، أو ضارباً بيمينه للدلالة على القوة، فرجعوا إلى أصنامهم فوجدوها مكسرة ﴿ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ يسرعون، فقالوا: نعبدها وأنت تكسرها؟ فأجابهم: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ بأيديكم ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وخلق ما تعملونه من الأصنام، أو وخلق أعمالكم فلم تعبدون غيره؟ ﴿ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ ﴾ لأجله ﴿ بُنْيَٰنًا ﴾ من الحجر طوله عشرون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً ﴿ فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴾ في النار الشديدة ﴿ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا ﴾ بإلقائه في النار ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ المقهورين عند الإلقاء فخرج من النار ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أي: إلى موضع أمرني بالذهاب إليه ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ سيرشدني إلى ما فيه صلاح ديني ويعصمني ويوفقني ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي: بعض الصالحين، أي: الولد ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ فالبشارة بثلاث: أنه ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم، وأنه حليم. ومن حلمه أنه رضي بالذبح كما سيأتي، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ ﴾ أي: بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه، وكأنه قيل مع من يسعى؟ فقيل: مع أبيه، فإذن «معه» بيان لا

يتعلق بـ « بلغ » ولا بـ « السعي » ، ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾ إذ قيل له في
المنام : اذبح ابنك ، ورؤيا الأنبياء وحي ، فلما أصبح روّى في ذلك من الصباح إلى الرواح ، أمن الله هذا
الحلم ، أم من الشيطان؟ فمن ثمة سمي يوم التروية ، فرأى مثل ذلك في الليلة التالية ، فعرف أنه من الله
فسمي يوم عرفة ، ثم رأى الليلة الثالثة مثل ذلك فهمّ بنحره فسمي يوم النحر ، ﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾
من الرأي على وجه المشاورة ، يريد أن يختبره ليعلم أيجزع أم يصبر ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾
أي : ما تؤمر به ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على الذبح ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا ﴾ انقادا لأمر الله
وخضعا ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ صرعه على جنبه ووضع السكين على حلقه ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ
١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ أي : حققت ما أمرناك به في المنام من تسليم الولد للذبح ، وجواب « لما »
محذوف ، أي : كان ما كان مما لا يحيط به الوصف من استبشارهما وحمدهما الله وشكرهما له على
نعمة دفع البلاء ، ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أي : إنا كما عفونا عن ذبح ولده كذلك نجزي
المحسنين في طاعتنا ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أي : الاختبار الظاهر ، إذ اختبرناه بذبح ولده
﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ﴾ كبير الجثة سمين ، يقال : إن جبريل أتى له بكبش أملح أقرن من الجنة ،
ويقال : إنه رعى فيها أربعين خريفاً ، وقيل : إنه وعل أهبط عليه من ثبير ، ولما هرب من عند الجمرة
رماه بسبع حصيات حتى أخذه فصارت سنة ، ويقول الحنفية : « من نذر ذبح ولده لزمه ذبح شاة » ،
﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ هو كما سبق ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ
١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي : بوجود
إسحاق ، أي : ولما أسلم أمره لله في ذبح إسماعيل بشره الله بإسحاق بعد ذلك ﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ ﴾
أي : أفضنا عليه بركات الدين والدنيا ﴿ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ ﴾ في عمله ﴿ وَظَالِمٞ
لِّنَفۡسِهِۦ ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ مُبِينٞ ﴾ ظاهر ظلمه .

لطيفة

في هذه القصة الشجاعة بالفتك بالعادات المزرية بالإنسانية والشجاعة في اقتحام الأهوال ، وقد قام بمثل ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيها الصبر والحلم والأناة ، وأن يستعد الإنسان لتسليم نفسه لله كل وقت لا يبالي بما يصيبه من فقد أو قتل أو نقص ، كل ذلك تعليم لنا وتهيئة للمعالي ولقد سبق في سورة « البقرة » أني ذكرت لك هنالك « لغز قابس اليوناني » قبل الميلاد بخمسمائة سنة إذ شرح كل الأحوال الإنسانية من علم ومال وولد وملك ، فلم يجعل للإنسانية سعادة إلا بالصبر على ما يصيب الإنسان ، فالصبر أول الأمور وآخرها ، وأخرج من السعادات العلماء والشعراء والأغنياء والملوك وأهل الجمال والوارثين ، فقد حكم على هؤلاء جميعاً بأنهم ليسوا سعداء ، وجعل كل ما يقرؤه الناس في الكتب من الأخلاق أدباً مزوّراً ، فأما الأدب الحقيقي فهو الأخلاق ، وأهمها الصبر على النوائب . وحكم بأن هؤلاء جميعاً قبل أن يبتلوا بالمصائب ليس أحد منهم سعيداً ، ولهذا وحده جاءت هذه القصص ، وكيف يرضى إبراهيم بذبح ولده . وكيف رضي إسماعيل بالذبح ؟ لذلك وردت هذه القصص في القرآن .

ومن عجب أن تتحد الفلسفة والدين على أمر واحد: أمر الصبر، وأنه السعادة القصوى. يقول قابس: لأن النفس ما دامت تفرح بالنعمة وتؤلمها النقمة فإنها رعناء جاهلة طفلة، لأن المال والولد كالليل والنهار يطلعان على الفاجر والصالح. والسعادة التي اصطلح عليها الناس لا بقاء لها، فهي رعناء تفرح بها النفوس الرعناء. فالسعادة إذن أن تكون النفس مطمئنة لكل ما يأتي عليها، وهذا قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[الحديد: ٢٣]، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾[القصص: ٧٦]. وهذا الخلق يحصل بأحد أمرين: إما بتوالي النوائب على امرئ حتى يصير قادراً على احتمالها. وإما أن يدرس هذا العالم درساً مدققاً فيدرك إذ ذاك أن العالم نظام واحد له مرب يربيه مطلع على كل جليل وصغير، وحينئذ يرى أن الله معه في السراء والضراء، فيرضى وقتاً ويغلبه الطبع وقتاً، ولكنه أقرب إلى الرضا من الجهال.

قصة موسى وهارون

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من النعم الدنيوية ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ من تغلب فرعون ومن الغرق ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ الضمير لهما مع القوم ﴿ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ على فرعون وقومه ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ البليغ في بيانه وهو التوراة ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الطريق الموصل إلى الحق ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قصة إلياس

هو إلياس بن ياسين من ولد هارون أخي موسى، وقيل: هو إدريس النبي عليه السلام ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عذاب الله ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي: أتعبدونه وهو اسم صنم كان لأهل بك بالشام، وهو البلد الذي يقال له الآن بعلبك، ويطلق البعل على الرب بلغة اليمن، ويصير المعنى: أتدعون بعض البعول ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ وتتركون عبادته ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بدل من «أحسن» ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي: في العذاب ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ بدل من «الواو»، ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ لغة في إلياس كسينا وسينين، ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ذكر لوط

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾ داخلين في الصباح ﴿ وَبِاللَّيْلِ ﴾ أي: مساء ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي: أفليس فيكم عقل تعتبرون به؟.

ذكر يونس

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ ﴾ هرب ﴿ إِلَى الْفُلْكِ ﴾ من قومه بغير إذن ربه ﴿ الْمَشْحُونِ ﴾ المملوء ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ فقارع أهل الفلك ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ المغلوبين

بالقرعة. روي أنه لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى به، فركب السفينة فوقفت، فقالوا: هاهنا عبد آبق، فاقترعوا فخرجت القرعة عليه، فقال: أنا الآبق، ورمى بنفسه في الماء ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ ﴾ فابتلعه وهو من اللقمة ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ آت بما يلام عليه ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح مدة عمره، أو في بطن الحوت إذ كان يقول: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٧]، وقيل: من المصلين ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ميتاً ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ ﴾ طرحناه ﴿ بِٱلْعَرَآءِ ﴾ بالأرض الخالية من الشجر والنبات ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ عليل، وكان لبثه في بطن الحوت ثلاثة أيام ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ هو القرع، وكل نبت يمتد على وجه الأرض كالقرع يقطين.

قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك لتحب القرع. قال: أجل هي شجرة أخي يونس. ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ هم قومه أهل نينوى. واعلم أن كلام المفسرين مضطرب هنا، فلأسمعك ملخص كلام التوراة:

إن الله أرسل «يونان» أي: يونس بن أمتاي قائلاً: قم اذهب إلى أهل نينوى المدينة العظيمة، فهرب يونان من وجه الرب، فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش فجاءت ريح شديدة وكان ما كان مما هو معروف من أمر القرعة، ولما خرجت القرعة بأن يرمى في البحر خافوا خوفاً شديداً ثم طرحوه فسكن البحر، وأما الرب فألهم حوتاً فابتلعه.

الإصحاح الثاني: فصلى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت إلى آخر ما هنالك فنبذه الحوت بعد ثلاثة أيام إلى البر.

الإصحاح الثالث: إن الله أمر يونس أن يذهب إلى أهل نينوى رسولاً ثانياً، فذهب إليهم وقال: بعد أربعين تنقلب نينوى، فآمن أهل نينوى وصاموا ولبسوا المسوح جميعهم من الملك إلى أدنى رجل، فعفا الله عنهم ولم يهلكهم.

وفي الإصحاح الرابع: إن يونان لما رأى ذلك اغتم غماً شديداً، وقال: يا رب أنا كنت بادرت إلى الهرب لأني أعلم أنك ستفعل ذلك وتعفو عنهم، ثم جلس شرقي المدينة وجعل لنفسه مظلة ليجلس تحتها، فأنبت الله له يقطينة فارتفعت على رأسه ليخلصه من غمه، ففرح يونان فرحاً عظيماً، ثم أرسل الله لها دودة وقت الفجر، فضربت اليقطينة فيبست، وعند طلوع الشمس جاءت ريح شرقية حارة فضربت رأس يونان فذبل، فطلب لنفسه الموت، فقال الله ليونان: هل اغتظت من الصواب من أجل اليقطينة؟ أتشفق على يقطينة لم تتعب فيها بنت ليلة نبتت وبنت ليلة هلكت؟ أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة وفيها خلق كثير لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة. انتهى ملخصاً من التوراة.

ثم قال تعالى: ﴿ فَـَٔامَنُواْ ﴾ أي: الذين أرسل إليهم يونس ﴿ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ إلى انقضاء آجالهم.

انتهى التفسير اللفظي للفصل الثالث.

لطيفة في قصة يونس وقصة إبراهيم عليهما السلام

إن يونس تعجل أمر الله، فأما إبراهيم وإسماعيل الذبيح فإنهما صبر، وإن إبراهيم قانت لله شاكر لأنعمه صابر، ففيه الصبر والشكر، فأما يونس فإنه ذاكر لله ولكنه استعجل، ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾[القلم: ٤٨]. فإذن القصد من هذه السير ترقية المسلمين، أي أن الصبر هو عمدة السعادة في الدنيا، فإبراهيم صابر شاكر، وأما يونس فإنه قد استعجل مع أنه يذكر الله، فذكر الله نفعه، ولكن الصبر درع، ذلك هو المقصود من هذه القصص، وقد قدمت لك أن الصبر عليه مدار السعادة في الدنيا لأن الأمور ليست تحت تصرف العباد، فالناس جميعاً معرّضون لما لا يرضونه كل آن، فإن لم يكن صبر فلا سعادة ولا شرف في الدنيا ولا الآخرة. انتهى الكلام على الفصل الثالث.

الفصل الرابع

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا
إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ
إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ
﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾
مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا
لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا
مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ
كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾
فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

التفسير اللفظي

هذا الفصل فيه ملخص الفصلين السابقين، فإن أول السورة ذكر الصافات وهم الملائكة، وهنا أخذ يستفتي أهل مكة في تسميتهم بنات الله، ثم ذكر أنهم هم الصافون المتقدمون في أول السورة، وفي وسط السورة ذكر المرسلين، وهنا ذكر أنهم منصورون. فإذن هذا الفصل ملخص الفصلين السابقين،

وهذا قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ ﴾ الإناث ﴿ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ عطف على ما تقدم في أول السورة: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ [الصافات: ١١]، والكلام هنا في أنهم نسبوا لله الولادة، والله منزه عن المادة فكيف يلد؟ وفي أنهم جعلوا الولد أضعف الزوجين الذكر والأنثى، وفي أن الملائكة الذين لا يوصفون بما يوصف به الحيوان إناث، وهذا قوله تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ حاضرون ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾ كذبهم ﴿ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ إذ لا دليل عليه ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فيما يتدينون به ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾ استفهام إنكار واستبعاد ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ بئسما تقضون لأنفسكم، ترضون لله ما لا ترضون لأنفسكم ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أنه منزه عن ذلك ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾ حجة واضحة أو كتاب بيّن فيه أن الملائكة بنات الله ﴿ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ ﴾ الذي نزل عليكم ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في قولكم ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ أي: الملائكة يسمون جناً لاجتنانهم ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي: ولقد علمت الملائكة أن الذين قالوا هذا القول لمحضرون في النار ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من الولد والنسب والصاحبة. وقوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع من «المحضرين»، ﴿ فَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ ومعبوديكم ﴿ مَآ أَنتُمْ ﴾ وهم جميعاً ﴿ عَلَيْهِ ﴾ على الله ﴿ بِفَٰتِنِينَ ﴾ بمضلين ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي: لستم تضلون أحداً إلا من استعدوا للفتنة بحسب فطرهم فيكفرون فيصلون جهنم كما هو مقدر أزلاً، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الإسراء: ٦٥] يقال: فتن على فلان امرأته، أي: أفسدها عليه. قال جبريل عليه السلام: ﴿ وَمَا مِنَّآ ﴾ أحد ﴿ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ في المعرفة والعبادة والانتهاء إلى أمر الله في تدبير العالم. وعن ابن عباس: «ما في السماوات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلي أو يسبح»، فهذا وحديث «أطت السماء وحق لها أن تئط»، يفيدان كثرة الملائكة، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ في أداء الطاعة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ المنزهون عما لا يليق به، ويصح أن يكون الكلام في النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فهم صافون في الصلاة، ومنزهون لله عن المحدثات، والكلام هنا كالكلام في أول السورة، ﴿ وَإِن كَانُواْ ﴾ أي: كفار مكة قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، «إن» مخففة من الثقيلة ﴿ لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: كتاباً من الكتب التي أنزلت عليهم ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ لأخلصنا العبادة له ولم نخالف مثلهم، فجاءهم الذكر الذي طلبوه وهو القرآن ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الكلمة قوله: ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ وسميت كلمة كما قال ابن مالك: *وكلمة بها كلام قد يؤم*. ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ إلى مدة يسيرة ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ أي: أبصر ما ينالهم يومئذ ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ذلك. أو أعلمهم فسوف يعلمون، ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قبل حينه ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ بفنائهم ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ صباحهم ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ إلى وقت هلاكهم يوم بدر ﴿ وَأَبْصِرْ ﴾ اعلم ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ فسوف يعلمون ماذا يفعل بهم بعد الموت ويوم القيامة، ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ

﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما قاله المشركون مما حكي في السورة ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ سلم الله على الرسل عموماً بعد سلامه في الفصل الثالث على المذكورين في السورة ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على هلاك الأعداء ونصر الأنبياء، وفيه تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يخلوا به. قال عليّ رضي الله عنه: «من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾».

واعلم أن المؤمن في كل تشهد يقول: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، ولا جرم أن الصالحين يشملون الأنبياء، فكأن المؤمن يحيي كل روح شريفة من الأرواح المفارقة للمادة، وعند قيام المرء من المجلس يسلم على المرسلين ويحمد الله مربي العالمين، وتربية العالمين تشمل الإرسال والهداية وتعذيب الكافر والعاصي وإثابة الطائع المؤمن. فالمؤمن يحمد الله على تربيته للعالمين، وما الخير والشر في التربية إلا أخوان. فالموت والحياة والضر والنفع سواء في التربية. وفي هذه بشرى لكل مصلح من أتباع الأنبياء، فإنهم يهنئون بالسلامة وبالإكرام من الله، ويمنحون نعماً عظيمة في الدنيا بالنصر، وفي الآخرة بالنظر لوجه الله الكريم والتقرب منه ومشاهدة جماله. اهـ.

لطائف هذه السورة:

(١) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[الآية: ٦].

(٢) في قوله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾[الآية: ٦] الخ.

(٣) في قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الآية: ٢٢] الخ.

(٤) في قوله تعالى: ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾[الآية: ٥١].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾

خواطر في يوم الاثنين كتبت ليلة الثلاثاء ٢٨ يناير سنة ١٩٣٠

معلوم أن الصافات صفاً هم الملائكة المذكورون قبل آخر السورة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾[الصافات: ١٦٥-١٦٦]، فهؤلاء الصافون هم القائمون بنظام العالم وتدبيره بأمر ربهم، وهم الملهمون الناس العلم، كما أن الشياطين يوسوسون بالشر. ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ [الصافات: ٢] إشارة إلى الأعمال النظامية ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾[الصافات: ٣] إشارة إلى العلوم، ولا وظيفة إلا العلم والعمل. وزينة السماء الدنيا بالكواكب مبدأ لعلوم الأمم ولتربية الحكماء والفلاسفة في الأرض. يخرج الإنسان طفلاً فمراهقاً ففتى، فينظر فيرى كواكب وشموساً، وهو في هذه على إحدى أربع حالات:

الحال الأولى: أن يرى الكواكب ببصره وهو لا يشعر بجمال ولا يعجب بها، إما لقصور في نظره، وإما لأعراض كمرض أو عواطف خاصة أو أمور شاغلة جسمية أو عقلية. فهؤلاء كلهم يرون النجوم والشمس والقمر كما يرون المدر والحجر، فلا تعجب ولا إحساس بالجمال.

الحال الثانية: أن يحس بالجمال. ولا جرم أن هذا أرقى من سابقه، لأن الأول شارك الدواب والنمل والنحل في أنها نظرت الأنوار، بل النبات له إحساس بالنور، إذن لا مزية للأول على غيره من الأحياء، ولكن الثاني لما رأى فيها جمالاً تبدّى بلألائها وبهجتها وصار يتأملها المرة بعد المرة عشقاً وغراماً وابتهاجاً بها، فهذا ارتقى من حال الحيوانية إلى مبادئ الإنسانية.

الحال الثالثة: تتوقف على السابقتين، إذ يقول في نفسه: هذا جمال وهذه بهجة وهذه العوانس الأوانس والخنس الجواري الكنس أراها عرائس تزف كل ليلة، ولها أنواع من السير والنظام، فلأبحث عن كيفية دورانها وسنيها وشهورها وبروجها ومنازلها ونظامها، وحينئذ يقول: إن النظام الذي أدركه عقلي بالحساب والعلوم الرياضية لا نسبة بين جماله وشرفه وبين جمال وشرف الألوان الظاهرة. فالثاني لفظ والأول معناه. والثاني عرض والأول جوهر. والثاني مبتدأ والأول خبره. والثاني قشر والأول لبه. والثاني زهر والأول ثمره. هالك تتجلى تلك المعاني البديعة في نفوس المطلعين، فترى البصيرة من بدائع الحركات وفنون النظم وجمال الإبداع، وحينئذ ينسون الجمال الظاهري وتسكر عقولهم بلذة الأفراح العلمية في باحات الأفلاك السماوية.

الحال الرابعة: تتوقف على الثلاثة قبلها، فتشاهد عقولهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ويقولون: جمال ظاهر ونظام بحساب لا خطأ فيه بين آلاف الآلاف من الكواكب بل المجرات والسدم ولكل كون سيارات وللسيارات أقمار، وكلها ذات حركات سريعة لا تصطدم ولا تخطئ. فهنالك تودّ النفس لو يتاح لها مشاهدة المبدع لهذه العجائب، وهنالك تكون السعادة التي لا حدّ لها. فمن أدرك ذلك في الدنيا وشعر بما أكتبه شعوراً مبنياً على علم حقيقي فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون من الآن، لأنه أدرك نظاماً جميلاً أحست به نفسه فسعدت سعادة حقيقية وابتهج بإدراك صانعه وأحس بأنه جواد حكيم. وكل ما اعتراه من نصب أو ألم يرى أن ذلك الصانع حكيم في فعله فيسكن قلبه وتطمئن نفسه.

فهؤلاء هم خير الذين زينت لهم السماء حقاً. فأما الفريق الثاني والثالث فهما أقل من هؤلاء. فأما الأولون فهم همج الهمج. ذلك أن هذا الفريق جعل من بين أيديهم سد ومن خلفهم سد، وذلك السد معنوي فلا يرون ما يراه غيرهم. فلهم أبصار ولكن لا يبصرون وأسماع ولكن لا يسمعون، إما لنقص الفطرة ونقص القريحة، أو للشهوات واللذات أو للآلام أو للعداوات وهكذا. فهؤلاء هم الذين قيل فيهم على سبيل الرمز: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾[الصافات: ٧]، وكيف يسمعون إلى الملأ الأعلى وهم لا يفرحون إلا بلذات بطونهم وشهوات فروجهم والاستعزاز بالمال والجاه والتفاخر. و الكواكب تطوف حولهم والشمس والقمر وأنواع الجمال، فهم غارقون في لهوهم، والدنيا حافلة بأنواع الجمال والكمال. ومن هؤلاء في الدنيا من يسمع حكمة فتبهره في لحظة فيحس

بأمر لم يعهده في نفسه، فتارة يثابر عليه ويستزيد علماً. وهذا العلم إما أن يكون علماً بالجزئيات وإما علماً بالكليات. فالعلم بالكليات أمثال ما ذكرته فيما تقدم من الإبداع في النظام والحكمة، والعلم بالجزئيات مثل أن يفكر في أهل أوروبا الآن وأهل الشرق وأرباب الديانات، فيرى أن بعض المسلمين اليوم قد غلبوا على أمرهم، وأن أهل أوروبا هم الغالبون السلاح والكراع، وأن الفاسق والكافر يسود ويغلب الصالح الناسك، وأن كثيراً من الصالحين فقراء وكثيراً من الفاسقين أغنياء. فهنالك يحصل الشك والكفر والضلال. فالخطفة على قسمين: خطفة تؤدي إلى الهدى في النظر إلى النظام العام العجيب. وخطفة تؤدي إلى الردى وتوقع الإنسان في هوة الهلاك بالنظرات الجزئية. وهذا هو الذي يحصل في هذه الأرض، وهو المرموز له بالخطفة التي يتبعها شهاب ثاقب. فهذا الشهاب الثاقب المذكور هنا والشهاب المبين المذكور في سورة «الحجر» إما للهلاك وإما للحكمة والعلم. ومن عجب أن الشهاب يهدي ويهلك كالماء به الحياة والممات وهكذا النور. ولا أحد ممن تعلموا من جهال نوع الإنسان يخلو من إحداهما. فأهل الأرض إما قوم صالحون آمنوا بأنبيائهم بلا بحث ولا تنقيب؛ فهؤلاء هم الصالحون ولهم مراتب تناسب عقولهم فيعيشون بالجنة الجسمية ويكونون من أصحاب اليمين. وإما قوم قالوا: كلا، نحن نريد أن نعرف بعقولنا، وهؤلاء قسمان: قسم بحث فلم يصل وكسل ومال إلى الترف والنعيم، وهؤلاء هم الدرجة الوسطى من الباحثين وهم أهل الضلال. وقسم وصل وعرف أمثال ما في هذا التفسير، فأولئك هم الذين أنعم الله عليهم بالعلم والحكمة وهم الفائزون وهم المقرّبون، ومن قبلهم هم أصحاب المشأمة.

ملخص ما تقدم أن للناس أربع درجات: ناظرون لا يعقلون، وناظرون يعقلون الأنوار المحسوسات، وناظرون يدركون سر الحركات والنظام، وناظرون يدركون ما وراء ذلك. والفريق الأول منهم من ينظر نظرة، فإما أن يلحق بأقسام الثلاثة بعده، وإما أن يهلك فيردى. هذا ملخص ما تقدم وهو من أسرار هذه الآية.

نظرات الناس في قراءة القرآن كنظراتهم في الأفلاك

وكما أن الناظرين في الفلك وجماله يكونون أربعة أقسام، هكذا قراء القرآن، فمنهم من يكتفي بلفظه، فيقرأ هذه الآيات ويكتفي بالتلاوة، فهذا كالفريق الأول.

وقسم يعجب بالبلاغة والإعراب وأنواع المجاز والاستعارات والتقديم والتأخير والذكر والحذف وهكذا من فنون علم المعاني والبيان البديع، فهذه الطبقة الثانية هي التي تقف عند الفرح بمحاسن الكلام كما وقف أولئك عند محاسن الأنوار من كواكب السماء وجهلوا ما وراءها، وهؤلاء هم أكثر علماء البلاغة والمدرسون في المدارس الشرقية والغربية المختصون بفن البلاغة.

وقسم ثالث يقول: كلا. لا بد من الدراسة والعلم بهذا الوجود.

وقسم رابع يخطو وراء ذلك خطوات.

وهذان القسمان يشبهان القسمين الثالث والرابع فيما تقدم. فهاهنا اجتمع الفريقان: فريق الناظرين، وفريق السامعين، وإن كانوا في مبدأ الأمر مفترقين.

نظرات فلاسفة العالم أربعة

ألا تعجب معي أيها الذكي: إنك مهما قلبت طرفك في آراء علماء اليونان والرومان والعرب والألمان والإنجليز والفرنسيين وجميع فلاسفة الشرق والغرب لا ترى غير هذه النظرات. سبحانك اللهم وبحمدك. إنك جعلت « طاليس المالطي » ومن بعده من « ديموقراطيس » قد وقفوا على المادة، وقالوا: إن الهواء أو الماء أو النار أو الأرض أو الأجزاء التي لا تتجزأ هي أصل هذا الوجود كله، فلا إله ولا ملك ولا نبي ولا رسول، فالعالم أوله وآخره لا أصل له إلا ذلك. وهذه الطائفة هنا تشبه الطائفة الأولى من الطوائف الأربعة المتقدمة بعض الشبه مع اختلافهم في تعيين المبدأ منها. فهم اتفقوا في الأصل واختلفوا في تعيينه. وجاءت طائفة ثانية فقالت: والله نحن متحيرون، هذه الأرض لا علم فيها ولا حقيقة، وكل امرئ له أن ينظر كما يشاء، وهؤلاء هم السوفسطائية. وقسم ثالث نظر فقال: كلا، هاهنا في الطبيعة حساب وهاهنا هندسة ونظام، إذن الحساب أصل، أو يقولون: هنا محبة ونفور ودفع وجذب. إذن أصل العالم محبة ونفور أو حساب مثل ما يقوله فيثاغورس وانبدقليس. وقسم رابع قال: لا حساب بلا حاسب، ولا محبة ولا نفور بدون فاعل لهما، وهؤلاء هم انكساغورس ثم سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس، فهؤلاء أقروا بالله، ولكن الأول ظنه لا عمل له إلا في الكليات، والآخرون يقولون بأنه يحيط علماً بجميع الجزئيات.

فهذه الطوائف الأربع لا يخرج عن حصرها أحد في العالم قديماً وحديثاً ومستقبلاً. فإذا سمعت أن طائفة من المتعلمين بمصر وبلاد الشرق القريب على مذهب بخنر الألماني المفسر لمذهب « داروين » والدكتور « شبل شميل » المترجم لهذا الكتاب إلى اللغة العربية؛ فاعلم أن هؤلاء في صف القسم الثاني والأول، فهم إما متحيرون، وإما واقفون عند المادة، وإذا سمعت قوماً منهم يقولون: إن الإله موجود ولكنه ترك المادة حبلها على غاربها؛ فهؤلاء أشبه بمذهب انكساغورس الذي تقدم وهكذا.

واعلم أن هذه درجات نوع الإنسان في كل عصر وجيل لا تخلو الأرض منهم، وذلك على مقتضى جبلاتهم ومنتهى ما وصلت إليه عقولهم، والسبب في ذلك ـ أسعدك الله ـ أن لكل امرئ حداً في المعرفة كما قيل:

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم لا يستوون إلا كما يستوي الشجر
هذا له ثمر حلوٌ مذاقته وذاك ليس له طعم ولا ثمر

نظرات الخليل عليه السلام

ومن عجب أن هذه المراتب الأربع هي التي أشار الله لها في القرآن في نظرات الخليل، فإن الكواكب والقمر والشمس لم تكفه في نظراته، فتخطاها وقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ﴾[الأنعام: ٧٩] الخ.

وإياك أن تقف عند اللفظ، فليس الخليل عليه السلام بالذي يقف عند هذه المناظر. كلا، بل هذا رمز للمعارف والعلوم، وأنها درجات بعضها فوق بعض، حتى تنتهي إلى الدرجة الرابعة المتقدمة واعلم أيدك الله أن نظرات الخليل ذكرت في القرآن ليتعلم المسلمون كيف يرتقون في أسباب العلوم،

وأن هذا لا بد منه لمن يريد الوصول لله، وليس المعنى أننا نكتفي بهذه الآيات أو بلاغتها أو معناها. كلا. ثم كلا، فالقرآن أنزل ليعلن العروج لله بالحكمة والفهم والتعقل.

أفلا ترى أن هذا من غرائب القرآن وعجائبه، ثم ألا تحب أن أريك أمراً عجيباً يناسب ما ذكرناه هنا وهو ما جاء في «إخوان الصفاء» الذي ألف منذ نحو ألف سنة، وقد يقرؤه بعض أهل العلم ولكن أكثرهم كانوا لا يفهمونه، وكيف يفهمون ما لم يدركوه؟ وكيف يدرك امرؤ لم يدرس علوم الحكمة من الرياضيات والطبيعيات حتى يعرف جمال الله في تشريح الإنسان والحيوان ونظام النبات، وكان أكثرهم يظنون أن هذه العلوم تنافي الدين فوقفت العقول وطمست البصائر، وربما كان بعضهم يرى تأويل آية في ذلك الكتاب فيعتد هذا التأويل كفراً فينفر من الكتاب، فإذا نقلت لك الآن جملة صالحة منه فإني أقول: نحن الآن لسنا مقلدين لأحد، فنحن نأخذ الحكمة أنى وجدناها ونذر ما لا دليل عليه. هذا ديننا في هذا الكتاب وغيره ولا يصدني عن العلم أن يقال: إن صاحبه قد أخطأ في بعض المسائل، فما فيه الخطأ أنا أجتنبه، لا أني أترك ألف حكمة لأجل خطأ موهوم أو محقق في حكمة واحدة. إن هذا جهل وغرور. ولو كانت هذه القاعدة صادقة لم يخلق الله العالم. إن الماء وإن النار وإن الهواء وإن الشمس كل من هذه فيها هلاك بإغراق ناسك وإحراق عجوز وإحداث أمراض بالهواء الفاسد وازدياد المرض لمن به حمى وإحداث ضربة شمس. فلو كان الضرر القليل يوجب ترك النفع العظيم لوجب أن يفنى هذا العالم كله ولكان خلقه عبثاً، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[الدخان: ٣٨]. إذن فلأقص عليك ما جاء في كتاب «إخوان الصفاء» في الجزء الثالث منه تحت العنوان التالي وهذا نصه:

فصل في جزاء المحسنين

اعلم يا أخي أن جزاء المحسنين يتفاضل في الآخرة بحسب درجاتهم في المعارف واجتهادهم في الأعمال الصالحة، والناس متفاوتو الدرجات في أعمالهم كل يعمل على شاكلته، وأجود أعمال العامة والجهال: كثرة الصوم والصدقة والصلاة والقراءة والتسبيح، وما شاكل ذلك من العبادات المفروضة والمسنونة في الشرائع المشغلة لهم عن فضول وبطالة وما لا ينبغي لهم كيلا يقعوا في الآفات، وأفضل أعمال الخواص: التفكر والاعتبار بتصاريف أمور المحسوسات والمعقولات، وبخاصة ما يتعلق بالدين، وقد قيل: أفضل أعمال الخير خصلة واحدة وهو التفكر، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾[سبأ: ٤٦].

ثم اعلم أن الإنسان إذا عقل الأمور المحسوسة وعرفها وتفكر في الأمور العقلية وبحث عنها وعن عللها استقبلته عند ذلك طريقتان: إحداهما ذات اليمين تؤديه إلى الهداية والرشاد، والأخرى ذات الشمال تؤديه إلى الغي والضلال، وذلك أن أمور العالم نوعان: كليات وجزئيات لا غير، فإذا أخذ الإنسان يفكر في كلياتها ويعتبر أحوالها وتصاريفها ويبحث عن الحكمة فيها بانت له وأمكنه أن يعرفها بحقائقها وأرشد إليها، فكلما تقدم فيه ازداد هداية ويقيناً ونوراً واستبصاراً وتحققاً، وازداد من الله قرباً وكرامة، وإذا أخذ يتفكر في جزئياتها والبحث عنها وعن عللها خفيت وانغلقت مناحيها،

وكلما ازداد تفكراً ازداد تحيراً وشكوكاً، ومن الله بعداً، وكان قلبه من أجل ذلك في عذاب أليم. مثال ذلك أنه إذا ابتدأ الإنسان أولاً وتفكر في نفسه ونظر إلى بنية هيكله ونفسه وكيفية تركيب جسده؛ وكيف كان أولاً في صلب أبيه ماء مهيناً؛ ثم كيف صار نطفة في قرار مكين؛ ثم كيف صار مضغة؛ ثم كيف كسا العظام لحماً؛ ثم كيف صار جنيناً بعد أطوار متعاقبة؛ ثم كيف قبل جسده نور شعاع فيض روح القدس الإلهي؛ ثم كيف أخرج من الرحم الذي هو عالم كونه إلى الدنيا الذي هو عالم آخرته؛ ثم كيف صار طفلاً حساساً؛ ثم كيف تربى وهو طفل صبي جاهل؛ ثم كيف نشأ وصار شاباً عالماً أو جاهلاً؛ ثم كيف صار رجلاً عالماً فيلسوفاً حكيماً مدبراً متملكاً على ما ملك؛ ثم كيف صار زاهداً عابداً؛ ثم إن طال عمره كيف يرجع كما كان بدياً ضعيفاً ذاهب القوة؛ ثم كيف ظهر بعد الشباب والقوة الضعف والشيبة؛ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾[الروم: ٥٤]؛ فإذا فكر الإنسان في هذه الحالات التي ينقل فيها من أدونها إلى أتمها ومن أفضلها إلى أكملها؛ فيعلم بالضرورة ويشهد له عقله أن له صانعاً حكيماً، وهو الذي اخترعه وأنشأه وأنماه، فإذا تحقق عنده ما وصفنا من هذه الحالات جعل نفسه عند ذلك مقياساً على سائر أبناء جنسه، فعلم يقيناً أنه قد فعل بهم مثل ما فعل به، وهكذا سائر الحيوانات، وكلما ازداد تفكراً في هذا الباب ازداد بربه يقيناً وبأوصافه معرفة، وعلم أن الله تعالى حي عالم قادر عليم حكيم محسن جواد كريم مشفق رحيم، ولو نظر في التشريح أو في كتاب منافع الأعضاء أو كتاب الحيوان أو كتاب النبات أو كتاب المعادن أو كتاب الآثار العلوية أو كتاب تركيب الأفلاك وما شاكلها من الكتب والعلوم والمعارف من وصف مصنوعاته وعجائب مخترعاته؛ فإنه كلما ازداد فيها نظراً ازداد بالله علماً، وبأوصافه اللائقة به معرفة واستبصاراً، وإليه قربة، وإلى لقاء الله اشتياقاً، فهذا هو الطريق ذات اليمين المؤدي سالكه إلى الله تعالى وإلى نعيم جنانه. وأما الطريق الآخر ذات الشمال المؤدي إلى الشكوك والحيرة والضلالة والعمى، وهو أن يبتدئ الإنسان قبل النظر في العلوم والآداب والرياضيات وقبل أن يحسن أخلاقه ويهذب نفسه بالكشف عن الأمور الجزئية الخفية المشكلة على الحذاق من العلماء والفلاسفة فضلاً عن غيرهم نحو معرفة ألم الأطفال، وطلب معرفة مصائب الأخيار، والبحث عن الأنباء وتيسير أمور الأشرار، ولمَ زيد الحازم فقير وعمرو العاجز غني، ولمَ جعفر الغبي أمير وعبد الله الحكيم حقير، ولمَ هذا الرجل ضعيف والآخر قوي صحيح، ولمَ هذه الدودة صغيرة وهذا الجمل كبير، ولمَ الفيل مع كبر جثته له أربع قوائم والبق مع صغر جثته له ستة أرجل وجناحان، ولماذا يصلح البق والذباب والقردان والبراغيث، وأي فائدة في خلق الخنازير والوزغ، وأي حكمة في خلق العقارب والحيات، وما شاكل ذلك من المسائل التي لا يحصي عددها إلا الله ولا يعلم سواه عللها، فأما الإنسان فإنه لا يعرف الحكمة في عللها إلا بعد النظر في العلوم الإلهية، وهو لا يعرف إلا بعد النظر والتفكر في الأمور الطبيعية، وهو لا يعرف إلا بعد النظر في الأمور المعقولة، وهو لا يعرف إلا بعد النظر والتفكر في الأمور المحسوسة. فمن لم يكن مرتاضاً بهذه العلوم والمعارف ولا متأدباً بها ولا صافي النفس ولا صالح الأخلاق، فيبتدئ أولاً بطلب الأمور المشكلة التي تقدم ذكرها فلا يدركها ولا

يعقلها، فيرجع عند ذلك خاسراً متفكراً متحيراً غافلاً بنفسه وسواساً في قلبه، فينظر عند ذلك إلى أمر العالم مهملاً والكائنات باتفاق لا بعناية حكيم ولا صنع صانع عليم، أو يظن أن رب العالمين غافل عن أمر عالمه حتى يجري فيه ما يليق بالحكمة، أو يظن أنه لا يعلم ما يجري فيه، أو أنه لا يفكر في هذه الأمور الجزئية ولا يهمه، أو يظن أنه قاس قليل الرحمة والنظر لضعفاء الخلق، أو أنه جائر في قضائه وأحكامه متعب لخلقه مفرط في تقديره غير عدل ولا حكيم في كثير من أفعاله لا يرحم الضعيف، وما شاكل هذه من الظنون والشكوك والحيرة والضلال الذي قد تاه في طلب معرفته عقول كثير من العقلاء المتقدمين المرتاضين بالعلوم الحكمية، فكيف غيرهم ممن ليست له رياضة ولا معرفة بحقائق الأسرار المعروفة. وقيل: إن حكيم الفرس بزرجمهر لما تفكر في هذه الأمور المشكلة ولم يعرف عللها قال عند ذلك احتجاجاً لنفسه إذ قد تبين له بأن الله حكيم عدل، فإن مصائب العباد إذن لعلل لا يعرفها إقراراً على نفسه بالعجز عن معرفة هذه الأمور المشكلة، ويقال: إن نبياً اجتاز مرة بعين من الماء في سفح جبل فتوضأ منها ثم ارتقى إلى الجبل ليصلي، فبينما هو كذلك إذ نظر إلى فارس قد أقبل على تلك العين فشرب منها وسقى فرسه، ثم ركب فمضى، ونسي عند العين صرة فيها دراهم، ثم جاء من بعده راعي الغنم ورأى الكيس فأخذه ومضى، ثم جاء بعده شيخ حطاب عليه أثر البؤس والمسكنة على ظهره حزمة من الحطب ثقيلة حملها، فحط هناك حزمته واستلقى يستريح مما به من شدة الضعف والتعب والربق والانبهار، ففكر النبي وقال في نفسه: لو أن ذلك الكيس مكانه لكان هذا الشيخ الضعيف أولى بأخذه من ذلك الراعي الشاب الغني القوي، فما كان إلا قليلاً حتى إن الفارس قد رجع إلى مكانه الذي شرب الماء منه، وطلب الكيس فلم يجده، فطالب الشيخ فأبى الشيخ، وقال: ما عندي خبر هذا، فضربه وعذبه حتى قتله، ومضى الفارس، فقال عند ذلك: يا رب ما وجه الحكمة في هذه القضية؟ وأين هذا من العدل؟ فأوحى الله تعالى إليه: إن أبا الشيخ قتل في الزمان الماضي أبا الفارس، وكان على أبي الفارس دين لأبي الراعي بمقدار ما في الكيس، فأخذت القود ورددت الدين وأنا حكيم عادل.
ولذلك يحكى أن نبياً من أنبياء الله تعالى اجتاز بنهر فيه صبيان يلعبون وبينهم صبي مكفوف وهم يغوصونه بالماء ويولعون به وهو يطلبهم ولا يظفر بهم، ففكر النبي في أمره ودعا ربه أن يرد بصره ويساوي بينه وبين الصبيان، فلما رد الله بصره فتح عينيه فقرب إلى واحد من أولئك الصبيان فتعلق به وغوصه في الماء ولم يفارقه حتى قتله، وطلب آخر كذلك، وهرب الباقون، فطلب النبي حين ذلك من ربه أن يكفيهم شره، فأوحى الله تعالى إليه وقال: إني قد فعلت ولكن لم ترض بحكمي وتعرضت في تدبيري لخلقي. فتبين للنبي أن كل ما يجري في العالم من أمثال هذه الأمور فلله تعالى فيه سر وتدبير وحكمة لا يعلمها إلا هو. وقد أخبر الله تعالى في القرآن من حديث نبيين وما جرى بينهما من الخطاب في هذا المعنى أحدهما موسى عليه السلام وهو صاحب شريعة وأمر ونهي وحدود ورسوم وأحكام، والآخر الخضر عليه السلام وهو صاحب سر وغيب وكتمان، وكيف تعرض له موسى عليه السلام فيما يفعله بواجب حكمة وكيف اعتذاره إليه لما لم يستطع معه صبراً. وإنما ذكرنا هذه الحكايات في هذا الفصل لأن أكثر الآراء والمذاهب تتشعب من هذه الأمور المشكلة التي فكر فيها العلماء وطلبوا عللها

فإذا لم تبلغ أفهامهم كيفية معرفتها تفرقت بهم الآراء والمذاهب عند ذلك إلا من عصمه الله وهدى قلبه، كما قال: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقالت الملائكة: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾[البقرة: ٣٢]، وقوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر: ٧]. اهـ.

هذا ما اخترته من ذلك الكتاب. وهاهو ذا أوضح لنا ثلاث مسائل:

الأولى: أن النظر في هذه العوالم يقربنا إلى الله ويجعلنا مشتاقين إلى لقائه، ولن يتم ذلك لأحد من أهل الأرض إلا إذا استوثق من عجائب الطبيعة البهجة البديعة العجيبة. وهذه الخصلة هي نهاية حكمة الحكماء في الأرض. فإذا اشتقنا إلى لقاء الله كان الموت لنا سعادة لا حزناً وألماً، إذ به نرى ذلك الذي أرانا شموساً جميلة وكواكب وجعل أضواءها سبباً في نظام النبات وتنوعه بحيث يسد الجوع ويكسو الجسم ويبهج النظر ويؤتي الدواء ويزيل الداء ويهيج حاسة الشم بالروائح وحاسة اللمس بالملموسات الناعمة. فهذا الصانع الحكيم الذي يبدع هذا الإبداع ويجعل شمسه العظيمة مواتية في نتائجها لحواسنا ورغباتنا؛ إليه يشتاق المفكرون، ولكن ليس كل من قرأ هذا المقال وفهمه تحس نفسه بهذا النعيم العلمي. كلا. ثم كلا. فهذا المقال نفسه يقرؤه ألف واحد ولكن الذي يقدّره حق قدره عدد قليل وهم الكاملون في العلم، وغيرهم يسمعون من وراء حجاب لضعف الاستعداد، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣].

المسألة الثانية: إن اشتغال النفس بالأمور الجزئية من قوت وحياة وفقر وغنى لا تعطي إلا الشكوك وظن السوء.

المسألة الثالثة: إن العلماء المفكرين يحصل عندهم يقين بأن الجزئيات لها أسرار تخفى عليهم؛ لأنهم لما نظروا في الكليات صار عندهم يقين بأن صانع العالم ليس يذر ذرة بلا حساب، وهو عدل في الجزئي، كما أنه ثبت أنه عدل في الكلي. أما العامة فلما عجزوا عن البرهان المذكور فهؤلاء يقال لهم أمثال حكاية الفارس المذكورة وحكاية الصبي الأعمى وحكاية الخضر وموسى عليهما السلام. انتهت اللطيفة الأولى. والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى أيضاً:

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

إلى قوله: ﴿ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾[الآية: ١٠]

كتب في صباح يوم السبت ٢٩ مارس سنة ١٩٣٠

قبل أن نخوض في هذا المبحث العجيب أقدم مقدمة فأقول: لقد تم في هذا التفسير ما رآه سقراط وتلميذه أفلاطون من أن هذه المادة وما تركب منها لا يستحقان ولا يصلحان أن يكونا مناط العلوم ولا مسميين باسم الوجود. المادة عندهم لا تصلح موضوع العلم، العلم ثابت دائم والمادة متحركة غير ثابتة. هي دائمة التغير والتعثر في أذيال الكون والفساد، فكيف يتكئ عليها العلم؟ وكيف تكون له مهداً؟.

هذه هي النظرية التي نسقها أفلاطون، وجاء من بعده أرسطاطاليس فأقرها من جهة وخالفها من جهة أخرى. فقال: نعم المادة لا تصلح مناطاً للعلم، ولكني لا أوافق أستاذي في أن العلم مناطه ومتعلقه هو عالم المثال. كلا. إذ لا برهان عليه، ولا أريد أن أطيل في هذا المقام لأنه معروف في سابق هذا التفسير وفي لاحقه إن شاء الله في سورة «القتال» عند آية: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[محمد: ١٩].

وإنما سقت الكلام في هذا الموضوع توطئة لتفسير الآية. ذلك أن القوم لما جعلوا المادة لا تصلح مناطاً للعلم؛ بل لا تصلح أن توصف باسم الوجود؛ إذ الوجود لا معنى له؛ إلا إذا كان دائماً، أما الوجود المؤقت فما أقل نفعه وما أضل سعيه، فوجوده عدم وعلمه جهل. هذا ما أردت أن أقدمه لتفسير الآية وعلى هذا الأساس أقول:

إذا كان العلم لا يبنى على ما لا دوام له وكذلك الوجود فليكن هكذا الفرح، فإذا فرح الناس بما لا بقاء له ففرحهم غرور وسرورهم غم ونعيمهم شقاء وغناهم فقر، ولقد اعتاد هذا الإنسان أن يفرح بالزينة المنصوبة في الأرض وفي السماء، والزينة على قسمين: زينة طبيعية، وزينة صناعية. فالزينة الطبيعية كالأزهار والأشجار والأنهار وجمال الحدائق الغناء وجداول الماء وبهاء الوجوه ومحاسن الوجود وجمال النجوم والشموس والأقمار وبهجة الأحجار الثمينة، كل ذلك جمال طبيعي لسكان هذه الأرض به يفرحون وبه في أوقات فراغهم ينشرحون.

أما الزينة الصناعية فهي ما يصنعه الناس من زينة في ثيابهم ومنازلهم ومساجدهم ومعابدهم وما يزينون به نساءهم من الدمالج والأقراط والخواتم والحلي والحلل، وما تزدان به ملوكهم من التيجان والقصور وما يقيمون من الزينة في الولائم والمسرات لمولود أو ختان أو عقد لزواج أو لزفاف أو لنصر على عدو أو لتتويج ملوكهم وأعيادهم أو حفلات دينية، كالأعياد والمواسم التي اعتاد الناس أن يرفعوا فيها الرايات وينصبوا الأعلام ويتحلوا بما يحلو لهم من الملابس، ويلبسوا كل ما غلا ثمنه وجمل منظره وندر الحصول عليه من الأحجار الكريمة كالزبرجد والياقوت والماس والزمرد وأمثالها.

هذه مجامع الزينة التي اعتاد الناس أن يظهروها في مواسمهم وفي أفراحهم الخاصة، وهي تتبع في نظامها ثروة الذين قاموا بإظهارها. فإذا كان القائم بتلك الزينة دولة من دول الأرض وكانت ذات بسطة ونفوذ وغنى مدت سرادقاتها وتلألأت أنوارها وازدهرت أفنان الأشجار ليلاً بما يعلق عليها من أفانين الأنوار من أصفر فاقع وأخضر ناضر وأحمر قان وأبيض يقق، فترى الزينة تبهر العقول تذكرة لحوادث وطنية وأحوال سياسية أو أعياد دينية.

هذه مجامع ما يزدان به الناس في الأرض وبه يهيمون وله يهرعون ويفرحون. هذه كلها زينة الأرض وكلها فانيات. أما زينة السماء فهي تلك النجوم الجميلة التي رصعها الله في الجو الذي فوقنا، فهي دائمة باقية في أفراحنا وأحزاننا وموتنا وحياتنا، فنحن في مصر في هذه الأيام قد كانت لنا أنواع من الزينات في شهر مارس سنة ١٩٣٠ فمنها ما هي لملك البلجيك، ومنها ما هي لنفس ملك مصر بحيث ازدانت جميع الدواوين بالأنوار المتلألئة وذلك في يوم أو بعض يوم، وهكذا تمر الأعياد الدينية تلو

الأعياد وينصب الناس الزينة لأجل وليمة العرس أو الختان أو غيرهما، ثم تنتهي تلك الزينات ويرجع الناس إلى أعمالهم، ولكن زينة السماء باقية، زينا منازلنا ومدننا أم لم نزينهما، فزينة السماء الدنيا باقية، فإذا أزيلت الزينة من الأرض فزينة السماء باقية ليلاً ونهاراً، وهي زينة بديعة شمسها الوهاجة تجري، ولا نظير لنورها في مصابيح زينة الأرض. وكذا القمر والنجوم الثابتة والسيارة. فهذه كلها مضيئة جميلة بهجة سارة للناظرين. زينة العرس تتلوها المآتم، وكل زينة نصبناها في الأرض يعقب الفرح بها ردّ فعل، وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

تأمل أيها الذكي ما تقدم بقسميه وهما: زينة لا تدوم وهي الأرضية، وزينة دائمة وهي السماوية ولا جرم أن لكل زينة رافعاً لها ومنظماً، ومنظم الزينة المقيم لها غير المتفرجين عليها الفرحين بها. فهاهنا ثلاثة: منظم الزينة، ونفس الزينة، والناظرون لها. فمنظم زينة الولائم في الأعراس أناس لهم علم بإتقانها والمدعوون للفرح قوم آخرون، فالسماء وكواكبها هن الزينة والملائكة هم المقيمون لها والناس هم الناظرون، ولكن ليس كل ناظر للزينة ينشرح بها صدره، فالرجل الذي ساورته الهموم، وأحاطت به الغموم، وأرهقته الديون، إذا مرّ بأعظم زينة لا يحس بها فؤاده، ولا ينشرح بمرآها صدره ولا يسر بمعهدها قلبه، بل لا منزلة لها عنده، هكذا الناظرون إلى السماء أكثرهم لا يعقلون جمالها، إما للجهل أو لانصراف النفس لأمور عارضة أو لنقص الفطنة أو الفطرة، والنفوس الكبيرة تألف الزينة الباقية، والنفوس الصغيرة تألف الزينة الفانية، قال الشاعر:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

ويعظم في عين الصغير صغيرها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

ترى الأطفال والجهال والنساء ومن على شاكلتهم يفرحون بما يرون من زينة الأرض طبيعية أو صناعية، وهم للصناعية أميل لأن صانعها من أمثالهم من الناس، أما الطبيعية فهي في المرتبة الثانية لأن صانعها ليس من الناس، أما الزينة السماوية فهم لا يفكرون فيها ولا هم منها يتعجبون، لأنها من صنع الملائكة المسخرين بأمر الله، إن للملائكة علماً وعملاً، والعمل أشير له في الآية بالزاجرات زجراً، وزجر السحاب مثلاً فعل في المادة، وهؤلاء لهم السلطان على المادة فيتصرفون فيها بالكون والفساد والإنماء والإفناء والتصوير والإيجاد، والعلم أشير له بالتاليات ذكرا، أقسم الله بالصافات الزاجرات التاليات وهؤلاء هم الملائكة، كما قال تعالى في آخر السورة في شأنهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤-١٦٦].

وأكبر مظاهر لهؤلاء الملائكة تزيين السماء بالكواكب، فهذا قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١-٣]، إلى قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

عجب وألف عجب من نظم القرآن الحكيم، يقول الله هنا: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾، ويتبعه بقوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الخ ولكنه لم يقل نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧]، بل قال:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧-٨]، فزينة السماء حفظاً من الشياطين، وزينة الأرض لم يحفظها منهم بل ابتلى الناس بها، وفي الناس شياطين كما في الجن، كما قال في آية أخرى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ولا جرم أن العقول المظلمة من بني آدم المتجسدين؛ ومن الأرواح التي ليست من نوع بني آدم في الأرض؛ لا تعقل جمال النجوم والشمس والقمر. كلا. ويناسب هذا قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨]، فزينة السماء محفوظة، ونتيجة ذلك ما نشاهده في بني آدم أن أكثرهم لا يعقلون جمال هذه النجوم، ولا يشتاقون لفهمها، ولا يحرصون على اكتناه كنهها، ولا يتذكرون بها عظمة مبدعها، فهذه الزينة فوق متناول عقولهم. أما زينة ملوكهم وأعيادهم وأعراسهم وما أشبه ذلك فهم بها فرحون، ولها وامقون، وعليها يحرصون.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤] الخ، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ [يونس: ٢٤] الخ، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، وقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

فهذه مجمل أنواع الزينات التي لا بقاء لها ونهى عنها الخواص وأغرم بها الجهلة والعوام، وهؤلاء مبعدون عن زينة السماوات لا لبخل في العطية ولكن لقصر نظرهم وضعف فطرهم، فمثلهم كمثل الأيتام إذ يمنعون أن يعطوا مالهم حتى يبلغوا الحلم، أو كمثل السفهاء من نحو النساء والصبيان الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥] الخ، أو كمثل الغلامين اليتيمين في المدينة وقد خبئ الكنز لهما فأقام الخضر الحائط عليه ليحفظه حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما.

فجالس أيها الذكي من تشاء من بني آدم، فإنك تستخرج ما في نفسه بالمحادثة، وسرعان ما تدرك أهو من الشياطين المدحورين، أم من الملحقين بالملائكة المكرمين، فإن كان نزاعاً إلى معالي الأمور مغرماً بالأمور العالية كاستكناه عجائب النظام العام والكواكب مغرماً مولعاً بمبدعه معجباً بتلك الآثار؛ فاعلم أن هذا إذا سار في سبيله صار أباً من الآباء الذين خلقهم الله في الناس وفريق منهم كأبنائه فهو ينفعهم مادياً وأدبياً كما أن الملائكة كذلك، ولا تحجب عنهم الأسرار الكونية الممكنة لأمثال أهل الأرض ما داموا أحياء.

تبصرة

إن أنواع الزينة المنصوبة في الأرض آناً فآناً مذكرات بالزينة السماوية، فالحكيم يحقر ما يفنى ولا يغرم إلا بما يبقى، وما جمال الوجوه في الناس ولا أنواع الزينات فيها إلا أغراض زائلات مذكرات بالجمال الدائم والحياة الروحية الخالدة التي يذكرنا بها دوام الكواكب وأنوارها والشموس وأقمارها، فهذه بدوامها الممكن لها تقول لنا بلسان حالها: كل زينة عندكم كالمعدوم. وهذا يذكرنا بقول أفلاطون

المتقدم: إن الكائن الذي لا بقاء له ليس جديراً بأن يكون مناط العلم، بل ليس جديراً أن يستحق اسم الموجود. فهكذا هذه الطائفة الكبيرة النفوس لا تبالي بالزينة العرضية، وتوجه وجهها للزينة الدائمة التي حفظها الله لهم، فلا يشاركهم فيها الغوغاء. وهذا هو الأمر المدهش. زينة يراها البارّ والفاجر طالعة غاربة ولكنها لا يفرح بها إلا الأقلون.

هذا ما فتح الله به في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا﴾ [الصافات: ١-٢] إلى قوله: ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] مساء يوم الثلاثاء أول أبريل سنة ١٩٣٠ م.

بهجة العلم في قوله تعالى:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الصافات: ٦-٨] الآية

كتب في صباح يوم الاثنين ٢١ يوليو سنة ١٩٣٠

توجهت ليلة السبت ١٩ يوليو سنة ١٩٣٠ إلى قرى الريف في المزرعة التي اعتدت أن أراقب أحوالها، وبت مع الفلاحين هناك، وأنا أشاهد النجوم في الجو الرائق البهج اللطيف، فماذا رأيت؟ رأيت بهجة الكواكب وجمالها، والنسمات تلعب بالأشجار والحشائش والزروع، والفلاحون يتحدثون ويديرون السواقي لتسقي الجنات المعروشات من البطيخ والسنطاوي وأشباههما، فسألني سائل: ما الذي نشاهده في السماء كأنه سحاب وليس بسحاب؟ فقلت: هذه اسمها عندنا المجرة. فقالوا: هي عندنا طريق التبانة، لأنها أشبه بما في طرقكم من التبن. فقلت: هي عند علماء الدين أبواب السماء وعند الإنجليز الطريق اللبني. وأخذت أذكر لهم عدد نجومها، ولكني ألفيت أن القوم لا تتحمل نفوسهم هذه العجائب. فلما أن انفلق عمود الصباح وقال المؤذن: حيّ على الفلاح؛ خيل لي أن يد العناية العظمى القدسية امتدت جهة المشرق صباحاً وقد أخذت تسدل على الظلام ستاراً، وعجبي من هذا الستار! لم أر له نظيراً في الأرض، ستار لا هو من صوف، ولا من وبر، ولا من شعر ولا من قطن، ولا من تيل، ولا من حرير، بل هو ستار من نسيج غير النسيج الأرضي مرصع بجواهر جمعت أصناف الألوان من أحمر وبرتقالي وأصفر وأخضر وأزرق ونيلي وبنفسجي، والمادة المنسوجة لا تراها العيون، ولا تتخيلها الظنون، ولا يعرف كنهها المفكرون، لم ينسج على منوالها الناسجون، نسيج هذا الإنسان من مادة غليظة من الصوف والقطن الخ، ونسيج رب الإنسان في موجود سماه الناس أثيراً، كيف نسجه وهو لا يرى يا ترى؟ نسجه بحركات منتظمات، حركات سريعات تكاثرت واتحدت فصارت ذات مظاهر ملونة بالألوان السالفة، فهذه هي ألوان ضوء الشمس في عالم الأثير، ولكل لون عدد خاص من الحركات في الثانية. فبينما يكون عدد الحركات فيها (٤٠٠) مليون مليون للون الحمرة إذا هذا العدد يزداد في غيرها بالتدريج حتى يصل إلى (٧٠٠) مليون مليون في الثانية في البنفسجي.

أيها المسلمون، هاهنا نسيج كالذي ننسجه على منوال لا نقدر على تقليده. منوال بديع. ما أجهل الإنسان والحيوان في الأرض. سبع نسائج تدخلت وامتزجت وكونت ستاراً واحداً، ألقي على

السماء فأخفى كواكبها، وعلى الأرض فأبان مواكبها من جبال وبحار وأنهار وأشجار وزروع جميلات وأشجار باسقات.

تبارك الله، ستار واحد يخفي معالم السماء ونجومها، ويظهر بهجة الأرض وجمالها. إن الذي وضع هذا الستار بين العالمين العلوي والسفلي لجميل وبديع. يلقي على السماء وعلى الأرض ستاراً وليس بستار، يخفي النجوم وهو مظهر الجمال. بهذا الستار تجلى معنى القابض الباسط. فهاهو ذا قبض أنوار النجومَ وظلام الليل فأصبحنا لا نراهما، وهكذا بسط الزروع والحقول والأنهار فأصبحنا نراها.

تباركت يا الله. إنك أنت الذي علمت أصحاب دور الصور المتحركة «السينما» كيف يقلدون ليلك بالظلام ويقلدون نهارك بالضياء. فإذا أرادوا إظهار صور البلاد النائية والأمم القاصية والديار البعيدة؛ فإنهم يقبضون النور ويبسطون الشرائط التي رسمت عليها تلك الأشكال ويعرضونها إلى نور ضئيل، فأخذت العجائب تبرز للناس في تلك الدور بهيئة عجيبة، وهم فرحون لما رأوا من مناظر لم يروها، ومعالم لم يهتدوا إليها، كما نراك أنت فعلت مع الناس ليلاً، إذ تريهم في دجنات الظلام كواكب وكواكب، وتبهر الحكماء والعلماء بباهر الجمال وبديع الصنع. فأولئك العلماء متى نظروا تلك النجوم هامت نفوسهم في الحكمة والفلسفة. وهل يكون ذلك إلا في الظلام ومناظر النجوم. فأما أكثر الناس فإنهم يقفلون أعينهم وينامون نوماً عميقاً فتظهر لهم صور وأشباح وأحلام. إذن الظلام يعطي النفوس الإنسانية فرصة الحرية التي بها يجولون فيها في عوالم الكواكب السماوية، ويسبحون في بحار لجية من عوالم الأحلام، وفي مواكب مختلفة مذكرات بسوالف الأيام وأعاجيب الزمان، فإذا قلد صنعك مديرو دور التمثيل بعض التقليد في تقليبك الليل والنهار، فلكم قلد حيواناتك بنو آدم في صناعاتهم كما تقدم في سورة «طه»، فعاشوا في الكهوف كما عاش الجرذان تحت الأرض، وفي الأدواح كما عاشت الظباء والمها، واتخذوا بيوتاً كما اتخذ النمل، وصنعوا القناطر والجسور لما رأوا «الكستور» وهو «الجندبادستر» يصنع سدوداً لمنع قوة السيل، واتخذوا السفن في البحار لما رأوا السنجاب يركب خشبة في البحر ويجعل ذنبه مواجهاً للرياح ليكون أشبه بالسكان «الدفة» التي تضبط سير السفينة. وهكذا رأوا الدب الشمالي يسافر في البحر على قطعة من الثلج، واصطاد لما رأى الثعلبين البري والبحري يعيشان على الصيد، إلى آخر ما تقدم مما ذكر هناك، وهي (٣١) صناعة قلد فيها الإنسان الحيوان وأجاد واستفاد وأفاد. أما في تقليد الليل والنهار فقد أحكمه أيضاً، إذ أظهر وقت الإظلام مناظر الصور المتحركات كما تتحرك النجوم في مداراتها، فإذا انتهى الدور أبرزوا النور فتوارت تلك الصور كما تتوارى نجوم الليل إذا أشرقت الشمس صباحاً، وتنمحي تلك الأحلام في دياجي الظلمات والعيون هاجعة والحواس خامدة والناس نيام.

وإني لا أزال في حيرة من أمر هذا الستار الذي يلقى على الأرض فيظهر جمالها وإذا رفع عنها أظلمت أرجاؤها وأوحشت ساحاتها.

هيا هيا، لقد لمعت لوامع النور من وراء ستار الظلام الدامس، وأخذت أفهم الجواب بعد اللتيا والتي. ذلك أنه كلما كان الصانع ألطف كانت الصنعة التي هي أقرب إليه ألطف. فإذا كان صناع بني

آدم يعملون في كتان وصوف وحرير؛ والفلاحون في طين وماء؛ فإن الشمس ذات الإشراق صنعت يد العناية ذلك النسيج الذي تشرق عليه أرواح علوية. وأعلى من ذلك أن الأنبياء ينسجون العقول بالدين، والحكماء بالحكمة، فالمصنوع الغليظ نتيجة صنع عوالم الحيوان، والمصنوع اللطيف كضياء الشمس مناسب لإشراقها لأنها جسم ناري، والمصنوع الذي هو ألطف من ذلك هو النسيج العقلي من العلم والحكمة، فهو أرقى صناعة وألطف من صنعة الضياء. وليس الناسج له أجساماً حيوانية ولا شموساً نارية.

ولقد مر ما يقرب من هذه الخواطر في أول سورة «الأنعام» عند قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[الأنعام: ١]، ولكن لم يخطر لي هذا السؤال هناك فهاهنا أجبت. ولكن الناسج لذلك أرواح، وهي درجات بعضها فوق بعض ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾[البروج: ٢٠]، لطفاً من الله بالناس جعل ستارهم الضوئي غاية في اللطف ونهاية في البهجة والجمال، لم يرهقهم بستائر جسمية، أشرق عليهم بنوره. أضاء لهم تارة وأظلم ليلهم تارة أخرى إظهاراً للرحمة والجمال. المنظر باهر وساحر، ولكن الناس مسحورون بغيره. وهم منوّمون أنامتهم الشهوات وأبعدتهم الحسرات. لو أن الناس أدركوا جمال هذه الحوادث لانبهروا أشد البهر، ولكن الحكمة قضت أن يكونوا في غمرة ساهين لاهين حتى يعيشوا أمداً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

نظري في مزرعة قطن

فلما أشرقت الغزالة وملأت البطاح وتجلت المزارع، أخذت أجول في تلك الأصقاع فصادفت مزرعة قطن. ولا جرم أن القطن أخصّ مزارع بلادنا وعماد ثروتها. ولكني نظرت إليه نظرة أخرى وكأنني من عالم غير هذا العالم الأرضي وكأن الدنيا لبست ثوباً قشيباً جميلاً.

الله اكبر، الناس غشت على عقولهم العادات حتى قال الله: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء: ١]. كلما كان الجمال أبهج كان الإعراض عنه أتم وأكثر.

هذه مزارع القطن التي نمر عليها غدواً وعشياً وفيها لبلاب جميل، وأنواع مزارع أخرى نظرت إليها إذا هي محلاة بالزهر المختلف الألوان. وهناك جوزات القطن ضمت فصوصها ضماً لتحفظ في داخلها شعر القطن وبذره، وهاهي ذه إحدى الجوزات قد تفتحت بإلحاح حرارة الشمس عليها وكأنهن جميعاً يخاطبنني قائلات: انظر إلى الزهرات الجميلات، وإلى الجوزات الخضراوات، وإلى شعر القطن الذي تفتحت عنه الأكمام، هذه الملابس إليك نهديها من شعرنا لتمنع عنكم الحر والقر، وهذه الزهرات جمال يسر الناظرين، وهذه الجوزات اللاتي تخفي في داخلها شعر القطن والبذر ليتم نضجهما ويكمل خلقها. كل هذه إليك ناظرة لا سيما الزهرات الباهرات الجميلات، وزهرات أخرى في أنواع الشجرات الأخرى، وأن الزهر الأحمر والأزرق والبنفسجي ناظرات إليك مسلمات عليك، وقد حليت كل هذه الأزهار وأوراقها بأقراط من الماس وهبها إياها قطر الندى، فازينت الأرض بأجمل زينة، وازدانت بالبهجة والجمال، وهنالك لم يسعني إلا أن أصبح قائلاً: يا الله أنت يجب أن نحبك لا أن نخاف منك، أفمع هذا الجمال كله يكون خوفنا منك، إن من جهلك أحق

بالخوف منك، ومن أظهرت له جمالك أولى بحبك لأنك قربته، وإنما خوفك يكون لهيبته منك أو خوف بعده عنك.

فعجبت لنفسي طربت لهذا الجمال مع أن ما ألفته النفس لا جمال له، كم نظرت هذا في حقولنا وكنت أنا في زمن الشباب من زراعه، فما هذا الذي ألبسه لباس الجمال في نظري الآن؟ العقل الإنساني إذا لم يزحزحه العلم عن مقره في الصبا ولم يوقظه النظر والفكر بقي أسير العادات قليل النظر قليل الفكر، فإذا استيقظ أدرك أنه يعيش في بيئة من الجمال والبهجة والحسن والإشراق، وأين كانت هذه المزرعة؟ كانت في المكان الذي فيه تخيلت أن البدر يخاطبني في وسط النخيل بالقرب من المرج بالقرب من القاهرة، وذلك تقدم في سورة «فاطر» عند آية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[فاطر: ٢٧] الخ، وما أدري لماذا تستيقظ نفسي ليلاً سابقاً ونهارا لاحقاً إلا في هذا المكان، ثم لماذا خطرت هذه الخواطر في هذه الأيام؟.

الله أكبر، لقد تجلت الحقيقة واضحة، أنا لم أنم ليلة واحدة في ذلك الحقل، ولكني نمت هذه الليلة ولماذا هذا؟ عرفت الجواب أن ذلك لسر ظهر وحكمة بهرت، وهي أنها جاءت لتفسير قوله تعالى في هذه السورة التي قد استعدت المطبعة لطبع تفسيرها في هذا الشهر أغسطس سنة ١٩٣٠، أليس هذا هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[الملك: ٥]، وهذه المصابيح تدعو العقلاء للتفكير في جمالها وفي حكمها وفي حسابها كما تقدم في سورة «يس» عند قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾[يس: ٣٨]، وفي سورة «يونس» عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ [يونس: ٥] الخ، وفي سورة «الأنعام» وفي سور أخرى كثيرة، ويقول في آية أخرى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[الكهف: ٧] الخ، ويقول في سورة «الحجر»: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾[الآية: ١٦].

إذن الله لم يزين السماء لمن ليسوا أهلاً للنظر، إذن الحكماء في هذه الأرض هم الذين زين الله لهم السماء. أما الجهلاء فلم يزين لهم إلا شهواتهم ليعيشوا غالباً كما تعيش الأنعام وهم خامدون.
إذن بهذا نفهم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[الملك: ٥]، فشياطين الإنس وشياطين الجن يعيشون ويموتون ولا هم يعقلون جمال هذه الشمس ولا بهجة هذه النجوم، وإنما هم محبوسون. إن هذه هي التي أجراها الله على لسان العامة في بلادنا المصرية، إذ هم إذا رأوا سحباً منشورة في السماء مقطعة غير ملتئمة، قالوا: إن السماء مزينة وإنما زينت لعالم مات. فهم يقولون: إن العالم إذا مات تزين له السماء، أي: تزين لروحه إذا صعدت، كما تزين المدن لقدوم الملوك والعظماء، ولكن في الحقيقة هي مزينة له في هذه الحياة الدنيا، وهو هو الذي يفهم جمالها، فإذا مات ازداد بصيرة في ذلك الجمال، ففطرة العامة قد ألمت بطرف من معنى الزينة. فالأرض مزينة للحكماء والسماء والنجوم والجبال والشجر والدواب فهم أبداً في سعادة وحبور. وليكونن قراء هذا التفسير المغرمون بالعلم من أرقى هذه الطبقة في عالم الإنسان.

وبهذا انتهى المقال في تفسير هذه الآيات صباح يوم الاثنين ٢١ يوليو سنة ١٩٣٠ في نفس اللحظة التي افترقت بلادنا فرقتين: فرقة أوصدت دار النيابة في وجوه الأمة. والفرقة الأخرى هي جميع الأمة

المصرية، فهؤلاء يريدون دخول البرلمان وهؤلاء يمنعونهم، وسر ذلك كله تدخل الأجانب في هذه البلاد. وذلك كله منشؤه أن رجال الشرق ينقصهم العلم والتعليم. وهاأنا ذا قمت بما يجب علي وعلى كل امرئ في بلاد الإسلام أن يقوم من التعليم بما ألهمه الله وأقدره عليه. وإلى الله ترجع الأمور.

ما حقيقة السماوات؟ وهل للنور وزن؟ وهل النور خالد؟ وإذا بقي دهراً طويلاً أفليست الأرواح أحق بذلك؟

في يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو سنة ١٩٣٠ حضر صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال: حسن ما قلت في هذا المقام، ولكني أسألك سؤالاً في نفس موضوع الآية. إن ما ذكرته هنا إنما هو وجدانيات قامت بنفسك فسطرتها، والوجدان شيء والعلم شيء آخر، وإنك لم تذكر إلا الصبابة والعشق والغرام، وما ذلك إلا عواطف كعواطف العشق الإنسانية الشائعة بين الناس، وما كل امرئ بعاشق لأن العشق استعداد، فهل أنت على استعداد أن تحدثني في حقائق السماوات؟ فقلت: حباً وكرامة. فقال: حياك الله، هل السماء مبنية شديدة؟ فقلت: أذكرك أيها الصديق بما مر في أول سورة «البقرة» عند الكلام عن السماء، وقد ذكرت هناك أن هذا العالم لا فراغ فيه، فهو مملوء بموجود سموه الأثير، وهو موجود لأنه به يقوم الضوء والكهرباء والجاذبية، فهو إذن موجود، إذن عالم السماء موجود. فقال: حسن هذا وأنا أذكره.

وأذكر أنك أثبت هناك عدم الفراغ ببرهانين: برهان القدماء القائل: إن هذا الذي سميناه فراغاً لا يخلو ما نراه فيه من النور والظلمة من أحد أمرين اثنين: إما أن يكونا جوهرين، وإما أن يكونا عرضين، أو أحدهما عرض والآخر جوهر، فإن كانا جوهرين فالسماوات إذن موجودة، وإن كانا عرضين فالعرض لا بد قائم بجوهر، إذن ثبت أنه لا فراغ، وأن السماوات موجودة فعلاً، هذا ما قلته أنت إذ ذاك عن القدماء، وأما المحدثون فإنك أثبت قولهم بأنهم استدلوا بأن التلغراف السلكي والذي لا سلك له كلاهما محمول، وهل الحامل يكون معدوماً؟ إذن هو موجود. إذن القدماء والمحدثون مجمعون على ذلك، فالسماء المذكورة في الآية هنا موجودة، فأنا الآن لا أسألك في وجود السماء، وقد عرفته فيما تقدم في هذا التفسير، وإنما سؤالي: هل هي مبنية وهل هي شديدة؟ إن البناء لا يكون لما هو كالخيال. وهل خيالنا مبني؟ وهل خيالنا متين قوي؟ وهو يفنى حالاً. فقلت: هل الأثير خيال؟ فقال: أنت عبرت بهذا القول سابقاً فقلت إنه كالخيال. فقلت: سأبرهن لك على أن الأثير قوي متين، وعلى أنه أقوى من أبنيتنا وكل بناء عرفناه. فقال: يا ليت شعري كيف يكون ذلك؟ فقلت: أيها الصديق. ألست تسلم بأن هناك قوة جاذبية بها تجذب الشمس ما حولها من السيارات وأرضنا منها. فقال: أسلم به لأنها قضية مسلم بها. فقلت: لو أني أنا وأنت وأناس آخرون معنا حاولنا أن نزحزح صخرة من مكانها وربطنا فيها حبلاً وأخذنا نجر ذلك الحبل ونحن عصبة أولو قوة وزحزحنا هذه الصخرة وأخذنا ندور بها أدواراً منتظمات حول محور؛ فماذا نقول في هذا الحبل الذي به جذبنا هذه الصخرة؟أضعيف هو أم متين؟ قال: بل قوي متين. قلت: فإذا جُذبت الشمس كل سياراتها بقوة الجاذبية القائمة بالأثير، أفلا يكون الأثير قوياً متيناً بنسبة هذه الأجرام؟ أفلا يكون نسبة هذا الأثير إلى الشمس والأرض كنسبة

الحبل إلى عصبتنا والصخرة المذكورة؟ قال: بلى، والله هذا حق. قلت: إذن ثبت أن عالم الأثير أقوى من البناء وأمتن شيء عرفناه في الوجود.

فإذا سمعنا الله يقول: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[الذاريات: ٤٧]، وسمعناه يقول في سورة «النبأ»: ﴿ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴾[الآية: ١٢]، فإنا نقول: هذه الحقيقة يا ربنا لم يتجلَّ لنا بعض معناها إلا في هذا الزمان، لأن الناس عندهم شكوك وأوهام في هذا الموضوع. فقال: إن هذه المسألة لم أسمع لها جواباً شافياً إلا الآن. فقلت: فلتحمد الله على العلم وعلى الحكمة. وهذه تكمل ما نقصنا من العلم في تفسير بسملة «ص». فقال: لم أفهم مرادك. فقلت: ألم نقل هناك إن الإنسان له قوى علمية وهي الحواس الخمس والعقل، وقوى عملية وهي اليدان والرجلان، وأن الحواس بها عرف الناس ما حولهم ووصلوا لما قرب من الكواكب، وأن المجاهر والمناظر المعظمة التي أسداها العلم لهم زادت علومهم. فقال: بلى تقدم ذلك. فقلت: والعقل اقتنص الصور بالحواس فكانت العلوم الطبيعية، وصور المقادير فكانت العلوم الرياضية، وأن الآلات الجاريات على الأرض مساعدات للأرجل، وهكذا الطيارات والسفن، وهكذا جميع العجلات والآلات المتحركات مساعدات الأيدي في أعمالها. قال: عرفت ذلك. فقلت: بقي شيء واحد لم نذكره هناك ولكن هنا محل ظهوره. فقال: وما هو؟ قلت: إن اللسان يوصل العلوم كما قلنا هناك. ونقول هنا: إنه يستخدم الهواء وينوب عنه التلغراف السلكي والذي لا سلك له والتلفون. قال: هذا حق. قلت: ولا واسطة لمساعدة اللسان المذكور إلا الأثير. قال: حقاً، إن هذا البرهان وكل ما ترتب عليه حسن، ولكن إذا عضدته ورسخته بكلام علماء الفن يكون أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً وأوضح تأويلاً. فقلت: إنهم يقولون: إن كثافة الأثير هي ألف طن للمليمتر الواحد والطن نحو ٢٢ قنطاراً، إذن كثافة المليمتر الواحد من الأثير تعادل نحو ٢٢ ألف قنطار. فقال: يا للعجب! هذه كثافة لا نظير لها في كثافة ما نعرفه من الحديد والرصاص والحجارة، وحقاً إن الذي به تجذب الشمس سياراتها يجب أن يكون كذلك ليتحمل ذلك كله، وانظر ما كتبته بعض المجلات العلمية وهو «المقتطف» في شهر ديسمبر سنة ١٩٢٩ تحت العنوان الآتي وهذا نصه:

تحوّل الآراء في الأثير
من نيوتن إلى أينشتين

مهما يكن تصور نوع الفضاء الذي يحيط بنا صعباً. ومهما تختلف الآراء في نوعه وحدوده الهندسية، ومهما يكن تقصيرنا عن إدراك كنهه وحقيقته؛ فإن له صفات طبيعية خاصة به يمكننا درسها ومعرفة بعض قوانينها. وعليه لا يمكننا أن نسميه فضاء فحسب، بل علينا أن نطلق عليه اسماً ينم على خواصه الطبيعية أو بعض هذه الخواص. وأول من بحث في هذا الموضوع بحثاً دقيقاً وسمى هذا المجهول بالأثير كان الطبيعي الإنجليزي العظيم السر إسحاق نيوتن. يستحيل علينا أن نصف صفات الأثير الطبيعية بالدقة التامة بالتعابير والمصطلحات التي نستعملها لوصف خواص المواد الأرضية. لكننا لا نستطيع غير هذا السبيل فنضطر إلى استعمال هذه المصطلحات لكوننا لا نعرف سواها. وفي

مثل هذه الحال يجب علينا أن نبقى متذكرين أنها لا تعبر عن الحقيقة بالدقة التامة، ولكنها تفعل ذلك لو كان الأثير مادة عادية. نحن نتكلم عن مرونة الأثير وكثافته مثلاً، فبأي حق نفعل ذلك؟ ليس الأثير مادة عادية كموادنا لننسب إليه صفاتها. ومع ذلك نقول: إن كثافة الأثير هي ألف طن للمليمتر المكعب. ومرونته تساوي حاصل ضرب كثافته في مربع سرعة النور. وبهذا نعني بأن لو تحول الأثير مادة لكانت له تلك الكثافة وهذه المرونة. بمثل هذه التحفظات يمكننا أن نستعمل الاصطلاحات العادية لتعداد خاصيات الأثير المعروفة، فنقول:

(١) الأثير شفاف.

(٢) عديم الاحتكاك بالمواد.

(٣) عظيم الكثافة.

(٤) تام المرونة.

(٥) عديم الحرارة.

(٦) عديم الصوت.

(٧) موصل حسن للجاذبية والنور والأمواج الكهربائية ـ المغنطيسية.

(٨) وسيط لتلاصق دقائق المادة وتماسكها.

(٩) الأثير وسيط للجاذبية الكيماوية «أو الألفة الكيماوية».

(١٠) يملأ كل فراغ من المادة. اهـ ما جاء من مجلة المقتطف.

لست الساعة بصدد أن أوضح:

(١) نظرية نيوتن الذي اضطر أن يفرض وجود الأثير حين عرف ناموس الجاذبية العام، وقال: لا أتصور أن قوة هائلة عظيمة تنتقل من الشمس إلى عوالمها بدون موصل لهذا الأثير. إذن هو حبل يوصل الجاذبية كما قلنا في الحبل الذي جذبت به عصبتنا الصخرة فيما تقدم.

(٢) ولا بصدد أن أذكر «هويجنس» الذي يقول: إن الأثير مؤلف من ذرات في غاية الصغر سريعة الحركة ثقيلة الوزن عظيمة الكثافة، وما النور إلا موجات فيه لا أنه ذرات كما قال نيوتن.

(٣) ولا أنا في مقام شرح نظرية «فرنل» الفرنسي الذي جعل الأثير تختلف كثافته باختلاف مواقعه.

(٤) ولا في مقام آراء «كوتنتي» فيه الذي يؤيد وجوده بسبب ما نراه من الظاهرات الكهربائية والمغناطيسية في الأرض.

(٥) ولا أنا الآن أود أن أشرح نظرية «جورج توكس» القائل: إنه سائل شفاف عديم الاحتكاك بالأرض والسيارات عند حركتها فيه، ولكنه صلد قوي متين عندما تنظر إليه من جهة إيصال الجاذبية والنور. وقد أيد هذا الرأي «السر أوليفر لودج» بالتجربة وهكذا.

(٦) نظرية «ماكسول» إذ قال بالمرونة والكثافة فيه، وأن المرونة تساوي حاصل ضرب الكثافة في مربع سرعة النور.

(٧) وخالف العالم «أماقين» هؤلاء العلماء في الكثافة وهكذا.

(٨) العالم «ماك كولاغ» فإنه قال: إنه لا يقبل الضغط.

(٩) والعالم «أينشتين» يقول: إنه خيال من الفضاء والوقت يصعب على من يتعمق في الرياضيات أن يدرك كنهه.

أقول: أنا لست في مقام شرح هذه الأقوال، وإنما المهم الاتفاق على الجدول المتقدم المحترم عند جمهور هؤلاء العلماء وغيرهم. إذن ثبت هنا أن السماء أولاً موجودة. ثانياً أنها أشد الأبنية وأمتنها وأقواها. ثالثاً ظهر بهذا أن إشارات القرآن أصبحت اليوم واضحة جلية في العلوم الحديثة، فإذا كانت السماوات بناء؛ وإذا كانت شديدة؛ فهاهو ذا أصبح واضحاً جلياً. فهل كفاك ما سمعت عن علماء الفن؟ فقال: كفى والحمد لله.

أقول: لقد مرت الإشارة إلى هذا الموضوع في غير هذا المكان والإيضاح هنا أتم.

هل للنور وزن؟

ثم قال: ولكني أريد أن أسأل في النور. لقد سمعتك تذكر أن النور حركات في الأثير، والحركات لا تكون إلا بقوة دافعة، والقوة الدافعة تحرك الميزان حتماً. إذن النور موزون، ولكني ما سمعت أحداً يقول ذلك. فقلت له: إنه موزون وله ثقل. فقال: كيف ذلك؟ فقلت: هاك ما جاء في بعض المجلات العلمية، وهذا نصه:

أربعة ملايين طونولاتة من أشعة الشمس في الثانية
هل النور له وزن؟

يقول العامة: «ضربته الشمس»، كأن أشعتها تشتمل على مادة تضرب بها الأشياء. وما أقرب هذا التعبير إلى ما اكتشفه العلم الحديث في هذا الشأن، فهو في الواقع حقيقة وليس بالمجاز كما يريد أن يفهمه الناس. ولكن إذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يكون للأشعة وزن كسائر الأشياء المادية. فقد برهن العلم صحة هذا الاكتشاف، ويقرر العلامة السير «جيمس جانز» أنه يمكن أن يصوب مقدار كبير من الأشعة نحو شخص قوي قائم على قدميه فيطرحه على الأرض بقوة دفع الأشعة. وتدل أدق الأجهزة الضوئية على أن النور والحرارة يمكن وزنهما وأن يكن ثقلهما ضئيلاً للغاية. و ذلك أنه إذا وزنت الأشعة الكاشفة التي تنبعث من جهاز قوته خمسين حصاناً في مدة مائة سنة ما بلغت أكثر من جزء من عشرين من الأوقية. فهل يمكن أن يشعر الإنسان بوزن أشعة يبلغ ثقلها في قرن من الزمن نصف عشر الأوقية. ولكنه يبين على أي حال أن النور مادة ذات جرم ووزن. ولنبحث الآن إذا كان من الممكن أن ندرك في ضوء هذا الاكتشاف مقدار ما تفقده الشمس من مادتها لإضاءة أرجاء العالم. تبلغ قوة كل بوصة مربعة من قرص الشمس مقدار الضوء الكشاف الذي تقدم ذكره، وتبلغ قوة جهازه خمسين حصاناً. ويقدر العلماء قوة ضوء الشمس بهذا الرقم وهو ٣٢٣ متبوعاً بخمسة وعشرين صفراً أو ٣٢٣٠ سيتليون شمعة. فإذا كان ينبعث من كل بوصة مربعة من سطح الشمس من الأشعة ما زنته جزء من العشرين من الأوقية كل مائة سنة. فإن وزن ما ينبعث من سطحها جميعه من الأشعة

يبلغ ٤٠٠٠,٠٠٠ طونولاتة في الثانية. وهل يمكن أن نتصور ما يراد بوزن قدره ٤٠٠٠,٠٠٠ طونولاتة من المادة. لو فرض أن هـذا المقدار من تراب الأرض لأمكن أن يقام به عموداً قاعدته ١٠ ياردات وارتفاعه ربع ميل، وإذا كان ما يحمله أكبر قطار حديدي لا يزيد على ٤٠٠ طونولاتة. فإنه يلزم لحمل المقدار السابق من الشمس ١٠,٠٠٠ قطار في كل ثانية، لنقل ما تحمله الأشعة من المادة. ويبلغ وزن ما تفقده الشمس في الدقيقة الواحدة ٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠ طونولاتة من الأشعة والحرارة، فهي تنقص على الدوام بمقدار كبير للغاية. ويقدّر الفلكيون نقصان وزنها هذه اللحظة بنحو ٣٦٠,٠٠٠ مليون طونولاتة عما كانت عليه في مثل هذه الآونة من اليوم الماضي. لكن ألا يفهم مما تقدم أن الشمس آخذة في النقصان باستمرار، وأنه قد يأتي وقت يدب إليها الفناء. ومعنى ذلك القضاء على جميع الكائنات الحية في أرجاء العالم. فكر علماء الفلك وسواهم في هذه المسألة طويلاً ولكل فريق منهم أغرب الإجابات والحلول لما يتهدد العالم من هذا النقصان الدائم، وليس من سلوى يتأسى بها معظمهم وتهدئ روعه إلا أن الشمس قد لبثت على هذه الحال أكثر من آلاف ملايين السنين، وعلى ذلك ينتظر أن تخلد في كبد السماء أطول الآجال والدهور وهي تمد العالم بذرات جسمها الناري لتبعث النور والحرارة في كل مكان وتنفخ الحياة في جميع الكائنات الحية. اهـ.

هل يمكن استنتاج خلود الأرواح من وجود النور؟

فلما سمع صاحبي ذلك قال: حسن والله. ولكن بقي شيء خطر لي. فقلت: وما هو؟ فقال: إن أقصى ما سمعناه في هذا التفسير عن النور أنه قد جاء إلى أهل الأرض من مسافة مائة مليون سنة أو أكثر، فطيف لا ينطفئ النور؟ وكيف يكون أشبه بالخالد؟ فقلت: نعم. هذه مسألة عجيبة جداً. لقد ثبت أن النور الذي يخرج من الشموس البعيدة يصل لنا في الأرض بعد مرور مئات الملايين من السنين ولا يزال الكشف يتوالى بظهور كواكب والضوء متصل، ولم نجد دليلاً ولا شبه دليل على أن نور كوكب موجود قد وقف في الطريق بسبب أنه فني. ومعنى هذا أن النور الذي يخرج الآن من شمسنا لا يزال يسبح في الفضاء ولا يقف، ويمر على قوم آخرين، وهناك قوم الآن يصل لهم ضوء شمسنا اليوم فيحسبون فيجدونه قد خرج منها منذ مائة مليون سنة أو مائة ألف مليون سنة كذلك كما نفعل نحن مع الشموس. فإذا كان ذلك حال الضوء، وما هو إلا حركات في الأثير؛ فما بالك بجوهر النفوس؟ إنها أولى بالخلود والبقاء. فقال: والله إني لم أر انتصاراً للعلم كما رأيت اليوم، ولا سمعت براهين أقوى وأمتن مما عرفت اليوم. فقلت: الحمد لله رب العالمين.

ازدياد بهجة العلم في قوله تعالى أيضاً:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾

وصف الكواكب وبهجتها وأنا في الحقل ليلاً حتى مطلع الفجر

اللهم إنك أنت الحي القيوم، ومن حياتك استمدت العوالم حياتها، ومن علمك استمدت علمها، ومن قدرتك استمدت قدرتها، ومن جمالك استمدت جمالها، أنت الذي نقشت لنا السماء، ونقشت الأرض، وزخرفتها بزخرفك، وأنرتها بنورك، عجبت للنقش وللرقش وللجندرة وللإبداع في

تزويق الأرض بنباتها وجبالها، وفي تزيين السماء بنجومها وشموسها وأقمارها، لنا عقول ظهر لي أنها كبيرة جداً بدليل أنها مستعدة لأن تفهم بعض مصنوعاتك.

ولطالما كنت مشوقاً أن أنام في العراء ليلاً لأشاهد جمال النجوم قبيل الفجر وهي طالعة فوق الحقول والجبال والصحاري والقفار. كنت أودّ ذلك كثيراً، نعم أنا أشاهدها كل ليلة فوق سقف المنزل ولا حاجز بيني وبين النجوم وجمالها، ولكن أين الثريا وأين الثرى وأين منظر النجوم في القاهرة حيث المنازل والأبخرة المتصاعدة ودخان الآلات البخارية وبين منظرها في الخلوات، ولقد هيأ الله لي هذه الفرصة الآن لأصف في هذا التفسير تلك المناظر الجميلة إيضاحاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[الصافات: ٦]. فتوجهت إلى مزرعتنا بجهة المرج وهي إلى الجبل الشرقي أقرب، وليس وراءها إلا الصحراء والجبل، فبت بعض الليالي هناك في نفس الحقل في أواخر شهر يوليو سنة ١٩٣٠ قبل الفجر، فماذا رأيت؟ رأيت زينة حقيقية، يا سبحان الله، نحن نشاهد فيما يقيمه الناس من الزينة في الولائم العامة وأفراحهم والموالد التي يحتفلون بها مصابيح يوقدونها فيها ويضعونها صفوفاً منتظمات، وإذا هبت الرياح أخذت تلك المصابيح تضطرب اضطراباً يكسبها جمالاً على جمال، فهاأنا ذا في هذه الليلة اطلعت فنظرت المصابيح السماوية تهتز طرباً، وقد ظهرت بهيئة لم أعهدها في المدن ولا في القرى، فلكم رأيت النجوم ليلاً أيام الشباب وأنا في قريتنا كفر عوض الله حجازي وهكذا في القاهرة، ولكن هنا في الجبل والصحراء والحقل تبدت لي راقصة ضاحكة مستبشرة ما أبدع هذا المنظر، إن فرق ما بين الثوابت والسيارات أن الأولى كثيرة الاضطراب، أما الثانية فهي لا اضطراب فيها وإن كانت أكبر حجماً في نظر العين، وما أكثر الثوابت وما أقل السيارات، لذلك كان ذلك المنظر أمامي أجل ما رأته عيني في الحياة، وخيل لي أني في جنة عرضها السماوات والأرض، مبدعة أيما إبداع، متقنة أيما إتقان، قد ازينت ولكن للناظرين، وحسنت ولكن للعالمين ــ بكسر اللام ــ وشعرت نفسي كأنها كانت في هذه الساحات الجميلة وقد أبعدت عنها بسفر، وأنها رجعت إلى مستقرها وفرحت بالرجوع إلى وطنها. ومن العجيب أن الزراعين قد يبيتون في الحقول كما بت، بل بعضهم نام في الحقل معي. هذه المناظر أمامهم ومع ذلك لا تحرك فيهم ساكناً ولا توقظ فيهم ذا سنة، فالجمال ظاهر والمحاسن باهرة وأكثر أهل الأرض لا يدرسون، فبينما أرى الثريا قد أخذت تشرق طالعة إذا الدبران ذا النور الأحمر قد تلاها وقد ساق أمامه نجوماً بهيئة ضلعي مثلث، ووراءهن الهقعة ثم الهنعة ونجوم الجبار التي يعبر عنها بالجوزاء، فأذكرني ذلك ما جاء في «صبح الأعشى» من وصف هذه النجوم فأحببت ذكره، وهاهو ذا تحت هذا العنوان: «الصنف الثاني: نجوم منازل القمر التي ينتقل فيها القمر من أول الشهر إلى الثامن والعشرين منه». ونكتفي من هذا الفصل بما نحن فيه، إذ ذكر الشرطين والبطين، ثم أتبعهما بذكر الثريا، فقال ما نصه:

الثريا: ويسمى النجم علماً عليها، وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾[النجم: ١]، وهي ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعة أنجم، وهي في شكل مثلث متساوي الساقين، وبين نجومها نجوم صغار جداً كالرشاش، ومطلعها إلى الشمال عن مطلع الشرطين والبطين، وأول ما يطلع

منها ويغيب هو الجانب العريض دون الأفخاذ منها، وهي عند أصحاب الصور بالقرب من محل ذنب الثور المقطوع . قال ابن يونس: وليست من صورة الثور، وبعضهم يسميها إلية الحمل لقربها منه.

الدبران: ويسمى تالي النجم لكونه يطلع تلو الثريا، وربما يسمى حادي النجم لذلك، ويسمى أيضاً المجدح وعين الثور، وهذه المنزلة سبعة أنجم تشبه شكل الدال، واحد منها مضيء أحمر عظيم النور، واسم الدبران واقع عليه في الأصل ثم غلب عليه وعلى باقي المنزلة. وهذه الكواكب السبعة عند أصحاب الصور هي رأس الثور، وأول ما يطلع منه طرف الدال، ويكون رميها إلى الجنوب وفتحها إلى الشمال، والكوكب الأحمر المضيء هو آخر ما يطلع منها، والعرب تقول للكوكبين القريبين منه: كلباه، والباقي غنمه، وربما قالوا: قلاصه، ويقولون في خرافاتهم: إن الدبران خطب الثريا إلى القمر فقالت: ما أصنع بسبروت؟ فساق إليها الكواكب المسميات بالقلاص مهراً، فهربت منه فهو يطلبها أبداً، ولا يزال تابعاً لها، ومن ثم قالوا في أمثالهم: أوفى من الحادي وأغدر من الثريا.

الهقعة: سميت بذلك تشبيهاً بدائرة تكون في عنق الفرس، وقد مر القول عليها في الكلام على أوصاف الخيل، وهي ثلاثة كواكب محاذية صغار تسمى الأثافيّ، وهي أعلى القدم اليسرى من التوءم المعبر عنه بالجوزاء. اهـ.

أقول: ومن أجمل المناظر ما سماه الهقعة وما عبر عنه بالجوزاء. نظرت فرأيت هذه النجمات تليها نجوم دقيقة ممتدة في نظر العين قوساً بديعاً جميلاً واسعاً بهجاً كأنه عقد من الماس رصعت به السماء فأبهج وزاد جمالها. ثم نظرت وراءها إذا بنجوم الجوزاء التي يسمونها الجبار وهي أضوأ النجوم في نظر العين. فهناك ثلاث نجوم من القدر الأول وأمامها نجوم أخرى تصنع معها ما يشبه زاوية حادة، ويسميها العامة الميزان، تشبيهاً بميزان الباعة في بلادنا. ولقد وصفت نفس هذا المنظر في السنة الفائتة في نفس هذا التفسير في تفسير البسملة في بعض السور التي تتلو سورة «العنكبوت»، ولكن وصفها في هذه المرة جاء في الحقل لا في المنزل، وتلا ذلك ما نقلته من كتاب «صبح الأعشى».

إن في الحقل لمتسعاً للخيال. تبدو المناظر للعين وتسمع الأذن طنين الحشرات فكأنها حفلة جمعت ما يسرّ العين ويبهج الأذن. إنها جنة عجلت للمفكرين الذين يعقلون قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾[الملك: ٥]، ألا فليفطن لذلك المدرسون، ولتكن للمسلمين مدارس في الحقول ليدرسوا الحقول والحدائق والأنعام والبهائم والأنهار والجبال نهاراً ويدرسوا النجوم ليلاً، وإلا فليعلموا أنهم عن ربهم معرضون وعن الرقي في الدنيا والآخرة مبعدون. ولن يذهب ما كتبته عن هذه المناظر سدى، سيشهد ما شهدته التلاميذ والمدرسون، ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾[المطففين: ٢٤]، ولكم يتنافس في ذلك المتنافسون.

وهل هذه المناظر يقف جمالها عند ما ذكرناه؟ كلا. أوَليست الجوزاء هي التي كشف العلماء اليوم كما تقدم في هذه السورة آنفاً أن بعض نجومها أكبر من الشمس (٢٥) ألف ألف مرة، ومعلوم أن شمسنا أكبر من أرضنا ألف ألف مرة وثلاثمائة ألف مرة، ويقولون: إن ضوء الشمس بالنسبة لضوء ذلك الكوكب من الجوزاء المذكورة أشبه بنور الحباحب بالنسبة لضوء الشمس، إذن الجمال الظاهري

الذي تمتعت به هذه الليلة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة للعلوم المدخرة في هذه المناظر. إذن الدنيا فيها مفاتيح الجنة، فأول مفاتيحها جمال الظواهر ويليها العلوم التي عرفها نوع الإنسان وراء هذه الظواهر والعلوم هي السعادة بل هي مفتاح الجنة، ومن لم يشعر بالسعادة العلمية في هذه الحياة فكيف يسعد بالنظر إلى مبدع هذا الجمال. اهـ.

امتحان عقول الناظرين من الأمم

انظر إلى البدوي في العراء المذكور في «صبح الأعشى» كيف وقف أمام الدبران والثريا والقمر وتصور في نفسه أن القمر خاطب والثريا مخطوبة، والدبران هو الذي ساق بأمر القمر النجوم السبعة لتكون مهراً، فهذا تصور لطيف انتزعه الرجل من أحوال الإنسان، واخترع للسماء نظاماً كنظام أهل الأرض فيه الأحوال الاجتماعية، وتارة يقول قائلهم:

أليس الليل يجمعني وسلمى ... وإيانا وإياها تداني

فهاهنا تخيل الليل خيمة قد جمعته مع سلمى وإن تناءت الديار. وتارة نسمع قائلاً يقول من المتأخرين من الأمم الإسلامية العربية:

يا ليل طل يا شوق دم ... إني على الحالين صابر
لي فيك أجر مجاهد ... إن صحّ أن الليل كافر
يهنيك بدرك حاضر ... يا ليت بدري كان حاضر
حتى يبين لناظري ... من منهما زاه وزاهر
بدري أرقّ محاسناً ... والفرق مثل الصبح ظاهر

وآونة نسمع آخر يقول:

سل يا أخا البدر نجم الليل عن سهري ... تدري النجوم ولا تدري الورى خبري

ونسمع آخر يقول في ممدوحه، وذلك في حسن التعليل في علم البديع:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته ... لما رأيت عليها عقد منتطق

فالبدوي في البادية كان خياله أقرب إلى الفطرة، أما المتأخرون فإن خيالهم نزل بالمناظر السماوية إلى اللذات التي ملكت على تلك الأجيال مشاعرهم، إذ ملكوا زمام الأمم وأغنتهم الغنائم باتساع الملك وكثرت لديهم الجواري الحسان من الأمم، فأخذوا يتغزلون، وجاراهم في ذلك علماء اللغة، وكلما ازدادوا إبداعاً قيدوه فجعلوه من العلم، ولم يكفهم ذلك حتى تخيلوا تلك النجوم قد تنزلت فصارت من خدام ملوكهم الذين يمدحونهم، ولماذا هذا المدح؟ ذلك لأجل الجوائز التي يأخذونها من مال الدولة بلا مقابل إلا ذلك المدح، ولكن الله كأنه يقول: إنا زينا السماء للناظرين المفكرين، فأما أن تكون النجوم لأجل الغزل أو لأجل التزلف للملوك، فذلك كله خيال الشعراء، ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾[الشعراء: ٢٢٤].

إن شعر الأمة وخيالها يدلان على درجتها، وهذه الأمم العربية المتأخرة نسيت أصل الفضائل وأفرطت في اللذات، فرجعت إلى باديتها حتى تستقيم أجيالها كرة أخرى، ثم يأتي لها من يوقظها كرة

أخرى، وهذا المقام أوضحته في سورة «الشعراء» عند تفسير هذه الآية، وذكرت ما قاله سديو الفرنسي: إن مجموع الشعراء عند الأمم العربية الإسلامية أكثر من مجموع الشعراء في الأمم كلها، ولكن الإفراط في الشعر عند المسلمين في الأندلس والتفكر والتعقل عند الأسبانيين جعل الآخرين يغلبون الأولين، ولله في خلقه شؤون.

وقد ذكرت هناك أن ذلك من معجزات القرآن في آية الشعراء. والله زين السماء للناظرين وقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، ولقد ابتلى الله آباءنا العرب لما عظم ملكهم واستولوا على فارس والروم، فانصرف متأخروهم عن بهجة علوم الكائنات إلى بهجة الغلمان والفتيات، وابتدأ ذلك في عصر بني أمية وعظم في عصر بني العباس، وانظر ما جاء في الجزء الأول من كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» وهذا نصه:

كان الشاعر الجاهلي يقول الأبيات تغزلاً في حبيبته، يعبر بذلك عن حبه أو ما تكنه جوارحه من الغرام أو الشوق ولا يشبب في غير حبيبته أو خطيبته وقد يسميها بغير اسمها. والغالب أن يكني عنها بإحدى عرائس الشعر لئلا يعلم أهله بتشبيبه فيمنعونه من التزوج بها. لأنهم كانوا شديدي الغيرة على النساء، حتى إن أحدهم إذا سطا عليه عدو وخاف على حياته منه عمد إلى امرأته أو حبيبته فيقتلها غيرة عليها من أن يمسها سواه بعد موته، ويندر في الجاهلين أن يشبب شاعرهم بغير حبيبته. وإذا فعل فلداع فوق العادة، كما فعل دريد بن الصمة إذ رثى أخاه بقصيدة صدّرها بأبيات غزلية، وقد رأيت الشعراء العشاق في الجاهلية يعدون على الأصابع، فأصبحوا في العصر الأموي أضعاف ذلك، وأكثروا من وصف الحب وأعراضه وأحواله.

وذلك طبيعي في الأمة بانتقالها من البداوة إلى الحضارة، وخصوصاً إذا كان ذلك على أثر الفتوح وفيها الغنائم من السبايا، فيصيب الرجل منهم جارية أو بضع جوارٍ في كل معركة ملكاً حلالاً له. وكانت السبايا في صدر الإسلام كثيرات وأكثرهن من الروم والفرس. والفاتحون يبيعونهن أو يستخدمونهن في حاجات المنزل، ويستبقون الجميلات منهن للتسري، فتحركت القلوب وتنبهت القرائح للمواضيع الغزلية، وصار الشعراء يشببون بالنساء الجميلات. وكان الخلفاء الراشدون يعدون ذلك خروجاً عن حرمة الأدب، فجعلوا التشبيب ذنباً يستوجب القصاص. وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر يشبب بامرأة إلا جلده.

فلما أفضت الدولة إلى بني أمية وقد انتقلت عاصمتها من المدينة إلى دمشق وكثر الاختلاط بالأعاجم وأخذ العرب بأسباب الحضارة وذهبت هيبة العفة من نفوسهم، وانقضت شدة الراشدين في المحافظة عليها، هان عليهم التشبيب فأكثروا منه ولا سيما في المدينة، لأن أهلها من أسبق المسلمين إلى القصف واللهو لقيام بعض أبناء الصحابة بين أظهرهم، وقد أغرقهم معاوية بالعطايا والرواتب ليشغلهم باللهو عن طلب الملك، فكانوا ينفقون الأموال على المغنين ونحوهم، فكثر اللهو في المدينة وسبقت سائر المدائن الإسلامية إلى الغناء، وشاع القصف بين أهلها وتجرأ الشعراء على التشبيب بغير أحبائهم.

وجاء في هذا الكتاب أيضاً في موضع آخر ما نصه:

كان في المدينة على عهد معاوية طائفة من أبناء الصحابة يخشى قيامهم للمطالبة بالخلافة كما فعل أحدهم عبد الله بن الزبير، فأعماهم معاوية بالعطايا وقيدهم بالإحسان ووسعهم بالحلم، فركنوا إلى التمتع بالدنيا من طعام وشراب وسماع. ينفقون في ذلك الأموال وهي تتدفق عليهم من خزائن الشام. فلما تولى عبد الملك بن مروان سنة ٦٥هـ كانت المدينة قد أصبحت مرسحاً للغناء واللهو، ونبع فيها طائفة من المغنين، وتكاثر فيها المخنثون وأهل القصف إلا من كان فيها من الحفاظ والقراء. اهـ المقصود منه.

أفلا ترى أيها الذكي أن فساد الأمة العربية في القرون المتأخرة إنما حصل بكثرة الإفراط في اللذات والانخراط في سلك الترف والنعيم الذي هو آفة العمران، فالخلفاء الراشدين كما رأيت منعوا التشبيب وبنو أمية أباحوه، والعباسيون أعظموا أمره، ألا ترى معي أن الإسراف في ذلك ناجم من الإسراف في مال الدولة وفي الانغماس في اللذات، وهذا وذاك أبعد المسلمين عن معرفة جمال هذه الدنيا لأننا بين جمالين: جمال يقصرنا على الشهوة الحيوانية وهو ما رأيت، وجمال يفرحنا ويشرح صدورنا بجمال العلوم ومعرفتها والعروج إلى الله بمعرفتها، فإن غلب الأول انحطت الأمة، وإذا غلب الثاني ارتقت، وهذا معنى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف: ٧]، فالأرض مزدانة بالجمال وكل يصيب منه ما استعد له. وكتاب الأغاني الذي انتشر في الخافقين من أسباب كثرة الفجور وسقوط الأمة الأندلسية، لأن أبناء الأشراف هناك كانوا يقرؤون المحاضرات المخترعة عن ملوك العباسيين وعشقهم للجواري ومعاقرة بنت الحان، فظنوا ذلك حقاً فاعتنقوا تلك المذاهب فهلكوا. كل ذلك داخل في معنى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾[الصافات: ٦] الخ، ومعنى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف: ٧].

يا أمة الإسلام، هذبوا الأدب العربي. لا تلقوا بالكتب الموروثة بين أيدي شبانكم. عشقوهم من إبان صغرهم في جمال السماء وجمال الأرض لا في الغزل والتشبيب. احذروا هنا الأدب فإنه أدب ضال. فليرووا الأشعار الفاضلة لا الغزلية كأبيات عمرو بن كلثوم في الفخر في معلقته، إذ يقول:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً ... أبينا أن نقرّ الذل فينا

وكأبيات زهير بن أبي سلمى إذ يقول:

ومن كان ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

وكقول طرفة بن العبد في معلقته:

لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوْتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى ... لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِاليَدِ

مَتَى مَا يَشَأْ يَوماً يَقُدْهُ لِحَتْفِهِ ... وَمَنْ يَكُ في أَسْرِ المَنِيَّةِ يَنْقَدِ

إن ما يسمعه الفتى أيام حداثته عالق لا شك بفؤاده ملازم له بقية حياته، ونرى الفرنجة في تعليمهم للأحداث يدرسون لهم في المدارس كتباً فيها صور جميلة نباتية وحيوانية وسماوية، فيعشقون العلم والبحث والنظر في هذه العوالم.

وهذا هو المنطق بعض الانطباق على هذه الآية: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾[الصافات:٦] الخ، وآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[الكهف:٧] الخ.

أفليس المسلمون أولى باقتفاء آثار القرآن. هاأنا ذا حذرتكم أيها المسلمون. فأما أدب الأغاني والكتب الأخرى التي تماثله فليس يجوز أن تكون عامة، بل تخصص لها طائفة لحفظ المأثور. أما التعليم العام فيجب حذف التشبيب منه بتاتاً واستبداله بعجائب الدنيا الجميلة، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

اعتراض على المؤلف وجوابه

هنا سألني أحد الفضلاء فقال: وهل في شرعة التأليف أن تذكر أشعار الغزل وذمها وأشعار الفضائل ومدحها ومغاني المدينة وفسوق الأندلسيين وذهاب دولتهم وهكذا؟ هل الآية تحتمل هذا كله؟ فقلت: وأكثر منه. إن الزينة السماوية والزينة الأرضية قد جمعتا جميع العلوم. فإذا صرف الإنسان عقله للزينة العامة في العوالم كان حكيماً. وإذا حصر عقله في الجزئيات فإن كانت مؤلمة أورثته الشك كما تقدم عن إخوان الصفاء، وإن كانت سارّة كما تقدم في محاسن النساء وسائر الشهوات أورثته العصيان. فالزينة إذن تشمل العلوم كلها، وتشمل ما يحصر النفس في الشهوات التي تخفض النفس وتمنعها من الرفعة في الدنيا والآخرة. أليس القرآن يفسر بعضه بعضاً. ألم يقل الله في سورة «الكهف» ـ بعد أن ذكر في أولها أن ما على الأرض زينة لها ـ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف:٢٧-٢٨]، إذن هذه الآية تكملة للآيتين في «الصافات» و«الكهف». فهو يقول: إن الزينة زينتان: زينة الحياة الدنيا وهي مذمومة. وما هي زينة الحياة الدنيا؟ قد فسرها بقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الكهف:٤٦]، وكل ما ألهانا عن العلم فهو زينة الحياة الدنيا وهي مذمومة. وكل ما ذكرته لك داخل في هذا. إذن هذا كله تفسير للآية. إذن الآيات مرتبات هكذا: (١) ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾[الصافات:٦] الآية. (٢) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[الكهف:٧]. (٣) ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الكهف:٢٨]. (٤) ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الكهف:٤٦]. (٥) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[آل عمران:١٤]. (٦) ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[فاطر:٨].

فالأولى والثانية للزينة العامة. والثالثة أخرجت الزينة المهيجة للشهوات. والرابعة مفصلة بعض التفصيل للثالثة. والخامسة مفصلة للرابعة. والسادسة لبيان أن الزينة قد تعدّت ذلك إلى سوء أعمال الناس التي رأوها حسنة في بادئ الرأي. إذن كل ما ذكرناه هنا لا بد منه حتى نعرف لماذا زين الله لنا السماء وما الزينة المذمومة وما الزينة الممدوحة؟ وهل الغزل إلا ما يرجع إلى النساء المذكورات في

هذه الآيات؟ وهل بغير أمثال ما كتبناه يكمل انتفاع المسلمين بمجمل آيات القرآن. فقال: «إن من البيان لسحراً». فقلت: اللهم إني أحمدك على البيان والتبيين وانشراح الصدور وإظهار الحقائق لأمم الإسلام. انتهى صباح يوم الأربعاء (١٣) أغسطس سنة ١٩٣٠م.

نور على نور

أذكرك بما تقدم في أول سورة «البقرة» عند آية الجنة، وأنني نقلت لك هناك عن الإمام الغزالي في «الإحياء» أن العلم جنة العارفين، وأن الجنة الحسية للجاهلين، فارجع إليه هناك. فأي علم هذا الذي إذا أدركناه يكون جنة؟ يا ليت شعري، أعلوم اللغات من الصرف والنحو والبلاغة التي فتن بالوقوف عند حدها المخدوعون من الأجيال الفائتة الإسلامية بعد العصور الثلاثة الأولى الذين لم يجدوا لهم منقذين من الجهل، وكلما نبغ نابغ لينقذهم كفروه جهالة ونذالة، أم علم الفقه وأصوله مع الوقوف عليهما. كلا. بل هي العلوم التي بها نعرف نظام هذا العالم. وبعبارة أخرى: هي العلوم التي قد جمع زهراتها هذا التفسير.

الله أكبر، أليس في تقديم الكلام على تلك العلوم في هذه السورة شاهد على ذلك. ألم يقدم الله هنا ذكر جمال العوالم وزينة السماء على ذكر قاصرات الطرف الحور العين اللاتي كأنهن البيض المكنون، وعلى ذكر كأس المعين البيضاء التي تلذ للشاربين ولا تضر عقولهم ولا تسكرهم، بل قدم الله آية جمال العوالم وزينة السماء على ذكر لذات الجنات وحورها وخمرتها، فقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[الصافات: ٦]، ولا جرم أن هذه لذة العقول، ولذات الجنات الظاهرة حسية ولذات العقول أقوى من لذات الأجسام، ولذلك كانت لذة الملوك والقواد أشد من لذات العمال والصناع، وفوق هؤلاء وهؤلاء لذات العلماء، واللذة بالمعرفة لا حد لها، والله يوم القيامة يجعل الناس في منازلهم بحيث لا يتخطونها، فمن لم يعرف من اللذات إلا النساء والشرب والأكل أدخله الجنة الحسية، ومن ارتقى فوق هذه الطبقة فعرف الله أعطاه فوق ذلك النظر إلى وجهه على مقدار علمه في الدنيا فيزيد هناك انكشافاً.

سوانح وخواطر في هذا المقام

يظهر لي أن صفتي الشجاعة والحب هما الصفتان اللتان بهما سعادة الحياة والممات، وأن الجبن والبغض بهما شقاء الحياة والممات، وللحب مفتاح، وهذا المفتاح والحمد لله أصبح في أيدي الأذكياء قارئي هذا التفسير وهو النظر في جمال هذه العوالم. فكلما زدنا علماً زدنا حباً لصانع العالم. وهذا الحب يجعل حياتنا كلها نشاطاً في أعمالنا، ونحس فيها بشعور المحبة الإنسانية العامة والخاصة. فترى الذين وصلوا إلى هذه الدرجة مغرمين بإسعاد الأمم، لأن العالم في نظرهم أصبح واحداً، ويقدمون إسعاد أمم الإسلام الذين هم أقرب إليهم ولا يتلكؤون في إسعاد الأمم الأخرى.

فيا ليت شعري، كيف يرى الإنسان ذلك الجمال العام الذي ضربت لك مثله بما شاهدته في الحقل هذه السنة في آخر شهر يوليو سنة ١٩٣٠ ليلاً قبيل الفجر في أول هذا المقال من بدائع الجمال والنور المشرق في سائر الأرجاء، و ذلك الجمال وذلك النور وراءهما ما هو أجمل وأبهى وأبهر وهي

نفس الحقائق العلمية. أقول: كيف يرى الإنسان ذلك وأنه لا حد له في البهجة والجمال والكمال والامتداد ولا تكون حياته كلها علماً وجمالاً وإسعاداً للناس قاطبة. ثم كيف يرى ذلك ثم يخاف من الموت وقد علم علماً ليس بالظن أن روحه في يد مبدع هذا الجمال لا سيما أنه أحبه، وبمقدار المحبة تكون لذة النظر للمحبوب. وهذه الأجسام مانعة منه. فإذن تكون هذه الحياة عائقة عن النظر. إذن هذا الحب تصحبه الشجاعة فإذا لم يخف من الموت فمم يخاف إذن، فلا مصيبة في هذه الأرض أقوى عند الإنسان من الموت، فإذا لم يكن مصيبة أصبحت جميع أحوال الحياة سهلة، وضعفت آثار ما نسميه مصائب فيها. فهاهنا اصطحبت الشجاعة مع الحب، وبضدها تتميز الأشياء. فإذا عاش الإنسان جاهلاً فلم يعرف هذه العجائب لم يدخل الحب قلبه. وإذا عمل عملاً صالحاً لم يكن له باعث عليه إلا أحد أمرين: إما أن ينتظر المكافأة عليه في الدنيا على أيدي الملوك والأمراء والعامة، وإما أن ينتظرها في الآخرة بالحور الحسان وكأس المعين والحلي والحلل. وهذا وما قبله آثارهما أضعف من آثار المحبين لربهم، أولئك الذين يعملون في الدنيا ويرون أنهم سعداء بنفس أعمالهم، ويرون اطلاع محبوبهم على أعمالهم خير مشجع لهم، وهؤلاء سعادتهم في الآخرة تكون على هذا المنوال، فهم أبداً في ازدياد العلم، ونفس العلم لهم سعادة حقيقية، ولو أنهم منعوا ذلك النعيم ووقفوا عند حد المطاعم والمشارب والحور، لرأوا أنهم معذبون عذاباً لا يطاق. وفي هذا العالم اليوم من إذا قال له الملك: أنا أعطيك أجمل جارية عندي تحظى بها ومن المال ما تشتهي ولكن لا تحضر مجلسي لأنك لا تصلح للوزارة ولا للمشاورة وللمنادمة، لكان ذلك عليه أشد من الموت، لأنه إذ ذاك سقطت كرامته في نفسه وأصبح ذليلاً مهيناً. فإذا كان هذا في الطبقة الوسطى وهم الملوك والأمراء ومن على شاكلتهم وهم أرباب اللذة الوسطى، فما بالك بمن فوقهم من أرباب اللذة العليا العقلية وهم الحكماء. ولقد قدمنا كثيراً في هذا التفسير أن لذة المحسوسات أدنى، وأن لذة الحكم والغلبة أرقى، كلذة الأسد بنسبة لذة العنز والغزال. فأما لذة العلم والحكمة فهي أحق من جميع اللذات. ولن يصدّق هذا القول إلا من عرف هذه الأقسام الثلاثة وجربها بنفسه، فإن من لم يجرب ولم يذق فمستحيل عليه أن يصدق ذلك أو يتصوره. ولله الخلق والأمر وهو رب العالمين.

ثم إن هؤلاء المحبين لربهم بسبب هذه العلوم يرون أن كل من أحب غيره فإن ذلك المحبوب يشعر بحب من أحبه، وهذه تعطيهم تشجيعاً، إذ يرون أن الله يحبهم حباً يليق بجلاله لا كحب المخلوق لا سيما إذا قرؤوا قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[آل عمران: ٣١].

واعلم أن الأذكياء من قراء هذا التفسير سيكون حبهم لله مفرطاً. ذلك أن الإنسان كلما ازداد علماً ازداد حباً. وهذا العلم الموجب للحب إنما هو علم العجائب، والعجائب في كتب الحيوان والنبات والمعادن وعلم طبقات الأرض والفلك وغيرها مشتتة في الكتب بل صعبة الفهم، فلذلك لا تجد البارعين في تلك العلوم عندهم هذه المحبة، بل ربما أنكروا الألوهية أو صدقوا بها، ولكنهم غافلون، لأن علومهم أخذوها منفصلة غير متصلة ولا موصلة لمبدعها. أما في هذا التفسير فإنها متصلة مفصلة.

إذن هي موصلة لذلك الحب، ولم تكن هذه العجائب في القرون الأولى واضحة كما اتضحت في هذا الزمان لا سيما بالصور الفوتوغرافية. وسيزيد يقينك بما كتبته الآن ما أنقله لك عن الإمام الغزالي في «الإحياء» تحت العنوان الآتي وهذا نصه:

بيان السبب في تفاوت الناس في الحب

اعلم أن المؤمنين مشتركون في أصل الحب لاشتراكهم في أصل المحبة، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها، وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسداً، بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق، واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين، والمتخيلون هم الضالون، والعارفون بالحقائق هم المقربون، وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩] الآية.

فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالاً، فنقول: أصحاب الشافعي مثلاً يشتركون في حب الشافعي رحمه الله، الفقهاء منهم والعوام، لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله، ولكن العامي يعرف علمه مجملاً والفقيه يعرفه مفصلاً، فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وحبه له أشد، فإن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لا محالة ومال إليه قلبه، فإن رأى تصنيفاً آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لا محالة حبه، لأنه تضاعفت معرفته بعلمه، وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حباً، وكذا سائر الصناعات والفضائل، والعامي قد يسمع أن فلاناً مصنف وأنه حسن التصنيف، ولكن لا يدري ما في التصنيف، فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل.

والبصير إذا فتش عن التصانيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لا محالة، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف. والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه والعامي يعلم ذلك ويعتقده، وأما البصير فإنه يطالع تصنيف صنع الله تعالى فيه، حتى يرى في البعوض مثلاً من عجائب صنعه ما ينبهر به عقله ويتحير فيه لبه، ويزداد بسببه لا محالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه فيزداد له حباً، وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعاً استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وازداد به معرفة وله حباً. وبحر هذه المعرفة ـ أعني معرفة عجائب صنع الله تعالى ـ بحر لا ساحل له، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لا حصر له، ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب. فإن من يحب الله مثلاً لكونه محسناً إليه منعماً عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته، إذ تتغير بتغير الإحسان، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعماء. وأما من يحبه لذاته فلأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه.

فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة، والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: ٢١].

بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه وتعالى

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى، وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول، وترى الأمر بالضد من ذلك، فلا بد من بيان السبب فيه، وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا تفهمه إلا بمثال، وهو أنا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخيط مثلاً كان كونه حياً عندنا من أظهر الموجودات، فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة، إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها، وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته، أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيواناً فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته، فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته، فلو نظرنا إلى كل ما في العالم سواه لم نعرف به صفته، فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح، ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض. بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا، وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة، وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد، وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته، والموجودات المدركة لا حصر لها، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله، إذ كل ذرة فإنها تنادي بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها. يشهد بذلك أولاً تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة. فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها، كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها، ولكن لما لم يبق شيء في الوجود مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرّف عظم ظهوره، فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه، فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان: أحدهما خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله. والآخر ما يتناهى وضوحه، وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، ولكن لشدة ظهوره، فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره، فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال

الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه.

فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور، فإن الأشياء تستبان بأضدادها وما عم وجوده، حتى إنه لا ضد له عسر إدراكه، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب، ولما اشتركت بالدلالة على نسق واحد أشكل الأمر. ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزول عند غيبة الشمس، فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكنا نظن أنه لا هيئة للأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما، فإنا لا نشاهد في الأسود إلا السواد ولا في الأبيض إلا البياض، فأما الضوء فلا ندركه وحده، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور، مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات، فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره، انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده، فالله تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدّت السماوات والأرض وبطل الملك والملكوت، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به وبعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة، ولكن دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد، ووجوده دائم الأحوال يستحيل خلافه، فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء. فهذا هو السبب في قصور الأفهام. وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره، يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله. وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له، فلا وجود لها في الحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها، ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر، بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق، فلا يكون نظره مجاوزاً له إلى غيره، كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيه الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف. وكل العالم تصنيف الله تعالى، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظراً إلا في الله ولا عارفاً إلا بالله ولا محباً إلا له، وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه، بل من حيث إنه عبد الله، فهذا يقال فيه: إنه فني في التوحيد، وإنه فني عن نفسه، وإليه الإشارة بقول من قال: كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن، فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام، وباشتغالهم بأنفسهم، واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى،

وانضم إليه أن المدركات كلها هي التي شاهدة على الله ؛ إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً وهو مستغرق الهم بشهواته، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس. ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيواناً غريباً أو نباتاً غريباً أو فعلاً من أفعال الله تعالى خارقاً للعادة عجيباً انطلق لسانه بالمعرفة طبعاً وأعضاؤه فقال: سبحان الله، وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة، وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها، ولو فرض أكمه بلغ عاقلاً ثم انقشعت غشاوة عينيه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها، فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سدّ على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة، فالناس في طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذي يضرب به المثل إذا كان راكباً لحماره وهو يطلب حماره، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة، فهذا سر هذا الأمر فليحقق ولذلك قيل:

لقد ظهرت فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجباً ... فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

زبرجدة في قوله تعالى: ﴿ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴾ [الصافات: ١٠] وظهور أسرار القرآن في عصرنا الحاضر

اعلم أيها الذكي أن كثيراً من العقلاء وأهل العلم والفلسفة إذا سمعوا هذه الآية توهموا وظنوا أن هذه لا تخلو من أحد أمرين: إما أن تكون أمراً خيالياً وضع للوعظ والتعليم، وإما أنه مجاز، فإما أن يكون هناك شياطين يرتقون إلى السماء، ومتى وصلوا إليها سمعوا الملائكة وأن شهباً تقابلهم في طريقهم فتمنعهم، فهذا مما لا سبيل إليه بحسب ما نشر من العلوم.

هذا هو الذي يظنه أكثر أهل العلم في زماننا وفي كل زمان. واعلم أن العلم الناقص هذا شأنه فيحكم بما علم على ما لم يعلم، وهاأنا ذا باسط لك أيها الذكي آراء المتقدمين وعلماء العصر الحاضر في هذه المسألة لتقف أولاً على حقيقة الشهب بحسب العلوم المدونة في زماننا، ثم أحدثك بعدها عما فتح الله به من أسرار هذه الآية، ليزول الحرج من صدرك، ولتعلم من العلم ما لم ينله كثير من الفضلاء وليثلج صدرك، ولتكون من الموقنين الفرحين بالعلم الذي هو جنة معجلة للعارفين في هذه الحياة الدنيا فأقول ولله الفضل والمنة وهو رب العالمين.

قد تقدم بعض هذا المقام في سورة «الحجر»، ولكن هنا لا بد من استيفائه، فأقول ناقلاً عن كتابي «بهجة العلوم في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية» وهذا نصه:

حوادث كرة الأثير من الشهب الساقطة وانقضاض الكواكب ذوات الأذناب

أما الأقدمون فيقولون: إننا نرى في السماء صورة أعمدة مخروطة قائمة، قاعدتها مما يلي كرة النار، ومخروطها مما يلي وجه الأرض، وما هي إلا دخان يابس لطيف صعد من الأرض كما قدمناه

والجبال والبراري، فإذا بلغت الأبخرة الكرة الزمهريرية تتلاقى في أعلاها بكرة الأثير، وهي الكرة النارية التي حدثت فوق كرة الزمهرير بسبب سرعة الحركات الفلكية التي ولدت الحرارة فأنشأت هذه الكرة، وتقل حرارتها كلما اقتربت من كرة الزمهرير الفاصلة بينها وبين كرة النسيم، فإذا بلغ الدخان كرة الأثير المذكورة اشتعل ناراً، كما نرى الدخان الطائر من السراج المنطفئ يشتعل بملاقاته لسراج متقد، وكما نراها تشتعل في النفط الأبيض ثم تفنيه بسرعة فينطفئ، وإنما اعتبروها دخاناً محترقاً لأنهم يقولون إنها تظهر في أيام الجدب أكثر، والجدب يقل معه المياه في الأرض فيقل البخار ويكثر الدخان، ويستدلون على أنه دخان أيضاً بأن النار عند اشتعالها فيه ترى عظيمة، فلا تزال تقل حتى تختفي فيخيل للناظرين أنها نار نازلة من السماء. وتارة ترى كأنها كرة صغيرة متدحرجة على سطح كرة كبيرة، فهي تبتدئ في حركتها من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق ومن الجنوب إلى الشمال وبالعكس، وتارة تتكب فكأنها في نظر العين كرة من قطن اشتعلت فيها النار ثم رميت في الهواء، وكلما احترقت بالنار تناثر شررها وصغرت حتى تفنى. ومثالها الكرة التي يلعب بها أصحاب الخيالات، يعجنونها من سندروس وأجزاء عقاقير، ويشعلون فيها النار ويأخذونها في أفواههم، فإذا رقصوا أو تنفسوا رأيت النار تخرج من أفواههم ومناخرهم وهكذا حتى تفنى. ويقولون في ذوات الأذناب: إنها تظهر قبل طلوع الشمس أو بعد غروبها، ولا تحدث إلا في كرة الأثير، وهي تدور مع فلك القمر على توالي البروج، كسير الكواكب السيارة، وتارة تتأرجح راجعة، ومادتها هي المادة المتقدمة البخارية، ولكن هذه ألطف فتنعقد وتكون شفافة كالبلور، وإذا أشرقت عليها الشمس شفت من الجانب الآخر، فلا يزال المذنب يشرق ويغرب حتى ينمحي من الوجود. وملخص كلام القدماء أن الدخان اعتلى في الجو واشتعلت فيه النار ككرة القطن أو كالنفط المشتعل أو كالسندروس المعجون مع غيره. وأن لجمة الذنب أشف مادة وأبقى مدة وأطول أجلاً ثم تضمحل. سبب هذا الرأي أنهم كانوا يرون تبعاً للقدماء أن الكواكب لا تتناثر ولا تنكسر ولا يكون فيها شظايا لأنها باقية إلى الأبد وقد علمت بطلانه.

آراء علماء العصر الحاضر في المذنبات والشهب والنيازك

المذنب نجم ذو ذنب فله رأس وله ذنب، وهو أنواع: منه لا ذنب له وهي كثيرة التقلب، وقد تكون رؤوس المذنبات أجساماً مستقلة. وأما الأذناب فهي أجسام كبيرة لطيفة المادة دقيقتها، ولطافة الأذناب مستنتجة من خفتها، ولقد نعلم أن السيارات تسير في مدار واحد لجهة واحدة. أما المذنبات فلا نظام لها في سيرها، وأما كثرتها فهي كسمك البحر عداً. وذنبها يكون أكثر ظهوراً كلما اقتربت الرأس من الشمس، والرأس تنجذب نحو الشمس متى اقترب المذنب منها. فأما الذنب فإنما يكون اندفاعه إلى الجهة الأخرى، ومذنب «دوناتي» أول ما ظهر في شهر يونيو سنة ١٨٥٨، واختفى عن الأعين بعد قليل، ونور المذنب ليس مستعاراً كنور القمر، وكرة هذه النجمة يسمى نواة أو لباً، ورؤية ذوات الذنب لا تمكن إلا في جزء من مدارها، أي حين قربها من الشمس. وذوات الذنب متفاوتة في المقدار والضوء، فمنها ما تتعسر رؤيته ولو بآلة. ومنها ما يشغل بسبب عظم ذنبه ثلث السماء أو نصفها، بحيث يكون

أعظم من ٦٠ درجة إلى ٩٠، فالنجمة التي ظهرت سنة ١٨١١ إفرنكية كانت لا تكاد ترى، فكلما قربت من الشمس صارت بخاراً وأضحى جرمها شفافاً، وهي لا ترجع إلا بعد ٣٠ قرناً، ولم يتحقق العلماء من رجوع نجوم ذات ذنب مما رصدوها إلا اثنتين وهما:

(١) نجمة هليه التي تقطع فلكها في ٧٥ سنة ونصف وقد ظهرت سنة ١٩١٠.

(٢) النجمة القصيرة الدور، وهي تقطع فلكها في ثلاث سنين ونصف، وقد ظهرت سنة ١٨٢٩ وفيما بعدها.

ومن النجوم ذوات الأذناب ما لا تقطع فلكها إلا في عدة قرون. ومنها ما يذهب جهة النجوم الثوابت فيخفى عنها ولا يرجع أبداً.

إذا رؤيت ذوات الذنب لا يحكم عليها بأنها دورية أو غير دورية، وكيف يعلم ذلك وقد علم أن مدد دورة بعضها يعد بالألوف أو بمئات الألوف من السنين حتى ترجع، ومن ذا يضمن رجوعها.

الشهب والنيازك. الكرات النارية. الحجارة الجوية

الشهب جمع شهاب وهو ما يرى كأنه كوكب انقض. والنيازك جمع نيزك وهو معرب «نيزه» بالفارسية ومعناه الرمح القصير، ويطلق على الشهاب تشبيهاً، ويقال شهاب ثاقب ونجم ثاقب لأنه يثقب الظلام بضوئه.

الشهب: الشهاب ما يرى في الليالي قد انقض من السماء، وليس كوكباً، وإنما هي أجسام صغيرة ربما لا تزيد الواحدة عن حجم البلاطة، وهذه الأجسام كثيرة جداً، ومنها مجموعة تسمى الأسديات وهي تتم دورتها حول الشمس في شكل إهليلجي في ٣٣ سنة، ولا يحصى عدد هذه الشهب، وقطرها ١٠٠,٠٠٠ ميل أو أكثر. و الأرض لا تخترق في سيرها هذه الأسديات إلا ثلاث مرات كل مائة عام، وآخر مرة كانت سنة ١٨٦٦ وفي كل مرة تضيف آلاف الآلاف من هذه الشهب أو النيازك مما ينزل على سطحها. وأما النور الذي يظهر من تلك الشهب فإنما يكون من سرعتها واحتكاكها بمادة الجو كما يقدح الزناد، وهي أكثر سقوطاً في ليال معلومة فهي تزيد في ١٠ أغسطس و١٣ نوفمبر، وتقل في ٢٠ أبريل و٢٧ نوفمبر و١٨ و٢٠ أكتوبر و٦ و٩ و١٣ ديسمبر، ويقال: إن عدد الشهب التي نراها بالعين المجردة والمقارب المتوسطة مما يخترق جوّنا كل عام يبلغ نحو ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠، وآلاف آلاف منها تصيب أرضنا وتبقى عليها.

الكرات النارية: هي أيضاً أجسام مضيئة تظهر وتختفي بسرعة كالشهب، ولكنها أبطأ منها وتتمزق غالباً بالقرب من الأرض فتحدث فرقعة، وقد يكون منها اهتزازات، وما يقع منها على الأرض يسمى الحجارة الجوية، ويدخل في تركيبها الحديد والسيليس والمنيزيا والنيكل وغيره، وارتفاع الشهب من ٨ كيلو متراً إلى ٦٠ و١٠٠ و٢٠٠ كيلومتراً، وسرعتها متغيرة كارتفاعها، وقد تساوي سرعة الأرض بل تزيد عنها. ويقولون: إن هذه الكرات عبارة عن مادة قطعها صغيرة الجرم دائرة حول الشمس، ومتى قربت الأرض منها جذبت إليها بعض تلك القطع فتسقط نحو الأرض، وتشتعل في الجو على هيئة شهب أو تسقط إلى الأرض على هيئة حجارة جوية. اهـ.

فتأمل تجد الفرق بين القدماء والمحدثين. إن الأولين يزعمون أن تلك المذنبات والشهب والنيازك والكرات عبارة عن بخار أرضي قابل النار فاحترق. وعلماء العصر الحاضر يقولون: سلمنا بالاحتراق من الاحتكاك لا من كرة الأثير فنحن لا نقرّبها، ولكن لا نسلم أن المحترق هو البخار كلا، وإنما المحترق أجسام وقطع صغيرة دائرة حول الشمس كما يدور سرب الحمام والقطا في الجو، فمتى مرت الأرض به في أيام معلومة اختطفت منها آلافاً مؤلفة فطبختها بالحرارة في جوها من الاحتكاك بها كاحتكاك الزناد ثم التهمتها فأكلتها، وكأن هذه الأسديات المذكورة وأمثالها قطعان من البقر والغزلان تأكل منها الأرض إذا مرت بها وقد جاعت، وقد تأكل في أوقات معلومة، فإن للأرض كل ثلاث وثلاثين سنة مدة يقال لها الفرق بين السنين القمرية والسنين الشمسية، ويكون الفرق بينهما سنة في تلك المدة. وتلك المدة بنفسها هي التي تمر فيها في الأسديات، فإذا كان مائة سنة يكون الفرق بين السنين الشمسية والقمرية ثلاث سنين، فهكذا ستمر في تلك الأسديات لتأخذ زادها للسفر ثلاث مرات. فكم في الكون من عجب! وقبل ما تبلعه تصلحه بالنار في جوها كما نفعل نحن في طعامنا. وأقول: لقد اطلعت على بعض تلك الأحجار التي حفظت في المتاحف المصرية. والله أعلم.

توضيح الفرق بين المحدثين والقدماء فوق ما تقدم

فانظر أيها العاقل للعقول الإنسانية قديماً وحديثاً، فالقدماء لما اعتبروا الأرض مركز العالم والسماء لا كسر فيها، جعلوا ذوات الذنب والسهام والكرات النارية من الأرض. والمتأخرون قالوا: كلا. إنما هي أجرام دائرات حول الشمس تنزل إليها وترمى فوق سطحها، والجميع عرفوا أنها تارة تكون سهاماً وتارة تكون كرات، وأن نورها في الجو وحرارتها بالحركة والسرعة عند المتأخرين، وأن النار أحرقت الدخان عند المتقدمين، وكل من الأولين والآخرين يسمون حكماء لأنهم عرفوا الحقائق على مقدار الطاقة البشرية. انتهى علم الآثار العلوية. انتهى ما أردته من كتابي « بهجة العلوم ».

هاهي ذه أيها الذكي آراء القدماء وآراء المحدثين في الشهب والنيازك التي ذكرنا معها المذنبات تتميماً للمبحث العلمي، وقد علمت أن الشهب تبلغ (١٥٠) مليوناً في السنة حول أرضنا، كما أن المذنبات تبلغ عدد سمك البحر، فينتج من هذا كله أن جو الأرض مملوء من تلك الشهب ومن ذوات الأذناب، ونحن لا نرى منها إلا القليل، فهل هذه الشهب التي تخترق أرضنا وهي تجري حولها ليلاً ونهاراً هي التي تحرق الشياطين وتمنعها من صعود السماء.

أقول: اعلم أن الشياطين نوعان: شياطين الإنس وشياطين الجن، أما شياطين الإنس فهم النفوس المحجوبة التي تعيش في أبدانها في هذه الأرض من بني آدم، فهؤلاء الآن شياطين بالقوة، فإذا ماتوا صاروا كهيئة الشياطين بالفعل، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾[الشعراء: ٩٥]، إذن هم أصحاب وإخوان وأصدقاء، وكل ما أوتوا من زينة الحياة الدنيا من مال وولد ونعمة إن هي إلا عذاب لهم، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[التوبة: ٥٥]. والإنسان لا يستطيع الحياة إلا مع من هم على شاكلته، فالعالم لا يعيش عيشاً يناسبه إلا في هيئة علمية

واللص يفرح باللصوص وهؤلاء لا يعيشون في جو مكهرب بالعلم، والمطر ينزل من السحاب ويجري في الأنهار، ولكنه سرعان ما يكر راجعاً إلى موطنه الأصلي وهو البحر الذي استخرجه ضوء الشمس منه فارتفع فصار سحاباً، هكذا المفكرون في العجائب في هذه الدار المحبون للحكمة يرجعون إلى مقرهم عند ربهم، لأنهم دائماً يحنون إلى ذلك المقام. وشياطين الإنس الذين يعيشون في الأرض الآن لم يحجبهم عن الحقائق العلمية إلا أدران الذنوب والشهوات، كما أن الأنبياء صفت نفوسهم فاطلعوا والحكماء فكروا فعرفوا معرفة أقل فصاروا خلفاءهم. وللنفوس المحجوبة الشيطانية الإشارة بقوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[المطففين: ١٤-١٧]، وللنفوس الفاضلة الإشارة بالآية بعدها: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين: ١٨-١٩]. إذن النفوس الشيطانية من بني آدم لها شهوات وأهواء ومعاص ونزوات منعتها من الاطلاع على الحقائق. ومن ذلك إسرافها في المآكل والمشارب وتفانيها في طهي الطعام الذي يلذ طعمه ويقل خيره، وهل خيره إلا مادة الحياة المسماة بالفيتامين المتقدم كثيراً في هذا التفسير، والذي سيأتي الكلام عليه في سورة «ص» عند آية: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[ص: ٨٢]، فالتفاني في التوابل وفي الطبخ بالنار التي هي القاتلة لمادة الحياة في الطعام كما أظهره الكشف حديثاً، والتباعد عن الفطرة من تعاطي الطعام وهو غير مطبوخ من كل ما يمكن أكله بلا طبخ، فأصبح ذلك طبيعة للناس عالقة بهم لا يجدون عنها محيصاً، كما لا يجد السكير محيصاً عن السكر وهو يعلم أنه نار تلظى عليه. كل ذلك مورث للأمراض وضعف الصحة ومانع عن فهم الحقائق.

فلننظر إذن إلى بيت القصيد وهي النفوس الشيطانية التي فارقت الأجساد من بني آدم، وقلنا: إنهم هم إخوان الشياطين لأن القبيلين من واد واحد، ولأذكرك أيها الذكي بما تقدم في سور كثيرة مما نقلته عن علماء الأرواح أولاً وعن الشيخ الدباغ والخواص وأمثالهما سابقاً، وتجد بعضه في سورة «التوبة» فإنك تجد هناك أن الأرواح في البرزخ قبل يوم القيامة لا تكون في الجنة الحقيقية ولا في النار الحقيقية، فالجنة والنار الحقيقيتان تكونان يوم القيامة، ألم تر أن الله يقول: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[غافر: ٤٦] الخ، فهؤلاء هم وإخوانهم الشياطين يكونون في الجو لا يرتقون إلى الملأ الأعلى، وهذا الجو مملوء بهذه الشهب، وهذه الشهب كثيرة الحركات فيه، وكثرة الحركات فيه تجعله ميداناً لانشغال النفوس واضطراب الأفئدة، إذن كما أننا نعيش في أرض قد ملئت بالحرب والحرارة والبرودة والأمراض وهكذا؛ وذلك كله يشغل الأذهان عن الوصول للحقائق إلا قليلاً من الأكابر؛ هكذا الشياطين وإخوانهم من أرواح بني آدم الشريرة يعيشون في جو مملوء من الاضطراب والزلزلة المانعين من صفاء الأذهان الموصل للاطلاع على الحقائق، إذن في الجو أوصاب واضطراب يمنع سكانه من معرفة الحقائق كما في الأرض. وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴿٨﴾ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾[الصافات: ٨-٩]؛ جاء على حقيقته، فكما أن المجرمين من بني آدم الساكنين معنا في الأرض قد أضاعوا حياتهم في

الشهوات واللذات والحرب والضرب والقتال، وهم عن معرفة الحقائق بهذه الأعمال محجوبون، هكذا المجرمون من الأرواح الإنسانية وإخوانهم شياطين الجن الذين ضعفت نفوسهم فلم يجاوزوا جو أرضنا ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾[الصافات: ٩]؛ بغموم نحن نجهلها وهموم، ومنها أخلاقهم التي اكتسبها بعضهم في الأرض، ولم يظهر لنا من ذلك العذاب إلا تلك الحجارة النارية التي تجعل جوهم خالياً من الصفاء، كما نرى الناس يقتتلون في الميادين ونفوسهم مشغولة بالمدافع والنيران التي تقذف منها على المتحاربين، وكما أن المدافع والغازات الخانقة والمعمية تنزل على المتحاربين بأيدي غيرهم، هكذا هذه الشهب تسقط في الأجواء بأيدي الملائكة المذكورين قبل ذلك الموصوفين بالزاجرات زجراً، فهم كما يزجرون السحاب ويزجرون العالم العلوي والسفلي ليكون خاضعاً لأمر الله وحكمه. هكذا يزجرون بتلك الشهب تلك الأرواح عذاباً لها لتحجبها عن الاطلاع على الحقائق، كما حجبت نفوس كثير من أهل الأرض عنها، لأنها ليست أهلاً لذلك، والله يقول: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف: ١٥٦] وهذه الأرواح المحجوبة منعت معرفة الحقائق رحمة من الله بها، لأنها لم تستعد لها، ولو عرفت لهلكت، فالمنع الذي هو عذاب لهم قد صاحبته رحمة حقيقية، لأن العالم كله خلقه وهو أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾[الصافات: ٦] إلى قوله: ﴿ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾[الصافات: ١٠]. انتهى صباح يوم الخميس (١٤) أغسطس سنة ١٩٣٠.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[الصافات: ٢٢-٢٤]

أيها المسلمون، ظهر الحق واستبان السبيل. الناس طائفتان: طائفة جاهلة، وأخرى عالمة، فالجاهلة تعيش وتموت كما يعيش ويموت الدود، ولو كانت من قارئي الديانات والعلوم وهم في غفلة معرضون. أما الطائفة العالمة فهي التي أدركت اليوم قبل يوم القيامة إدراكاً يقينياً أن هذه العوالم كلها تجري على نظام ثابت من حيث المناسبات، فكما أننا نرى الطيور في الجو والأنعام على الأرض والسمك في البحر بحيث لا يقدر أحدها أن يعيش في غير مكانه المعدّ له. وأيضاً كل طائفة من الإنسان والأنعام والطير لا يحب أحدها أن تعيش إلا مع أمثاله، وهو غريب بعيد عن غير نوعه. هذا أمر واضح. فهكذا سنكون بعد الموت، فأصحاب الجحيم هم هنا الآن مجتمعون معاً كما سيجتمعون معاً هناك. وسترى الحكام الظالمين لا يحبون إلا أمثالهم، واللصوص وأرباب الكبائر جميعاً يألف بعضهم بعضاً في الدنيا والآخرة على وتيرة واحدة.

أيها المسلمون، العالم مقبل على أيام انقلاب عظيم، وسوف يختلطون بالأمم عاجلاً أو آجلاً. والأمم المعاصرة لنا كلهم أو جلهم إخوان أو أصحاب المسيح الدجال، لأن المسيح على قسمين: مسيح صادق وهو المسيح ابن مريم وأتباعه القدماء الصالحون. ومسيح دجال كاذب يظهر الصلاح وليس بصالح، وهذا هو المسيح الدجال الوارد في الشريعة، وقد ظهر أعوانه في الأمم المعاصرة لنا.

إن المسيح الدجال الذي ورد في الحديث يظهر أنه يسعدنا بما يشبه الجنة، ويهددنا بما يظهر لنا أنه جهنم. فإذا دخلنا ناره أصبحنا في نعيم وبالعكس إذا دخلنا جنته. الله أكبر، أليس هذا حاصلاً فعلاً حقاً وصدقاً. ألم تدخل أوروبا بلاد الشرق لارتقائنا ثم هي تملأ بلادنا بالخمر وأنواع المخدرات. فوا أسفاه على بلادي المصرية. واحسرتاه على عقول ونفوس ذلت وهلكت.

تقدم في هذا التفسير أني نقلت عن «هنري الفرنسي» أنه قال: إن الخمر التي يستعملها المستعمرون في إهلاك الشعوب لم تؤثر في بلاد الجزائر. ولكن أنا أقول متحسراً متأسفاً: لقد نال المستعمرون ما أرادوا ودخل مسيحيوهم الدجالون بلادنا وضحكوا على العقول وملؤوا البلاد بالمخدرات والمسكرات والسموم المهلكات. فانظر ما جاء في مجلة «الدنيا المصورة» تحت العنوان الآتي وهذا نصه:

عبيد السموم البيضاء

أولئك الذين اشتروا الموت بالشرف والكرامة

حركة جديدة مباركة لمحاربة هذه السموم من مكتب مكافحة المخدرات بحكمدارية القاهرة

إذا دهم البلاد عدو قادر ينهب الأرواح ويدمر الأملاك ويعيث في الأرض فساداً؛ فإن الواجب يقضي على جميع أبناء البلد الواحد بأن يتآزروا ويتضامنوا لدفع أذى هذا العدو السفاح وصون البلد من شره وويله. وقد ينكب العالم بالحروب وبالمجاعات وبالأوبئة، ولكنه لم ينكب من قبل بمثل نكبة المخدرات التي تفترس الأرواح قبل الأجسام، وتقضي على الأخلاق والعزائم، وتجعل من بني الإنسان الذين خلقوا للعمل وللجهاد جثثاً بالية وحطاماً فانياً. وقد نكبت مصر كما نكبت البلدان الأخرى بهذا الداء الوبيل الذي نفث سمومه بين طبقات فيها العمال وفتك فتكاً ذريعاً. وكان من حسن حظ مصر أن آلى حضرة صاحب السعادة حكمدار بوليس القاهرة أن يحارب هذا الداء الفتاك محاربة قاسية لا تعرف الشفقة والرحمة. وقد ظهرت نتيجة هذه الجهود وأثمرت ثمراً حسناً، وبعد أن كانت الوسيلة التي اتبعتها الحكمدارية هي وسيلة القمع والتهديد. والحكم بالسجن الطويل والغرامات الفادحة على تجار هذه السموم ومدمنيها، عمدت إلى وسائل الوعظ والإرشاد والترغيب، وكثيراً ما أفلحت الوعود حيث لا يفلح الوعيد. ولهذه المخدرات أحياء خاصة تنتشر فيها كما ينتشر اللهب في الهشيم اليابس. ومن هذه الأحياء المنكوبة حي الترعة البولاقية. طوفة واحدة في ذلك الحي تبين لك أهوال هذه السموم وفتكها الذريع بالنفوس. فإذا جلت بين الدور الحقيرة والأزقة والحارات خيل إليك أنك تجول في مقبرة لفظت أمواتها فخرجوا أشباحاً مجردين من اللحم والدم، يهيمون في الطرقات وهم عظام نخرة تكسوها طبقة من الجلد الداكن الذي فقد رونق الحياة ونضرة الصحة. يفيض هذا الحي بأولئك العمال البائسين وأكثرهم من الصعايدة ومن الطبقة السفلى، الذين أدمنوا تعاطي المخدرات فأصبحوا لا يعيشون إلا لأجلها، فلا يهمهم أن يأكلوا أو يشربوا أو يلبسوا، وإنما همهم أن يحصلوا على ما يشبع فيهم تلك الشهوة المفترسة. شهوة شم السموم وحقنها. ولم تكن الحكمدارية تجهل مصائب هذا الحي، بل كانت لها في كل حين هجمة على تجاره تقودهم إلى أعماق

السجون، وبحث دقيق بين ساكنيه يؤدي بمن يضبط معه شيء من هذه السموم إلى الحبس. ولكن ما حيلة البوليس في شخص تراه مهلهل الثياب زائغ البصر محطم الأعصاب مطروحاً على الأرض لا يقوى على الحراك، وإن قوي فإنما يسعى للحصول على دراهم قليلة يشتري بها شيئاً من الكوكايين أو الهروين يسمم به جسده البالي. ما حيلة البوليس فيه وهو لا يحمل معه من المخدرات ما يجعله طريدة السجن؟ لذلك قامت قوة من رجال البوليس في الصباح المبكر من يوم الأربعاء الماضي وطافت في ذلك الحي المنكوب، وراح أفرادها يتصيدون تلك الجثث المتحركة من الأزقة والشوارع والحوانيت. ولم يكن البوليس في حاجة إلى من يرشده إلى مدمني تلك السموم فإن لهم طابعاً خاصاً، طابع البؤس والجوع والقذارة والجنون. ولم تمض ساعات قليلة حتى جمع البوليس حوالي ٢٥٠ شخصاً من المدمنين الذين تنم مظاهرهم عليهم، ثم حملهم في السيارات الكبيرة إلى دار المحافظة، وجلس ذلك الجيش الجرار في فناء المحافظة وهم لا يكادون يفقهون ما حولهم. وكان مشهداً مفزعاً هو عبرة المعتبرين. وهو الدرس البليغ لمن تحدثه نفسه بأن يقضي على نفسه وعلى روحه وعلى كرامته هذا القضاء الشنيع. وراح رجال البوليس يحققون أمرهم. واتضح أن الكثيرين منهم سجنوا مراراً لإحرازهم المخدرات ثم أفرج عنهم بعد أن انتهت مدة سجنهم، فلم يروعهم السجن بل عادوا إلى شر ما كانوا عليه. وبينهم شبان في مقتبل الحياة وقد اضمحلت قواهم العقلية وظهرت عليهم دلائل البله والجنون وخارت قواهم الجسمانية فكأنهم في دور الاحتضار. واشتد بهم البؤس حتى لم يجدوا ما يسترون به أجسادهم الناحلة إلا خرقاً بالية وأسمالاً مهلهلة. وطاف بهم سعادة الحكمدار وضباط الحكمدارية وسار بينهم جناب الميرالاي بيكر بيك يسوق إليهم النصح ويذكرهم بأولادهم الجائعين وعائلاتهم المنكوبة وكرامتهم الضائعة، وهم جمود ذاهلون. ولا شك في أن أولئك المنكوبين مجموعة آلام وأحزان وشقاء. فإن لكل منهم قصة كاملة ملؤها الفواجع والنكبات. ويكفي أن نروي هنا قصص بعضهم حتى يدرك القارئ مقدار ما تصنع تلك المخدرات بضحاياها. فهذا عامل كان يشتغل نجاراً وله زوجة وابنتان. ابتلي بداء المخدرات فما أن لبث أن طرد من عمله. ولم يجد وسيلة للحصول على ثمن السم إلا بيع أثاث منزله. وحاولت زوجته أن تردعه فلم يرتدع، ولم يعد لديه ما يصلح للبيع، فراح يأمر زوجته بأن تشتغل حتى تأتيه بالمال الذي لم يعد في وسعه الحصول عليه بعد أن خمدت قواه. ولكن الزوجة كانت عاجزة عن العمل. وأرهقها الزوج التعس بطلب المال، وبلغت به الخسة أن عرض عليها أن تتاجر بعرضها الذي هو عرضه. فذهبت غاضبة إلى منزل أحد جيرانها حيث لم يكن لها أهل بالقاهرة. وأما البنتان فقد سعى الأب حتى استطاع أن يرسل كلًّا منهما خادمة في منزل ويحصل لنفسه على أجرة خدمتهما. وبعد شهور قليلة فرت إحدى البنتين واختفت آثارها. ولو كان في الأب بقية من قوة تساعد على البحث لعثر عليها في دور الفجور. وغيره شيخ كبير لم يجد وسيلة للحصول على المال ليسمم جسده إلا بالسرقة فسرق وسجن. وخرج من السجن فلم يجد أثراً لابنته التي كانت تعوله وقد جرفتها الأقدار القاسية في سبيلها. وهذا كان «أفندياً» وكان موظفاً. ثم ابتلي بهذا الداء وكان يحسبه في أول الأمر لهواً بسيطاً. وما لبث ذلك اللهو أن أصبح شغلاً شاغلاً.

وطرد من وظيفته بعد أن انقطع عن أداء عمله، وطلقت منه زوجته ورحلت إلى أهلها. وانتقل من الشقة التي كان يسكنها إلى مندرة حقيرة في حي بولاق. وعاش عالة على تجار المخدرات يوزع لهم بضائعهم المسمومة مقابل أن يمنحوه شيئاً يشبع به شهوة شمه، وباع ثيابه وسار في الطرقات عاريِ الرأس حافي القدمين. ثم ضبطه البوليس فسجن. وقضى في السجن شهوراً، وخرج منه وليس في العالم بأسره من يهتم بأمره. فكان يرقد ليلة تحت الجدران في الأزقة المظلمة، ويسعى نهاره للحصول على قروش معدودة بأية وسيلة. فكانت الوسيلة التي هداه إليها البحث أن يرشد طلاب اللهو إلى منازل الدعارة السرية؟ أولئك هم عبيد السموم البيضاء الذين اشتروا الموت بالشرف والكرامة. وسترى في الرسم الآتي (شكل ١) صورة طائفة كبيرة من المصريين المدمنين على تعاطي الكوكايين.



(شكل ١) أخذت هذه الصورة للمدمنين على الكوكايين ـ وكان عددهم ٢٥٠ نفساً في حوش المحافظة ويرى بجوارهم العساكر

وجاء في جريدة الأهرام في يوم الثلاثاء الموافق ٢٨ يناير سنة ١٩٣٠ ما نصه:

بيان رسل باشا في لجنة الأفيون

صراحة رسل باشا ووقع بيانه

جنيف في ٢٧ يناير، افتتح اللواء رسل باشا في لجنة الأفيون المناقشة في منع الاتجار بالمخدرات، فبسط الحالة في مصر بسطاً مقروناً بالصراحة والشجاعة، وكان لكلامه عن إنشاء هذه الآفة وعن العمل السيئ الذي يقوم به أصحاب مصانع المخدرات الأوروبية وقع عظيم في النفوس. وقد قال: إن هذه التجارة كانت قبل الحرب الكبرى مقتصرة على الحشيش السوري والأفيون السوداني، وكانت أضرارهما محصورة في دائرة ضيقة، فبعد الحرب قامت تجارة الكوكايين وتلتها تجارة الهرويين، وجنى المهربون منهما أرباحاً طائلة. وقد انتشر استعمال هذه المخدرات فتناولها جميع الطبقات حتى الفلاحين، وانتشرت بين الشبان على الخصوص، وأصبح الإدمان على هذه السموم يشمل أكثر من نصف مليون نفس من مجموع السكان الذي يبلغ أربعة عشر مليوناً. ووصف رسل باشا بعبارات مؤثرة فعل هذه الآفة وانتشار عدواها بين سكان هم من أصح الناس بنية وأعظمهم نشاطاً. وقال: هل

من العدل أن تصب أوروبا أطناناً من السموم على مصر. وناشد جميع البلدان التي تصنع المخدرات أن تعاون في منع هذه الآفة التي تعمل لجنة عصبة الأمم بعزم صادق في سبيل القضاء عليها، وتكلم بعبارة بليغة عن وجود التضامن الدولي في هذا الكفاح، وعن أن عمل أوروبا يجب أن يكون مقروناً بشعورها بالتبعة والمسؤولية. ثم كشف بصراحة وشجاعة النقاب الذي يلقيه بعض ضروب الأعمال البرلمانية والإدارية على أعمال القائمين بهذه التجارة في كثير من الأحيان، وهكذا قدم رسل باشا للجنة الأفيون مثلاً حسناً في استقلال الرأي والحزم والصراحة، وذكر الأعمال السيئة التي قامت بها عصابات مركزها في سويسرا وعمل بعض المصانع الألمانية والفرنسية. واستشهد بقضية مولر في بال وهي لا تزال لدى القضاء، وأشار إلى الفروع المنتشرة في إيطاليا وفرنسا وألمانيا واليونان وتركيا، وقال: إن أساليب أصحاب هذه الصناعة ومصدري موادها قد اكتشفت في أكثر الأحيان بفضل يقظة رجال السلطة في مصر. وأثنى على ما أبداه رجال السلطة الفرنسية والسلطة السويسرية من المعاونة، فرد عليهم المسيو بورجوا مندوب فرنسا قائلاً: إن الحكومة الفرنسية مصممة على متابعة هذه المعاونة لمنع هذه الآفة، وأكد المسيو كاريير مندوب سويسرا معاونة الحكومة السويسرية، وأشار إلى تلافي النقص الذي كان في التشريع السويسري، ووقع بسببه ما أشار إليه رسل باشا في بيانه، وهنأ رسل باشا بما أبداه من النشاط والخدم.

وقد أشار رسل باشا إلى التحقيقات القضائية الجارية، وستعود اللجنة إلى المناقشة في جلسة خاصة، وبفضل ما أبداه رسل باشا من الحزم سيفضي الأمر باللجنة إلى طلب إيضاحات من بعض الحكومات عن عمل بعض المعامل الكبيرة التي تصنع العقاقير، وهكذا عادت إلى بساط البحث مسألة تحديد صنع المخدرات التي كانت اللجنة تتجنب البحث فيها من قبل.

الإفشاءات الخطيرة في تقرير رسل باشا
أقوال جريدة منشستر جارديان

لندن في ٢٧ يناير، نشرت جريدة منشستر جارديان رسالة لمكاتبها من جنيف ضمنها نتيجة مقابلة اللواء رسل باشا. وقد قال عنه: إنه صرح له بحقيقة راهنة، وهي أن الإفشاءات التي بدت في تقريره تتفرع منها حقيقتان هما بمثابة تحد للبلدين المختصين وتستفزان رفع الدعوى، وقد قال رسل باشا بنفسه: إنه قد يكون في السجن يوم الاثنين عندما يمثل أمام اللجنة ويقدم ادعاءين كل منهما بمثابة تحد فيما يتعلق بشؤون معمل مولهاوس وكيماوي بزوريخ. إذ يتبين من تقرير رسل باشا أن معمل مولهاوس استحضر وصدر إلى الخارج سنة ١٩٢٨ من الهروبين ٤٣٤٩ كيلو غرام، وهذا يساوي أكثر من ضعفي ما يلزم للعالم كله من هذه المادة للمقتضيات الطبية والعلمية، ويربى على مجموع ما أصدرته فرنسا من هذا الصنف كما ورد في التقرير الفرنسوي عن سنة ١٩٢٨.

أما فيما يتعلق بكيماوي زوريخ فقد علم رسل باشا من المسيو كاريير أن القانون السويسري سيعدل بهذا الشأن، ويبقى علينا أن نرى ماذا يقول مندوب فرنسا المسيو بورجوا عن معمل مولهاوس. فالمسيو روزيت رئيس مكتب المواد المخدرة الذي أنشئ حديثاً في فرنسا وصل أخيراً إلى جنيف

لمساعدة المسيو بورجوا . ويقول رسل باشا : إن أرقامه مأخوذة من دفاتر معامل مولهاوس بمعرفة أحد رجال البوليس المصري الذي كان يعمل بمعاونة أرباب السلطة في مولهاوس .

لندن في ٢٧ يناير ، أنشأت جريدة منشستر جارديان اليوم مقالاً افتتاحياً قالت فيه : نعم ، إن مطالعة تقرير رسل باشا تحزن ، ولكنها تثير العواطف وتسترعي الاهتمام ، فقد استطاع رسل باشا وزملاؤه أن يكشفوا عن خطوط مواصلات خفية تربط بين كبار تجار المواد المخدرة في الإسكندرية ولندن ، ومصانع هذه المواد في أوروبا الوسطى . وقد وجهت الآن العناية إلى محاربة المصانع الكيميائية التي تنتج من هذه المواد أكثر مما يجب . إذ لا فائدة من الاقتصار على مقاومة الموزعين والتجار وترك المصانع وشأنها ، ما دام مصنع واحد في الألزاس يمكنه أن يستحضر من الهرويين في كل عام أكثر من ضعفي ما يلزم العالم منه للأغراض المشروعة ، فقد يتسنى لتجار المخدرات أرباب الأموال الطائلة أن يشتروا كل ما ينتجه ذلك المصنع . وفي تقرير رسل باشا معلومات مختصرة وافية للجنة عصبة الأمم للنظر في خطط فعالة لتحديد منتجات المعامل من هذه المواد طبقاً للمقتضيات الطبية ، ولكن ما دام العالم يزيد من زرع القنب وشجر الكوكا أكثر مما تتطلبه الحاجات الطبية ؛ لا بد أن يستمر صنع المواد المخدرة وتجارتها المحرمة . ثم إن تدخين الأفيون وأكله في الشرق الأقصى يجعل الآن تحديد محصوله تحديداً دقيقاً غير ممكن عملياً ، ولكن ربما تسنى ذلك في المستقبل . اهـ .

تذكرة

في صباح يوم الخميس ١٧ يوليو سنة ١٩٣٠

تأمل أيها الذكي هذه الصورة واعجب لآيتنا التي نحن بصددها : ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾[الصافات : ٢٢] الخ ، واذكر قوله تعالى : ﴿ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴾[الشعراء : ٩٤-٩٥] ، وقوله تعالى : ﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾[ص : ٨٥] .

أتدري ما سبب هذا كله ؟ سببه الجهل ، لولا الجهل ما تعاطى هؤلاء المخدرات القاتلات ، وما هؤلاء المرسومون المساكين الذين أغراهم زبانية جهنم من الأوروبيين الذين يسعون لإهلاك الشرقيين احتقاراً لعقولهم واستصغاراً لشأنهم وقياماً بحق الإهلاك الذي سنته شرائعهم التي اتفقوا فيما بينهم عليها منذ أيام الحروب الصليبية ومن قبل ذلك في الحروب الأندلسية ، ذلك أنهم رأوا في أمة العرب قوة شكيمة فهرعوا إلى الخديعة والغدر ، وأجمعوا أمرهم بينهم أن لا يحاربوهم إلا بالعادات وإدخال الغفلات عليهم ، وعاهدوهم على أن يكون التعليم حراً والتجارة كذلك ، هنالك قام رجل يقال له « ابن مصعب » فنادى في قومه قائلاً : أيها القوم ، سيأتي يوم ينسى أبناء العرب مجد آبائهم بما يقرؤون في كتب الأوروبيين ، ويتنعمون وينغمسون في الشهوات ، ويسرفون في المآكل والمشارب ويحقرون دينهم ، ثم يتفرقون شيعاً ويذوق بعضهم بأس بعض . فقالوا : أنت رجل قصير النظر لا تعرف في السياسة شيئاً .

هنالك أقاموا الأفراح شهرين بعد هذه المعاهدة ورئيس الأمراء يومئذ « ابن عباد » ، ولبعض الملوك الإسلاميين جيوش نعال خيلهم من ذهب ، ولقد صدقت فراسة « ابن مصعب » ، وحق القول

على المسلمين في الجزيرة. اقرأ هذا الموضوع في غادة الأندلس. وصار الشاب يلبس الحرير ويتختم بالذهب واستدانوا من الفرنجة بالربا، وشربوا الخمر نهاراً جهاراً، وذموا العرب وأخلاق العرب وتاريخ العرب، وعكفوا على الشعر وتركوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غياً.

هنالك ذهبت الحمية وافترقوا شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض، وتفرقوا عشرين دولة وهم صاغرون، ثم هلكوا، ومن بقي منهم تنصر، ومنهم من غرق، ومنهم من طرد إلى فرنسا، ومنهم من سار إلى بلاد مراكش وما والاها. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وهذه النظرية التي فعلوها في الأندلس هاهم أولاء يفعلونها في بلاد الإسلام الآن، فانظر كيف ضحكوا على أذقاننا وأدخلوا السم بلادنا جرياً على أخلاق المسيح الدجال. دخلوا متظاهرين باسم رقينا وإسعادنا، ودسوا السم في الدسم. فأما المتعلمون منا فعلومهم قشور وفضلات، والدليل على ذلك أنهم لا يعرفون من علومهم إلا أن ينطقوا بالفرنسية مثلاً أو الإنجليزية. ويظن أكثرهم أنهم بسبب هاتين اللغتين أو بعض العلوم الأدبية قد ألموا بعلوم الغربيين، وجهلوا أنهم أصبحوا مغمورين في مخازي سفهائهم وشرور جهالهم، واندمجوا في وهمائمهم فطاحت القومية وضاعت، لتفرق الأهواء وتخاذل سفهاء الرؤساء سعياً وراء الشهوات التي اتبعوها بإغراء القوم، وازدراء للأوطان والأديان الشرقية، تقليداً لأولئك الأوروبيين، فهم لا يلبسون إلا من مصانعهم، ولا يغازلون إلا نسائهم، ولا ينامون إلا في فنادقهم، ولا يتعاطون مشروباً ولا مأكولاً إلا من أيدي خادمي فنادقهم والمنازل المعدة للشراب والطعام. فما أشبه الليلة بالبارحة.

لقد ذكرت في الأجزاء السابقة قصة ذلك الراهب الأسباني في قرطبة الذي اشترى عنب قرطبة كلها وعصره، وقال: أنا لا أعطيه إلا لأبنائي وأحبائي تلاميذ المدارس المسلمين، وهذه أربعمائة سنة والغفلة مستحكمة، ولم يظهر في أمم الإسلام عقول راجحة تفهم العامة ما حاق بهم من الذل والهوان والجهالة، وإني لم أجد رجلاً في الشرق استيقظ لذلك إلا نابغة الهند وهو غاندي، فإنه حرم الملابس الفرنجية والخمر، وكان الأجدر بهذا أمم الإسلام.

إذن ليس هؤلاء المرسومون في الصورة المتقدمة المخدرين وحدهم. كلا. فأمم الإسلام اليوم في بلادنا مخدرة، لأن التخدير على قسمين: تخدير ظاهر وهو ما رأيت، وتخدير باطن وهو تخدير المتعلمين والأغنياء وأرباب الجاه، أولئك الذين يعيشون ويموتون ولا هم يذكرون، فلا يعقلون ما يراد بهم، إن جميع أنواع التجارة الأوروبية من باب التخدير، يجب أن يجدّ أهل الشرق في المصانع والمعامل والمناسج والمزارع والتجارة حتى يضارعوا أهل الغرب في كل فرع من فروع الحياة، وإلا فهم مخدّرون وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[الصافات: ٢٢]، وحشرهم في الآخرة قد ظهرت بوادره في الدنيا بأمثال هذه الصورة، وباشتراك سكان شمال أفريقيا من مصر إلى مراكش وسكان بعض الشرق الأدنى من أهل الشام والعراق والموصل في الاستعباد للأمم الأوروبية، لغفلة العلماء والأمراء السابقين بسبب استحكام الجهالة، فلئن رأينا المرسومين في هذه الصورة السابقة مسوقين إلى المحاكمة عند الحكومة المصرية ليزجوهم في السجون؛ لنرين هذه الأمم العربية في شمال

أفريقيا وغرب آسيا مسوقين لسجن الاحتلال والاستعباد وإذلال أهل أوروبا، يرسفون القيود وهم لا يعلمون.

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

اللهم إن هذه هي نفسها صفة المسيح الدجال، إذن المسيح الدجال المذكور في الأحاديث الآتي في آخر الزمان له أمثال وأشباه، وهؤلاء المسيحيون الدجالون يطلق عليهم اسم المسيح الدجال من باب الكناية، لأن الكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، فليس المسيح الدجال الذي في الأحاديث على معناه الظاهري، ولكن المقصود هنا في زماننا هو المعنى الكنائي كما ذكره الإمام الغزالي في حديث: «إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلاب ولا صورة»، فقال: هذا الحديث باق على معناه، وهذا لا يمنع من المعنى الكنائي، وهو أن الذين امتلأت قلوبهم بالشهوات المرموز لها بالصورة أو بالقوة الغضبية المرموز لها بالكلب لا تتصل الملائكة بقلوبهم فهم أبعد الناس عن العلم، فهكذا هنا فليبق الدجال على معناه الظاهري، ولكنه يرمز إلى ما نحن فيه الآن، إن المسلمين اليوم دخل عليهم هؤلاء المسيحيون الدجالون فأعموهم عن الحقائق، وصاروا جهالاً، فغمسوهم في الشهوات واللذات والجهالات، فماتت النفوس بل أكثر هذا النوع الإنساني اليوم مخدر مخمور كهؤلاء الذين في هذه الصورة، فهم يأكلون ولا يعقلون كيف يأكلون، انظر إلى ما تقدم في سورة «طه» وسورة «الشعراء» وأول سورة «الحجر» وفي سورة «البقرة» عند آية: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[البقرة: ٦١]، ففي تلك المواضع وضح ما يقوله الأطباء في زماننا في الذي يجب أن نأكله وفي أنواع المداواة، ثم انظر إلى ما يأتي في سورة «ص» عند آية: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[ص: ٢٦]، وكيف تسمع أفلاطون حاكياً عن سقراط في الجمهورية وهو يخاطب غلوكون، إذ يذم أبناء الجمهورية الذين يعيشون عيشة الترف، وأن ذلك مضعف للأجسام مضيع للعقول، وكيف تدهش حين تسمع منه هذا الأمر العجيب الغريب، وهو أن هناك علاقة تامة وصلة ثابتة بين القضاة والأطباء وبين المآكل والمغاني وأن الناس كلما أكثروا من ألوان الطعام ولم يكتفوا من البسائط في الأطعمة كثرت عندهم الأمراض فاحتاجوا إلى الأطباء، وأن المغاني كلما كانت ملطفات لأمزجة الجيوش الذين يزاولون الأعمال الرياضية بـ «الجمناستك» لا يجوز التفنن فيها، لأن ذلك يورث الفسوق والعصيان، وذلك من موجبات الوقوف أمام القضاة، فوجب أن تكون المغاني بسيطة، وكذلك آلات الطرب وكذلك المآكل، وعار على أبناء الجمهورية أن يحتاجوا إلى الأطباء إلا نادراً، ولا إلى القضاء إلا في أمور خاصة، وأخذ يحقر من يفتخر بأنه قد غلب خصومه بالحجة أمام القضاة قائلاً: إن الحياة السهلة هي التي خلت من القضايا ومن المشاغبات، هي الحياة التي تليق بالإنسان.

إذن المخدرون المرسومون في الصورة لهم إخوان كثيرون لم يرسموا، وهم أكثر المتعلمين نصف تعليم من الذين درسوا في المدارس النظامية، ومن الأغنياء في ديار الإسلام، ومن رجال السياسة، فهم قد زجوا في نارين: نار تقليد الفرنجة وشراء بضائعهم، ونار الجهل في المآكل التي توقع كثير منهم في المرض مع الشهوات الأخرى، كالطمع والحرص والحسد الموقعات في المشاحنات وإقامة

القضايا أمام القضاة، فلئن حشر هؤلاء المخدرون في السجون المصرية كما سيحشرون يوم القيامة معاً؛ هكذا حشر أولئك المتعلمون والأغنياء من أبناء العرب ونحوهم في شمال أفريقيا والشرق الأدنى في حظيرة الاستعباد، كما سيحشرون يوم القيامة في الدرجة التي كانوا عليها في الدنيا معاً.

هنالك سألني صاحبي قائلاً: علامَ هذه الضجة كلها، ألسنا الآن في تفسير القرآن؟ قلت: بلى. قال: وهل هذا كله ينطبق على: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾[الصافات: ٢٢] الخ، مع أنها لم ترد إلا في الكفار يوم القيامة، وأنت صببت كلامك كله على المسلمين في الحياة الدنيا. فأين الآية وأين ما ذكرته أنت. إن من يقرأ هذا يقول إنك أنت لك قصد تقوله، فأتيت به تبع الآية، وإلا فالآية بريئة منه. فقلت له: هو تفسير للآية حقاً وصدقاً، وما مثلي في هذا إلا كمثل عمر رضي الله عنه في قصة الربيع بن زياد المذكورة في ثنايا هذا التفسير. إذ كان أمير من أمراء البحرين تحت رئاسة أبي موسى الأشعري، إذ كتب له عمر: احضر أنت ومن معك، فحضروا جميعاً ووكلوا بدلهم من يقوم بالحكم مدة غيابهم، واحتال الربيع الذي هو أحد الأمراء أن يفعل ما يرضي أمير المؤمنين بإشارة غلام عمر المسمى «يرفأ» بأن اتخذ نعالاً مطارقة أي ذات رقاع من جلد غير منتظمة، ولبس أهداماً بالية وأجاع بطنه يومين كاملين، حتى يقدر أن يأكل طعام أمير المؤمنين الخشن، وهذا الأمير ومن معه ما تعودوا الطعام الخشن، فلما أن مدت المائدة لم يكن في الأمراء من كان أسرع إليها من الربيع لشدة جوعه، فأعجب به عمر رضي الله تعالى عنه فأخذ يحادثه دون رفاقه. فسأله الربيع: يا أمير المؤمنين هل لك أن تتخذ طعاماً ألين من هذا؟ فزجره عمر وقال: ماذا تقول؟ فقال: لو أنك أمرت أن يكون خبزك في يوم الأكل لكان أسهل لك. فقال له: أعلى هذا غُرْتَ ـ بضم أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثه ـ أي: أأنت تريد هذا؟ ثم استرسل معه فقال: يا ربيع لو شئت لملأت هذه الرحاب صلائق وسبائك وصناباً، ولكني سمعت الله يعير قوماً إذ يقول: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[الأحقاف: ٢٠] والمراد بالصناب ـ ككتاب ـ الزبيب المصنوع مع الخردل ليقوي شهوة الطعام التي ذمها أطباء العصر الحاضر، والمراد بالصلائق أنواع اللحوم، والسبائك ما يصنع من الدقيق الناعم الأبيض الذي استنكره أطباء زماننا. إن هذه الآية وردت في الكفار، ولكن عقول الصحابة وآراؤهم لم تكن كعقولنا وآرائنا، فهو أدرك المقصود من الآية، وهو أن الذين ينهمكون في الشهوات يعاقبون، لأن الانهماك نفسه سبب للنتيجة، لا فرق بين مسلم وكافر، فلذلك قرأ الآية ولم ينكر عليه أحد، والعلماء المتأخرون يقولون في مثل هذا: إنه اعتبار بما في الآية، فأنا أقول: الذين ظلموا وأشباههم يحشرون في جهنم. فأنا إما أن أفهم كفهم عمر رضي الله عنه ويكون كل هذا داخلاً في معنى الآية وإن وردت في الكفار، وإما أن يكون ذلك أمراً راجعاً للاعتبار بالآية كما يقوله علماء الأصول، وكلامنا هنا كلام علمي تاريخي لا مناقض ينقضه. نعم. الجهل هو الذي ينقضه والجهل شؤم كله.

فأنا إذن فسرت الآية إما تفسيراً أصلياً على طريقة عمر أو تفسيراً بالاعتبار على طريقة المتأخرين، والحمد لله رب العالمين.

واعلم أنه لولا ضيق المقام هنا لذكرت لك أيها الذكي هنا قولاً جامعاً في حبس الناس في عاداتهم وأخلاقهم وأحوالهم لمناسبة صور أولئك المدمنين على المخدرات، ولكن اقرأه في سورة «ق» عند آية: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[ق: ٣٠]، فهناك ستسمع حديث السكير الذي ملكت الخمرة فؤاده فلم يقدر على التخلص منها، والحديث المبكي المذكور في الجرائد المصرية، وبين الحديثين أربعون سنة، والحديث الثاني حديث من وقع المخدرات المذكورة هنا، وكان تلميذاً في الابتدائي. فهناك وصف محزن لهذه الطائفة التي ابتليت بشم الكوكايين الذي جلبته أوروبا لنا لإهلاكنا.

وهناك تبيان واسع لبيان أن هذه أمثال ساقها الله لنا واضحة تدل على ما عند هذا الإنسان من العادات المورثة والشهوات التي حصرت في أحوال خاصة منعته من الخروج منها، مما يدل على أن حياتنا الدنيا في صورتها أشبه بمصغر جهنم، فالناس يريدون أن يخرجوا من شهواتهم وعاداتهم ولكنهم لا يقدرون، كما هي الحال في أهل جهنم، والحمد لله على ما علم وله الشكر على ما ألهم.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾

جاء في الحديث أن ابن آدم لا تزول قدماه من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن شبابه فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم.

اعلمي أيتها الأمم الإسلامية أن سؤال الآخرة ووقوفنا بين يدي الله تعالى له مقدمات ظاهرات في الدنيا خافيات، فنحن في تعاطي الطعام مسؤولون وإن كنا به جاهلين، كما أنا مسؤولون في نظام مدننا وفي إفاضة الخير على غيرنا وإن كنا غافلين، لا عذر للجاهلين في الدنيا، ولو كان الجهل عذراً لم نر الذين يسرفون في طعامهم وشرابهم تنتابهم الأمراض، ولا أولئك المسرفون في أموالهم ترهقهم الديون، ولا الكسالى والمترفون يغشاهم الفقر، ولا الذين يتعاطون المخدرات في بؤس وعذاب مهين في هذه الحياة، وعذابهم لزام كأنهم يشربون شرب الهيم، ولا الأمم الشرقية التي غفلت عن العلوم والصناعات قد ملك زمامها الأوروبيون، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾[الصافات: ٢٤-٢٦].

أنتم مسؤولون عن صغيرات الأمور وكبيراتها في الآخرة كما أنكم مسؤولون في الدنيا. هاأنا ذا في مصر بلادي أرى جهالة شائعة وأعمالاً فاسدة وتقاليد ظالمة والناس بها مفتونون، اهدموا التقاليد وأزيلوا الحجب وأميطوا الأذى من طرق الإصلاح، أمر في شوارع القاهرة فأرى شبابنا وزهرات الجيل الحاضر محشورين زمراً زمراً في مشارب القهوة يتعاطون أنواع المشروبات، وهم يقرؤون علم الطب في الكتب، ونظام السياسة في الجرائد ولكن أكثرهم لا يعلمون.

التجارة في يد الأجنبي، وهو الذي يدير تلك المحال ويستنزف الثروة ويضيع شباب شبابنا، ويفتح لهم باب الشهوات، فتقل الأمانات، ولهم امتيازات وتفضل على الوطني، نالوه قديماً ونحن نائمون.

منذ نحو (٧٠٠) سنة اجتمع أساطين الأمم المسيحية مع البابا وبارونات أوروبا ودوق فينيزيا، وقالوا: لا طاقة لنا اليوم بحرب هؤلاء العرب بالأندلس، فلنعاهدهم على حرية التجارة والدين والتعليم وهؤلاء سليمو القلوب، فلندخل عليهم ما نشاء من التعاليم. فاجتمعوا وعاهدوا ملوك الأندلس تحت رئاسة ابن عباد. وتم ذلك والقوم كانوا عن الحقائق معرضين، فأيقظهم رجل منهم يسمى ابن مصعب فتولوا عنه مدبرين، شربت الخمور في الأندلس، زال البأس والشهامة والنخوة، تباهى الشبان والشابات بالفسوق، وعدّوا ذلك مدنية حديثة، عصر راهب أسباني عنب قرطبة كله خمراً حباً في أحبابه وهم تلاميذ المسلمين، تقهقرت الأخلاق، طاحت الأنساب، ذلت الأعقاب، زلت الأقدام، هلكت الجيوش زالت العروش، طردوا من بقي من البلاد وهم محقورون مرذولون منبوذون ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾[الصافات: ٢٤-٢٦].

زالت الأندلس ولم يبق منها إلا الذكرى، إن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ لم يعتبر أبناء العرب بما حل بإخوانهم، جهلوا أصلهم، حقت عليهم كلمة ربهم، ساء مصيرهم، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾.

نبغت أمم ودول في أوروبا ساروا سيراً إسبانياً، دخلوا شمال أفريقيا من تونس والجزائر ومراكش ومصر والعراق والشام، بماذا دخلوا؟ بنفس الدرس والأسلوب الذي أسسه البابا وبارونات أوروبا ودوق فينيزيا. فتحوا لهم أبواب الشهوات، زجوهم في محال القهوات. استهووهم بالغادات الحسان. شغلوهم بالعادات، بغضوهم في العبادات وفي كل ما هو شرقي. سقوهم خمرهم. وأجلسوهم في أماكنهم. أخذوا نقودهم. حقروا لهم دينهم وأصلهم ومآكلهم وملابسهم ومشاربهم وسير آبائهم. مقتوهم. كرهوهم، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[الصافات: ٢٤] وهم يتبرؤون منهم ويقولون: ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾[الصافات: ٣٠].

ذل المصري والمراكشي والجزائري والتونسي، وأقفلت الطليان زوايا السنوسيين في طرابلس وتمزقت وحدة السوري، لأن هذه الأمم متفرقون وأمراؤهم السابقون وعلماؤهم وصلحاؤهم لم يكونوا يتواصلون، ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٣]، فذلت الأعقاب وأهينت الأنساب وحل البطش وتفرق الجمع، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾[الصافات: ٢٤-٢٦].

ذل الجمع. واتسع الصدع. وفتق الرتق. وقل الجند. وذهب المجد وزال الجِد وقل الجَد والمسلمون نائمون، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾. بقيت امتيازات الأجانب في البلاد لجهالتهم، لأن تجارتهم رابحة وأعمالهم رائجة. ربطت العادات على قلوب الشبان فهم في تلك الأماكن يكرعون. ومن مآكلهم يتغذون. فتوطدت الامتيازات وبقي الذل، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾.

استيقظ بعض الأمم الشرقية كأهل الهند، فمنعوا الملابس الأجنبية وحاربوا الخمر، لأن الأمرين بابان للفقر وخراب الأسرة وضياع المال وبقاء الاستعمار، ولكن في بلادنا وأمثالها لا سميع ولا مجيب، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾.

وينشأ ناشئ الشبان منا على ما كان عوّده أبوه

اعتاد الناس تعاطي الدخان، وتغالوا في شرب الخمر، وأتبع ذلك الشاي وغيره، ومخدرات وسموم، والناس ساهون لاهون، والفرنجة هم المضلون والمسلمون مهملون، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾.

ليحرم علماء الإسلام أن تغشى تلك الأماكن أماكن الفرنجة التي تخالف الصحة في هوائها الفاسد بكثرة الأنفاس وأنواع الشراب، وهكذا يتناوب الكوب الواحد في اليوم عشرات الشاربين. ويتعاطون الدخان والقهوة والخمر. ولقد أصدر الأطباء حكمهم على هذه لا سيما أطباء أمريكا، وتقدم نقل ذلك في سورة «البقرة» عند آية الخمر، ولكن أكثر المسلمين جاهلون، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾.

تفرقت القلوب شيعاً في بلادنا وذاق بعضهم بأس بعض ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر: ١٤] حرصاً على المال وغراماً بالشهوات، فملك الأجنبي وذل الوطني وعسى أن يزول ذلك قريباً، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾.

بعض الصوفية يسيطرون على العقول وهم أنفسهم جاهلون، فلا الرياضيات درسوا ولا الطبيعيات تعلموا ولا الإلهيات فهموا، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾.

قلت الصناعات وطاحت التجارات في البلاد وخلت الديار وضاق الخناق وتفرقت الأهواء وكثر المراء وظهر الجدل واضمحل العلم والدين ولا مغيث ولا معين، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾.

ما ملك الفرنجة وأبقاهم في بلادنا إلا طموح الأفراد للشهوات السافلة في محالهم وافتتانهم بصناعاتهم، ولو أن الشعب عرف الحقيقة وتخلى عنهم لخرجوا من البلاد وهم مسرعون، ولكن المسلمين ساهون لاهون، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾.

أجسام الشرقيين قوية، وعقولهم صحيحة، وأنسابهم رفيعة، الدين من بلادهم ظهر، وكل نبي فهو من الشرق باصطفاء الله ثابت، عرفت أوروبا قدر الشرقيين فخافوا بأسهم، حذروا أن يقرؤوا علومهم ويعرفوا صناعاتهم فيردّوا كيدهم في نحرهم فشغلوهم بالشهوات، وأفشوا بينهم العدوات، إنهم باتباعهم فرحون، وعن تعليمهم قاصرون، واقتصر علماء الدين نحو ألف سنة على فروع الفقه ونسوا أكثر ما ذكروا به في القرآن، ونسوا آيات الله في الأكوان في الأرض والسماوات فأقفلوا باب علوم القرآن، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾.

اتحد الأطباء في اليابان وأمريكا وأوروبا على تحليل الأطعمة. أيها أصلح لنوع الإنسان وأيها أضر، فأجمعوا في هذه الأيام على أن ما أنضجته النار قليل النفع، وما يتعاطى بلا طبخ ينفع الأجسام ويمنع الأمراض ويحفظ العقول، ورجعوا بالناس إلى آدم وحواء قبل الأكل من الشجرة، ولكن المسلمين قلّ فيهم الأطباء فلم يدلوا دلوهم في الدلاء لأن المسلمين لا يعلمون، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾.

درس الأطباء في العالم أيضاً نظام الملابس والهواء والماء والضياء، فأجمعوا أن تعريض الأجسام للشمس نهاراً كما يعرضها الحاج في عرفة، والحياة الخلوية في الهواء الطلق منعشة للأبدان مقوية للعقول قاتلة لكل مرض ولكل «مكروب» حيوان ذري، ولكن هؤلاء الأطباء في المسلمين يقلون لأن أكثر المسلمين لا يعلمون، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾.

درسوا أيضاً فوائد الرياضات البدنية وتقوية الأعضاء بالأعمال الزراعية والمشي في الخلاء ودوام الحركة، وحققوا أوقات النوم واليقظة كما فعل ذلك كله من قبل علماء الطب كابن سينا في كتاب القانون إذ رأيته ذكر جميع أنواع التمرينات بأوسع مما ذكره الفرنجة، ولكن المسلمين المتأخرين هم النائمون، وإن قرأ بعضهم الطب وملحقاته فإنما هم للفرنجة مقلدون، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾.

رأوا في جزيرة العرب أمراء وملوكاً يحكمون أمماً لا تزال على فطرتها، وعقولاً قوية ونفوساً شريفة تستعد لأرفع المدنيات، وتصلح لأقوم سبل الخيرات. فهاهم الآن يريدون أن يجعلوا بأسهم بينهم شديداً ليصرفوهم عن العلم إلى الحرب. فالدرس الذي تعلموه من قدماء الأسبانيين لا يزالون له حافظين، ولكن المسلمين عن ذلك ذاهلون، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾.

اللهم إني أكتب هذا وأنا أعلم أنك سائلي عن كل ما علمته من النقص في أمم الإسلام، ولقد سهلت لي سبيل العلم والنشر، فأنا مسؤول وكل تقصير يقع مني في تلك السبيل أعتقد أني مسؤول، والجزاء عليه في الدنيا بالحرمان وفي الآخرة بالعذاب يوم أقف بين يديك ويقف المسلمون والخلائق أجمعون، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾.

المسيح مسيحان: مسيح صادق، ومسيح كاذب. فالمسيح الصادق هو ابن مريم، ويشاكله في الصدق أناس وأمم في أزمان مضت في دهر الدهارير. وأما المسيح الكاذب وهو الدجال فله أمثال وأشكال وجيوش مستعدة في جميع الأمم شرقاً وغرباً، وهم الكذابون الخائنون من أهل السياسة وغيرهم، وعلى قدر غفلة المسلمين بالجهل سلط الله هؤلاء عليهم، وهم أصحاب السيف والنار والمدافع والغازات، هكذا هم أصحاب الوظائف وتولية الأمر والوزراء، وإباحة الشهوات وإكثارها في البلاد سراً، فتكون الشهوات مقصودة مرغوبة، فنارهم من اصطلاها نال جنة الاستقلال، وجنتهم الشهوية من المطاعم والملابس والاغترار بالوظائف والإمارة من دخلها لم يفلت منها، وتنقلب عليهم ناراً حامية، فكأنها شراب الخمر والمخدرات يذل شاربه وهو لا يقدر على الفرار منه، وهذه الطوائف في نارهم يحترقون، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾.

أيها المتعلمون، أيها الأمراء، أيها الملوك في الإسلام، أفشوا الصناعات والعلوم وعمموا تعليمها وزنوا العقول بالقسطاس المستقيم امتحاناً في المدارس، وضعوا كل امرئ فيما دل عليه استعداده من زراعة في الحقول أو صناعة في المدن أو سياسة أو علم، فلكل امرئ شأن واستعداد يخصه، والمسلمون لذلك تاركون، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾.

استخرجوا كل قوة من قوى أفراد الشعب، لا تضيعوا استعداد النفوس التي خلقها الله لكم، ولا تذروا حقلاً ولا سهلاً ولا جبلاً ولا نهراً إلا بحثتموه وعرفتم طرق الانتفاع به، ولا يتسنى لكم

ذلك إلا بتعليم طائفة من الشبان الأذكياء العلوم المختلفة لإظهار منافع ما تملكون، وتذكروا: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾.

اللهم إني نصحت وبذلت طاقتي في إيقاظ هذه الأمة، وهذا جوابي يوم أسمع النداء: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾[الصافات: ٢٤-٢٦]. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة. كتب في مدينة حلوان يوم الجمعة بعد العصر ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٠. والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾

لقد تقدم في سورة «سبأ» عند قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[سبأ: ٣١] الخ؛ كيف كان الاتباع والتقليد الأعمى في الأمور الاعتقادية وسير الناس وراء القادة والرؤساء بلا عقل ولا هدى ولا كتاب منير، أوقع الأمم الإسلامية في الجهل قروناً وقروناً، وأفضت هناك الكلام على محمد بن تومرت وملخص تاريخه، وأنه أسس دولة واستقل بها إزالة للظلم وإقامة للعدل، ولكن جعل نفسه معصوماً، إلى آخر ما تقدم هناك، وقد أبنت أن مثل هذا لا يدوم نفعه، وإنما دوام النفع بتعميم التعليم للذكور والإناث، فأما هنا فإن القرين لم يتبع قرينه بل فكر واستبصر وعرف سبيل الهدى ولم يكن إمّعة كالدابة تسير وراء قائدها، فلذلك أخذ يقول: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾[الصافات: ٥١-٥٢] الخ.

ومن عجب أمر القرآن جاء في سورة «سبأ» بالمحاورة بين الرؤساء والمرؤوسين، وكل يوقع اللوم على الآخر بعد وقوع العذاب، فأما هنا فكأنه يشير إلى أن الناس قد احترسوا مما وقع فيه المقلدون بلا عقل، فلذلك نرى القرين لا يتبع إلا الحق ولا يتبع قرينه، فلذلك يقول الله هنا: ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾[الصافات: ٥٦-٥٧]، بدل أن يقول هناك: ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾[سبأ: ٣١] الخ. فهذه المحاورة لعاقل أراد صاحبه إضلاله فلم يعبأ به واتبع عقله، وهذه خصلة أمم الإسلام في مستقبل الزمان يتعلمون ولا يتفرقون، تابعين في ذلك أهواء الرؤساء المضلين والشيوخ الجاهلين، بل هم أنفسهم متى تعلموا أدركوا أن أمم الإسلام لا تعيش بالافتراق الذي جناه عليهم الرؤساء، وإنما تعيش بالوئام والمحبة وقطع دابر التخاذل والتنابذ والخصام. وإذن يقول المسلم لمن كاد يضله: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾[الصافات: ٥٦]. أكتب هذا على أنه تنظير لا أنه نفس معنى الآية، بل هو أهم مقصود القرآن.

هذا وليعلم المسلمون في أقطار الأرض أن الآراء التي يتلقاها الناس كابراً عن كابر قد تكون مدخولة مضلة وإن كان الناس لا يعلمون.

(١) مثال ذلك مسألة النيازك وهي الصخور المعدنية ـ وأكثرها حديد ونيكل ـ التي تسقط على الأرض من السماء آتية من أجرام سماوية أخرى. ففي أواخر القرن الثامن عشر أظهر بعض العلماء بناء على مشاهدات حقة أن هناك كتل معدنية صخرية مختلفة في الحجم وفي الثقل تسقط على الأرض من بعض الكواكب، فقابل أغلب العلماء هذا الاكتشاف بالعداء والسخرية، وانفرد من بين هؤلاء

العلامة الأشهر لافوازييه واضع أصول الكيمياء الحديثة، فطعن أشد الطعن على هذا الاكتشاف الجديد، مستنداً على قانون الجاذبية العام، قائلاً بأن كل جرم سماوي يجذب أجزاءه إليه، وأنه من المستحيل أن تسقط صخور من السماء على الأرض، وقدم تقريراً جازماً إلى مجمع العلوم بباريس ساخراً فيه من هؤلاء العلماء الذين ساقهم عقلهم إلى الشك في قانون الجاذبية هذا الشك الفاضح. ثم مرت الأعوام وظهر من تكرار المشاهدات أن لافوازييه كان خاطئاً، وأن النيازك حقيقية لا شك فيها، وأنها تسقط من الكواكب على الأرض رغماً عن سيطرة الجاذبية.

(٢) وهناك مسألة أخرى خاصة بالكائنات البحرية، وتتلخص في أنه كان من البديهي عند العلماء في النصف الأول من القرن التاسع عشر أنه لا يوجد أثر للكائنات تحت عمق أربعمائة متر في البحر الملح، وذلك لأن الضوء لا يصل إلى هذا العمق، وأن الضغط على جسمها يبلغ عند هذا العمق عشرات أضعاف الضغط الجوي، وأنها لا يمكنها أن تعيش مطلقاً تحت هذا الضغط. فمن البديهي إذن أن لا يوجد كائنات حية تحت هذا العمق. ولا يخفى أن هذه البرهنة واضحة بسيطة متماسكة منطقياً، فكان من المعقول أن يكتفي بها العلماء وأن يطمئنوا إلى حقيقتها، ولكن أظهرت الأبحاث التالية في صيد الحيوانات البحرية على أعماق مختلفة وذلك بآلات صيد خاصة تدل بالضبط على العمق الذي أخذت فيه هذه الحيوانات من أن هناك كائنات حية متعددة ومتنوعة من أسماك وقشريات ونجميات على أعماق بعيدة يصل بعضها إلى سبعة آلاف متر أو أكثر. وأن هذه الكائنات تتحمل ضغطاً يقدر بسبعمائة ضغط جوي، وأنها رغماً عما كان ينتظر منطقياً منها محمية بدروع صلبة تجعل أعضاءها الداخلية في مأمن من العطب، بل إن أغلب هذه الحيوانات هي على الضد من ذلك طرية الملمس والجدار كبعض مثيلاتها في المياه السطحية، والعقل يحار أمام السر الذي تخفيه هذه الحيوانات في تحمل هذا الضغط العظيم. ولما تكرر صيد الأعماق البحرية ثبتت هذه الحقيقة شيئاً فشيئاً حتى أصبحت لا شك فيها الآن، ودخلت في مجال العلم رغماً عن مخالفتها للمنطق الذي استندت إليه الآراء القديمة.

(٣) ولما ظهر دارون بكتابه «أصل الأنواع» قامت القيامة في وجهه، وانتقده العلماء وسخروا به، لأن آراءه الجديدة كانت مخالفة لما تعودوه من التفكير، ولكن لم يلبث أن خضع له الكثيرون ممن كانوا لا يؤمنون به. وإن كانت آراء دارون الأصلية قد تشتت كثير منها في مهب الريح، إلا أن أثرها في تطور الأبحاث العلمية لا شك فيه، ومركزها في تاريخ العلم مركز عتيد.

(٤) وكذلك لما قام العلامة باستور بأبحاثه المعروفة في المكروبات وأظهر لعالم الطب الدهش أن كثيراً من الأمراض سببها تكاثر مكروبات خاصة في عضو من أعضاء الإنسان أو الحيوان، وأنه من الممكن زرع هذا الميكروب في سوائل خاصة وإحداث المرض نفسه في حيوان سليم. لما فعل باستور ذلك قامت قيامة علماء الطب عليه وصاروا يطعنون أشد الطعن في هذه الآراء الجديدة. ولكن كل هذا العداء من جانب علماء ذاك العصر لم يمنع نظرية الأمراض الميكروبية من التقدم والتحسن، حتى أصبحت الأصل للجراحة والطب الحديثين.

(٥) ولما أظهر باستور بواسطة التجارب المتقنة المحكمة أن الكائن الحي لا يتكون إلا من كائن حي سابق، وأنه من المستحيل أن تتكون الحياة في سائل عضوي معقم تعقيماً كافياً، أي أن نظرية التولد الذاتي مستحيلة التحقق، وكانت هذه النظرية شائعة كل الشيوع بين علماء ذاك الوقت. لما أثبت باستور ذلك احتج عليه العلماء من كل صوب مخطئين كل التجارب مستندين إلى ما تعودوا رؤيته، وكل هذه الضجة الهائلة لم تمنع آراء باستور من الانتصار.

(٦) ولقد شاعت نظرية دوران الشمس حول الأرض، ولكن لما ظهر الحق على أيدي علماء الإسلام أولاً كما تقدم إيضاحه في أول سورة «يونس»، وأن الأرض هي التي تسير حول الشمس وعرفها علماء أوروبا، فلما ظهرت على أيدي بعضهم صودر وحبس وحكموا عليه بالكفر، ولكن ظهر رأيه وانتشر في الأرض.

فهذه ست مسائل مما فاز بإظهاره العلم بعد أن كان الجهل به حقيقة لا شك فيها، أليس معنى هذا أن المسلمين في المستقبل غير المسلمين الحاليين النائمين الذين يعيشون بفكر غيرهم وكثير منهم أشبه بالحشرات اللاتي تمتص دم الإنسان وهي ضعيفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١].

ولقد قلت مراراً في هذا التفسير أن أمم الإسلام في المستقبل غيرها في الماضي. والله هو الهادي إلى سواء السبيل. انتهت اللطيفة الرابعة، وبها تم الكلام على سورة «الصافات» والحمد لله رب العالمين.

تفســير سورة « ص »
ويقال لها سورة داود عليه السلام
وهي مكية، آياتها ٨٨، نزلت بعد « القمر »

والكلام عليها في ثلاث فصول:

الفصل الأول: في تفسير البسملة.

الفصل الثاني: في تفسير الألفاظ.

الفصل الثالث: في مقصود السورة.

الفصل الأول: في تفسير البسملة

لما قدّمت هذه السورة إلى الطبع حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير، فقال: لقد فسرت البسملة في السور السابقة بطرق شتى بحيث لا يسبق إلى الذهن تكرار في التفسير، فهل تريد أن تكتب شيئاً في تفسير البسملة هنا؟ فقلت: نعم. فقال: وهو يغاير ما تقدم؟ فقلت: نعم. فقال: من أي وجهة؟ فقلت: من وجهة الوحدة والكثرة، فالوحدة في لفظ الجلالة، لأن هذا الاسم لا يلحظ فيه إلا الذات، وأما الرحمن الرحيم فهاهنا للرحمة آثار لا نهاية لعدها، إذن هنا وحدة وكثرة، فالوحدة للذات الإلهية، والكثرة في آثار الأسماء الدالة على الصفات، وأسماء الله جميعها تدل على الصفات. فقال: هذا كلام إجمالي، والوحدة والكثرة ذكرها الصوفية، ولكن كلامهم مجمل، ويذكرها الحكماء في علم ما وراء الطبيعة، ويقولون: إن العالم ذو وحدة تقسم إلى جوهر وعرض، وكل منهما يقسم أقساماً، وهذه الأقسام هي المقولات العشرة المشهورة، وهناك تقاسيم أخرى لا حاجة إلى الإفاضة فيها، وكلها ترجع إلى تقسيم وحدة العالم إلى كثرة، حتى إن تقسيم العلوم الرياضية والطبيعية يرجع إلى هذه الكثرة المخبوءة في وحدة العالم. فقلت: هذا حق، ولكن الوحدة والكثرة التي سأذكرها هنا تؤخذ من المشاهدات الطبيعية، فمثلي في ذلك مثل علماء الهندسة، إذ يعرضون على الطالب أموراً معلومة للجاهل والعالم، ويستنتجون علوماً لا يعرفها إلا الخاصة، فهم يقولون: الكل أكبر من الجزء، والنقيضان لا يجتمعان، وإذا أضيف شيئان متساويان إلى شيئين متساويين يكون الجميع متساوياً، وإذا حذف شيئان متساويان من شيئين متساويين فالباقي متساو

وهكذا، ويستنتجون من هذه نظريات وراء نظريات حتى يصلوا بعد (٣٢) نظرية إلى أن زوايا المثلث تساوي قائمتين، وبعد نيف وأربعين قضية يقولون: إن مربع وتر الزاوية القائمة يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين، وهذا الشكل يسمونه شكل العروس، فهذه مسائل دقيقة استنتجوها من أمور أولية بديهية، فهكذا هنا أنا أبحث في الوحدة والكثرة في الأمور المشاهدة أولاً، وأقفي على ذلك بما هو أعلى وأغلى. فقال: لقد شاقني وصفك فكيف يكون ذلك؟ فقلت: ما من امرئ إلا وهو يعتقد أنه واحد، وهذه الوحدة مشتملة على كثرة، فلكل إنسان أعضاء للإحساس وهي خمس، وأعضاء للعمل وهي خمس أيضاً، اليدان والرجلان واللسان، فاليدان لجميع الصناعات على الأرض، والرجلان لانتقال الأجسام، واللسان لنقل المعلومات في الهواء، ومن صناعات اليدين الخط، وهو مساعد اللسان في نقل علم الأولين إلى الآخرين وعلم الحاضرين للغائبين، إذن الرجلان واللسان وبعض أعمال اليدين لنقل الأجسام ونقل العلوم. ثم إن العين من أعضاء الحس واليد من أعضاء الحركة، كل منهما مركبة من أجزاء مختلفة كالشبكية والبلورية في العين، وكالجلد والعرق والعضل في اليد، ونحو الجلد والشبكية والبلورية كل من هذه يسمى جزؤه باسم كله. فقطعة من الجلد وقطعة من الشبكية وقطعة من العضلات وقطعة من العروق كل هذه يكون شأنها شأن ما قطعت منه في التسمية. فقطعة من العظم وأخرى من اللحم لا يتغير اسمها عما قطعت منه، بخلاف الجلد إذا كشطناه عن اللحم فكل منهما يحمل اسماً يغاير الآخر. وهذه الأجزاء التي تسمى جزؤها باسم كلها مركبات من عناصر دخلت فيها، وتنتهي هذه الأجزاء إلى الإلكترونات وهي النقط الضوئية الصغيرة جداً، فبهذا عرفنا وحدة الإنسان في قوله أنا، وكثرته بهذه الأجزاء التي لا يعرف مدى قسمتها وتحليلها، ولا جرم أن الوحدة هي التي جمعت هذه الكثرة وحفظتها، ولذلك إذا خرجت الروح من الجسم وهي الجامعة لمتفرقاته في الحياة رأينا هذه الوحدة تفرقت شذر مذر في الأرض والماء والهواء، إذن الوحدة لها السلطة والغلبة على الكثرة، وكثرة بلا وحدة ضائعة متفرقة، وحدة الأسرة والمدينة والأمة والإنسانية جمعاء والحيوانية وهكذا إلى أن نقول وحدة الكرة الأرضية. ومثل ما قلنا في وحدة الجسم وكثرته نقول في وحدة الأسرة المركبة من أفراد لها رئيس جامع لها وكثرتها، وهكذا القرية والأمة الواحدة والأمم الشرقية والغربية ثم الإنسانية جمعاء فكل هذه لها كثرة ووحدة بوجهين مختلفين، وإذا علونا إلى ما هو أوسع من الإنسانية اعتبرنا الحيوانية فالعوالم النباتية فالعالم الأرضي كله فالكرة الأرضية جميعها فلها وحدة ولها كثرة كجسم الإنسان، وبالوحدة البقاء وبالتفريق الهلاك، فلا بد من وحدة تضبط الكرة، وإذا علونا فوق ذلك رأينا السيارات مع الشمس لها وحدة نسميها المجموعة الشمسية التي نرى لها تسع سيارات باعتبار الكوكب الذي وراء نبتون الذي كشف هذه السنة، وهناك ذوات الأذناب والنيازك والشهب الجاريات حول الشمس التي يقال: إن عددها كعدد سمك البحار، فهذه كلها مع الشمس معتبرة وحدة.

ألا ترى إلى ما يسمونه الجاذبية، تلك الحال التي تضم الأرض والكواكب السيارة وأقمارها فتجعلها لا تحيد عن أماكنها، كما لا تترك اليد ولا الرجل جسم الإنسان وغيره.

تباركت يا الله، لنا أجسام ذات وحدة جمعت كثرتها، فإذا فارقتها الوحدة بخروج الروح تفرقت أجزاؤنا، وللمجموعة الشمسية وحدة كوحدة الروح مع الجسم، بحيث نرى الكواكب في أماكنها، ولولا الجاذبية لتفرقت وطاحت، إذن هنا أمر عام في المجموعة الشمسية حكمه حكم الروح في جسمي إذا خرج منها تفرقت تلك الأجزاء وتناثرت وتباعدت وطاشت في أقطار الخلاء البعيد المدى، وفي المجرة الواحدة مئات الملايين من تلك المجموعات الشمسية التي نشاهدها في الليل بهيئة نجوم صغيرة جداً في رأي العين، وحكم المجرة الواحدة مع كواكبها الثابتة التي هي في الحقيقة مجموعات شمسية لها حكم ما ذكرنا أولاً من الجسم وما بعده. انظر بعض هذا في أول سورة «سبأ». وليس في السماء مجرة واحدة، بل هناك مجرات وسدم ـ جمع سديم ـ تعد بمئات الملايين، وقد فعل الله بها ما فعل بما قبلها بحيث أصبح العلماء اليوم يقولون: إن العالم كله كرة واحدة يسير النور حولها مائة ألف مليون سنة. ومعلوم أن النور يسير في الثانية الواحدة (١٨٦) ألف ميل (٣٠٠) ألف كيلو. إذن هذه العوالم جميعها جعلت كرة واحدة كما جعل الإنسان الواحد جسماً منظماً له روح تجمع وتضم وتحفظ أجزاء جسمه، كما أن في العالم معنى يحفظه وقوة تضمه يسمونها الجاذبية وهي عين الوحدة.

نظام الجسم الإنساني مع هذه العوالم

قلنا إن الجسم الإنساني له حواس للعلم وله أعضاء للعمل. فأما الحواس الخمس فأولها حاسة اللمس التي تعم كل حيوان حتى الدودة، بل هي سارية في النبات أيضاً، وهذه قسطها من العوالم حولنا ما قرب منا بالإحساس بالبرودة والحرارة واليبوسة والرطوبة وهكذا، ويليها حاسة الذوق بالحلاوة والملوحة والمرارة والحرافة والعذوبة وهكذا، ثم الشم للروائح التي يحملها الهواء، ثم السمع للأصوات من سائر الجهات، ثم البصر لما هو أبعد حتى أقصى النجوم من القدر السادس. ثم بعد ذلك يستعين الإنسان بالعلم فيصل إلى معرفة أقدار النجوم وأبعادها، ويعرف بالمجهر إلى القدر العشرين. إذن الحواس الخمس عرفت مبدأ العلوم، والعلم أغاث الإنسان فرفعه فوق ما رفعته هذه الحواس. إذن الجسم الإنساني من حيث العلم قد شهد العوالم بحواسه ثم بعقله. وبهذا انتهى الكلام على القسم العلمي من الجسم الإنساني.

أما القسم العملي فهو أعضاء العمل وهي قسمان: قسم للانتقال، وقسم للأعمال. أما قسم الانتقال فهما الرجلان اللتان نسير بهما على الأرض، وقد ساعدهما سفن البحار وقطار البخار في الأرض والآلات الجاريات كالعربات وما يسمونها السيارات «الأتوموبيلات»، وهكذا كل ما يجري على الأرض بجرّ الحيوان أو بدفع البخار أو بمادة البنزين المستخرجة من الفحم أو بالكهرباء، كل ذلك على الأرض، ويلي ذلك الطيارات التي تطير في الجو وتحمل الناس والأثقال، فهذه كلها قائمات مقام سعي الرجلين. وبهذا تم الكلام على العضوين اللذين أعدا لنقلنا وسيرنا على الأرض.

أما العضوان اللذان أعدا للأعمال فهما اليدان اللتان بهما نصنع ما نحتاجه للمطعم والملبس والمسكن وما تفرع منهما، واستعنا على ذلك بآلات قامت مقام عمل اليدين كما قامت المجاهر مقام العينين في بحث الكواكب البعيدة، وقامت الطيارات في الهواء والسيارات على الأرض والسفن في

البحار مقام الرجلين، وهذه الآلات التي قامت مقام اليدين أو ساعدتهما إما أن تديرها اليدان أو الحيوان أو الفحم أو الكهرباء، كل ذلك لإتمام عمل اليدين وحفظ حياتنا على هذه الأرض، وبالجملة هذه العوالم مزرعة الإنسان من وجهين: وجه العلم، ووجه العمل، وجسمنا خلق على استعداد لهما أما اللسان فهو رسول بين الأفراد يوصل العلم من واحد إلى آخر ويعين على الأعمال العامة، فهو بحركته عامل وعمله ينتج العلم. هذه هي حال الإنسان بالنسبة للعوالم المحيطة به، وأكثر ما ذكرناه هو علوم طبيعية لصور خارجية في العوالم الأرضية والسماوية.

الصور الخارجية والصور الذهنية والعلوم الرياضية

قلنا إن أكثر ما ذكرناه علوم طبيعية، إذ هي ترجع إلى المادة المحسوسة المشاهدة، ولكن هذه العوالم المشاهدة كما قررنا لها وحدة ولها كثرة من وجهين، والكثرة لا حد لها، فإذا لم ترجع إلى الوحدة في أذهاننا كما أنها واحدة في الخارج كان جهلنا بها عظيماً، لأن العلم لا يثبت إلا لما هو ثابت، ولا ثبات إلا بقوانين، أما الكثرة التي لا قانون لها ولا ضابط فهي خارجة عن الحصر، وما خرج عن الحصر لا يعلم، هنالك احتاج الإنسان إلى علم العدد والحساب، ولا جرم أنه كما قلنا واحد في نفسه، لأن له روحاً جمعت أجزاء هذا البدن وإذا خرجت هذه الروح من الجسد تمزقت تلك الأعضاء وطاحت تلك الحواس وتناثرت تلك الأجزاء وضاعت في كل فج عميق.

ألم يشاهد الناس أن الميت هذه حاله لا ضابط لأجزاء جسمه المزقة ولا حافظ لأعضائه المختلفة، فالذي جمع ذلك كله وحدة هي الروح، فليس في الأرض امرؤ يقول في نفسه: إنه اثنان، بل يقول: أنا، ففيه معنى الوحدة بداهة، ثم ينظر في أعضائه فيجد فيها الرأس وهو واحد، والعينين والأذنين والثديين والسبيلين وهكذا فهما اثنان، ويرى في كل إصبع ثلاث مفاصل، ويرى أعضاء البطش أربعة وهي اليدان والرجلان، وأعضاء الحواس خمسة، وأصابع اليد الواحدة خمساً، وبتضعيفها تكون العشرة ثم العشرين بضم أصابع الرجلين، وهكذا يضاعف العدد إلى المائة والألف والآلاف والملايين وما فوق ذلك، وينتهي ذلك كله بأن نقول علم العدد. إذن الإنسان فعل في صوره الذهنية ما فعله بالصور الخارجية. إن الإنسان كما انتقل من جسمه إلى العوالم فأرجعها كلها إلى كرة واحدة؛ فعل بعلم العدد هذا العمل نفسه. فالعشرة عنده وحدة والمائة وحدة والألف وحدة والمليون وحدة وهكذا، وينتهي الأمر بعد آلاف آلاف الملايين أن يقول هو العد أو الحساب، كما قال في العالم المحسوس هو الكرة التي يسير الضوء حولها كذا وكذا فيما تقدم. إذن الإنسان اخترع لنفسه صوراً ذهنية هي الأعداد، وهذه الأعداد لا وجود لها في الخارج، وهل في الخارج إلا المعدود. والسماء والأرض والبحر والجبل ليست أعداداً، كلا. بل هي معدودات. وما الأعداد إلا صور ذهنية اخترعها العقل الإنساني ليكبح بها جماح الصور الخارجية التي تريد أن تفلت من يده، فضمها وجمعها فقرّت في يديه وحضرت لديه فعرفها فكان بذلك قرير العين.

ويلي الحساب علم الهندسة. وما علم الهندسة إلا نظام للمقادير المتصلة من الخطوط والسطوح والأجسام، كالخط المستقيم والمنحني والمنكسر وكالزاوية والمثلث والمربع وكالكرة والمكعب وما أشبه

ذلك، فالقوانين الهندسية التي سبق كثير منها في سورة «الروم» عند آية: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم: ٣٠]؛ بها ضبطنا كثيراً من هذه الأجسام فبقيت في عقولنا وحفظت في أذهاننا، فارجع إليها فإنك تجد هناك نسباً وصلة ورحماً بين أنواع الأشكال في مساحتها كالنسب والصلة بين ذوي الرحم من نوع الإنسان. إذن الهندسة متممة للحساب في ضبط المادة كي يعلمها الإنسان، ويساعد ذلك كله علم الجبر وعلم الفلك، وعلوم أخرى مفرعة على ذلك. وما ذلك كله إلا صور ذهنية اخترعتها العقول الإنسانية بحكمة دبرت وآيات أبدعت في خلق الروح المودعة في هذه الأجسام. إذن الإنسان قدر أن يصنع في نفسه نوعين من الصور: نوع له وجود في الخارج وهي مواد العلوم الطبيعة. ونوع لا وجود له في الخارج وهي الأعداد وعلوم الهندسة، والأعداد مقادير منفصلة والهندسة مقادير متصلة، إذ نرى المثلث مثلاً اتصلت أضلاعه وزواياه بخلاف واحد اثنين فهما منفصلان لا متصلان، وهنا يقولون: إن الوجود له أربع مواطن: وجود في الأذهان كهذه الأعداد ونظريات الهندسة، ووجود في الأعيان وهي المعدودات والأشكال الهندسية الملموسة، ووجود في اللسان وهي الكلمات الدالات على ما في الأذهان، ووجود في البنان وهي الكتابة الدالة على ما نطق به اللسان. إذن الموجود أصالة هو الخارجي وهو المعدود مثلاً، ويعبر عنه العدد الذهني، ويعبر عنه اللسان، وينوب عنه القلم. فأولاً مرتبة الخارج يتبعها الذهن يليه اللسان فالبنان. ولكن الذي في الخارج هو المعدود، والذي في الذهن هو العدد، فهما متغايران من هذه الجهة.

البحث فيما وراء المادة
ومعرفة الله تعالى ونظام السياسة في الأمم

نظر الإنسان بعد ذلك فقال: هذه علوم طبيعية وهذه علوم رياضية، والآخرة حفظت الأولى. ولكن ما الحافظ لهؤلاء جميعاً؟ والذي حمله على ذلك غريزته وفطرته، كما أن نفس الغريزة هي التي اخترعت علم العدد. فهنالك قال الإنسان: إن للعالم صانعاً ولكن كيف أتصوره؟ المادة مشاهدة. والأعداد ونحوها متخيلة مستنتجة من المشاهدات المحسوسات. هنالك أخذت المخيلة تختلق له صوراً وأشكالاً. وبيانه أن الإنسان يتصور السماء والأرض وما بينهما في مخيلته إذا كان بصيراً كما شاهدهما ويتصور المسموع بصور مما يراه ويشاهده بعينه، لأن المبصرات أغلب عند المبصرين، وهكذا يتصور الأعداد بصور مما يشاهده بعينه. أنا منذ الصغر حفظت القرآن عن ظهر قلب بلا عقل، فأنا ألاحظ الآن أن سور القرآن سورة سورة مرسومة في ذهني مفصلة بهيئة صور لها ألوان مما أشاهده في العالم، وهذا من المسموعات، ولكن هذه الصور المخترعة في مخيلتي للمسموع من القرآن ليست في الوضوح كصور السماء والأرض، ثم أرى صوراً أخرى في خيالي للأعداد من الواحد والعشرة والمائة وما بينها، فهي مرتبة منظمة بحسب ما يشاهده بصري. وليس من المعقول أن الأعمى يتصور هذه الصور كما يتصورها البصراء. إذن الإنسان في صور المحسوسات والصور المخترعة للعد يتخيلها بحسب ما غلب عليه. إذن الإنسان في تصوره لم يلتزم طريقة بعينها، فهو حر يتصور بحسب ما غلب عليه. فإذا كانت هذه حاله فيما له صورة في الخارج ونحوه، فهو فيما ليس له صورة في الخارج أغور في الحرية وأعرق

وأبعد مدى في التصوير. ألا ترى إلى ما يقوله الحكماء: إن الطبيعيات هي ما نحتاج في إدراكها إلى المادة في الذهن وفي الخارج، والعلوم الرياضية ما يحتاج في إدراكها إلى المادة في الخارج لا في الذهن، والعلوم الإلهية ما لا نحتاج في إدراكها إلى المادة لا في الذهن ولا في الخارج، وذلك كله كالنخلة في الأول، والمائة في الثاني، والله في الثالث.

هاهنا أخذت عقول الناس تجول فيما حولها. فأخذ كل يصف الله في خياله بما غلب عليه مما هو عظيم في نظره، من بقرة يحرث الأرض عليها، وفيل هائل المنظر، وحية عظيمة وقرد وشمس وقمر وكوكب، فالخيال هنا كان أوسع حرية بخلافه في المحسوسات، فإن صورها ظاهرة فلا داعي لسعة الاختلاف في تصورها، ولذلك رأينا أهل هذه الأرض ملؤوها بالأصنام اللاتي تصور لكل أمة ما غلب على طباع أهلها، وتارة يتخيلون صانع العالم رجلاً عظيماً كما تخيلوه كوكباً منيراً، بل منهم من تخيله شريراً كثير الشر لما غلب على الطبع من أن الشرير يخاف، كأمثال قوم يسمون اليزيدية يعبدون إبليس، ويقولون إن الله رحيم فلا حاجة إلى عبادته، ولكنا نعبد إبليس لأنه شرير، وهكذا من الصور التي لا حد لها، ولكن الإنسان ذلك المخلوق الذي أدرك في نفسه وحدة وكثرة، ووحدته حفظت كثرته رجع فقال: كلا. الوحدة في جسمي وفي العوالم، والوحدة في الأعداد كما تقدم، فالإله ليس متعدداً بل هو واحد وما هذه إلا مظاهره، كما أن روحي واحدة والأعضاء مظاهرها لا غير، لذلك تسمع علماء الهند يقولون: إن الآلهة الثلاثة التي يعتقدونها ما هي إلا صفات للجوهر الحقيقي وهم: براهما وسيفا وفشنو، فهم إذا ملؤوا بلاد الهند بالأصنام فكلها آلهة ثانوية ترجع إلى الثلاث، والثلاثة إنما هي صفات والله واحد. هكذا تسمع المسيحيين يقولون قولاً أخفى من هذا فيقولون: الثلاثة واحد، ولكنهم لا يفصحون كما يفصح أهل الهند، لأن هؤلاء مقلدون لهم، والمقلد لا يعقل ما يعقله من علمه.

فلما جاء الإسلام أعلن الحقيقة مرة واحدة، فكسر الأصنام ومنع تعدد الآلهة، وأنكر الأبوة والنبوة، وقال: الله واحد، فقوله تعالى حكاية عن الكفار في هذه السورة: منشؤه نظرهم إلى الكثرة، والكثرة بلا وحدة ضائعة.

سياسة الأمم تتبع عقائدها

إن الأمم لا ثبات لها ولا دوام إلا بوحدتها، ولا وحدة لها إلا بعلم يحفظها كما حفظت الصور المحسوسات في نفوسنا وعلمت بضوابط حسابية، فكما أن العلوم الرياضية رباط العلوم الطبيعية وحفاظ لها هكذا العقائد الثابتة في الأمم رباط الجماعة الإنسانية تحفظها من الهلاك والتشقق، ولذلك نجد دين الإسلام شرع الأمرين معاً: وحدة الخالق، وتبعها وحدة الأمة. العرب في البادية كانوا أشتاتاً، كل يفخر بأمته وأسرته وعشيرته إغراقاً في البداوة، كما يفخر بصنمه الذي يعبده ويحقر صنم سواه، فهو بعشيرته وبصنمه مفتون، هنالك تفرقوا سياسة كما تفرقوا عقيدة، فقال الإسلام لهم: أيها الناس: لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، ما هذا التفرق، ما هذا الخذلان، ما هذا التباعد، هذه وحدات ضيقات ضائعات متفرقات متباعدات، اجمعوا هذه الوحدات كلها في وحدة تجمعكم، قم

يا بلال أذن في الكعبة، وأنتم أيها العرب اسمعوا أذانه، وإن زعمتم أنكم أولى بالكعبة من كل الأمم، أنتم بنو آدم لا بنو عدنان وقحطان فقط، فلتكونوا أيها الناس أمة واحدة، ألم نكسر أصنامكم المفرقة لكم، ألم نقل لكم إن إلهكم واحد رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق، إذن الوحدة عامة في الكون فمن أين أتيتم بالتعدد؟ وهذه الوحدة يجب عليكم أن تغذوها بالصلوات الخمس صحة لأبدانكم وقوة لإيمانكم وجامعة لمدنيتكم وحافظة لدولتكم، والزكاة من أعظم الروابط بينكم، واشتراككم في صيام رمضان يقوي إيمانكم ودولتكم والحج يجمعكم.

هذه هي أركان الإسلام التي تجمع المسلمين على عقيدة واحدة وعمل واحد، وهذا العمل يقوي العقيدة ويحفظ الوحدة، ولما ترك المسلمون الصلوات وما بعدها وتهاونوا فيها حاق بهم الذل، لأن العقيدة لم تجد ما يغذيها ويقويها ويحفظها فتفرقت الوجهة وساء المصير.

فقال صاحبي بعد أن سمع هذا: الله أكبر، إن هذا خير بيان في هذا المقام، ولكن يتوجه إليك سؤالان فأرجو أن تأذن لي في ذكرهما. فقلت: لك ذلك. فقال: أولاً: إن اليابان عابدة الأصنام، والفرنجة الذين يؤمنون بثلاثة آلهة قد اتحدوا ولا توحيد عندهم، والمسلمون الموحدون لا رابطة لهم. إذن لا علاقة بين العقائد ونظام السياسة. ثانياً: إننا الآن في تفسير البسملة في أول سورة «ص» وإلى الآن لم تبين ما في هذه السورة من الوحدة والكثرة، وما تقدم كله إن هو إلا أشبه بالمقدمات.

فقلت: أما كون الأمم التي لا توحيد في عقائدها قد نجحت في سياستها، والأمم التي وحدت في عقائدها قد اضطربت سياستها كالأمم الإسلامية، فهذا يحتاج إلى البيان. توحيد العقائد والإشراك فيها أمر يرجع إلى العلم والجهل. فهو إذن راجع لجهل الروح وعلمها. واعتقاد التوحيد قد يجر إلى اتحاد السياسة ونظام المجموع. وقد يقف عند الإيمان المجرد، فإذا غذي ذلك الإيمان بما يزيده يوماً فيوماً من الاجتماعات العامة في الصلوات كالعصور الأولى، وبما يؤدي الناس من الزكاة للضعفاء والمرضى، وبما يحجون ويصومون ويتصدقون.

فهذه كلها مغذيات منميات لتلك الوحدة، وينتقل التوحيد من العلم إلى العمل ويصبح الناس إخواناً. وإذا دهمهم عدواً تألبوا عليه، وازدياد الحوادث تزيدهم اتحاداً. فأما إذا بقي التوحيد أمراً قلبياً إيمانياً أو يقينياً بعلم ولم تسع الأمة إلى إيجاد روابط عملية بالصلوات والاجتماعات العامة في خطب الجمعات والأعياد فمن أين يتعدى التوحيد العقول ويسري إلى الأجسام ويوحدها. فليس كل من وحد استوفى شرائط التوحيد، ولا كل من آمن بالله جديراً بنصره ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾[العنكبوت: ٢]ولا جرم أن أركان الإسلام الخمس هي النواة والحجر ٣
الأساسي لبنيان الأمة وسلامتها وحفظ كيانها. هذا هو السبب في تخاذل المسلمين وعدم اتحادهم في القرون المتأخرة. إن اتحاد الأمم في السياسة له طرق شتى ونواح مختلفة، وترجع كلها إلى توحيد وجهة الأمة، وذلك كما يحصل بالدين يقوم بالعصبية والوطنية والاتحاد في اللغة وفي النسب وفي الأتباع للملك جامع لهم وفي المعاهد وفي مصاهرة الملوك وفي الاستعباد بأن تتبع الأمة من استعبدوها، وهكذا مما ذكره العلامة الفارابي في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة».

كل هذه جعلها النوع الإنساني طرقاً ومسالك للاتحاد، وهي درجات بعضها فوق بعض، فإن قاموا بشرائطها جمعتهم، وإن لم يقوموا بها تفرقوا شذر مذر، وبهذا تفهم كيف اجتمعت اليابان، فقد جمعتها الحاجة إلى الدفاع عن وطنهم واتحادهم في النسب واللغة والوطن، وقد قاموا بما يجب لهذا كله، والله يقول: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[هود: ١١٧]، فهم لما أصلحوا أحوالهم النظامية لم يكن ظلمهم بالكفر سبباً لإهلاكهم، كما أن الحيوانات التي في الغابات لا حصر لها تعيش في أمن وسلامة، فليس الإنسان أدنى منزلة منها، لأن الله رحمن رحيم يسع في ملكه كل من أصلحوا معيشتهم في الحياة الدنيا وإن كفروا بآخر الأديان، إما لأنه لم يبلغهم على وجهه كما هو معروف الآن، وإما للتكبر والأنانية والعظمة، وهذا قليل.

فقال صاحبي: لقد اجتمع أهل مصر وتونس وطرابلس والجزائر ومراكش وسوريا والعراق والموصل في اللغة والدين وتجاور الأوطان وفي النسب فلماذا لم يتحدوا؟ فقلت له: الجواب على ذلك ظاهر مما تقدم. فكما عجزوا عن تغذية العقيدة الدينية بالظواهر المغذية لها التي توجب اتحادهم في السياسة الدنيوية فضلاً عن محبة الله والسعادة الأخروية؛ هكذا عجزوا عن القيام بحق اللغة وآدابها ونشرها؛ وعن قراءة علم تاريخ أسلافهم وتواصل المودات بينهم والتعارف، فالعجز عن مغذيات الدين بأعماله الظاهرة نظيره العجز عن مغذيات اللغة والنسب وقرب الجوار في الوطن. كل ذلك متروك كما ترك غيره. فأما الأمم الأخرى فإن لهم روابط كثيرة، بل إن أوروبا المسيحية تجتمع ضد الشرق وتحاربه مراراً، ويكون الدين من أهم روابطها، لأن المدار على الاعتقاد، والاعتقاد له جمعيات تحافظ عليه، فاستبان بهذا وظهر ظهوراً لا مرية فيه هذا الموضوع، وعرفت أيها الذكي أسباب اتحاد أمم وعلوها وضعف أمم وسقوطها. ولا يظن ظان أن اتحاد التلاميذ في ملابسهم ونظامهم في الأعمال والتمرين الرياضي والدروس وهكذا قراءتهم في المدارس الثانوية علوماً رياضية وطبيعية وتاريخية وفلكية لم يقصد به تلك الوجهة العامة.

إن اتحاد العقول في علوم عامة واتحاد الأجسام في مظاهر ملابسها ورونقها كل ذلك ذرائع لاتحاد الأمة، حتى إن الأمة الواحدة قد تتسع لأديان كثيرة، ولكن كثرة المقومات للوحدة تمنع تفريق المجموع ولو بحسب الظاهر والقانون.

ولا ريب أن أقوم مقومات اتحاد الأمم هو الدين إذا قام الناس بحقه. فخير ما أنزل الله للناس هو هذا الدين الذي جمع الناس عقلاً وعقيدة ودنيا وآخرة. ولما أهمله حاملوه أصبحوا في مؤخر الأمم. واعلم أن الإنسانية لن تسعد ولن تستريح راحة تامة إلا بوحدة شاملة. كذب هذا الإنسان. كذبت المدنية الحاضرة.

عجبي! نسمع أن الأمة التركية قد تركت دين الإسلام، أي أن الحكومة أعلنت ذلك، ولكن قرأت في مجلة «السياسة الأسبوعية» في شهر يونيو سنة ١٩٣٠ ما ملخصه أن جماعات أتت إلى بلاد الترك من أمريكا وهم من السود المتزجين بأهل البلاد الأصليين، وهؤلاء يبلغون نحو مائة أو يزيدون على ما أذكر، وأنهم عرفوا الإسلام هناك من جمعية الرفق بالأيتام، وأنهم يقولون: نحن آمنا بالدين

المسيحي الذي أتانا به الجنس الأبيض وهم الأوروبيون، ومع ذلك لا يزالون يكرهوننا، ومتى رأوا من أحدنا ذنباً حقيراً مزقوه شر ممزق وإخوانهم بهذا فرحون، ونحن لما سمعنا بالإسلام وسهولته فهمناه حق فهمه ولم نفهم الدين المسيحي. وهانحن هاجرنا من أمريكا إلى هذه البلاد لنعيش مع إخواننا الترك المسلمين. أقول: وقد قابلت أحدهم بعد ذلك بمصر وهو عالم عظيم.

ولا جرم أن هذا القول ينطبق على السود الذين هم في الولايات المتحدة، فهم هناك يمزقونهم كل ممزق على مرأى ومسمع من الشرطة في تلك البلاد. إذن الإنسانية اليوم لا تزال طفلة. فالتعصب يكون للدين كما يكون للون وللوطن، فالناس لا يزالون في أحضان الجهالة يتربون. عجب وألف عجب لدين الإسلام الذي لا يفرق بين أمة وأمة ولا وطن ووطن ولا لغة ولغة ولا لون ولون، وأذان بلال بالكعبة شاهد صدق على ما نقول أمام العرب المتعصبين لوطنهم ونسبهم. إذن فلتخجل الإنسانية الحالية، فإن مدنيتها مدنية جاهلة سواء أكانت بالوطن أم باللغة أم بغيرها، وخير المدنيات أن يكون جميع الناس متعاونين.

إن الأمم التي عندها اجتماع ما بلغة أو بدين أو وطن كأهل أوروبا وأمريكا فهي أمة عوراء، وهذا العور أفضل ألف مرة من العمى، لأن أمم العرب المتجاورة لم تعن به، بل بقيت منعزلة كأنها لم تسمع بالإسلام أو لم تسمع باللغة أو بالوطن أو غيرهما. إذن الأمم عمياء إذا لم يكن لها اجتماع مما تقدم. عوراء إذا اجتمعت بلغة أو بدين أو وطن وهكذا. بصيرة إذا اجتمع الإنسان كله اجتماعاً صادقاً مع العدل وحفظ العقول والعلوم واستخراج قوى النفوس وقوى الطبيعة.

فيا أيها المسلمون، نحن أمة أكثرنا لم يصل إلى درجة العور، فنحن في أخريات الدرجات، فارتقوا درجة واتحدوا كالأمم حولكم، ثم بعد ذلك ارتقوا بالإنسانية إلى الدرجات العالية، وهي أن يكون النوع الإنساني كله على بصيرة. لذلك نفهم معنى كونه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين. وهل يكون رحمة العالمين تعصب أمريكا على السود والحمر، أو تعصب أوروبا على سوريا وتمزيقها إلى دول صغيرة، وتشتيت شمل المسلمين في بلاد الجزائر ومراكش وإذلالهم في عقر دارهم. كلا. فهذه ليست رحمة.

الأمم الحاضرة لا تصلح لرقي نوع الإنسان. واعلموا أيها المسلمون أن هذا الكتاب ستعقبه نهضة في الشرق يتلوها رجة في الغرب يعقبها سعادة الإنسان، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ﴾[ص: ٨٨]، وبهذا تم الكلام على سؤالك الأول.

الجواب على السؤال الثاني، وهو قولك أننا الآن في تفسير البسملة في أول سورة «ص»، وإني لم أبين ما في هذه السورة من الوحدة والكثرة، فأقول: اعلم أن أسماء الله الحسنى دالة على صفاته، وصفة الرحمة مصاحبة للعلم والإرادة والقدرة، لأن رحمة الله لم نعرفها إلا بالآثار، ولا آثار إلا حيث كانت قدرة أظهرتها، والقدرة تتبع الإرادة، ولا إرادة إلا حيث يكون العلم، فالرحيم الذي لا علم عنده كالأم تكون رحماتها مضرة، والرحيم الذي لا قدرة له عاجز عن إيجاد ما قصده من الخير، فالرحيم العالم المريد القادر هو الذي يستعان به، ولذلك تجد للرحمة سورة بتمامها كما أشرنا

إليه سابقاً في سورة أخرى، إذ جعلت سورة «الرحمن» كلها كالتفصيل لآثار الرحمة، بل جميع ما في هذه الدنيا والآخرة آثار للرحمة، وحديث: «إن لله مائة رحمة، وإن رحمة واحدة منها جعلت في الأرض بها ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه، وإن هذه الرحمة تنضم إلى ٩٩ رحمة الأخرى تكون لأهل الجنة» يوضح هذا المقام، فعالم الدنيا والآخرة آثار الرحمة، فإذا لم تكن هذه العوالم لم نعرف الرحمة. إذن الوجود آثار من الرحمة، والعدم آثار الغضب، ولا جرم أن القرآن من الرحمة، ولذلك يقول الله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[الرحمن: ١-٢]، فالقرآن من الرحمة وما في هذه السورة طبعاً من الرحمة، وما في الدنيا والآخرة من الرحمة، وهذا هو الباب الذي دخل منه سيدنا عليّ كرم الله وجهه إذ نقل عنه إنه لو شاء لكتب وقر سبعين بعيراً في تفسير البسملة، وهذا حق، لأن الرحمة شملت العالم العلوي والسفلي والآخرة والدنيا، وهذا هو السر في الابتداء بها في أول كل سورة، ومعاني القرآن كلها داخلة تحت أسماء الله الحسنى الدالة على صفاته، إذن الأمر ظاهر، ولكن ليس معنى هذا أن يكون تفسير القرآن كل شيء، بل القرآن يفسر بالطرق التي يراها المفسر لأقرب لعقول أهل زمانه ويكتب ما يفهمونه. هذا هو المقصود من التفسير، لا أنه يكتب كل شيء، بل يكتب بحسب ما يناسب زمانه لا غير. فإذا حاد عن ذلك لم يكن مفسراً بل هو ناقل، وكل بعير فهو ناقل.

فإذا سمعت ما يأتي في هذه السورة من قصص سليمان وداود اللذين أغدقت عليهما النعم؛ وسمعت قصة أيوب الذي ابتلي بالنقم؛ فاعلم أن النعمة والنقمة يرجعان لأمر واحد وهو الصبر، بل الصبر على النعمة أشد على النفس من الصبر على النقمة، كما ذكرناه سابقاً نقلاً عما نسب إلى «أرسطاطاليس»، إذ أرسل إلى الإسكندر يهنئه بالنصر في فارس، ويذكره بأن النعم تنتقل من دولة إلى دولة إذا ترك الناس في حال أمنهم فبطروا العيش وسئموا الرخاء، وأن الناس في حال الخوف والحرب أنشط وأسرع عملاً، وفي حال الأمن هم يكسلون ويبطرون ويذهب ملكهم. فهم يحتملون أيام المخافة ولا يكادون يصبرون على النعم، لأنها تنيمهم وتقتلهم بالبطنة وساءت مصيراً.

ومن هذا الباب ما جاء على لسان سليمان في سورة «النمل»: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[النمل: ٤٠]. إذن سليمان عليه السلام المذكور في هذه السورة ابتلي بنعمة، بل ابتلاؤه أشد من ابتلاء أيوب على هذا القياس. فهاهنا أمران: رحمة بالابتلاءين الخير والشر، ووحدة، فإن الخير والشر وإن كانا متغايرين جمعهما الابتلاء، فهاهنا وحدة وهاهنا كثرة، والوحدة بها جمعت الكثرة، كما أن تعجب الكفار بقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[ص: ٥] الذي أملاه عليهم الجهل يدحضه الوحي والعقل ويرجعان إلى التوحيد.

إذن الوحدة في الألوهية يوجبها الوحي والعقل والتفريق يوجبه الجهل. والوحدة في نظام الأمم يوجبه الوحي والعقل، والتفريق يوجبه الجهل. والنظام في الأمم إما لا أساس له كالأمم الوحشية، وإما متوسط الأساس وهو نظام الأمم الحالية، وإما ثابت الأساس وهو اتحاد الأمم جميعاً، والله يهدي من يشاء إلى سواء الصراط. انتهى الكلام على الفصل الأول في تفسير البسملة، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم
مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا
سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ
ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ
إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾
أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ
فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ
وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن
كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾
وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا
دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾
وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾
۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ
لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ
ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي
فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي
بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ
فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ
مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ
فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ
ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ

لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ
أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ (٢٨) كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَـٰبِ (٢٩) وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ
ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ (٣٢)
رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ
جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ
وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ (٣٨) هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩)
وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٠) وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ
ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ
وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا
تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٤٤) وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ
أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ (٤٥) إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ
ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٧) وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٨)
هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٩) جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ (٥٠) مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا
يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ۞ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَـٰذَا مَا
تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ (٥٤) هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ (٥٥)
جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٥٦) هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ
أَزْوَٰجٌ (٥٨) هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ (٥٩) قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا
مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا
فِى ٱلنَّارِ (٦١) وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا
أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ (٦٤) قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ
إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ (٦٦) قُلْ هُوَ

نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾
إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ
﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ
بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ
﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ
فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾
قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ
أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

التفسير اللفظي

﴿ صٓ ﴾ تقدم في سورة « آل عمران » و« العنكبوت » و« الروم » و« يس » بعض أسرار الحروف، وسنخصصها بالكلام في الفصل الثالث لتعرف أنها مغزى السورة والمقصود المهم منها. ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ أي: أقسم بالقرآن ذي الشرف والبيان إنه لمعجز وإن محمداً لصادق ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ أي: ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه، وإنما ذلك الكفر لعزة، أي: استكبار عن الحق وشقاق، أي: خلاف لله ولرسوله، وإذا ثبت أن القرآن معجز وأن هؤلاء معاندون لم يبق إلا إنذارهم، ولذلك قال: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ من أمة ﴿ فَنَادَوا ﴾ فدعوا واستغاثوا حين رأوا العذاب، فأجابتهم الملائكة قائلين: ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي: ليس الحين حين مناص، أي: نجاة، لأن وقته فات ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي: بشر مثلهم ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر للتشنيع عليهم بالكفر ﴿ هَٰذَا سَاحِرٌ ﴾ فيما يظهره معجزة ﴿ كَذَّابٌ ﴾ فيما يقوله على الله ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ بأن جعل الألوهية منحصرة في واحد ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ بليغ في العجب، فإنه خلاف ما أطبق عليه آباؤنا ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ أي: انطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين بعضهم لبعض: امشوا واثبتوا على عبادة آلهتكم فلا تنفعكم مكالمته، وهذا قوله: ﴿ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ أي: إن هذا لشيء من ريب الزمان يراد بنا فلا مردّ له ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ أي: بالذي يقوله ﴿ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ في الملة التي أدركنا عليها آباءنا ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ كذب، ثم أخذوا ينكرون اختصاصه بالوحي وهو مثلهم أو دون منهم في

الشرف والرياسة، فقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾. ثم أضرب عن إنكار ذلك إلى سبب إنكارهم وهو الشك لميلهم إلى التقليد، ثم أضرب عنه أيضاً إلى أنهم إلى الآن لم يذوقوا العذاب، ومتى ذاقوه فإنهم يلجؤون إلى التصديق، وهذا قوله تعالى: ﴿بَل هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾. ثم أخذ يتهكم بهم قائلاً: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ أي: بل أعندهم خزائن رحمته وفي تصرفهم حتى يصيبوا بها من شاؤوا ويصرفوها عمن شاؤوا فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم، ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: بل ألهم ملكهما، أي: ليس لهم مدخل في أمر هذا العالم الجسماني الذي هو جزء من خزائنه تعالى، وإن كان لهم ذلك فليصعدوا في المعارج التي يتوصل بها إلى عرش هذا الملك حتى يستووا عليه ويدبروا أمر هذا العالم فينزلوا الوحي إلى من يستصوبون، وهذا قوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ الارتقاء: الصعود، والأسباب: المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى الاستيلاء على العرش، ثم وعد بنصر نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: هؤلاء الذين يقولون هذا القول ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ الكفار المتحزبين على المؤمنين مغلوبون في الوقائع هنالك في مصارع بدر وغيرها، فأنى لهم تدبير الأمور الإلهية والتصرف في الخزائن الربانية، و«ما» في ﴿جُندٌ مَّا﴾ مزيدة للتقليل، أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وهو بمكة أنه سيهزم جند المشركين، وهذا عجيب، لأنه وهو بمكة لا جند له، فجاء تأويلها يوم بدر ونحوها، وهذه من أعظم المعجزات، ثم عزى الله نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي: ذو الملك الثابت الأوتاد. قال الشاعر:

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتاد

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ وأصحاب الغيضة وهم قوم شعيب ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ يعني المتحزبين على الرسل الذين جعل الجند المهزوم منهم كالأحزاب الذين تحزبوا عليك، ثم بين سبب انهزامهم وعقابهم فقال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ يعني أن أولئك الطوائف والأمم الخالية لما كذبوا أنبياءهم وجب عليهم العذاب، فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين إذا نزل بهم العذاب، ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: وما ينتظر كفار مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهي النفخة الأولى ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: من توقف مقدار فواق، وهو ما بين الحلبتين، أو ما لها من رجوع، من: أفاق المريض، إذا رجع إلى الصحة، ويقال: فواق الناقة أيضاً: ساعة يرجع الدر إلى ضرعها، وهو بالضم والفتح، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ قسطنا من العذاب الذي توعدنا به، وهو من: قطه، إذا قطعه، ويقال لصحيفة الجائزة: قط، لأنها قطعة من القرطاس، أي: عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ وهذا الاستعجال على الوجهين منهم استهزاء ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيك واحذر أن تهن في مصابرتهم وتحمل أذاهم، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ أي: قصته، ليعلموا أنه مع عظم شأنه وبخه الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفطن، فلتحذر أنت حتى تصون نفسك أن تزل، وقوله ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: ذا القوة في الدين ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى مرضاة الله. روي أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ويقوم نصف الليل، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا﴾ ذللنا ﴿ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ أي:

مسبحات بتسبيحه إذا سبح، والمضارع اختير للتجدد ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ العشي: وقت العصر إلى الليل، والإشراق: حين تشرق الشمس، أي: تضيء، وهو وقت صلاة الضحى كما فسره ابن عباس، وأما الشروق فهو الطلوع، تقول: شرقت الشمس ولما تشرق - بضم التاء - ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗ﴾ أي: وسخرنا الطير مجموعة من كل ناحية ﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أي: كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجاع إلى التسبيح مع المداومة على ذلك ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ وقويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود. روي أن رجلاً ادعى بقرة على آخر وعجز عن البينة، فأوحي إليه أن اقتل المدعى عليه فأعلمه فقال: صدقت إني قتلت أباه غيلة وأخذت البقرة، فعظمت هيبته بذلك، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ النبوة وكمال العلم وإتقان العمل والإصابة في الأمور ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ علم القضاء وقطع الخصام والفصل بين الحق والباطل. ثم ابتدأ سبحانه نبأ عجيباً من أنبائه وشوّق إلى استماعه بالتعجيب منه، فقال: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ أي: خبر الخصم، وهو يطلق على الواحد والجمع ﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ أي: صعدوا وعلوا سور الغرفة التي كان يشتغل فيها داود بالطاعة ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ متعلق بـ «تسوروا»، ﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾ ذلك أن ملكين بعثهما الله إليه في صورة إنسانين طلبا أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس، فتسورا المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان، ففزع من ذلك لدخولهما في وقت الاحتجاب، لأنه كان يجزئ زمانه يوماً للعبادة ويوما للقضاء ويوماً للوعظ ويوماً للاشتغال بخاصته، ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ نحن ﴿خَصۡمَانِ﴾ متخاصمان ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ وهذا من باب الغرض ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ ولا تجر في الحكومة ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: وسطه، وهو العدل ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ بالدين والنصيحة ﴿لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ هي الأنثى من الضأن ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ ملكنيها ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ وغلبني في مخاطبته إياي ﴿قَالَ﴾ داود قبل أن يسمع كلام المدعى عليه للمدعي ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾ المدعى عليه ﴿بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ أي: والله لقد ظلمك بذلك، ثم استطرد فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ الشركاء ﴿لَيَبۡغِي﴾ ليتعدى ﴿بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ أي: وهم قليل، و«ما» مزيدة للإبهام والتعجيب من فعلتهم، فلما قضى داود بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه وضحك، وصعدا إلى السماء، فعلم داود أن الله ابتلاه إذ قال له الخصمان: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ فحكم للمدعي بدون أن يسمع كلام خصمه ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أي: أيقن ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ابتليناه وامتحناه لحكمه للمدعي قبل أن يسأل المدعى عليه ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لذنبه ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا﴾ للسجود مصلياً كأنه أحرم بركعتي الاستغفار ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجع إلى الله بالتوبة ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: ما استغفر عنه ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ أي: لقربة بعد المغفرة وحسن مرجع في الجنة. وأما ما روي أن بصره وقع على امرأة فعشقها فأوحى إلى رئيس الجيش أن يقرّب زوجها أورياء بين يدي العدو فيقتل؛ وأنه تزوجها بعد ذلك؛ فإن ذلك من كلام القصاصين. ولقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال «من حدّثكم بحديث داود على

ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين »، وكيف يليق بذلك بمن يخاطبه الله قائلاً: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استخلفناك على الملك فيها ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ بحكم الحق ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: ما تهوى النفس من المبادرة إلى تصديق المدعي قبل سؤال المدعى عليه ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دلائله التي نصبها للحق ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل، فإن تذكره يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى، ومن الهوى الإسراع إلى تصديق أحد الخصمين لجودة إلقائه وحسن بيانه وما أشبه ذلك من استئجار المحامين الذين هم أقدر على البيان في هذا الزمان، فالقاضي بسبب ذلك معرض للزلل كل حين. ولما كان آدم وبنوه خلفاء الله في الأرض يقومون بالعدل والنظام على مقدار طاقتهم وقيامهم بالعدل تابع للنظام العام كما قال تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٧-٨]؛ ناسب أن يذكر عدله وحكمته في السماوات والأرض فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ مبطلين عابثين، أو للباطل الذي هو متابعة الهوى، بل للحق الذي هو مقتضى العدل ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: خلقهما باطلاً ظنهم ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بسبب هذا الظن وذلك لأنه حكم بلا دليل كما يحكم القاضي لأحد الخصمين قبل سماع الآخر كما تقدم. وإذا كنا فتنا داود في القضاء وعلم أنه قد فتن بسبب إصغائه لأحد الخصمين دون الآخر؛ فنحن فتنا هذا الإنسان على وجه الأرض وامتحناه في نظامنا، فمنهم من يرى أن إماتتنا وإحياءنا وإحداث الأمراض والأرزاء في الأرض والوباء والحروب والأكاذيب والأراجيف والفتن كل ذلك باطل لا معنى له، فيعيش الإنسان ويموت وهو يقول: لمَ هذا كله؟ وهلا خلق الله الناس في راحة وطمأنينة وسعادة، لا يمرضون ولا يشقون ولا يحاربون ولا يخاصمون، ولمَ أمر الآساد أن تأكل الظباء والأرانب وحدّد أنياب الآكلات ومنع المأكولات السلاح والمقاومة. والناظرون في هذا على قسمين: قسم ينكر ذلك إنكاراً قلبياً، فمنهم من يظهره كبعض الذين تعلموا في العصر الحاضر تعليماً سطحياً. ومنهم من يخفيه وهم كثير من المتدينين بأي دين. وقسم يقرأ علوم الحكمة ويستوعبها، وهذا يشعر أن هذا النظام جميل، وأن كل ذلك فيه مقدمة لحال أعلى من هذه، وقد أوضحناه في هذا التفسير إيضاحاً كثيراً. إن من يحكم أن نظام هذا العالم باطل أشبه بمن يحكم لأحد الخصمين. فإذا أراد أن يحكم بالحق فليقرأ علوم الحكمة التي تبحث في نظام هذا الوجود وهذا هو الذي يبين قضية الخلق وكيف خلقه الله. فكأن الإنسان إذا نظر فيها قد أصغى أيضاً إلى المدعى عليه وفهم حجته، وحجته هو هذا النظام البديع، ومتى أدركه الناس بطلت الفكرة الأولى وهي أن هذه الدنيا مبعثرة غير منظمة إلى آخر ما تقدم. ومما يثير الشكوك في نظام هذا العالم أن الظلم فيه مجسم ولا سيما في هذا الإنسان، كيف لا ونحن نرى أن المصلحين والصالحين في الأرض مغبونون لا ينالون جزاء أعمالهم في الدنيا، ونرى كثيراً من المفسدين متمتعين بالنعمة والعافية، فأي عدل وأي نظام هذا! ولكن إذا أدرك الناس أن هذه الحياة ستعقبها حياة أخرى ترجع فيها الأمور إلى حقائقها كما دل عليه علم الأرواح المنتشر حديثاً في أوروبا وأجمعت عليه الديانات؛ فإنهم يعرفون أن النظام عدل

لذلك أعقبه بقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ هذا إنكار للتسوية بين المؤمنين والكافرين، ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم، فإن من يسوّي بين هؤلاء يكون سفيهاً، هذا ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: ليتدبروا ويتفكروا فيها ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وليتعظ بالقرآن أولو العقول السليمة ويستحضروا ما هو مركوز في عقولهم من تمكنهم من المعرفة بالدلائل الكونية والعجائب الخلقية. وروي عن الحسن أنه قال: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله حفظوا حروفه وضيعوا حدوده. اهـ.

وهذا القول منطبق على أكثر المسلمين في هذا الزمان، إن الأمة اليوم لا تقرأ القرآن غالباً إلا للتعبد وأما للتفكر فلا، وهذا هو السبب في ضياع ملك الإسلام وعظمته ووقوعه نهباً مقسماً بين دول أوروبا، ولكن هذا هو الزمان الذي أذن الله فيه إذناً حقاً ببعث هذه الأمة من مرقدها وتقوم بواجبها كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[التوبة: ٣٣]، وهذا هو الزمن الذي سيظهر فيه، وهذا أمر حتماً سيكون قريباً.

قصة سليمان عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ سليمان ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى الله بالتوبة ﴿إِذْ﴾ ظرف لـ«أواب» ﴿عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ﴾ بعد الظهر ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ الخيول القائمة على ثلاث قوائم وقد أقامت الأخرى على طرف حافر، ولا يكاد يكون ذلك إلا في العراب الخلص ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ جمع جواد، وهو الذي يسرع في جريه، ﴿فَقَالَ﴾ لما عرضت عليه فأجروها أمامه وذلك لاستعدادها للغزو ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ آثرت حب المال ومنه الخيل المعروضة ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ أي: إني لأحبها لأجل الدنيا ونصيب الغنى، وإنما أحبها لأمر الله تعالى وتقوية دينه، ثم أمر بإجرائها وإعدائها حتى توارت تلك الخيل بالحجاب، أي: غابت عن بصره، ثم أمر بردّ الخيل إليه، وهذا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، ثم قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ﴾ يمسح ﴿مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: يمسح سوقها وأعناقها تشريفاً لها لكونها للجهاد، والجهاد من أعظم الأمور وليباشر الأمور بنفسه ليقتدي به الوزراء ورجال الدولة، كما كان يفعل صلاح الدين الأيوبي، إذ كان ينقل الأحجار بنفسه في بناء الأسوار أيام الحروب الصليبية، وليكشف عن أمراض الخيل وعللها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض.

فتنة سليمان عليه السلام

روي مرفوعاً أن سليمان عليه السلام قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل، فوالذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا فرساناً»، فهذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ ابتليناه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ وهو شق الطفل المذكور جيء به على كرسيه فوضع في حجره ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى الله مما فعل، وهو أنه لم يقل: إن شاء الله، والأنبياء يحاسبون

على ما لا يحاسب عليهم سواهم، لشدة قربهم من ربهم، وأما حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام فمن أباطيل اليهود، وذلك أنهم قالوا: إن زوجته كانت تسجد لصورة أبيها ودام ذلك أربعين يوماً وهو عليه السلام لا يعلم، ولما علم كسر الصنم وعاقب المرأة، ثم إن الله عاقبه بأن سلط عليه شيطاناً يسمى صخراً فأخذ خاتم الملك، فصار الشيطان في صورته عليه السلام، أما هو فأصبح منكراً لا يعرفه أحد، فتكفف أربعين يوماً ثم طار الشيطان، ووقع الخاتم في البحر فالتقطته سمكة واصطادها صياد فوقعت في يد سليمان فخر ساجداً لله. هذه هي الأباطيل اليهودية، ويكون صخر هو الجسد الذي ألقي على كرسيه ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ذنبي ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى﴾ لا يصلح ﴿لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ تهب الملك والنبوة لمن تشاء، وذلك لأنه أحب أن يخص بخاصية كما خص داود بإلانة الحديد وعيسى بإحياء الموتى، ولذلك روي أنه عليه الصلاة والسلام كما في الصحيحين قال: إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة ليقطع صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[ص:٣٥]، فرددته خاسئاً. ثم قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ لينة ليست بعاصفة ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ حيث أراد ﴿و﴾ سخرنا له ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ يبنون له ﴿وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ فإذن الشياطين منهم بناؤون ومنهم غواصون يستخرجون اللؤلؤ من البحر، ومنهم مردة الشياطين يقرن بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد، والصفد: القيد، وربما كانت الأصفاد تمثيلاً لكف شرهم وحبسهم حبساً يناسب أجسامهم النارية ﴿هَٰذَا﴾ الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة ﴿عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ﴾ فأعط منه ما شئت من المنة وهي العطاء ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عن العطاء، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال من «عطاؤنا»، أي: جماً كثيراً لا يكاد يقدر على حصره ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ في الآخرة مع هذا الملك العظيم في الدنيا ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وهو الجنة.

قصة أيوب عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ وهو ابن عيص بن إسحاق ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدل من «عبدنا»، ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: بأني ﴿بِنُصْبٍ﴾ تعب ﴿وَعَذَابٍ﴾ ألم ومرض وبلاء، وإنما نسب المس إلى الشيطان لأنه بسبب وسوسته أعجب بكثرة ماله فمسه الله بالمرض لأجل ذلك، فأرسل الله له جبريل فقال له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ الأرض، فضرب فنبعت عين، فقيل: هذا مغتسل، أي: ماء يغتسل به ويشرب منه فيبرأ ظاهرك وباطنك، وهذا قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ حتى كان له ضعف ما كان ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: لرحمتنا عليه ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ تذكيراً لهم لينتظروا الفرج بالصبر أولاً والالتجاء إلى الله ثانياً فيما يحيق بهم، وعطف على «اركض» قوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ حزمة صغيرة من الحشيش ونحوه ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

ذلك أن زوجته رحمة بنت إفرائيم بن يوسف ذهبت لحاجة فأبطأت، فحلف إن برئ ضربها مائة ضربة، فحلل الله يمينه بذلك، ويجب أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة، وهذه الرخصة باقية على شرط إصابة المائة للمضروب كما عرفت ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ على ما أصابه في نفسه وأهله وماله، وليس شكواه إلى الله من الشيطان جزعاً ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ أيوب ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ مقبل على الله ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أولي القوة والطاعة والبصيرة في الدين ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ﴾ جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة لا شوب فيها، هي ﴿ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ ذكرى الدار الآخرة دائماً، فإنا نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكراها وأخلصناهم بحب الآخرة وذكراها ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ﴾ المختارين من بين أبناء جنسهم ﴿ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ جمع خير، وخير بالتشديد والتخفيف ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ ﴾ «لام» التعريف دخلت على «يسع» ﴿ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ ﴾ أي: وكلهم ﴿ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ يقال: إن ذا الكفل هو ابن عم يسع، أو هو ابن أيوب، ويقال: إنه فر إليه مائة نبي من بني إسرائيل من القتل فآواهم وكفلهم. ثم إن أول السورة: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾[ص: ١]، وقد ذكر قصص الأنبياء وصبرهم وأعمالهم الشريفة. ولما أتم الكلام عليهم قال: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ كأنه يقول: هذا ذكر مما اشتمل عليه القرآن المذكور في أول السورة، أي الذي يتلى عليكم شرف وجميل تذكرون به.

وصف الجنة

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ مرجع، ثم عطف على «حسن مآب» عطف بيان فقال: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ حال كونها ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ مستويات الأسنان والشباب والحسن بنات ثلاث وثلاثين سنة ومتآخيات لا يتباغضن ولا يتحاسدن، ومعنى «قاصرات الطرف» أي: قصرن أطرافهن على أزواجهن ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي: لأجله، فإن الحساب علة الوصول إلى الجزاء، أي: قيل للمؤمنين: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾[ص: ٥٣] الخ، ويقول أهل الجنة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ انقطاع بل هو دائم، كما قال تعالى في سورة أخرى: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ ﴾[الرعد: ٣٥] أي: هذا الأمر كما ذكر.

وصف جهنم

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ المهد والفرش مستعار من فراش النائم، والمخصوص بالذم تقديره جهنم ﴿ هَٰذَا ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ خبر، وجملة «فليذوقوه» اعتراض، والغساق هو ما يغسق، أي: يسيل من صديد أهل النار، والحميم: الماء الحار. وقال ابن عباس: الغساق هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرّها، وعذاب ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ ﴾ من مثل العذاب المذكور في الشدة والفظاعة ﴿ أَزْوَٰجٌ ﴾ صفة لـ «آخر» أي: أجناس وأصناف، ثم يقول الخزنة للقادة إذا دخلوا النار ودخل بعدهم أتباعهم: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ ﴾ جمع كثيف ﴿ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ أي: دخل النار في صحبتكم، والاقتحام: الدخول

في الشيء بشدة، والقحمة: الشدة ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي: الأتباع تقول لمن تدعو له: مرحباً، أي: أتيت رحباً من المكان لا ضيقاً، وتدخل عليه «لا» في دعاء السوء، وهذه الجملة من كلام الرؤساء ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي: داخلوها ﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباع ﴿أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ مخاطبين رؤساءهم الذين دعوا عليهم ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: قدمتم العذاب لنا، أي: دعوتمونا إلى الكفر فكفرنا باتباعكم ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ النار ﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباع أيضاً ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ مضاعفاً ﴿فِي النَّارِ ۝٦١ وَقَالُوا﴾ أي: رؤساء الكفرة ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ هم فقراء المسلمين ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ في الدنيا ﴿مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ ينكرون على أنفسهم ويؤنبونها على استسخارهم منهم في الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ أي: مالت، فلا نراهم، ومعنى ذلك أن الكفار إذا دخلوا النار نظروا فلم يروا فيها الذين كانوا يسخرون منهم، فقالوا: ما لنا لا نرى هؤلاء الذين اتخذناهم سخرياً لم يدخلوا معنا النار، أم دخلوها فزاغت عنهم أبصارنا فلم نرهم حين دخلوها ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بد أن يتكلموا به، هو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ في النار، وذلك لأن قول القادة للأتباع والأتباع للقادة: لا مرحباً بكم، من باب الخصومة ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ أنذركم عذاب الله ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ الذي لا شريك له ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب وفي ذلك رهبة لهم، ثم أعقبه بما يدل على الرجاء فقال: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ فهو مرب، والتربية إحسان وكرم وجود، وهو غفور للذنوب وإن عظمت، وكل هذا دال على الرجاء ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لا تتفكرون فيه فتعلمون صدقي في نبوتي.

قصة آدم عليه السلام

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ يعني الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في شأن آدم، فهذه في صورة المخاصمة والمناظرة، وإلا فالله لا يخاصم، يعني: إنما علمت هذه المخاصمة بوحي من الله تعالى ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذركم وأبين لكم ما تأتونه وتجتنبونه بلغة تعلمونها. ثم بيّن الخصومة فقال: ﴿إِذْ﴾ بدل من «إذ يختصمون»، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ يعني آدم ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أتممت خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أضاف الروح إلى نفسه للتشريف، والإضافة للملك، كما تقول: بيت الله، وأيضاً الروح جوهر شريف قدسي ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وقد تقدم هذا الموضوع في «البقرة»، ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ تعظم ﴿وَكَانَ﴾ وصار ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بسبب استكباره واستنكافه عن المطاوعة، ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: خلقته بنفسي من غير توسط كأب أو أم، وفي تثنية اليد إشعار بما في خلقه من مزيد القدرة واختلاف الفعل ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي: أتعظمت بنفسك عن السجود، أم كنت ممن علا واستحق التفوق، فأجاب إبليس: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ يعني: لو كنت مساوياً له في الشرف لقبح السجود له

فكيف يكون الحال إذا كنت خيراً منه؟ ثم بين ذلك فقال: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ والنار أشرف من الطين وأفضل منه، ففضلي بشرف عنصري الذي خلقت منه، ألا ترى أن النار تغلب الطين وتحرقه ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ من الجنة أو من السماوات ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود من الرحمة ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ ﴾ عذابي وسخطي ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يوم الحساب ﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ ﴾ فأجلني ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ من القبور ﴿ قَالَ ﴾ الله ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ المؤجلين ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ إلى النفخة الأولى ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ فبسلطتك وقهرك ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين أخلصهم الله لطاعته وعصمهم من الضلالة ﴿ قَالَ ﴾ الله ﴿ فَٱلْحَقُّ ﴾ يميني أو قسمي، وقوله: ﴿ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾ جملة اعتراضية، وجواب القسم قوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ ﴾ من جنسك وهم الشياطين ﴿ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ من ذرية آدم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحداً ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي: على القرآن، أو على تبليغ الوحي ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ المتصنعين بما ليسوا من أهله على ما عرفتم من حالي فأنتحل النبوة وأتقول القرآن ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ عظة ﴿ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ للثقلين ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ ﴾ وهو ما فيه من الوعد والوعيد وصدقه ﴿ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ عند ظهور الإسلام أو ظهور العلوم التي تضمنها ولم تكن معروفة من قبل. انتهى التفسير اللفظي.

الفصل الثالث: في مقصود السورة

أي في معنى ﴿ صٓ ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾، وقوله: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، وقوله: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾، وقوله: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ الخ، وقوله: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾، وقوله: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ ﴾ الخ، وقوله: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾، وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾

لقد عرفت ما للحروف التي في أوائل السور من المعاني الشريفة في سور كثيرة، ولكن لها خواص في كل سورة بحسبها، فتأمل في لفظ ﴿ صٓ ﴾ فإنها فضلاً عن صفتها العامة لها مقاصد سامية في هذه السورة، إن في السورة تحليلاً لشمائل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليقتدى بها، ولقد جاءت «الصاد» في لفظ ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، وفي لفظ ﴿ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾، وفي ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾، وهكذا تجد معنى الصبر واضحاً في مسألة الخصمين إذ دخلوا على داود، فإنه لم يصبر حتى يسمع كلام الخصم فحكم، وفي قصة سليمان إذ عزم أن يدخل على سبعين امرأة كل واحدة منهن تأتي بولد ذكر يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، ولقد عوقب على هذا، فكأنه عليه السلام لما لم يكل الأمر لله بذكر المشيئة عدّ كأنه غير صابر، هكذا كل كافر يظن أن السماوات والأرض خلقتا باطلاً بلا نظام، فإن هذا الزعم منه ناشئ من تسرعه وعدم صبره على المشقات في سبيل البحث في الحكمة، حتى يعرف كيف كان العالم منظماً، وهكذا إبليس تكبر واعتز بأصله ولم يسجد لآدم، وهذا لأنه لم يصبر على تحمل مكارم الأخلاق. صبر أهل مكة على آلهتهم وتواصوا

بالصبر على ذلك، وتحمل كل مضض في سبيل إبقاء العقيدة الموروثة عن الآباء، ونبذ كل برهان معقول ومغالبة الأدلة المحسوسة. كل ذلك لحفظ العقائد الموروثة، فأمر الله ورسوله أن يقابل صبر هؤلاء المبطلين بصبر الصادقين فقال: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾، وقص قصص الخصمين، وذكر أنه قد لامه الله على تسرعه بالحكم لأحدهما قبل سماع الآخر، هكذا أنت يا محمد قد قاومك قومك وصبروا على مقاومتك، فإياك أن تمل ولتصبر ولا تستعجل، واعلم أنك منصور، ولقد امتحناك بهم كما امتحنا داود بالخصمين، فاصبر على الامتحان فبه يكرم المرء أو يهان. إنا امتحنا داود في الحكم بين الخصمين فأسرع، ولمناه فرجع إلى ربه، فنحن بذكر قصصه نحذرك ونحذر كل مؤمن أن يحكم قبل التحقيق، واليائسون من نصر الله عند الصدمات والشدائد لا ينالون المعالي لأنهم ليسوا صابرين. وإذا صبر المبطلون فما أحرى الصادقين أن يصبروا، لأن الصادقين منصورون، هما صابران أحدهما مغلوب والثاني غالب، وإذا كان المغلوبون في العاقبة يصبرون، فأجدر بالذين لهم العقبى أن يكونوا أدوم صبراً وأقدر على المقاومة، فليثابر كل مؤمن على الأعمال الصالحة، فإنه منصور وليقرأ: ﴿ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾، ويقرأ معها ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾، وليعجب كيف كان آخر الصبرين أبقاهما وأنفعهما وأدومهما، ثم لينظر كيف كان لفظ ﴿ صٓ ﴾ في أول السورة يتضمن هذه المعاني الجليلة، ولما كان الصبر أهم الأمور في الحياة الدنيا والمداومة على الأعمال والثقة بالله تعالى في إنجازها أهم الأمور كلها، إذ لا عمل في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالصبر، ابتدأ السورة بقوله: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾، وختمها بأنه ذكر للعالمين، وقال بعد قصص الأنبياء في وسط السورة: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾، وقال أيضاً: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، فهذه كلها تشير إلى أن السورة مسوقة للصبر على المشاق والأعمال، وأن المدار على العمل لا على ألفاظ القرآن، بل الأمر كله في الصبر ومقاومة الصعاب.

حتم الله الصبر على من أصابته البأساء، ومن منح النعماء، فأيوب صبر على بلائه، وسليمان وداود قد عوقبا على عدم الصبر في بعض عملهما. يقول الله: إني ممتحن جميع عبادي لا فرق بين الملوك وغيرهم، لم أخل سليمان في ملكه ولا داود في قضائه ودولته من الامتحان في الصبر وهكذا أيوب المبتلى. كل من هؤلاء وهؤلاء مبتلون، ابتلى الله من هم في بحبوحة النعيم والملك العظيم ومن هم في البلاء والبؤس يألمون، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ولذلك قال الله على لسان سليمان عليه السلام: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠] كما تقدم، ومعلوم أن الشكر ملازم للصبر، فمن عمل براً فقد صبر عن الشر الذي هو قادر عليه في مقابلته، فمن نظر في المصحف فهو في الوقت نفسه قد صبر على غض طرفه عن النظر للمحرمات عليه، ومن تلا القرآن والعلم فهو في الوقت نفسه صابر عن توجيه همته من هجر القول والذم والضحك وما أشبهها إلى القول النافع المفيد، ألا تعجب كيف كان لفظ ﴿ صٓ ﴾ رمزاً إلى مقصود السورة، وكيف جمع صبر المبطلين من الكفار وصبر نبينا صلى الله عليه وسلم وصبر أيوب، وأن هؤلاء الأنبياء مثنى عليهم وغالبون فائزون، وكيف كان ذلك أيضاً رمزاً إلى اللوم على من لم

يصبر ولم يتمم عمله، فكأنه قيل: فكروا في الصبر واحترسوا من الإسراع، وكيف كان من لم يفكر في نظام هذه الدنيا حتى يقف على الحقائق وأسرع بالحكم على نظام هذا العالم وأنه باطل، أشبه بمن أسرع في الحكم لأحد الخصمين قبل سماع الآخر، وكيف كان ذلك رمزاً إلى المقصود من الحياة إنما هو الحكمة والعلم، فأما القضاء ونحوه فإنما هو لنظام نوع الإنسان في الحياة الدنيا، ولعمري ما أبعد الفرق بين المقامين: مقام القضاء بين العباد، ومقام معرفة الحقائق والوقوف على الدقائق في نظام السماوات والأرض، إن أولهما مقدمة، وثانيهما نتيجة، لذلك تجد قضاء داود تبعه ذم الذين يظنون أن السماوات والأرض خلقتا باطلاً. إن في هذه السورة حثاً على حسن القضاء بين العباد لحفظ الدولة ونظام الأمة، وبهذا النظام وقيامه يقدر الناس أن يفكروا ويفقهوا، فأما إذا لم يكن قضاء ولا نظام فلا مفكرين ولا حكماء، لأنهم لا يجدون أمناً في البلاد، فلا يقدرون على التفكير ولا العلم.

يقول الله في آخر السورة: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ﴾، وهذه الآية شرحها طويل، فمن نبأ القرآن هذه الأمة الإسلامية المترامية الأكناف التي تبلغ الآن نحو (٣٥٠) مليوناً من المسلمين، أفليس هذا من أعظم أنبائها، ومن نبأ القرآن العلوم التي كشفها الناس حديثاً، وكيف جاء علم الأرواح الحديث مطابقاً لهذا القرآن، وأن الأرواح بعد الموت أحياء، وأن من الأرواح من هم مغرمون بالمادة والمال والحياة والصيت والذكر في هذه الدنيا، وهؤلاء يكونون بعد الموت مجذوبين إلى المادة معذبين بذلك، ومنهم من يكونون أرقى علماً وحكمة وأخلاقاً، وهؤلاء يتباعدون عن المادة ويقتربون من ربهم، وأن أعلى الأرواح وألطفهم وأعلمهم وأرقاهم من يتخلص من المادة ويقرب من الله ويراه، وأن من الأرواح من هم في غاية الصفاء واللطف، ومن هم في ظلمة وكثافة فلا تقدر الأرواح العالية أن تلهمهم، وأن من الناس في هذه الأرض من لطفت نفوسهم فلا تقدر الشياطين على الوسوسة إليهم كما لا يقدر الصعاليك على مقابلة الملوك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[الحجر: ٤٢]. أفلا ترى أن هذا معجزة للقرآن، أفلا ترى أن هذه الأمور المذكورة في هذه السورة قد أصبحت تقال في المجامع النفسية علناً، وهذا هو نفس القرآن. وبعبارة أخرى: هو ما في هذه السورة، من ذا كان يظن أن نبأ بقاء الأرواح بعد الموت وحسابها يظهر في الدنيا قبل يوم القيامة.

حكاية عجيبة

هل لك أيها الذكي أن تسمع ما أرويه لك عن حال نفسي: كنت أيام مجاورتي بالجامع الأزهر نائماً به إذ رأيت كأني في قريتنا «كفر عوض الله حجازي» وكأن قائلاً يقول لي: انظر انظر، فنظرت فرأيت كرة بيضاء تميل إلى الحمرة وسط زرقة الجو تعلو عن المقابر قليلاً مقدار خمسة أمتار، فقال: هذه هي الروح، وكان ذلك ليلة الخميس، فاستيقظت وقمت مع إخواني المجاورين لنتوجه إلى قصر النيل وما جاوره للرياضة، فوجدت عند أحدهم كتاب «ابن مسكويه» في علم الأخلاق، ولا علم لي بهذا الكتاب ولا بهذه العلوم، فمددت يدي إلى الكتاب فقرأت في أوله مسألة الروح والاستدلال على وجودها، فعجبت كل العجب وصرت مغرماً به وبغيره، ثم تمادى الزمان حتى هذه الأيام الأخيرة أي بعد هذه الحادثة بأربعين سنة، فاطلعت على علم الأرواح فوجدت أنهم لما سألوهم في المجامع النفسية

أي لما أحضروا بعضها قالت: إن الأرواح بعد الموت ترتفع في الجو على مقدار خلاصها من المادة، وكلما كانت أجمل أخلاقاً وأغزر علماً كانت أبعد عن الأرض. فعجبت كل العجب من موافقة تلك الرؤيا لأقوال الأرواح التي خاطبوها، وأنا الآن لست أقول: إن هذا تحقيق المقام، بل أقول: إن الموافقة هي العجب العجاب، وأعجب من هذا أنها توافق آراء ابن سينا والفلاسفة القائلين هذا القول، وأن الإنسان على قدر انجذابه إلى المادة يبعد عن الله، ويقدر بعده عن الله يقرب من المادة، ولعل مرتبة الروح في الفلاة عند صعودها دالة على مرتبتها في جهنم. أليس هذا قول الله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٤-١٧].

يقول علماء الأرواح: إن النفس بعد الموت إذا كانت مرتدية رداء الذنوب جللتها وزملتها وحجبتها عن الأرواح العالية حتى لا تقدر على تعليمها. ويقولون أيضاً: إنه كلما كان الإنسان أشد إنكاراً للبعث كانت روحه عند الموت أشد عذاباً، لأنه يتنازعها عاملان: عامل الانجذاب إلى المادة واليأس من حياة أخرى، وعامل خروج الروح الذي قضت به النواميس الإلهية في الأرض، وكلما كان الإنسان أكثر صلاحاً كان أكثر سهولة في انفصال روحه من جسمه. قالوا: وأرواح الأشرار بعد الموت الظاهر تبقى متصلة بجسمه مدة، حتى يحس المتحررون برعي الدود في أجسامهم، ويحكم عليهم بعد الموت بأمور فظيعة، لأنهم لم يصبروا على ما أصابهم فيضطرون لعذاب عظيم لا يطاق هناك.

وقالوا: إن النفس متى خرجت من الجسد اطلعت على جميع أعمالها مسطرة في جسمها كأنها تشاهدها لا تحتاج في التعريف إلى شيء آخر، وهناك تعرف مقدار ما عملت، وتعرف الثواب، وتعرف مقدار العقوبات التي ستنالها، وكل نقص في النفس يتبعه ألم هناك، وهناك يكون العذاب والنعيم الذي أصاب النفس مقيماً حول الروح، فهو هناك كالهواء هنا، فهم إما في إطار من شقاء أو من نعيم.

يا عجباً كل العجب، جاء في الحديث: «القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» وهذا هو الذي جاء في العلم الحديث اليوم، ويقول الله: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، وهو عين ما تقدم.

انظر كيف يقولون أيضاً: إن عواطف المحبة والبغضاء والحسد والغيرة والندامة والإشفاق وما أشبه ذلك تكون لها سوائل روحانية محيطة بالنفس، فهي كروائح الزروع المختلفة في جسم الإنسان. إن علم النبات يفهمنا ذلك، ففيه الروائح العطرية المختلفة، وفيه الروائح الكريهة الكثيرة، والإنسان يميزها بشمه، فإذا متنا ميزنا سوائل الفضائل المختلفات كما نميز روائح النباتات المتميزات، وإذن يظهر للمرء قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، فيعرف الإنسان كل شيء بنفسه، كما يميز في بعض الأوقات حبيبه من عدوه مما يشعر به في نفسه من الميل ومن النفور.

ويقولون أيضاً: إن كل خلق ذميم نتأذى به هناك له عقاب، وكل ما يصيبنا من آلام الدنيا ومصائبها يزيل عنا بعض هذه العيوب، ويبقى منها ما يلازمنا بعد الموت، والروح في حال البرزخ يعذب عذاباً مادياً أو معنوياً على مقتضى ذنوبها، حتى إن المتكبر يقاسي آلاماً لا تطاق في حال البرزخ.

وقالوا : إن المغرم بالمال والحشم والخدم والشهوات يصاب بألم نفسي ، لأنه يطلع فيرى الناس اقتسموا ماله وأخذوا ثروته وهو يراهم ولا يقدر على منعهم ، وهو عذاب لا يطاق .

ويقولون : إن القتلى والسفاكين تطاردهم أشباح من أماتوهم ، فلا يهدؤون ولا يقدرون على الاحتجاب من هذا العذاب ، وهؤلاء وأمثالهم لا يطلعون على بعض أحوال مستقبلهم للظلمات المتراكمة عليهم .

ويقولون : إن الأرواح العالية ترى ما لا عين رأت بعد الموت ، وتطير إلى العلا جماعات جماعات ، ويبتهجون بالجمال الإلهي وإحكام الصنعة البديعة في السماوات ويبقون سكرى آماداً وآماداً وهم يسيرون زمراً متحابين ، كل جماعة في درجتهم الخاصة التي ماتوا عليها ، وهم متحابون متجاذبون كتجاذب المواد الأرضية ، وتظهر على أيدهم العجائب في عالم الأثير البهيج البديع ، والذي يجمعهم إنما هو انخلاعهم من الكبرياء واتحادهم في الفضائل ، وتكون أجسامهم خفيفة لطيفة غلبت روحانيتها .

ويقولون : إنهم يوقعون في طبقات الأثير ألحاناً بديعة ، وقد يجتمعون حول روح أعظم منهم فيعطيهم تعاليم ترقيهم ، ثم إن أجسامهم لا تمرض كأجسامنا ، للطافتها وخفتها .

ويقولون : إنهم يقيمون أفراحاً وأعياداً باجتماع الأرواح العلوية من أقطار الكون كله ، وكل منها يتلألأ بسناه اللطيف الدال على صفاته ودرجاته في الرقي .

هذا هو الذي أحببت أن أنقله لك الآن من كتب الأرواح المسطورة أمامي ، إياك أن تظن أني أجعل هذا القول المنقول عن المجامع النفسية قولاً لا يحتاج إلى دليل ، إنما المقام مقام تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[ص : ٨٨] ، فنقول : نعم يا ربنا ، عرف عبادك بعض ما جاء في كتابك ، فهاهم أولاء عرفوا أن الأرواح لها نغمات وموسيقى في اجتماعها ، وهذا هو الذي قاله بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾[يس : ٥٥] ، فعدّوا من ذلك النغمات الموسيقية ، وعرفوا أنهم نزع ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ، وهذا لا يكون إلا للأرواح الخالصة من شوائب الحسد والغل الخ ، وعرفوا أن الروح تقرأ أعمالها في شكل جسمها الروحي ، وغير ذلك مما أوضحته في هذا المقال ، فليس المقام مقام تحقيق صدق هؤلاء وكذبهم بل المقام أنه طابق ما في القرآن . ولست أيها الذكي ملزماً أن تبحث عن كون قولهم حقاً أو باطلاً ، فأمامك القرآن نصّ عليه ، فإن أردت البحث فاقرأ طرق تحضير الأرواح من كتابي المسمى « الأرواح » واستحضرها بالطرق الواضحة هناك ، وكن مخلصاً في البحث لأجل العلم والمعرفة ، لا لأجل الدنيا ، فستعرف الحقائق بنفسك لا بأهل أوروبا الذين أخبرونا أن أرواح القدماء الصالحين هذا شأنهم وهكذا الطالحون ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين . انتهى الفصل الثالث في مقصود السورة .

لطائف هذه السورة : (١) في بعض أسرار ﴿ صٓ ﴾ وسورتها . (٢) في قوله تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[ص : ٢٦] . (٣) في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا ﴾[ص : ٣٥] الخ . (٤) في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص : ٨٢] .

اللطيفة الأولى: في بعض أسرار ﴿صٓ﴾ وسورتها

كتب صباح يوم الجمعة ٢٤ يناير سنة ١٩٣٠

استيقظت الليلة بعد نصف الليل وكنت نمت قبل أن أصلي العشاء، فصليتها، وفي ركعات الوتر قرأت آيات من سورة «ص» وفيها: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[ص:٢٦] الخ. فمر بفكري بعض عجائب هذه السورة وبعض عجائب الأرض والسماء، وذلك أن ﴿صٓ﴾ كما قدمنا جاءت في أول حروف الصبر، وأول كلمة في السورة جاءت الصاد في أولها ﴿وَٱصْبِرُوا۟﴾[ص:٦] والهمزة فيها للوصل، ثم أمر صلى الله عليه وسلم أن يصبر في آية: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[ص:١٧] في مقابلة قولهم: ﴿ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾[ص:٦].

إذن الكفر عند أهله لا يتم إلا بالصبر، والنبوة عند أهلها لا تتم إلا بالصبر، ولكن يا بعد ما بين الصبرين، وهنا أعقبه بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾[ص:١٧] الخ. فماذا نرى؟ نرى أنه ذكر داود وسليمان وأيوب ثم إبراهيم وإسحاق الخ، فهاهنا رأينا داود وسليمان ملكين، وأيوب ابتلي بنقم الدنيا مرضاً وفقراً، ولكن هذان النبيان مع هذا الملك قد ابتليا بما يشبه المعصية، وهذا يحزنهما كما حزن موسى بقتله القبطي. إذن الألم عند الأنبياء نوعان: نوع يرجع إلى الألم الروحي الديني الذي يورث الندم، ونوع يرجع إلى الألم الجسمي والمالي ونحوهما، فالنوع الأول ظاهر في أمر موسى وداود وسليمان، والثاني ظاهر في أمر أيوب وإبراهيم وإسحاق وإسماعيل، فالأول ببدنه وماله وأهله، والثاني بالنار وذبح ولده، والثالث والرابع بذبحه هو، فصبر الجميع ففازوا ونجوا. إذن في الملك امتحان، وفي الجسم امتحان، وفي الفقر امتحان، وهذا كله لم يقصد منه في القرآن أن يعلم الله الأنبياء، كلا والله بل القصد منه تعليمنا نحن، معنى هذا أنني أجد في نفسي خزياً وحزناً من أمور سبقت، إذا تذكرتها دلت على أنني كنت غير كامل الخلق ولا ممتازاً بالصبر، كأن أنطق بقول لا قيمة له، أو أفعل فعلاً غير حميد، فيقول الله لي: إن موسى لم يمنعه قتل القبطي الذي أورثه الندم أن يكون نبياً ورسولاً وأن داود وسليمان اللذين ابتليا بما ظاهره أنه ذنب فندما، ولكن هذا الندم ليس معناه أنهما أذلا نفسيهما طول الحياة وقعدا عن الأعمال، كلا، بل إن الندم مظهر يدل على أن النفس به ترقى، وربما تكون بعد الذنب خيراً منها قبله، فإن معصية توجب ذلاً وانكساراً خير من طاعة توجب عزاً واستكباراً وهكذا قد يعتري أحدنا نقص في الأموال والأنفس والثمرات، فيقول الله له: إياك أن تقنط، فكما صبر أيوب على النقص في ذلك وصبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب على ما ابتلوا به ففازوا جميعاً؛ هكذا أنت اصبر تنل، إذن يكون هذا تطبيقاً على آية «البقرة»: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٥٦-١٥٧]، فذكر البشارة والصلوات والرحمة والهداية لهم هو الذي ظهر مثاله هنا بفوز داود وسليمان وأيوب وأمثالهم بعد إصابتهم جميعاً بمصائب روحية دينية أو مصائب جسمية ومالية، إذ يقول الله: يا محمد اذكر عبدنا داود الخ. فهؤلاء جميعاً ابتلوا بأنواع من البلاء في أنفسهم وأهلهم، وأنت ابتليت بأهل مكة إذ كذبوك وقد صبروا على كفرهم فاصبر

على إيمانك وصابرهم، وستفوز كما فاز من قصصتهم عليك من الأنبياء، فهكذا أنا وقراء هذا التفسير، يقول الله لنا: كل ما يصيبكم لا يخرج عما ذكر، فهو إما مصائب من أذى الناس، وإما من ذنوب تقدمت، وإما من نقص في الأنفس والأموال والثمرات، وقد صبر نبينا صلى الله عليه وسلم على الأول، وبعض الأنبياء على الثاني، وبعضهم على الثالث، ففازوا جميعاً، وأنت تفوز كما فازوا إذا تعلمت الصبر. وهذا هو بعض سر ﴿ صٓ ﴾[ص: ١] في أول السورة، إذ ظهر أن المدار جميعه في هذه السورة على شيء واحد وهو الصبر.

أقول: ثم بعد أن خطر لي هذا الخاطر تذكرت أمراً عجيباً وهو قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[ص: ٢٩]، فقلت: فما الذي يتذكره أولوا الألباب يا ترى في هذه الآيات؟ هنالك وجدت رابطة وثيقة بين الصبر المتقدم بجميع فروعه وبين صبر القضاة على القضاء بالحق، لأنهم معرضون لسخط الناس وسخط الملوك الذين ولوهم، والله يقول هنا: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾[ص: ٢٦]، وهذا لا يكون إلا بالصبر. فهذا أيضاً من سر ﴿ صٓ ﴾. فهاك ما جاء في كتاب «العقد الفريد، للملك السعيد» من صبر القضاة على العدل وقول الحق ثم فوزهم، وفي هذا المقام عشر قضايا وهذا نصها:

خاتمة لهذا الركن

من عادة من له خاطر وقاد وفكر نقاد وقلب إلى إدراك الفضائل منقاد؛ أنه إذا وقف على القواعد الكلية في المقاعد العلية والمقاصد المرعية لا سيما في المراصد الشرعية؛ أن يتطلع إلى الوقوف على شيء من جزئياتها، ويتوقع معرفة شيء من أحوال سالكي طرقاتها، ليكون على بصيرة من التفاوت بين الجامعين أصناف صفاتها القارعين وصيد صفاتها، وبين القانعين منها بمجرد أسماء شبهاتها التابعين أهواء نفوسهم الأمارة في ملاذها وشهواتها. وهذه وقائع وقضايا صدرت من جماعة من القضاة المتقدمين القائمين بأحكام المسلمين. فيها اعتبار جامع للمتوسمين، وادّكار نافع والذكرى تنفع المؤمنين، تصدع بأن قضاة الشريعة هذا وضعها، وولاة أحكام المسلمين هذا صنعها، والوقائع الصادرة عنهم كثيرة يبعد جمعها، وفي ذكر بعضها تبصرة يعم نفعها ويعظم وقعها، وقد وقع الاقتصار من أحكامها على ذكر عشرة لا حاجة معها إلى زيادة تذكرة.

القضية الأولى: عن عدل محمد بن عمران الطلحي

قال نمير المدني: قدم علينا أمير المؤمنين المنصور المدينة، ومحمد بن عمران الطلحي متولي القضاء بها وأنا كاتبه، فحضر جماعة من الحمالين واستعدوه على أمير المؤمنين المنصور في شيء ذكروه فأمرني أن أكتب إلى المنصور بالحضور معهم أو إنصافهم، فقلت له: تعفيني من ذلك فإنه يعرف خطي. فقال: اكتب، فكتبت وختمت، فقال: والله ما يمضي به غيرك، فمضيت به إلى الربيع حاجبه وجعلت أعتذر إليه، فقال: لا بأس عليك، ودخل بالكتاب على المنصور، ثم خرج الربيع فقال للناس وقد حضر وجوه أهل المدينة والأشراف وغيرهم: إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام، ويقول لكم إني دعيت إلى مجلس الحكم، فلا أحد منكم يقوم إذا خرجت ولا يبدأني بالسلام، ثم خرج وبين يديه

المسيب والربيع وأنا خلفه، وهو في إزار ورداء، فسلم على الناس فما قام إليه أحد، ثم مضى حتى بدأ بقبر النبي صلى الله عليه وسلم فسلم عليه، ثم التفت فلما رآه ابن عمران القاضي أطلق رداءه عن عاتقه ثم احتبى به، ودعا بالخصوم الجمالين، ثم دعا بالمنصور فادعى عليه القوم وقضى لهم عليه، ثم انصرف فلما دخل المنصور الدار قال للربيع: اذهب فإذا قام القاضي من مجلسه فادعه، فلما دعاه ودخل على المنصور سلم عليه فرد عليه السلام، وقال له: جزاك الله عن دينك وعن نبيك وعن حسبك وعن خليفتك أحسن الجزاء، وقد أمرت لك بعشرة آلاف صلة لك فاقبضها، فكانت عامة أموال محمد بن عمران من تلك الصلة، فما أبرك سلوك السنن القويم واتباع الصراط المستقيم.

القضية الثانية:عدل عاقبة بن يزيد القاضي

نقل أن عاقبة بن يزيد القاضي كان يلي القضاء ببغداد للمهدي، فجاء في بعض الأيام وقت الظهر للمهدي وهو خال، فاستأذن عليه، فلما دخل عليه استأذنه في من يسلم إليه القمطر الذي فيه قضايا مجلس الحكم، واستعفاه من القضاء وطلب منه أن يقيله من ولايته، فظن المهدي أن بعض الأولياء قد عارضه في حكمه، فقال له في ذلك: وإنه إن عارضك أحد لننكر عليه. فقال القاضي: لم يكن شيء من ذلك. قال: فما سبب استعفائك من القضاء؟ قال: يا أمير المؤمنين، كان تقدم إليّ خصمان منذ شهر في قضية مشكلة، وكلّ يدّعي بينة وشهوداً، ويدلي بحجج تحتاج إلى تأمل وتلبث، فرددت الخصوم رجاء أن يصطلحوا وأن يظهر الفصل بينهما، فسمع أحدهما أني أحب الرطب؛ فعمد في وقتنا هذا وهو أول أوقات الرطب؛ فجمع رطباً لا يتهيأ في وقتنا جمع مثله لأمير المؤمنين، وما رأيت أحسن منه، ورشا بوّابي بدراهم على أن يدخل الطبق عليّ ولا يبالي أن يرد عليه، فلما أدخله عليّ أنكرت ذلك وطرت بوابي وأمرت بردّ الطبق فردّ عليه، فلما كان اليوم تقدم الخصمان إلي فما تساويا في عيني ولا قلبي، فهذا يا أمير المؤمنين ولم أقبل، فكيف يكون حالي لو قبلت ولا آمن أن تقع عليّ حيلة في ديني وقد فسد الناس، فأقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله واعفني عفا الله عنك.

القضية الثالثة:عدل شريك بن عبد الله قاضي الكوفة

روى عمر بن هياج بن سعد قال: أتت امرأة يوماً شريك بن عبد الله قاضي الكوفة وهو في مجلس الحكم، فقالت: أنا بالله ثم بالقاضي. قال: من ظلمك؟ قالت: الأمير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين، كان لي بستان على شاطئ الفرات فيه نخل ورثته عن أبي، وقاسمت إخوتي، وبنيت بيني وبينهم حائطاً، وجعلت فيه رجلاً فارسياً يحفظ النخل ويقوم به، فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتي وساومني ورغبني فلم أبعه، فلما كان هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام وفاعل اقتلعوا الحائط، فأصبحت لا أعرف من نخلي شيئاً واختلط بنخل إخوتي. فقال: يا غلام أحضر طينة، فأحضر فختمها وقال: امض إلى بابه حتى يحضر معك. فجاءت المرأة بالطينة المختومة فأخذها الحاجب ودخل على موسى، فقال: قد أعدى القاضي عليك وهذا ختمه. فقال: ادع لي صاحب الشرطة، فدعا به. فقال: امض إلى شريك وقل: يا سبحان الله ما رأيت أعجب من أمرك! امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها علي. قال صاحب الشرطة: إن رأى الأمير أن يعفيني من ذلك. فقال: امض ويلك، فخرج

وقال لغلمانه: اذهبوا واحملوا لي إلى حبس القاضي بساطاً وفراشاً وما تدعو الحاجة إليه. ثم مضى إلى شريك، فلما وقف بين يديه أدى الرسالة. فقال لغلام المجلس: خذ بيده فضعه بالحبس، فقال صاحب الشرطة: والله قد علمت أنك تحبسني فقدمت ما أحتاج إليه إلى الحبس. وبلغ موسى بن عيسى الخبر فوجه الحاجب إليه وقال له: رسول أدى رسالة أيّ شيء عليه، فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه إلى الحبس، فحبس، فلما صلى الأمير موسى العصر بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثي وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضي شريك وقال لهم: أبلغوه السلام وأعلموه أنه استخف بي وأني لست كالعامة، فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر فأبلغوه الرسالة، فلما انقضى كلامهم قال لهم: ما لي أراكم جئتموني في غبرة من الناس فكلمتموني من ههنا من فتيان الحي؟ فأجابه جماعة من الفتيان، فقال: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس، ما أنتم إلا فتنة وجزاؤكم الحبس. قالوا له: أجاد أنت؟ قال: حقاً حتى لا تعودوا لرسالة ظالم فحبسهم، فركب موسى بن عيسى في الليلة إلى باب السجن، وفتح الباب وأخرجهم كلهم. فلما كان من الغد وجلس شريك للقضاء، جاءه السجان فأخبره، فدعا بالقمطر فختمه ووجه به إلى منزله، وقال لغلامه: الحق بثقلي إلى بغداد والله ما طلبنا هذا الأمر منهم ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلدناه لهم. ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد. وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى فركب في موكبه فلحقه وجعل يناشده الله ويقول: يا أبا عبد الله تثبت انظر إخوانك تحبسهم دع أعواني. قال: نعم، لأنهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم المشي فيه ولست ببارح أو يردوا جميعاً وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي فاستعفيته مما قلدني، فأمر موسى بردهم جميعاً إلى الحبس وهو واقف والله مكانه حتى جاء السجان فقال: قد رجعوا جميعاً إلى الحبس. فقال لأعوانه: خذوا بلجام دابته بين يدي إلى مجلس الحكم، فمروا به بين يديه حتى أدخل المسجد. وجلس في مجلس القضاء. فجاءت المرأة المتظلمة، فقال: هذا خصمك قد حضر. فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه: قبل كل أمر أنا قد حضرت أولئك يخرجون من الحبس. فقال شريك: أما الآن فنعم. أخرجوهم من الحبس. فقال: ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة؟ قال: صدقت. قال: تردّ ما أخذت منها وتبني حائطاً سريعاً كما كان. قال: أفعل ذلك. قال لها: أبقي لك عليه دعوى؟ قالت: بيت الرجل الفارسي ومتاعه. قال موسى بن عيسى: ويردّ ذلك كله. بقي لك عليه دعوى؟ قالت: لا وبارك الله عليك وجزاك خيراً. قال: قومي. فقامت من مجلسه. فلما فرغ أخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه في مجلسه وقال: السلام عليك أيها الأمير أتأمر بشيء؟ فقال: أي شيء آمر، وضحك، فقال له شريك: أيها الأمير ذاك الفعل حق الشرع، وهذا القول الآن حق الأدب. فقام الأمير وانصرف إلى مجلسه وهو يقول: من عظم أمر الله أذل الله له عظماء خلقه.

القضية الرابعة: عدل القاضي شريك أيضاً

قال عمر ابن أخي خالد بن سعيد: كنت من أصحاب القاضي شريك، فأتيته يوماً في منزله باكراً فخرج إلي في رداء وليس تحته قميص وعليه كساء. فقلت له: قد أصبحت عن مجلس الحكم. فقال:

غسلت ثيابي أمس فلم تجف، اجلس. فجلست فجعلنا نتذاكر باب العبد يتزوج بغير إذن مواليه. قال: ما عندك فيه وما تقول فيه. وكانت الخيزران قد وجهت رجلاً نصرانياً على الطراز بالكوفة وكتبت إلى موسى بن عيسى أن لا يعصي له أمراً بالكوفة، وكان مطاعاً بالكوفة، فخرج علينا ذلك اليوم من زقاق ومعه جماعة من أصحابه وعليه جبة خز وطيلسان وتحته برذون فاره، وإذا بين يديه رجل مكتوف، وهو يصيح: واغوثاه أنا بالله ثم بالقاضي، وإذا في ظهره آثار السياط، فسلم على شريك وجلس إلى جانبه، فقال الرجل: أنا بالله ثم بك أصلحك الله، أنا رجل أعمل هذا الوشي أجرتي كل شهر مائة، أخذني هذا منذ أربعة أشهر، واحتبسني في طراز، يجري عليّ القوت، ولي عيال قد ضاعوا وهلكوا، وأقبلت اليوم نحوهم لأراهم، فلحقني ففعل بظهري ما ترى. فقال القاضي: قم فاجلس مع خصمك يا نصراني. فقال: أصلحك الله يا أبا عبد الله هذا من خدم السيدة مر به إلى الحبس. قال: قم ويلك واجلس معه كما يقال لك. فجلس معه فقال: ما هذه الآثار التي بظهر هذا الرجل من أثرها. فقال: أصلح الله القاضي، إنما ضربته أسواطاً بيدي وهو يستحق أكثر من ذلك مر به إلى الحبس. فألقى شريك كساءه ودخل داره وأخرج سوطاً ثم ضرب بيده إلى مجامع ثوب النصراني وهو يقول: لا تضرب والله بعدها المسلمين، فهمّ أعوانه أن يخلصوه. فقال شريك لفتيان الحي: خذوا هؤلاء إلى الحبس، فهرب الأعوان وبقي النصراني فضربه أسواطاً، فجعل يبكي وهو يقول: ستعلم، فلما فرغ من ضربه ألقى السوط في الدهليز وقال لي: يا أبا حفص ما تقول في العبد يتزوج بغير إذن مواليه، فأخذنا فيما كنا فيه كأنه لم يصنع شيئاً، وقام النصراني إلى البرذون ولم يكن له من يمسكه، فجعل النصراني يضرب البرذون فقال له شريك: ارفق به ويلك فإنه أطوع لله منك، ثم قال: خذ فيما كنا فيه. قال عمر: فقلت له: ما لنا ولهذا لقد فعلت اليوم فعلة ستكون لها عاقبة مكروهة. فقال لي: أعز أمر الله يعزك الله، خذ فيما كنا فيه، فذهب النصراني موسى بن عيسى فقال شريك: فعل بي كيت وكيت، فقال له: والله ما أتعرض لشريك، فمضى النصراني إلى بغداد ولم يعد بعدها إلى الكوفة.

القضية الخامسة: عدل عبيد بن ظبيان قاضي الرشيد بالرقة

قال الزبير بن بكار: حدثني عمي مصعب قال: كان عبيد بن ظبيان قاضي الرشيد بالرقة، وكان الرشيد إذ ذاك بها، فجاء رجل إلى القاضي فاستعدى إليه على عيسى بن جعفر، فكتب إليه القاضي ابن ظبيان: أما بعد أبقى الله الأمير وحفظه وأتم نعمته، أتاني رجل وذكر أنه فلان ابن فلان، وأن له على الأمير أبقاه الله تعالى خمسمائة ألف درهم، فإن رأى الأمير يحضر مجلس الحكم أو يوكل وكيلاً يناظر خصمه أو يرضيه فعل، ودفع الكتاب إلى رجل، فأتى باب ابن جعفر فدفع الكتاب إلى خادمه فأوصله إليه، فقال له: قل له كل هذا الكتاب. فرجع الرجل إلى القاضي فأخبره فكتب إليه: أبقاك الله وأمتع بك. حضر رجل يقال له فلان ابن فلان وذكر أن له عليك حقاً فسر معه إلى مجلس الحكم أو وكيلك إن شاء الله تعالى. ووجه الكتاب مع عونين من أعوانه، فحضرا باب عيسى بن جعفر ودفعا الكتاب إليه فغضب ورمى به، فانطلقا فأخبراه فكتب إليه: حفظك الله وأمتع بك، لا بد أن تصير أنت أو وكيلك إلى مجلس الحكم، فإن أبيت أنهيت أمرك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله، ثم وجه الكتاب مع

رجلين من أصحابه فقعدا على باب عيسى بن جعفر حتى طلع، فقاما إليه ودفعا إليه كتاب القاضي، فلم يقرأه ورمى به، فعادا فأبلغاه ذلك، فختم قمطره وأغلق بابه وقعد في بيته فبلغ الخبر إلى الرشيد فدعاه وسأله عن أمره فأخبره الخبر، وقال: يا أمير المؤمنين اعفني من هذه الولاية فوالله لا أفلح قاض لا يقيم الحق على القوي والضعيف. فقال له الرشيد: من يمنعك من إقامة الحق؟ فقال: هذا عيسى بن جعفر. فقال الرشيد لإبراهيم بن عثمان: سر إلى دار عيسى بن جعفر واختم أبوابه كلها ولا يخرج منها أحد ولا يدخل إليها أحد حتى يخرج إلى الرجل من حقه أو يسير معه إلى مجلس الحكم. فأحاط إبراهيم بداره خمسمائة فارس وأغلق الأبواب كلها، فتوهم عيسى بن جعفر أن الرشيد قد حدث عنده رأي في قتله ولم يعرف الخبر، فجعل يكلم الأعوان من خلف الباب، وارتفع الصراخ في منزله وضج النساء فسكتهن، ثم قال لبعض الأعوان من غلمان إبراهيم: ادع لي أبا إسحاق لأكلمه، فأعلموه فجاء حتى وقف على الباب، فقال له عيسى: ويحك ما حالنا؟ فأخبره بخبر القاضي ابن ظبيان، فأمر بإحضار خمسمائة ألف درهم من ساعته. فأحضرت وأمر أن تدفع إلى الرجل. فجاء إبراهيم إلى الرشيد فأخبره، فقال: إذا قبض الرجل ماله فافتح أبوابه وعرّفه أن القاضي من عمل حكمه فيك ما رأيت فإياك ومعارضته.

القضية السادسة: جراءة عمر بن حبيب القاضي

قال عمر بن حبيب القاضي: حضرت مجلس الرشيد يوماً، فجرت مسألة فتنازعها الخصوم وعلت الأصوات فيها. فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فدفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم: أبو هريرة متهم وصرحوا بتكذيبه، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم، فقلت أنا: الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو هريرة صحيح النقل صدوق القول فيما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنظر إلي الرشيد نظر مغضب وانصرفت إلى منزلي، فلم ألبث أن جاءني غلام فقال: أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول وتحنط وتكفن. فقلت: اللهم إنك تعلم أني دفعت عن صاحب نبيك أن يطعن على أصحابه فسلمني منه. فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسيه حاسر عن ذراعيه بيده السيف وبين يديه النطع، فلما بصر بي قال: يا عمر بن حبيب ما تلقاني أحد من الدفع والرد لقولي بمثل ما تلقيتني به وتجرأت عليّ. فقال: يا أمير المؤمنين إن الذي قلته وافقت عليه وجادلت عنه ازراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ما جاء به، فإنه إذا كان أصحابه ورواة حديثه كذابين فالشريعة باطلة والفرائض في الأحكام في الصلاة والصيام والنكاح والطلاق والحدود مردودة غير مقبولة، فالله الله يا أمير المؤمنين أن تظن ذلك أو تصغي إليه، وأنت أولى أن تغار لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله، أحييتني أحياك الله أحييتني أحياك الله، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

القضية السابعة: عدل حفص القاضي

قال يحيى بن الليث: باع رجل من أهل خراسان جمالاً على مرزبان المجوسي وكيل أم جعفر بثلاثين ألف درهم، فمطله بثمنها وعوّقه عن سفره، فطال ذلك على الرجل فأتى إلى بعض أصحابه

وشاوره كيف يعمل، فقال: اذهب إلى مرزبان وقل له أعطني ألف درهم وأحل عليك بالمال الباقي، وسافر إلى خراسان فإذا فعل فعرفني حتى أشير عليك، ففعل الرجل وأتى إلى مرزبان وأعطاه ألف درهم، فرجع إلى الرجل فأخبره فقال له: عد إليه وقل له: إذا ركبت غداً فاجعل طريقك على القاضي حتى أوكل رجلاً يقبض المال منك في دفعات، وأروح أنا إلى خراسان، فإذا جاء وجلس إلى القاضي فادّع بمالك كله، فإذا أقر حبسه القاضي أخذت مالك منه. فرجع الخراساني إلى مرزبان وسأله ذلك فأجابه وقال: غداً انتظرني بباب القاضي. فلما ركب من الغد قام إليه الرجل وقال: إن رأيت أن تنزل إلى القاضي حتى أوكل بقبض المال وأروح، فنزل مرزبان فتقدما إلى القاضي، وكان حفص بن غياث فقال الرجل: أصلح الله القاضي، لي على هذا تسعة وعشرون ألف درهم وأدعي عليه، فقال له حفص: ما تقول يا مجوسي؟ قال: صدق أصلح الله القاضي. قال: قد أقر لك. قال: يعطيني مالي وإلا الحبس، فقال للمرزبان: يا مجوسي ما تقول؟ قال: هذا المال على السيدة أم جعفر. قال حفص: يا أحمق تقر ثم تقول هذا على السيدة، ما تقول يا رجل؟ قال: إن أعطاني مالي وإلا حبسته، فقال حفص: يا مجوسي ما تقول؟ قال: المال على السيدة. قال حفص: خذوا بيده إلى الحبس، فلما حبس بلغ الخبر إلى أم جعفر فغضبت وبعثت إلى السندي وقالت: وجه بمرزبان إلي وعجل، فأسرع السندي فأخرجه من الحبس، وبلغ الخبر إلى حفص أن مرزبان قد أخرج، فقال: أحبس أنا ويخرج السندي؟ والله لا جلست للقضاء أو يرد مرزبان إلى الحبس، وغلق باب بيته، فسمع السندي ذلك، فجاء إلى السيدة أم جعفر فقال: الله الله فيّ، فإن حفصاً لا تأخذه في الله لومة لائم، وأخاف من أمير المؤمنين الرشيد يقول لي بأمر من أخرجته، رديه إلى الحبس، وأنا أكلم حفصاً فيه، فأجابته وردّته إلى الحبس. وقالت أم جعفر للرشيد: قاضيك هذا أحمق حبس وكيلي واستخف به، اكتب إليه ومره لا ينظر في الحكم، فأمر لها بالكتاب، وبلغ حفصاً ذلك فقال للرجل: أحضر لي شهوداً لأسجل لك على المجوسي بالمال، وجلس حفص وسجل على المجوسي، فجاء خادم السيدة ومعه كتاب الرشيد، فقال: هذا كتاب أمير المؤمنين. فقال له حفص: مكانك نحن في حكم شرعي حتى نفرغ منه. فقال: كتاب أمير المؤمنين. فقال: اسمع ما يقال لك، فلما فرغ حفص من السجل أخذ الكتاب من الخادم وقرأه، وقال: اقرأ على أمير المؤمنين السلام وأخبره أن كتابه ورد وقرأته وقد أنفذت الحكم عليه. فقال الخادم: قد عرفت والله ما صنعت، أبيت أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى تفرغ مما تريد، والله لأخبرن أمير المؤمنين بما فعلت. قال له حفص: قل له ما أحببت. فجاء الخادم وأخبر هارون الرشيد بذلك فضحك وقال للحاجب: مر لحفص بن غياث بثلاثين ألف درهم. فركب يحيى بن خالد فاستقبل حفصاً منصرفاً عن مجلس الحكم. فقال: أيها القاضي قد سررت أمير المؤمنين اليوم، وقد أمر لك بثلاثين ألف درهم فما كان السبب في هذا؟ فقال حفص: تمم الله سرور أمير المؤمنين وأحسن حفظه وكلاءته، ما زدت على ما أفعل كل يوم. قال: ومع ذلك لا أعلم إلا أنني سجلت على مرزبان المجوسي بمال وجب عليه. فقال يحيى: فمن هذا سر أمير المؤمنين. قال حفص: الحمد لله كثيراً من قام بحقوق الشريعة ألبسه الله رداء المهابة.

القضية الثامنة عدل القاضي أبي حازم

قال أبو الحسن عبد الواحد الحصيبي: حضرت القاضي أبا حازم وقد جاءه طريف المخلدي من أمير المؤمنين المعتضد بالله. وقال: يقول لك أمير المؤمنين لنا على فلان مال وقد بلغنا أن غرماءه أثبتوا عندك إفلاسه وقد قسطت لهم ماله فاجعلنا كأحدهم وقسط لنا. فقال أبو حازم: قل له أطال الله بقاءه أذاكر لما قال لي وقت أن قلدني القضاء: قد أخرجت الأمر من عنقي وجعلته في عنقك، ولا يجوز أن أحكم في مال رجل لمدّع إلا ببينة. فرجع طريف وأخبره. فقال له: قل له فلان وفلان يشهدان، يعني رجلين جليلين من أعيان الدولة كانا في ذلك الوقت. فقال: يشهدان عندي وأسأل عنهما فإن زكيا قبلت شهادتهما وإلا أمضيت ما ثبت عندي، فامتنع أولئك من الشهادة فزعاً أن لا يقبل قولهما، ولم يدفع للمعتضد شيئاً فهكذا يكون القضاء السديد.

القضية التاسعة: نادرة في عدل أبي حازم عبد الحميد القاضي

ذكر وكيع القاضي قال: كنت أتقلد لأبي حازم عبد الحميد القاضي وقوفاً في أيام المعتضد بالله منها وقف الحسن بن سهل، فلما استكثر المعتضد من عمارة القصر المعروف بالخلافة أدخل فيه بعض وقف الحسن بن سهل الذي تحت يدي ونظري وهو مجاور القصر، وبلغت السنة آخرها وقد جبيت مال الوقف إلا ما أخذه المعتضد، فجئت إلى القاضي أبي حازم فعرفته اجتماع مال السنة، واستأذنت في قسمته في سبيله على أهل الوقف. قال: هل جبيت ما على أمير المؤمنين؟ فقلت: ومن يجسر يطالب الخليفة؟ فقال: والله لا قسمت الارتفاع أو تأخذ ما عليه، والله لئن لم ترح إليه لا وليت له عملاً، ثم قال: امض إليه الساعة وطالبه. فقلت: ومن يوصلني؟ فقال: امض إلى صافي الحرمي وقل له إنك رسول أنفذت في مهم ليستأذن لك، فإذا وصلت إليه فعرفه ما قلت لك. فجئت فقلت لصافي ذلك، فاستأذن لي وأدخلني وكان آخر النهار، فلما صرت بين يدي الخليفة ظن أمراً عظيماً قد حدث، فقال: هيه. فقلت: إني أتولى لعبد الحميد قاضي أمير المؤمنين وقوف الحسن بن سهل، وفيها ما أدخله أمير المؤمنين إلى قصره، ولما جبيت مال هذه السنة امتنع من تفرقته إلى أن أجبي ما على أمير المؤمنين، وأنفذني الساعة قاصداً بهذا السبب، وأمرني أن أقول: إني حضرت في مهم لأصل إليك. قال: فسكت المعتضد ساعة متفكراً ثم قال: أصاب عبد الحميد يا صافي أحضر الصندوق، فلما أحضره قال: كم يجب لك؟ قال: قلت: أربعمائة دينار. قال: أفتعرف النقد والوزن؟ قلت: نعم. قال: هاتوا ميزاناً، ثم قال: أتزن أربعمائة ديناراً، فقبضتها وانصرفت إلى أبي حازم وعرفته ذلك، فقال: أضفها إلى ما عندك من الوقوف وفرقه غداً في سبيله ولا تؤخر ذلك، فمن حكم بالحق نفذ حكمه وأطيع أمره وأرضى ربه وأبرأ ذمته.

القضية العاشرة: عدل إسماعيل القاضي

قال الدارقطني: سمعت عبد الرحيم ابن القاضي إسماعيل بن إسحاق يقول: كان في حجر أبي يتيم فبلغ، وله أم وأختها في دار الخليفة المعتضد بالله، فقالت أم اليتيم لأختها: كلمي أمير المؤمنين حتى يرفع إسماعيل القاضي الحجر عن ولدي، فكلمته فدعا المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب وزيره،

وقال له: قل لإسماعيل القاضي يفك الحجر عن فلان. فقال له الوزير: إن أمير المؤمنين يأمرك أن ترفع الحجر عن فلان. فقال القاضي: حتى أسأل عنه، وقام فسأل عنه فلم يخبر عنه برشد فتركه، ومضت على ذلك أيام فرجعت والدة الصبي إلى أختها وسألتها أن تعاود أمير المؤمنين، وكان المعتضد لا يعاود لخشونته فعاودته، فقال: أليس قد أمرت؟ فقالت: لم يرفع عنه بعد، فدعا وزيره عبيد الله ثانياً وقال: أمرتك أن تأمر إسماعيل القاضي بأن يرفع الحجر عن فلان. فقال: قد كنت قلت له عن ذلك، فقال حتى أسأل عنه. فقال: قل له أن يرفع الحجر عنه، فدعا الوزير ثانياً وقال له: وأمير المؤمنين يأمرك أن ترفع الحجر عن فلان، فأطرق القاضي ساعة ثم استدعى دواة وورقة وكتب شيئاً وختمه، فاستعظم الوزير أن يختم عنه كتاباً ولم يقل له شيئاً لمحل إسماعيل من الورع والعلم، ثم دفع ذلك للوزير وقال له: توصل هذا إلى أمير المؤمنين فإنه جوابه، فأخذه الوزير ودخل على المعتضد وقال: زعم أن هذا جواب أمير المؤمنين، ففتح المعتضد الكتاب وقرأه وألقاه وقال: لا تعاوده في هذا، فأخذ عبيد الله الوزير الكتاب وإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله.

فهذه سيرة القضاة المتصفين بما سبق من الأوصاف، المقتفين في أعمالهم طريقة العدل والإنصاف، فلا جرم استقرت أحكامهم وجرت أقلامهم وشكرت أيامهم ولم تعثر بهم آثامهم. اهـ.

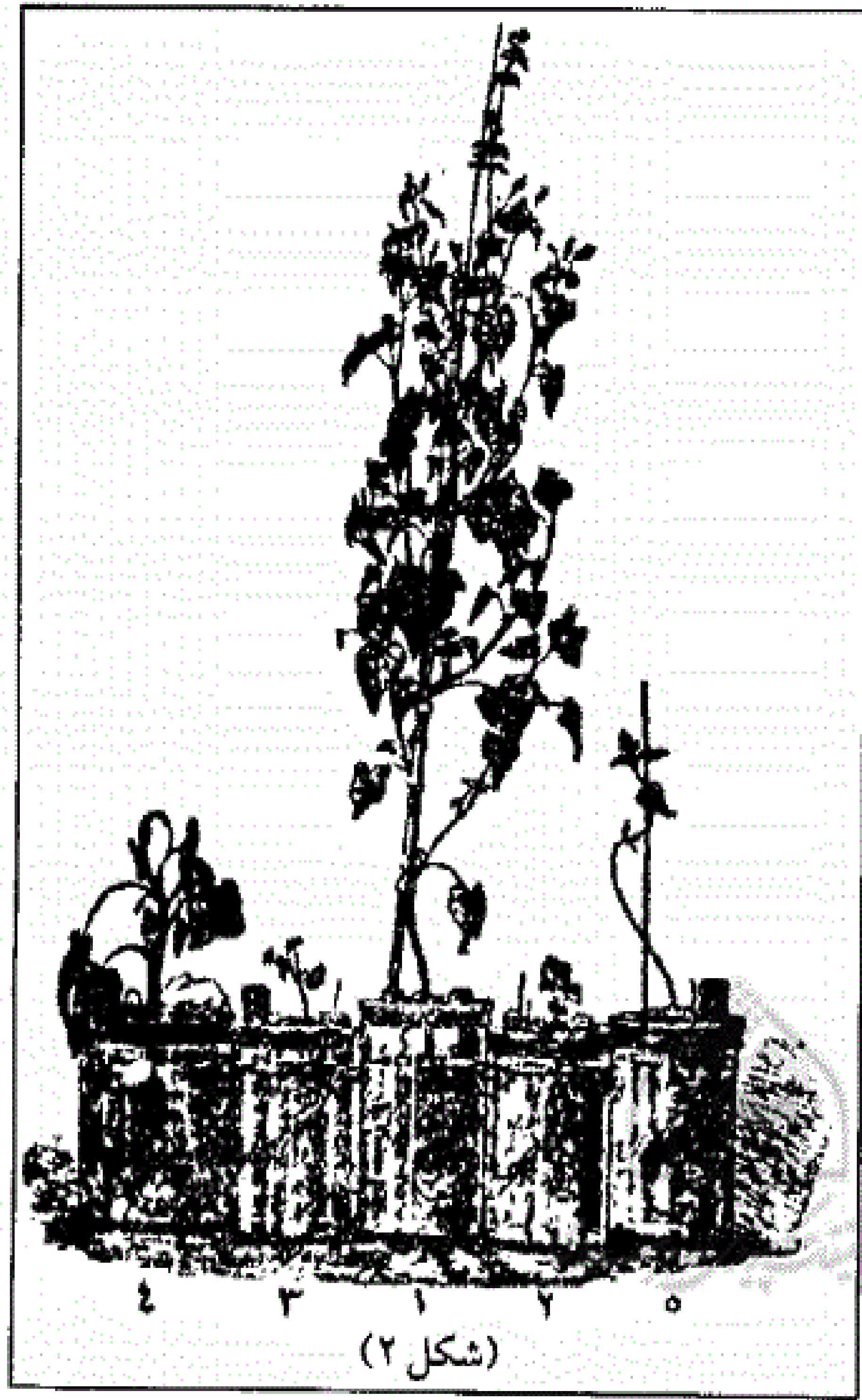
هنالك أخذت أفكر في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[ص: ٢٧] الخ. هاهنا يتذكر أولو الألباب المناسبة بين خلق السماوات والأرض وبين العدل في القضاء، وليس من الميسور أن يعرف الناس تلك المناسبة بقراءة علوم السماوات والأرض، وهنا يكون العجب من الأمم الإسلامية المتأخرة، حرمت علوم السماوات والأرض فخر عليهم السقف من فوقهم، ولكن الأمم الإسلامية في العصور الأولى كانوا يفهمون هذه الأمور بعقولهم، وهكذا الأمم الذين بعضهم في زماننا وبعضهم بعد مفارقتنا هذه الدار سيفهمون هذا حق الفهم، ويقولون: إن الله يقول لداود: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[ص: ٢٦]، ثم أعقبه بأن السماوات والأرض لم يخلقا باطلاً، وفي آية أخرى قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الحجر: ٨٥]. ثم يقولون: فلننظر عسى أن نجد في علم النبات هدى، فيجدون أن العناصر التي تدخل في تركيب النبات بتحليله تحليلاً كيميائياً هي: الكربون. الأوكسجين. الأيدروجين، الآزوت. الكبريت. الفوسفور. البوتاسيوم. الكلسيوم. الحديد. المغنسيوم.

ويحصل النبات على الكربون من الهواء وعلى معظم الأكسجين والأيدروجين من الماء، أما بقية العناصر فيحصل عليها من الأملاح الذائبة في التربة.

إثبات ضرورة العناصر السابقة للنبات

إذا عمل محلول من ماء أذيبت فيه أملاح تشتمل على العناصر الآنفة الذكر فإن النبات ينمو بحالة طبيعية (شكل ٢ ـ ١)، وإذا أنقص من المحلول أحد هذه العناصر فقد ينمو النبات إلى حد ما (شكل ٢)، ولكنه يضعف ويموت بعد ذلك، وقد يحتوي النبات النامي في التربة عدا ما تقدم على

عناصر السليس والصوديوم والكلور، إلا أن هذه العناصر ليست ضرورية جداً، ويمكن للنبات أن ينمو بدونها بحالة طبيعية. والنبات لا يمتص المواد الضرورية له بنسبة واحدة، فهو يحتاج مثلاً إلى مقدار قليل جداً من الحديد، في حين أنه يحتاج لكميات أكبر من الآزوت، كما أن نسبة العناصر الموجودة في النباتات تختلف باختلاف النباتات نفسها. (انظر شكل ٢).



(شكل ٢)

(١) نبات نام في محلول يحتوي على جميع العناصر الضرورية.

(٢) نبات نام في محلول يحتوي على جميع العناصر ما عدا البوتاسيوم.

(٣) نبات نام في محلول يحتوي على جميع العناصر ما عدا البوتاسيوم الذي استبدل بها الصوديوم.

(٤) نبات نام في محلول يحتوي على جميع العناصر ما عدا الكالسيوم.

(٥) نبات نام في محلول يحتوي على جميع العناصر ما عدا الآزوت.

فإذا رأوا مثل ذلك قالوا: هذا مثل من أمثلة السماوات والأرض وأنهما لم يخلقا عبثاً ولا لعباً بل خلقا بالحق، كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الدخان: ٣٩]، وذلك الحق كالحق المذكور في آية داود: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[ص: ٢٦]، الله حق وفعله في تغذية النبات حق بحيث إذا نقص النبات في (شكل ٢) السابق البوتاسيوم فقط كان صغيراً جداً، وإذا نقص الآزوت كان أكبر وهكذا، أما إذا كان تام التغذية فإنه يتم كماله. هذا هو الحق في نظام النبات وهو فعل الله، وليس هناك اختلاف في هذا القانون، فلم يسمع الناس أن نباتاً نقص أحد هذه العناصر ثم كان تاماً في شكله غير منقوص، وهذا هو نفس الحق الذي تقدم في القضايا العشر التي نقلتها لك عن القدماء، وأي فرق بين عدل محمد بن عمران الطلحي إذ يكتب إلى المنصور فيحضر فيحكم عليه؛ وبين نقص النبات أمامنا إذا نقص عنصراً من عناصر التغذية، وإذا كنا نحن خلفاء الله في الأرض على رعايانا من الأعضاء والحواس والأسرات والممالك فوجب أن نتبع من استخلفنا، ونزن الأمور على مقتضى وزنه، لتصح لنا الخلافة في الأرض، وبهذا نستحق أن نكون ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[القمر: ٥٥]،

فهذه العندية تقتضي ذلك الحق، فيعدل محمد بن عمران، ويحكم على الخليفة، ويعدل شريك ويحكم على الأمير موسى بن عيسى وهكذا، فهذا الفعل مناسب تمام المناسبة لما رأينا من العدل في أمر تغذية النبات كمالاً ونقصاً، فمن وفى من الزراع بالعناصر وفيت له، ومن نقص نقصت له بقدر لا زيادة ولا نقص. وهذا عين قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[ص: ٢٨] الخ، أي كما لم نجعل ناقص التغذية من النبات الذي خلقناه بالحق ليس ككامل التغذية، فالناقص كالمفسدين في الأرض والكامل كالمتقين.

فإذا عرف هذا أهل العلم من المسلمين في زماننا والذين بعدنا يزدادون علماً بالله عز وجل وعلماً بمصنوعاته وحكمته، وتكون لهم سعادتان: سعادة روحية، وسعادة جسمية، أما السعادة الروحية فهو الحب الحقيقي لصانع العالم، وإذا كان الإنسان يهيم شوقاً ويعجب أيما إعجاب بشريك القاضي ومن معه لإحقاقهم الحق في القضايا فما بالك بمن قضاياه لا نهاية لعددها وكلها حق، وأصبح الناس يشاهدونها بعقولهم، وأما السعادة الجسمية فهي ازدياد ثروة الأمم الإسلامية بازدياد العلم والحكمة ومعرفة حقائق الأشياء، إن الأمم التي يكثر فيها المحبون للعلوم على هذا النمط الذي في هذا التفسير، وهما طبعاً يحبون الله تعالى ويحبون عباده بالاجتهاد في ترقيتهم ترقى سريعاً وخواصها المذكورة أوصافهم يكونون في سعادة وازدياد علم لا يعرفه سواهم، لأن حب العلم وحب الله وحب رقي الناس متى اجتمعت في امرئ ترادفت عليه أنواع السعادات العلمية وانشراح الصدر وكان الله في عونه، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٤٨].

فهؤلاء الذين يزدادون علماً بعدنا لا يقفون عند حد فيه، فيرون أن جذور الأنواع المختلفة لا يتزاحم بعضها مع بعض في مستوٍ واحد من التربة، بل تمتد إلى أعماق مختلفة (شكل ٣) بخلاف جذور النباتات الحولية إذ تمتد وتتفرع في العادة بالقرب من سطح الأرض

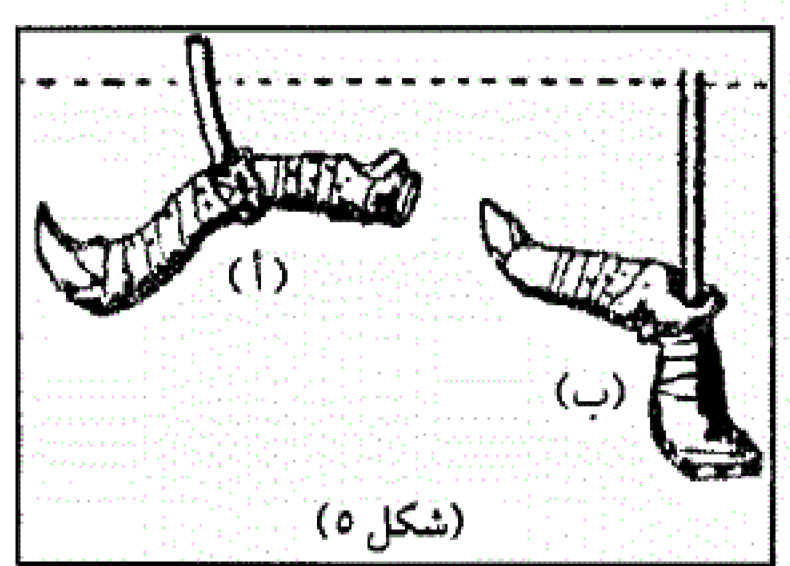


(شكل ٣ ـ نمو جذور النباتات الصحراوية في مستويات مختلفة)

أما جذور النباتات المعمرة فإنها تمتد إلى أعماق أبعد، ولكل منها عمق خاص تنمو جذوره فيه، فإذا اقتلعت إحدى الأبصال وزرعت في مستوٍ أعلى من مستواها الطبيعي تتكون عليها جذور خاصة تعرف بالجذور الشاذة تلتوي كالبريمة فتجذب البصلة إلى أسفل حتى تصل بها إلى المستوى المناسب. (انظر شكل ٤).



(شكل ٤ ـ المستويات التي توجد عليها البصلة الواحدة في سنوات متتالية بعد إنبات البذرة. لاحظ الجذور الشاذة التي تجذبها إلى أسفل)



(شكل ٥)

وكذلك إذا زرع أحمد النباتات ذات الريزومات الأرضية في غير مستواه الطبيعي، فإن الريزوم يتجه إلى أسفل أو أعلى حسب الظروف حتى يصل إلى العمق الخاص المناسب لنموه، وبعد ذلك يسير موازياً لسطح الأرض. (انظر شكل ٥ ـ أ، ب).

(أ) ريزوم في مستوى أعلى من مستواه الطبيعي فاتجه إلى أسفل.

(ب) ريزوم زرع رأسياً في مستوى أعمق من مستواه الطبيعي فاتجه إلى أعلى متخذاً وضعاً أفقياً.

وفي السنوات التي يقل فيها سقوط الأمطار عن المعتاد يشاهد أن الشعير المزروع في هذه الأراضي يقف نموه تدريجياً ثم يجف، في حين أن النباتات البرية لا تتأثر كثيراً، وذلك لأن جذور الشعير توجد كلها في مستو واحد وتتزاحم بعضها مع بعض فلا تجد المقدار الكافي من الماء، أما النباتات البرية فإن ترتيب جذورها على درجات مختلفة المستوى يمنع تزاحمها، فيتمكن كل منها من الحصول على الماء اللازم له. ومما يلاحظ أن الأمطار تسقط بكثرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، ويقل سقوطها شيئاً فشيئاً كلما بعدت عن الشاطئ، فيقل عدد النباتات النامية وتتحول الأراضي إلى صحار قاحلة بالتدريج. انتهى ما أردته من كتاب علم النبات.

إذن يرقى المسلمون الذين يزدادون علماً في زماننا والذي بعده فيدرسون ويقولون: هذا الشعير إذا جف الماء ضعف كله، وهكذا القمح وجميع النباتات التي نزرعها، لأن جذورها في منطقة واحدة من مناطق التربة الأرضية، أما النباتات الصحراوية فإن جذورها تمتد في مناطق مختلفات، وكل منطقة فيها تربة خاصة يتغذى بها نبات خاص، ذلك لأن الزارع لها هو الله وهو عدل، ومن عدله أنه أعطى كل نبات منطقة خاصة يعيش بغذائها، ولكن لو كانت كلها في منطقة واحدة لأهلك أقواها أضعفها، فأما أمثال الشعير والقمح فإن الله جعل الإنسان قائماً عليها ليسقيها، وإذا نبت معها نبات ليشاركها في منطقتها الطينية فإن الإنسان نفسه هو الذي يحافظ على زرعه، كما أن حيوان البرية لا أمراض تلحقه والحيوانات التي مع الناس تلحقها الأمراض والناس يداوونها.

تذكرة

أفلا ترى أيها الذكي أن المسلمين الذين يقرؤون هذه العلوم هم الذين تكون لهم سعادة في الحياة الدنيا والآخرة، ألا ترى كيف اجتمع هنا علم النبات وعلم القضاء وأخبار القضاة العادلين الجميلة، ألست ترى أن عدل الله في النبات قد طلب من الإنسان أن يسير على منواله، أليس هذا هو نفس قول المسلم: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[الفاتحة: ٧]، والصراط المستقيم هو صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض فهذا هو صراط الله، أولست ترى أن الإنسان كلما أوغل في هذه العلوم حصلت له ملكة بها يكون رجلاً نافعاً، وهاهم أهل أوروبا قد سبقونا في

هذه العلوم ولهم دول عظيمة وأهل أمريكا واليابان والصين، ففاقونا بهذه العلوم إذ أكسبتهم ملكة التفكير والاختراع ونحن من ذلك محرومون. أليس هذا بعينه هو قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

عبرة في التاريخ

لقد ذكرت في سورة «يونس» أني أرسلت خطاباً ـ وهناك نصه ـ إلى المجلس النيابي المصري في أول حياته وإلى رئيس الوزراء وإلى وزير المعارف، وقلت فيه: إن الأمة المصرية كانت عندها العلوم قبل الاحتلال في المدارس الثانوية. وفي زمن الاحتلال أصبح التلميذ يجهل تشريح جسمه ومعرفة دابته التي يركبها والسماء التي فوقه وطبقات الأرض تحته، فيصبح القاضي والوزير والمهندس كل هؤلاء جاهلين بهذا الوجود، فأنا أقترح أن يجعل التعليم الثانوي خمس سنين كما كان، ويرجع علم المواليد الثلاثة وعلم الفلك وطبقات الأرض كما كان قديماً.

هذا هو الذي كتبته منذ بضع سنين، وبعد ذلك قرروا خمس سنين، وقرروا علوم النبات والحيوان، أفلا أحمد الله إذ يكون ما نقلته اليوم من الكتب التي ألفها الشبان في أيامنا هذه في المدارس المصرية. إذن رقي الأمم الإسلامية سيكون سريعاً كما ذكرناه من قبل، وبرهانه ما أقول الآن، والذي يهمنا في هذا المقام أن نقول: ومن الدليل على أن ترك هذه العلوم مضعف للأمم؛ أن المحتلين لبلادنا منعوه أيام سلطتهم، وهاهي ذه رجعت لنا بعد سلطتهم، وإنما كتبت الخطاب المذكور لمجلس النواب وللحكومة؛ لأني أعلم أنهم تعلموا في زمن الاحتلال، وأكثرهم لم يعرفوا هذه العلوم إلا قليلاً، كما أني كنت في أيام التدريس بالمدارس أؤلف كتباً للمسلمين، وأقول في نفسي: إذا كان المحتلون منعوا هذه العلوم من البلاد فهاأنا ذا أكتب مجملها في كتبي لتكون تذكرة للمسلمين جميعاً.

أما الآن فإني أحمد الله إذ رجعت العلوم لبلادنا مع الاستقلال النوعي الذي ينتظر أن يتم في المستقبل. وأقول: إن هذا التفسير كتاب ديني، والذي سيقرؤه إن شاء الله المسلمون، ويجدون فيه هذه العلوم مبسوطة مشروحة، فهم إذن لا يقف في طريقهم عائق يصدهم عن قراءة هذه العلوم، لأن الذي يمنع العلوم الكونية من أرضية وسماوية عن المسلمين شيطانان: شيطان داخلي، وشيطان خارجي. أما الشيطان الداخلي فهو ما يدعيه الجهلاء في الدين أن هذه العلوم تنافي الدين. والشيطان الخارجي هم المحتلون لأي بلد من بلاد الإسلام، فإنهم قد يمنعون العلم عنهم كما حصل في بلادنا قبل تأليف هذا التفسير، فهؤلاء حين يرون أمثال ما أكتبه الآن لا يرجعون عن هذه العلوم مهما كلفهم ذلك، وعليه أقول: إن أمم الإسلام بعد هذه النهضة الحالية سيكونون خير أمة أخرجت للناس.

وصية المؤلف

وإني أوصي كل من يقرؤون هذا التفسير أن يذيعوا بين الناس كل ما يعرفونه، لأن إذاعة العلم بين الناس ونشره يرجع في نفس الحياة الدنيا على الناشر بازدياد العلم، لأن دورة العلم تمر بالناس ثم ترجع إليه وفيها ازدياد، فيزداد هو علماً كما اتفق لي، فإن تقرير هذه العلوم في البلاد المصرية كان سبباً

في أن الحكومة أمرت بعض الشبان فبحثوا في النباتات المصرية كلها ونشروها في الكتب، ومنها بعض ما كتبناه في هذا المقام، فلولا أن هؤلاء الشبان قرؤوا هذا وبحثوه ورسموه ما نشرت شيئاً منه ولا عرفته، ألا ترى أني كنت أنقل لك ما كتبه الإنجليز ورسموه في كتبهم، ولما قرأت كتب أهل بلادي في الحركة الحديثة كتبت ما تقدم من كتبهم، فلتكن كل أمة دارسة نبات بلادها وحيوانه وكل شيء فيها وإلا كانت في الأذلين. انتهت اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية في قوله تعالى:

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ (٢٦) ﴾

كيف نربي قضاة الأمم الإسلامية وحكامها وخلفاءها

أحمدك اللهم على نعمك، وأشكرك على ما ألهمت من العلم وحبوت من الحكمة، نزل القرآن ومضت أجيال وأجيال، والأمم الإسلامية ساكنة ساكتة نائمة بعد الصدر الأول، وبقي القرآن مهجوراً والعلم محبوساً، حتى انبجس في أمم أخرى بعيدة عن الإسلام. إن كتابك آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم. إنك لم تنزله للناس لتحبس عقولهم وتكبل أفهامهم كما يظن الجاهلون. كلا. بل أنزلته هدى وتبصرة وذكرى، وقلت فيه: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[البقرة: ٢٢٠] وقلت: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[البقرة: ٢٦٩]، وقلت: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٩]، وقلت: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾[الحج: ٤٦]. أفلم يأن للمسلمين اليوم أن يسمعوا ويعقلوا؟ نعم آن ذلك، فأقول:

تربية الأمة وقضاتها وحكامها

لقد قرأت في «جمهورية أفلاطون» عجباً في ذلك فلأذكره أولاً ثم أقفي على آثاره بما يناسبه من الكتاب والسنة: ليعلم المسلمون أن القرآن لا يزال بكراً، وأنه يستحيل علينا أن نحقل ما فيه ونعرفه حق معرفته إلا بمقدار ما نعرف من علوم الأمم. إن القرآن بلا عقول مفكرة تعقله ولا نفوس قيمة تفهمه لكتاب مهجور متروك، الحفظ وحده وفهم المعاني اللفظية لا يغنينا فتيلاً، أليس من العجب أن نسمع أفلاطون وأستاذه سقراط قبل نزول القرآن بنحو عشرة قرون يقول: إن من العار علينا أن يكثر في بلادنا صنفان من الناس، وهم: القضاة والأطباء، فكثرة القضاة في البلاد دليل على سوء التربية وقلة الأدب والجهالة. ويقول: نعم نحن أبحنا بعض الموسيقى البسيطة، ولكننا لا نبيح الإيغال فيها والتفنن، إن التفنن في الموسيقى يجر إلى الفضول، والفضول والفسوق يجران إلى المشاحنات الموجبات للتقاضي عند القضاة.

وهكذا أخذ يذم كثرة ألوان الطعام والتغالي فيه، فذلك موجب للأمراض المختلفات، وهذا يسبب طلب الأطباء. إذن الأمة يكون فيها جيشان وهما عالة على الأمة، وهذان الجيشان أكبر دليل على نقص الأمة وقلة تربيتها، وعليه يجب أن تربى الأمة كلها على القناعة لحفظ الصحة وعلى التهذيب والأخلاق الذي يبعد النفس عن الخلاعة فيقل القضاة والأطباء.

ولما قرأت هذا القول دهشت أشد الدهش من أمة الإسلام، تلك الأمة التي يتهافت مجموعها على المحاكم وعلى الأطباء، لا سيما في زماننا بمصر، فإن المحاماة صناعة رائجة في بلادنا، وعندنا ثلاثة جيوش جرارة: قضاة ومحامون وأطباء، وهؤلاء أكبر دليل على نقص في الأخلاق وفي الصحة وأن المآكل غير منتظمة والأحوال غير حسنة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وما أشبه الليلة بالبارحة، لقد نقلت عن الإمام الغزالي سابقاً أن علماء الإسلام أكبوا على علم الفقه لأنه يوصلهم إلى كراسي القضاء، وأخذ يذمهم ويقول: يا قوم هذه فتنة. ما الفقه إلا علم واحد والمسلمون يحتاجون إلى علوم كثيرة. وقد تكرر هذا في التفسير. إذن علماء الإسلام السابقون كانت حياتهم وشرفهم وعظمتهم تتوقف على أمر واحد وهو جهل الأمة وقلة تربيتها. ومتى شاع الأدب في البلاد قلّت القضايا فقلّ القضاة وهكذا متى صحت الأبدان قلّ الأطباء.

لما كتبت هذا اطلع عليه صاحبي فقال: أحب أن أسمع بعض أقوال أفلاطون في هذا. فقلت: هذا نصه في المحاورة بينه وبين غلوكون:

(س) وهل تنكر على الأثينيين تأنقهم في صنوف الحلوى.

(جـ) بشدة أنكره.

(س) فليس من الخطأ موازنة نظام المعيشة بنظام الموسيقى والغناء المستعمل في مختلف الأوزان.

(جـ) لا شك في أنها موازنة صحيحة.

(س) أوليس صحيحاً أيضاً أنه كما يولد التنوع الموسيقي فجوراً في النفس تولد الأطعمة عللاً في الجسد. أما البساطة في الألعاب الرياضية فإنها تولد الصحة كما أنها في الموسيقى تولد العفاف.

(جـ) بلا شك.

(س) وإذا انتشرت في المدينة الأمراض وصور الفجور أفلا نضطر لإنشاء المستشفيات والمحاكم؟ أولا يتيه الطب والحقوق عجباً متى وقف كثير من الشرفاء حياتهم على هذه المهن بوافر الرغبة.

(جـ) وماذا عسانا أن نتوقع غير ذلك؟

(س) فأية حجة على سوء تهذيب المدينة وانحطاط سكانها أقطع من افتقار أهاليها إلى نطس الأطباء وأساطين القضاة؟ ليس فقط بين طبقات العمال الدنيا، بل أيضاً بين من يدّعون شرف النبعة، أولا تراه انحطاطاً أدبياً ودليل نقص وتهذيب اضطرارنا إلى شريعة يسنها الأجانب كسادة وقضاة لنا بسبب فقر الوطن؟

(جـ) لا إهانة أعظم من ذلك.

(س) أوّتظن أنها إهانة أخف على الإنسان أن يقضي الجانب الأكبر من حياته في المحاكم بين مدّع ومدّعى عليه، بل إنه زاد على ذلك أنه جهلاً منه يفتخر بأنه حرّيف في ارتكاب الكبائر وأستاذ في الحيل والموارِبة والدهاء والمكر بتملصه من قبضة العدالة والنجاة من براثن العقاب، وكل ذلك لقاء أشياء طفيفة تافهة جاهلاً أفضلية الحياة المنظمة المستقيمة وجمالها على مثوله أمام قاض خامل.

(جـ) تلك إهانة أعظم مما سبق ذكرها.

(س) أوَلا تحسب الاحتياج إلى المعالجة الطبية عيباً، اللهم إلا ما كان لجرح أو لمرض موسمي وافد؟ أعني به احتياجاً إلى المعالجة بسبب كسلنا ونوع معيشتنا، فتملأنا الرياح والأخلاط كما تملأ المياه القذرة الحمأة فيلزم أبناء اسكولابيوس أن يستنبطوا أسماء جديدة للأمراض كتطبل البطن والزكام.

(جـ) حقاً إن هذه أسماء جديدة غاية في الغرابة.

(س) إذا مرض النجار مثلاً تناول من طبيبه علاجاً لإفراز مرضه بالقيء أو بالإسهال أو بالكي أو بعملية جراحية. أما إذا أشار عليه طبيب بالمعالجة الدائمة كالإمساك عن الطعام، والأربطة على الرأس ونحو ذلك من أساليب العلاج؛ نفر حالاً وأجاب مشيره الطبي أن لا وقت عنده لملازمة الفراش، وأن الحياة على هذا النظام لا تستأهل عناء الآلام الدائمة والمخاوف الشديدة، مهتماً بمرضه مهملاً عمله، فيودع طبيبه ويعود إلى حياته العادية. فإما أن يستعيد صحته ويستمر في عمله؛ أو إذا لم تحتمل بنيته ذلك أراحه الموت الزؤام من شقائه.

(جـ) نعم ذلك ما يظن أنه نفع المعالجة الطبية لرجل في مثل هذه الحال.

(س) صحيح أن الأطباء يحرزون مهارة عظيمة إذا قرنوا منذ الحداثة درس الطب بمعالجة عدد وافر من شر الحوادث المرضية، واختبروا في أشخاصهم كل أنواع المرض، ولذلك لا تكون لهم صحة جيدة، لأني لا أظن أن جسد الطبيب هو الذي يشفي أجساد الآخرين، وإلا لما جاز له أن يكون ذا علة أو أن يمرض، ولكن عقله هو الذي يشفي. فإذا أصيب في عقله تعذر عليه أن يكون طبيباً ماهراً.

(جـ) إنك مصيب.

(س) ولكن القاضي يا صديقي يحكم العقل بالعقل، فلا يجوز أن ينشأ عقله منذ نعومة أظفاره في بيئة فاسدة العقول، ويأتلف معشرها ويقترف كل أنواع الشرور اقتداء بها، لكي يختبر في نفسه ماهية الأجرام، فيتمكن بهذا الاختبار من زلات الآخرين بقياسهم على نفسه على نحو تصرف الطبيب في الأمراض الجسدية، بل بالعكس يجب أن يكون الحاكم حراً من هذا الاختبار وبمعزل عن عوامل الشر والفساد، إذا أريد أن يتصف بالكمال الفائق ويحسن رعاية العدالة. وهذا هو السبب في سهولة انخداع الصالحين في شبيبتهم، إذ ليس في نفوسهم مثل يقيسون شرور الأردياء به.

(جـ) نعم وهم معرضون كثيراً لهذا الانخداع.

(س) ولذا لا يكون أفضل القضاة شاباً بل شيخاً عرك الدهر وخبر البطل، لا كشيء استقر في نفسه بل كأمر خارجي أدركه ودرسه درساً طويلاً مدققاً في حياة الآخرين. وبعبارة أخرى: إنه يقاد بالمعرفة لا بالاختبار الشخصي.

(جـ) حقاً إن ذلك أشرف نوع في الحكام.

(س) وهو صالح أيضاً، هذه هي نقطة البحث، لأن ذا النفس النقية صالح، أما القاضي المريب الذي اقترف كثيراً من موبقات الآثام وهو يزعم أنه بارع لكونه عاشر أمثاله من الشبان فيبدي شديد الحذر قياساً على ما في داخله من نماذج الشر وهي نصب عينيه كل يوم. على أنه متى اجتمع بالشيوخ

والأبرار ظهر بإزائهم غراً أحمق بريبته الشاذة وجهله السجية الكاملة لفقدانه مثلاً لها في نفسه، وإنما لأن علاقاته بالأشرار أكثر منها بالأبرار لاح له ولأمثاله أنه حاذق لا أحمق.

(جـ) غاية في الصواب.

(س) فلا ننشدنّ حاكمنا الصالح في هذا الصف، بل في سابقه، لأن الرذيلة لا يمكنها أن تعرف نفسها والفضيلة معاً. أما الفضيلة في الكامل التهذيب فإنها بمرور الزمن تتمكن من معرفة الأمرين: نفسها والرذيلة. فالقاضي الحكيم في مذهبي هو هذا الفاضل لا ذاك الرذيل.

(جـ) أوافقك في ذلك.

(س) أفلا تنشئ في مدينتك إدارتين: طبية وقضائية. تتصف كل منهما بما ذكرناه من الأوصاف؟ فتسبغان بركات خدمتهما على أصحاء الأبدان والعقول مع إهمال سقماء الأبدان فيموتون وإعدام الأشرار الفاسدين غير القابلين إصلاحاً.

(جـ) نعم وقد تبرهن أن ذلك خير للدولة ولأولئك السقماء.

(س) وواضح أن الشبان يحترسون من افتقارهم إلى هذه الشريعة ما داموا يمارسون الموسيقى البسيطة التي قلنا إنها تنشئ رزانة النفس.

(جـ) دون شك. انتهى ترجمة الأستاذ حنا خباز.

فقال صاحبي عندئذ: عجباً! هانحن أولاء في هذا القول رأينا عجبين: العجب الأول: في سورة «يس»، إذ تقدم هناك أن علم الموسيقى والشعر وعلم الفلك كلها من واد واحد، واتضح لنا هناك إذ ظهر أن حساب الفلك يرجع إلى دوائر منتظمات مكررات كما في السنين الكبيسة والبسيطة، ومثلها في ذلك نظم الشعر ونغمات الموسيقى والطير. العجب الثاني: هنا، فقد أصبح الطب والقضاء توءمين في أن كثرة كل منهما دليل على سقوط أخلاق الأمة وآدابها. ولقد اضطرت حكومتنا المصرية في هذه السنة أن توسع مستشفى القصر العيني، وهي تبني بناء عظيماً يسع ٤٨٠٠ سرير للمرضى. إذن هذا دليل على الجهل المطبق في هذه الأمة، وهكذا كثرة القضاة والمحامين شرعيين وأهليين. كل ذلك دليل على سوء تربية الأمة وعلى سوء ملكة أهلها. فقلت: نعم حق ما تقول، وذلك السوء ليس من طبيعة بلادنا، بل ذلك أمر يتبع احتلال الأجنبي لبلادنا. ومن أقبح ما اطلعت عليه بنفسي أني منذ أربعة سنين قبل كتابة هذا الموضوع دعيت إلى وليمة، وقد كانت بلادنا أخذت استقلالاً جزئياً، فسمعت الموسيقى تصدح في تلك الوليمة، إذا هي موسيقى الحكومة المصرية، فكان دهشي عظيماً إذ سمعت كل الأشعار من أقاويل الجهال والسخفاء وأحقر الطبقات، وكلها تنطق بالفسوق والجهالة والعمى، فسألت الرئيس فبكى بكاء مراً، وقال: إن السلطة للرئيس الأجنبي، ولما عارضنا في ذلك عاقبونا، فأرغمنا أن نغني هذا الغناء الحقير. فعلمت بهذا وبغيره أن الأمم التي تتدهور أخلاقها كما حصل لأمتنا إنما يكون ذلك أكثره من الأجانب المحتلين للبلاد.

فقال صاحبي: عرفنا تربية الأمة على سبيل الإجمال فنريد أن نعرف تربية الأمراء والقضاة ونحوهم. فقلت: لقد تقدم في سورة «يوسف» عند الكلام على الموازنة بين الموسيقى والفلك أن

أفلاطون يحتم أن يقرؤوا الرياضيات من الحساب والهندسة والجبر والفلك، وأن يمارسوا الفضائل، وتكون دراستهم لتلك العلوم موجهة في ظواهرها إلى منفعة العموم العملية، وفي باطنها إلى أن تلمس الروح من الحساب البديع المنظم مبدع العالم، فتعرف من استقرار الحساب وجريه على وتيرة واحدة في الأحوال الفلكية وغيرها أن وراءها قوة ثابتة وعلماً وحكمة ورحمة. وهناك تتصل نفوس الأمراء والقضاة والملوك بتلك الذات القدسية، فيحس هؤلاء بأنهم خلفاؤه في الأرض، وأنهم هم آباء الناس والناس أبناؤهم. وكما نراه أوجب الرياضة البدنية والعفة على العامة أوجبها على الجيوش وعلى الأمراء. إذن القاضي والأمير والملك يجب أن يكون أكلهم وشربهم بسيطين، وأن يكثروا التمرين الجسدي والعقلي بالعلوم الرياضية. وأن يفكروا في منظم الكون بحيث يقتربون منه بعقولهم حتى يحسوا بأنهم خلقوا أشبه بخلقة الذهب في المعادن. فإذا استحق الذهب أن يكون حاكماً في معاملات الناس وله السيادة على المعادن فهكذا يجب أن يعلم القضاة الحقيقيون أنهم خلقوا لذلك.

فقال: أنا الآن فهمت فحوى كلام أفلاطون الناقل عن سقراط، فأين هذا القول في القرآن وفي الحديث كما وعدت أنت؟ فقلت: يقول الله تعالى في سورة «البقرة» يصف الملك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾[البقرة: ٢٤٧]. فقال: هذا كلام إجمالي فأين التفصيل كما فصل سقراط؟ فقلت: اقرأ القرآن. ألم تر أن هذا الملك نفسه هو الذي أمر قومه أن لا يشربوا من النهر، وأن من شرب منهم لم يقدر على المقاتلة، ومن لم يشرب أو شرب قليلاً حارب، والذين لم يشربوا كانوا قليلاً، والذين شربوا كانوا كثيراً، ولم يحارب إلا أولئك الأقلون فانتصروا. وهل هذه القصة موجهة لأحد إلا إلينا معاشر المسلمين الآن، وذلك أن نعلم الشعب الإسلامي العفة لتتم الصحة والعافية والشجاعة ويقل الاحتياج للأطباء. أفليس هذا يكون سبباً في قوة البدن المذكور في الآية وهو قوله: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾[البقرة: ٢٤٧]. فقال: زدني من هذا. فقلت: يقول الله تعالى: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾[الأحقاف: ٢٠]، ويقول: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾[الإسراء: ١٦]، ويقول: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩]. أفلا يكفيك هذا في أن ما قاله أفلاطون وسقراط قد وضح في القرآن. فقال: هذا في علم الحقوق فماذا في الطب؟ فقلت: يقول الله سبحانه: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾[الأعراف: ٣١] ويقول: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾[البقرة: ٦١]، فاقرأ معنى هاتين الآيتين: الأولى في سورة «الأعراف»، والثانية في سورة «البقرة». فقال: أين التمرينات العضلية التي ذكرها أفلاطون؟ فقلت: إنها في «السبق والرمي» الآتي الكلام عليهما قريباً هنا. فقال: أين مقابل الموسيقى؟ فقلت: هي الصلاة، فالصلاة التي جاءت بالوحي هي التي تحفظ كيان الأمة وتهذب أخلاقها. والبرهان على ذلك أن الصلاة عاشت بها أمم وأمم وفتحوا بلاداً وبلاداً وعمروا أرض الله. أما تعاليم أفلاطون فلم نجد لها أمماً دامت عشرات السنين. فقال: حسن هذا كله. فأريد الآن أن تفيض القول فيما جاء في السنة (١) من حيث بساطة الطعام والشراب. (٢) ومن حيث التمرينات العضلية.

فقلت: جاء في كتاب «رياض الصالحين» تحت عنوان «باب فضل الجوع» ما نصه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما أشبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض» متفق عليه. وفي رواية: «ما أشبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض».

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: «والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار. قلت: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار وكانت لهم منايح، وكانوا يرسلون إلى رسول صلى الله عليه وسلم من ألبانها فيسقينا» متفق عليه.

وعن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية فدعوه فأبى أن يأكل، وقال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير. رواه البخاري. مصلية ـ بفتح الميم ـ أي: مشوية.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «لم يأكل النبي صلى الله عليه وسلم على خوان حتى مات وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات» رواه البخاري. وفي رواية له: «ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط».

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: «لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه» رواه مسلم. الدقل: تمر رديء.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: «ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم النقي من حيث ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله تعالى، فقيل له: هل كان لكم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مناخل؟ قال: ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منخلاً من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله تعالى، فقيل له: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: كنا نطحنه وننفخه فيطير ما طار وما بقي ثريناه» رواه البخاري. وقوله: النقيّ ـ بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء ـ وهو الخبز الحواري، وهو الدرمك. وقوله: ثريناه ـ هو بثاء مثلثة ثم راء مشددة ثم ياء مثناة من تحت ثم نون ـ أي: بللناه وعجناه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما، فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا، وأخذ المدية، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إياك والحلوب، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما : والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم . رواه مسلم . قولها : يستعذب الماء ، أي : يطلب الماء العذب وهو الطيب ، والعذق - بكسر العين وإسكان الذال المعجمة - وهو الكباسة وهي الغصن . والمدية - بضم الميم وكسرها - هي السكين . والحلوب : ذات اللبن ، والسؤال عن هذا النعيم : سؤال تعديد النعم لا سؤال توبيخ وتعذيب والله أعلم . هذا الأنصاري الذي أتوه هو أبو الهيثم ابن التيهان ، كذا جاء مبيناً في رواية الترمذي وغيره .

وعن خالد بن عمر العدوي قال : خطبنا عتبة بن غزوان وكان أميراً على البصرة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم ، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً لا يدرك لها قعراً ، والله لتملأن ، أفعجبتم ، ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً ، وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام ، ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام إلا ورق الشجر ، حتى قرحت أشداقنا ، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها ، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار ، وإني أعوذ بالله من أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً . رواه مسلم . قوله : آذنت هو بمد الألف ، أي : أعلمت . وقوله : بصرم - هو بضم الصاد - أي : بانقطاعها وفنائها . وقوله : وولت حذاء - هو بحاء مهملة مفتوحة ثم ذال معجمة مشددة ثم ألف ممدودة - أي : سريعة . والصبابة - بضم الصاد المهملة - وهو البقية اليسيرة . وقوله : يتصابها - هو بتشديد الباء قبل الهاء - أي : يجمعها . والكظيظ : الكثير الممتلئ . وقوله : قرحت - هو بفتح القاف وكسر الراء - أي : صارت فيها قروح .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساء وإزاراً غليظاً قالت : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين . متفق عليه .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : « إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله ، ولقد كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا إلا ورق الحبلة وهذا السمر ، حتى أن كان أحدنا ليضع كما تضع الشاة ما له خلط » متفق عليه . الحبلة - بضم الحاء المهملة وإسكان الباء الموحدة - وهي والسمر نوعان معروفان من شجر البادية .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » متفق عليه . قال أهل اللغة : والغريب معنى قوتاً أي ما يسد الرمق .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه ، فمر بي النبي صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رآني وعرف ما في وجهي وما في نفسي ، ثم قال : أبا هر . قلت : لبيك يا رسول الله . قال : الْحَقْ ، ومضى فاتبعته ، فدخل فاستأذن فأذن

لي، فدخلت فوجد لبناً في قدح، فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة. قال: أبا هر. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: الْحَقْ إلى أهل الصفة فادعهم لي. قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاؤوا أمرني فكنت أنا أعطيهم. فقلت: وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بد، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا واستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: أبا هر. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: خذ فأعطهم. قال: فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح، فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح، حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلي فتبسم، فقال: أبا هر. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: بقيت أنا وأنت. قلت: صدقت يا رسول الله. قال: اقعد فاشرب، فقعدت فشربت. فقال: اشرب، فشربت، فما زال يقول: اشرب، حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكاً. قال: فأرني، فأعطيته القدح فحمد الله تعالى وسمى وشرب الفضلة. رواه البخاري.

وعن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيتني وإني لأخرّ فيما بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حجرة عائشة رضي الله عنها مغشياً عليه، فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي ويرى أني مجنون ما بي إلا الجوع. رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير» متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «رهن النبي صلى الله عليه وسلم درعه بشعير، ومشيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بخبز شعير وإهالة سنخة، ولقد سمعته يقول: ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى وإنهم لتسعة أبيات» رواه البخاري. الإهالة ـ بكسر الهمزة ـ الشحم الذائب. والسنخة ـ بالنون والخاء المعجمة ـ وهي: المتغيرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته. رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم من أدم حشو ليف» رواه البخاري.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل من الأنصار فسلم عليه ثم أدبر الأنصاري، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أخا الأنصار كيف أخي سعد بن عبادة؟ فقال: صالح. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يعوده

منكم؟ فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص نمشي في تلك السباخ، حتى جئناه، فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين معه. رواه مسلم.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، قال عمران: فما أدري قال النبي صلى الله عليه وسلم مرتين أو ثلاثاً، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن» متفق عليه.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول. رواه الترمذي. وقال: حديث حسن صحيح.

وعن عبيد الله بن محصن الأنصاري الخطمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافاً في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن. سربه ـ بكسر السين المهملة ـ أي: نفسه وقيل قومه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافاً وقنعه الله بما آتاه». رواه مسلم.

وعن أبي محمد فضالة بن عبيد الأنصاري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع. رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير. رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة، وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين، فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف إليهم فقال: لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة. رواه الترمذي وقال: حديث صحيح. الخصاصة: الفاقة والجوع الشديد.

وعن أبي كريمة المقداد بن معديكرب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن. وقوله: أكلات، أي: لقم.

وعن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الأنصاري الحارثي رضي الله عنه قال: «ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً عنده الدنيا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تسمعون، ألا تسمعون، إن البذاذة من الإيمان يعني التقحل. رواه أبو داود. البذاذة ـ بالباء الموحدة والذال المعجمتين ـ

وهي رثاثة الهيئة وترك فاخر اللباس، وأما التقحل فبالقاف والحاء، قال أهل اللغة: المتقحل هو الرجل اليابس الجلد من خشونة العيش وترك الترفه.

وعن أبي عبد الله جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمّر علينا أبا عبيدة رضي الله عنه نتلقى عيراً لقريش وزوّدنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبا عبيدة يعطينا تمرة تمرة، فقيل: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصها كما يمص الصبي ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله، قال: وانطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر، فقال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا بل نحن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سمنا، ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقطع منه الفدر كالثور أو كقدر الثور، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشرة رجلاً فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا فمرّ من تحتها وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له، فقال: رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا، فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله. رواه مسلم. وقوله الجراب: وعاء من جلد معروف ـ وهو بكسر الجيم وفتحها والكسر أفصح. وقوله: نمصها، بفتح الميم. والخبط: ورق شجر معروف تأكله الإبل. والكثيب: التل من الرمل. والوقب ـ بفتح الواو وإسكان القاف وبعدها باء موحدة ـ وهو نقرة العين. والقلال: الجرار، والفدر ـ بكسر الفاء وفتح الدال ـ القطع، وقوله: رحل البعير ـ بتخفيف الحاء ـ أي: جعل عليه الرحل. الوشائق ـ بالشين المعجمة والقاف ـ اللحم الذي اقتطع ليقدد منه، والله أعلم.

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: كان كم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرصغ. رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن. الرصغ بالصاد والرسغ بالسين، هو المفصل بين الكف والساعد.

وعن جابر رضي الله عنه قال: «إنا كنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب كثيباً أهيل أو أهيم، فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ما في ذلك صبر، أفعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت تنضج فقلت: طعيم «كذا» لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب، قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي، فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار، فدخلت عليها فقلت: ويحك قد جاء النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرون والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. قال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل

يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر ويغرف حتى شبعوا وبقي منه، فقال: كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة» متفق عليه. وفي رواية قال جابر: «لما حفر الخندق رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم خمصاً، فانكفأت إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟فإني رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصاً شديداً، فأخرجت إلي جراباً فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن فذبحتها وطحنت ففرغت إلى فراغي «كذا» وقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: لا تفضحني برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه، فجئت فساررته فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعاً من شعير فتعال أنت ونفر معك، فصاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا أهل الخندق إن جابراً قد صنع سؤراً فحيهلاً بكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تنزلن برمتكما ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء، فجئت وجاء النبي صلى الله عليه وسلم يقدم الناس حتى جئت امرأتي، فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلت، فأخرجت عجيناً فبسق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: ادع خابزة فلتخبز معك واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها وهم ألف. فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي وإن عجيننا ليخبز كما هو». وقوله: عرضت كدية ــ بضم الكاف وإسكان الدال وبالياء المثناة تحت ــ وهي قطعة غليظة صلبة من الأرض لا يعمل فيها الفأس، والكثيب: أصله تل الرمل، والمراد هنا صارت تراباً ناعماً وهو معنى أهيل، والأثافي: الأحجار التي يكون عليها القدر، وتضاغطوا: تزاحموا، والمجاعة: الجوع، وهي بفتح الميم، والخمص ــ بفتح الخاء المعجمة والميم ــ الجوع، وانكفأت: انقلبت ورجعت، والبهيمة ــ بضم الباء ــ تصغير بهيمة، وهي العناق ــ بفتح العين، والداجن: هي التي ألفت البيت، والسؤر: الطعام الذي يدعى الناس إليه، وهو بالفارسية، وحيهلا، أي: تعالوا، وقولها: بك وبك، أي: خاصمته وسبته، لأنها اعتقدت أن الذي عندها لا يكفيهم، فاستحيت وخفي عليها ما أكرم الله سبحانه وتعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم من هذه المعجزة الظاهرة والآية الباهرة، بسق، أي: بصق، ويقال أيضاً: بزق، ثلاث لغات، وعمد ــ بفتح الميم ــ أي: قصد، واقدحي، أي: اغرفي، والمقدحة: المغرفة، وتغط، أي: لغليانها صوت. والله أعلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو طلحة لأم سليم: قد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً أعرف فيه الجوع فهل عندك من شيء؟ فقالت: نعم. فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخذت خماراً لها فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت ثوبي وردّتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهبت به فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرسلك أبو طلحة؟ فقلت: نعم. فقال ألطعام؟ فقلت: نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قوموا فانطلقوا، وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبا طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وليس عندنا ما يطعمهم. فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه حتى دخلا، فقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم: هلمي ما عندك يا أم سليم؟ فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففتّ وعصرت عليه أم سليم عكة فأدّمته، ثم قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقول، ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم فأكلوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة، حتى أكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون. متفق عليه. وفي رواية: «فما زال يدخل عشرة ويخرج عشرة حتى لم يبق منهم أحد إلا دخل فأكل حتى شبع، ثم هيأها فإذا هي مثلها حين أكلوا منها». وفي رواية: «فأكلوا عشرة عشرة حتى فعل ذلك بثمانين رجلاً، ثم أكل النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وأهل البيت وتركوا سؤراً». وفي رواية: «ثم أفضلوا ما بلغوا جيرانهم». وفي رواية عن أنس قال: جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فوجدته مع أصحابه وقد عصب بطنه بعصابة، فقلت لبعض أصحابه: لمَ عصب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطنه؟ فقالوا: من الجوع، فذهبت إلى أبي طلحة وهو زوج أم سليم بنت ملحان، فقلت: يا أبتاه قد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عصب بطنه بعصابة، فسألت بعض أصحابه فقالوا من الجوع، فدخل أبو طلحة على أمي فقال: هل من شيء؟ فقالت: نعم عندي كسر من خبز وتمرات فإن جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده أشبعناه، وإن جاء آخر معه قلّ عنهم. وذكر تمام الحديث. انتهى ما أردته من كتاب «رياض الصالحين» والحمد لله رب العالمين.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: لقد أصبحت موقناً أن دين الإسلام في المستقبل سيفهم فهماً غيره بالأمس، فقد ثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يجوع هو وأصحابه، وأن خبزه لا ينخل، وأن أهل بيته يمر عليهم الهلال والهلال والهلال فلا يوقدون ناراً، ومعنى هذا أنهم عاشوا عيشة الصحة، فإن العلم اليوم أثبت أن الخبز بدون النخالة والسنّ كله ضرر كما تقدم في هذا التفسير، فترك النخالة والسنّ اليوم جهالة تورث الأمراض والشقاء والذل، وأثبت أيضاً أن القوة لا تكون إلا فيما لم يطبخ، أما الطعام المطبوخ فإن قوته قد ذهب أكثرها.

إذن عدم طبخ الطعام صحة جيدة أثبته الطب الحديث. إذن النبوة المحمدية في واد والمسلمون في واد، فالمسلمون ينخلون الدقيق ويكثرون الطبخ، ويتفانى علماؤهم وصلحاؤهم وملوكهم في ألوان الطعام جهلاً منهم، فلا هم أطاعوا النبي صلى الله عليه وسلم ولا هم قرؤوا العلوم الطبية الحديثة المشروح مقصودها في هذا التفسير فيما تقدم.

ولقد نجد السيدة فاطمة رضي الله عنها كما في حديث البخاري تطلب منه صلى الله عليه وسلم أن يعطيها جارية من السبي لتساعدها في طحن الدقيق بالرحى، فأبى وأمرها بالعبادة علماً منه أن الطحن يعطي الجسم قوة، فقد جمعت إذن بين العفة وتمرين العضلات، فازدادت قوتها. وإذ ظهرت هذه الحقيقة ووضحت فأرجو أن تذكر ما وعدت به من «السبق والرمي».

فقلت: جاء في كتاب «تيسير الوصول لجامع الأصول» تحت العنوان الآتي ما نصه:

كتاب السبق والرمي
وفيه فصلان
الفصل الأول: في أحكامهما

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل» أخرجه أصحاب السنن. والمراد بالخف: الإبل، وبالحافر: الخيل، وبالنصل: السهم. والسبق بفتح الباء: الجعل، وبإسكانها: مصدر سبقت أسبق سبقاً. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضمر الخيل يسابق بها» أخرجه أبو داود. وعنه رضي الله عنه قال: «سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخيل وفضل القرح في الغاية» أخرجه أبو داود. وعنه رضي الله عنه قال: «أجرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ضمر من الخيل من الحفياء إلى ثنية الوداع وما لم يضمر ـ بتشديد الميم ـ من الثنية إلى مسجد بني زريق» أخرجه الستة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أدخل فرساً بين فرسين وهو لا يأمن أن يسبق فليس بقمار، ومن أدخل فرساً بين فرسين وقد أمن أن يسبق فهو قمار» أخرجه أبو داود. وعن أنس رضي الله عنه قال: كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة تسمى العضباء لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشقّ ذلك على المسلمين، فقال صلى الله عليه وسلم: «حق على الله أن لا يرتفع شيء في الدنيا إلا وضعه» أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي.

وعن فقيم اللخمي قال: قلت لعقبة بن عامر رضي الله عنهما تختلف بين هذين الغرضين وأنت شيخ كبير ويشق عليك، فقال: لولا كلام سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعانه سمعته يقول: «من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا، أو قد عصى» أخرجه مسلم. ومعاناة الشيء: مقاساته وملابسته.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه المحتسب في عمله الخير، والرامي به، والممد به». وفي رواية: «ومنبله فارموا واركبوا وأحب إلي أن ترموا من أن تركبوا، كل لهو باطل، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه ونبله، فإنهن من الحق، ومن ترك الرمي بعد ما علمه فإنها نعمة تركها، أو قال: كفرها» أخرجه أصحاب السنن، وهذا لفظ أبي داود، والمنبل: الذي يناول الرامي النبل ليرمي به وهو الممد به. وقوله: كفرها، أي: جحدها.

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم ينتضلون بالسوق، فقال: ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً. ارموا وأنا مع بني فلان، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال: ما لكم لا ترمون؟ فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال: ارموا وأنا معكم كلكم. أخرجه البخاري. اهـ.

فلما أتممت ذلك قال صاحبي: الآن حصحص الحق. لقد استبان الآن أن كثيراً من علوم الأمم مفصلات ومبينات ومشيرات لمعاني القرآن، وإلا فكتاب السبق والرمي يقرؤه المسلمون في جميع

أقطار الإسلام، ولا يعمل كثير منهم به، فوجب على طلاب العلم جميعاً وأكثر العامة أن يكون لهم ساعة في كل أسبوع ليتقنوا هذا الفن لأنه يعطي قوة بدنية وصناعة حربية وشجاعة. والمحافظة على الصلاة تؤلف بين القلوب لا سيما إذا كانت في جماعة، وهذا قوله صلى الله عليه وسلم «الصلاة وما ملكت أيمانكم» للإشارة إلى أن للصلاة أثراً فعالاً في المعاشرة، وهذا سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

إن سقراط يقول: الموسيقى تهذب الخلق، ولكن لها شروط، فإذا فقدت فسدت الأخلاق واحتاج الناس إلى القضاء. فأما الصلاة فإنها إذا زادها الإنسان فإنه يقرب من ربه، وقد دلت التجربة على أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر لنص الآية. وقد تقدم قول بنتام أن النظافة تحسن الأخلاق ولم يذكر الصلاة، وعد هذه النظافة من محاسن الدين الإسلامي، ونسي هو أن يذكر الصلاة لأنها ليست من دينه فهو يجهلها. وعليه يجب على الأمم الإسلامية:

(١) أن تذيع الصنائع اليدوية بين المتعلمين لأنها تقوي البدن والعقل.

(٢) وأن تذيع السبق والرمي.

(٣) وأن تعمم تعليم الجندية بقدر الإمكان.

(٤) وأن يكون القضاة من أفضل هؤلاء وأعلمهم.

(٥) وأن يكون الأمراء والملوك أعلى من الجميع أخلاقاً وعلماً وصحة واستقامة، فيكون علمهم أكمل وأجسامهم أصح وآراؤهم أعلى، فأما الاتكال على نسبتهم لآبائهم وحدها فإنه ضرر ومخالف للدين الإسلامي، فليكن الملوك والقضاة أصح أجساماً وأرقى عقولاً وعلوماً في جميع الأمم المحكومة بهم.

وإذا وجدنا أن النحل تربي خشرمها أي الملكة التي تحكمها وهكذا الأرضة، فلماذا لا نربي الملوك والقضاة تربية خاصة كما فعلت هذه الطوائف من الحشرات. ألم تر أن النحل تجعل عسلاً أبيض خاصاً بالملكة التي تربيها فيكون جسمها أكمل وتمييزها أتم، وهكذا نجد ملكة الأرض أكبر حجماً وأقوى تمييزاً من جميع ممالكها كما تراها مرسومة فيما تقدم في سورة «سبأ»، فالله الذي ألهم بعض الحشرات أن تربي رؤساءها تربية خاصة هو نفسه الذي يقول في القرآن: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

فليعلم المسلمون ذلك وليعملوا به والله هو الولي الحميد. كتب الأربعاء بعد نصف الليل ٢٥ يونيو سنة ١٩٣٠ بشارع زين العابدين بقسم السيدة زينب بمصر المحروسة. تمت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ الخ

اعلم أن الناس بالنسبة للنعم على ثلاثة أقسام: عامة، وخاصة، وخاصة الخاصة. فأما العامة فإنهم يفرحون بظواهر النعم مثل روائحها العطرية ولذاتها المختلفات وزينتها والافتخار بكثرتها

وازدحام مخازنهم بها، وتحدث الناس بغناهم وإعظامهم في المجالس لكثرة أموالهم. وأما الخاصة فإنهم لا يقفون من النعم عند ظواهرها، وإنّما يغنيهم من الأغذية ما يفيدهم الصحة ويعطيهم العافية ويزدرون ما وراء ذلك من اللذات التي يفرح بها العامة، ولا يقفون في الموسيقى عند ظواهر نغماتها، ولا في الفلك عند ظواهر حساب الشهور والسنين الذي ينفعهم في نظام الحياة، بل يرتقون إلى ما فوق ذلك من التعجب من القوانين البديعة المحكمة التي تظهر في الأشعار والموسيقى ونغمات الطيور وعلم الفلك، وحساب الأوزان في علم الكيمياء مثل ما في تركيب الماء من الأكسوجين والأودروجين. فهذه كلها نسبها منظمة موسيقية، لأن نسبها كلها هندسية على وتيرة واحدة، فهنالك تصبح العلوم كلها عندهم علماً واحداً ونظاماً واحداً، ويحسون في نفوسهم بسعادة علمية. وأما خاصة الخاصة فهم يرتقون فوق هؤلاء درجة ولا يكتفون بهدايا الملك ونعمه وإحسانه والنظر في ملكه وسياسة دولته، بل يشعرون بقربهم منه ولطفه وعطفه عليهم ومؤانسته لهم وهنالك يجدون لذة فوق الطائفتين السابقتين، انظر هذا المقام مشروحاً في سورة «يس» عند آية: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾[يس: ٣٨] الخ. فهاهنا نقول: إذا كان سليمان عليه السلام طلب أن يعطيه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فلن يكون إلا من الطبقة الثالثة، بل هو في أعلى طبقات هذه الدرجة، وليس يريده لمجرد ظواهر الطيارة الطائرة في الريح على سبيل المعجزة، ولا لمجرد عظمة الملك وسطوته، ولا لمجرد حفظ مملكة بني إسرائيل وأمنها، بل هو يريد ما هو أعلى من ذلك، وهو أن يفرح بالمنعم من حيث هو منعم لا بالنعمة، فالنعمة وسيلة لا غاية. فإذا فرح العامة بالنعمة لأجل لذاتهم هم وحمدوا ربهم على ذلك؛ وإذا فرح الخاصة بالنعم من حيث إنها صادرة من الله تعالى وأنهم أهل لرعايته واختصاصه؛ فخاصة الخاصة إنّما يفرحون بالمنعم نفسه من حيث هو منعم. فالملك الذي طلبه سليمان عليه السلام الذي لا ينبغي لأحد من بعده هو المذكور في الآية وهي تسخير الريح وما بعده، وهذا الملك لم يشاركه فيه أحد. ألا ترى أن الريح لم تسخر لموسى ولا لعيسى ولا لنبينا صلى الله عليه وسلم، وإذا ظهرت الطيارات في الجو اليوم فلم تكن إلا بالصناعات العلمية والحذق والدربة والمران في تلك الصناعات، ولم تسخر الريح لأحد منا، وإنما التسخير هناك بلا صنعة صانع ولا حكمة حكيم، فهي هناك معجزة وهنا صناعة، كما أن الجهال يعرفون بعض المستقبل بطريق الرؤيا، ولكن الأنبياء يعرفون بعض المستقبل بالوحي، فهما وإن كانا من عالم واحد قد اختلفا، وأحدهما أقل من الآخر (٤٥) مرة، وليس يطلب سليمان الملك من حيث هو ملك كالعامة، بل طلبه من حيث إنه وسيلة للانتقال من النعمة إلى المنعم، وهنالك يصل إلى الغاية المطلوبة والنعمة المحبوبة، ويرتقي من الأدنى إلى الأعلى في لمح البصر أو هو أقرب، ويكون ظواهر الملك هنا أشبه بالنغمات اللواتي ترجع بالنفس إلى عالم الجمال والكمال وبظواهر الجمال المذكرات بالمبدع الحكيم.

أما نبينا صلى الله عليه وسلم فإنه أعطي الكوثر وهي النعم الكثيرة، وأعطي المقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، فالجهتان منفكتان، فسليمان طلب نعمة الملك الدنيوي ليكون القرب من هذه الناحية، فأما موسى فبالكلام، وأما عيسى فبالروحانية العامة، وأما محمد صلى الله عليه وسلم فبأمور كثيرة من مقام الحمد والكوثر وهكذا. انتهت اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

عزَّ الله تعالى وتنزّه أن يطلع على جماله وبهاء كماله وحسن إتقانه وعجيب نظامه إلا أولو الألباب، أما أكثر الناس فإن لهم في بدوهم وحضرهم ومدنهم وقراهم وجهلهم وشهواتهم في مأكلهم وملبسهم وافتخارهم بجاههم ومالهم وأحسابهم وأنسابهم، وفي أضغانهم وأحقادهم على أعدائهم وتنافسهم وتكاثرهم لشغلاً شاغلاً وغمرات هم فيها ساهون.

قديماً غوى إبليس آدم، وحديثاً غوى ذرّيته، والتاريخان متطابقان، ألا ترى رعاك الله أن بني آدم فوق الأرض قد مثلوا نفس القصص الذي ذكره الله في آدم، آدم أغواه إبليس فأكل من الشجرة فبدت له هو وزوجته سوءاتهما فواريا عوراتهما بورق الشجر وأخرجا من الجنة، وأصبح الأبناء أعداء وأخذوا يسعون للرزق ليلاً ونهاراً.

هذه قصة آدم، فانظر في قصص بنيه، ولا ينبئك عنها إلا الجغرافية الأرضية عند تفصيلها، فهناك قوم في خط الاستواء عثر عليهم السائحون قريباً لا يجعلون بينهم وبين ضوء الشمس ستراً، فهم يعيشون عراة ويموتون عراة كما أثبته الرحالة «ستانلي»، وتمر على القوم عشرات السنين فلا يسمع الناس عنهم بفاحشة ولا خنا ولا زنا وهم من هذه المفاسد آمنون. ثم انظر بعد ذلك إلى ما تقدم في آخر سورة «يس» في آية: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾[يس: ٨٠]، وكيف رأيت ذلك الشكل المرسوم فيه صورة الرجل الذي تحلى بملابس في بعض جزائر المحيط وكلها من ورق الموز. أليس أولئك العراة يقابلون آدم قبل الأكل من الشجرة، وذلك الرجل الذي لبس ورق الشجر الذي رأيته يمثله وزوجته بعد أن ارتكبا الخطيئة. وسوس الشيطان لحواء وهي ساعدته على إغواء آدم، فنبذا عيش البساطة والسهولة وأخذا يتفننان في طرق الحياة ويزاولان حياة جديدة ما كان أغناهما عنها لولا القدر المقدور. ونفس الشيطان وسوس لأبناء آدم كذلك، فأخذ يدخل بين رجال القبائل ونسائهم ويصطاد العقول في أقاصي السودان وجزائر المحيط، ويقول لأولئك العراة الذين يجهلون الخنا والزنا ويعيشون في بحبوحة الهناء والرخاء يقتاتون من الفاكهة ويشربون من سلسبيل العيون ولا يصيبهم في حياتهم نصب ولا يحل بساحتهم طبيب ولا جراح أريب، إذ لا مرض يزورهم ولا بؤس يصيبهم، وهم في جنة الأرض التي هم بها آمنون. فلا تزال الوساوس تتغلغل في قلوبهم والهواجس تتابع في أفئدتهم حتى يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير. وهل الأدنى إلا التباعد عن الحياة الطبيعية رويداً رويداً، والتهافت على ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها وقطنها وتيلها وحرير دودها، من كل ما لا ينبت إلا بشق الأنفس، ولا يحصل إلا بكد الرجل وجدّ المرأة ومزاولة الطبخ والحرث والسقي والحصد والخزن ومقاومة الأعداء، ودفع ضرائب الحكومات، والغزل والنسيج والخياطة والغسل والتنظيف وإظهار الزينة والتغالي في إبداء المحاسن، والتبجح بأنواع الصبغ والتلوين والتطريز، وما أشبه ذلك من كل ما استغنى عنه الفريق الأول الذين هم في جنات الحياة يسعدون، إذن تاريخ الإنسان الحاضر في كرتنا الأرضية اليوم أعاد لنا تاريخ آدم المذكور في القرآن.

يا سبحان الله ! لماذا يكرر الله لنا قصة آدم في بضع مواضع في القرآن؟ ولماذا يعيدها تكراراً مع قصة إبليس؟ أما الجهلاء وصغار العلماء في كرتنا الأرضية فهؤلاء يقرؤون ولا هم يذكرون، فأما الحكماء وأما أولو الألباب فهم الذين يذكرون ويقولون: لقد تكررت قصة آدم وإغواء إبليس له تذكيراً لنا نحن، فلم يكن الله بالقرآن ليعلم آدم ولا بنيه ولا حواء زوجه، وإنّما يريد أن يعطينا النموذج الذي ظهر لنا باتساع العلوم في زماننا، فآدم لم نره ولكننا رأينا آثار القصة فينا، ففينا العراة الأطهار كآدم في أول مرة، وفينا الذين خصفوا ورق الشجر على أجسامهم، وفينا فئة ثالثة نسيت فواكه الجنة الأرضية مأكلاً وأوراقها ملبساً، وأخذت تجدّ في استنبات الأرض لتسدّ الحاجة في مطعمها وملبسها، فنظر الله للناس نظر الأب الشفيق لطفله الصغير ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل: ٦٠]، إذ يلح في الطلب فيجاب لما طلب، فأكثر لهم المآكل والملابس، وعلى مقدار تفننهم أعطاهم ما سألوا وذلك رحمة منه لأنه يعطي بقدر ويمنع بقدر، وهؤلاء هذه مرتبتهم من الوجود وهذا استعدادهم في الحياة.

هذه هي قصة الإنسان الموافقة لقصة آدم. فهذه قصة جغرافية وافقت القصة التاريخية الأثرية. والعلم إن لم يثمر العمل ضائع. والكلام إذا لم يفد سامعه فوائد فلماذا يقوله. ومن أجلّ مقاصد هذا التاريخ الذي استوى فيه آدم وبنوه أن نفكر نحن معاشر المسلمين في زماننا ونقول: التاريخ للعبرة أما مجرد القراءة أو التعبد فإنهما مبدآن لا نهايتان، وهذا التاريخ يعلمنا أن هذا الإنسان كله استعبدته الشهوات وأفسدته البيئات، وأخذ في طعامه وشرابه ولباسه يخبط خبط عشواء، ويمشي على غير الصراط السوي، حتى أصبحت أنواع المخدرات وأصناف الملابس الصناعية يستعملها المستعمرون شبكة يصطادون بها الضعفاء من الأمم ويسترقون الغافلين، إذن هذه الشهوات الطارئة اتخذها الإنسان وسائل لإذلال أخيه بالتجارة كما اتخذها الشيطان قديماً وسيلة لاستدراجه فأخرجه من الجنان. إذن لا ثقة بما عليه حال هذا الإنسان الآن في جميع ضروب الحياة. وليس إسباغ النعم وتراكم الخيرات واللذات بدليل على أن هذه سعادات الإنسان. فإذا حرمنا من نعمة الحياة الأولى التي خلت من ذل الكدّ والكدح ومن ذل الفواحش التي فيها عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولا سبيل للرجوع إليها، فعلينا أن نبحث ضروب هذه الحياة من جديد. ولكن ليس معنى ذلك أننا نترك الأمم حولنا وشأنها. كلا. بل علينا أن ننظر ماذا قال العلماء في عصرنا في هذا الموضوع، ولأي حدٍّ وصلوا. فإذا عرفنا آراءهم وجب علينا أن ندقق في أبحاثهم وننظر في آرائهم ونمتحنها ونساعد في رقيّ نوع الإنسان لأن الناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم.

والذي وصل إلينا الآن من آراء الأمم في هذا الموضوع أي موضوع المآكل والملابس شذرات تصلح للبحث فيها والنظر والتأمل، وتلك الشذرات ترجع إلى مسألة الفيتامين، أي مادة الحياة التي لم يعرفها الناس إلا في قرننا هذا وهو القرن العشرون. يقولون: إن ضوء الشمس هو القوة التي نستمد منها الحياة. فالحبّ والفاكهة تعطينا قوة وهي التي اكتسبتها من نور الشمس، والطعام المطبوخ والمحفوظ في العلب وما أشبه ذلك كله قد ماتت منه تلك القوة فليس مفيداً لنا. ونظرية النوع الإنساني في حرارة النار التي يخبز بها الخبز ويطبخ بها الطعام نظرية خاطئة كاذبة. ولا معنى لطبخ الطعام بالنار

إلا إماتة الحياة منه. ولا معنى لجعله في العلب أمداً طويلاً إلا أنه يفقد خواصه وتزهق منه روح الحياة، وهذه الملابس الحريرية والقطنية والكتانية ما هي إلا موانع من سعادة الحياة وسدّ حصين وسور يفصل ما بين أجسامنا وحرارة الشمس التي بها الحياة، وإذا كنا نحتال على الحياة بتعاطي الحبوب والفواكه التي خزنت فيها أضواء الشمس فندخلها في أجسامنا لتعطينا قوة الحياة الشمسية المخزونة فيها؛ فأولى ثم أولى أن نلاقيها بأجسامنا مباشرة فنلامسها كما تلامس كل نبات وكل حيوان، فتدخل في منافذه وتتصل بعروقه وتساعد دورته الدموية فتعطيه النشاط.

اعتراض على المؤلف وجوابه

بينما أنا أكتب هذا إذ حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير، فقال: ما أجمل قولك وما أبينه وما أحسن هذا الاستنتاج، ولكن هناك أمر جدير بالذكر، وهو أنك بهذا خالفت أصول الدين ونبذت سلوك سبيل المؤمنين، أتريد أن الناس يصلون وهم عراة؟ أم تريد أن يتجرد الرجال والنساء من الملابس، ومن حلل هذا فقد كفر والعياذ بالله تعالى، أنت لست كسقراط إذ يحدّث تلاميذه ولا دين له. كلا. إنك الآن في تفسير القرآن فلتكن المباحث غير خارجة عن الشرائع الإسلامية. فقلت: أيها الأخ، هل رأيتني لوّحت أو صرّحت بما تقول؟ فقال: كلا. ولكنك عممت القول، وهذا ربما يأخذه جاهل أو حاسد فيؤوّله إلى ما ذكرته. فقلت: أذكرك بأني قلت في أول هذا المقال أننا نريد أن نقرأ مباحث الأمم ثم نبحث فيها لا أنني أتممت البحث، وهل الإنسان يستغرق في الطعام طول نهاره؟ قال: كلا. بل يكون وقتاً دون وقت. قلت: فليكن هكذا استضاءة أكثر الجسم بضوء الشمس وقتاً دون وقت مع مراعاة الشرع، أنا أذكرك بقصة آدم في سورة «الأعراف» ألم تر أن فيها خصف الورق على جسمه وجسم زوجه ليواريا سوءاتهما؟ قال: بلى. قلت: ألم أقل لك إن الحال الأولى لا سبيل للرجوع إليها. قال: بلى. قلت: أنت ذكرت ذلك في أول هذا المقال، تريد بذلك أن هنا أحوالاً جديدة يجب البحث فيها. قلت: ألم يقل الله في هذه الحال الجديدة: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾[الأعراف: ٣١]، فأباح لنا كل ما أعطانا، ولكنه أعلمنا بأنه لا يحب المسرفين منا، وقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾[الأعراف: ٢٦]، فجعل المدار على التقوى ورفعة النفس، فأما اللباس الظاهري فالشرع يراعي فيه الأحوال الطارئة على الإنسانية، إذ ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾[البقرة: ٢٨٦]، وليس في سعة الناس التخلي عن عاداتهم في الملابس، فالأنبياء لا يكلفون الناس ما لا يطيقون، فيقولون كونوا عراة كأبيكم آدم، بل ينظمون بأمر الله أحوالهم التي هم عليها، والنظام هو الاعتدال وعدم الإسراف، ولكنه ذكرنا فقال: الستر الظاهري ليس أجلّ مقصود، بل المقصود الأهمّ لباس التقوى، فأحسنوا الظواهر فعسى أن تصلح البواطن. إذن هو أباح لنا كل طعام ولباس على شرط عدم الإسراف. فقال: وهل للإسراف من قواعد؟ فقلت: قد قدمت بعض تلك القواعد في سورة «الأعراف». فقال: إنك لم تذكر هناك مسألة الفيتامين، بل إنك لم تكن تعلم عنها شيئاً، فالمقام يحتاج إلى إيضاح. فقلت: اقرأ ما تقدم في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وكيف

كان آل محمد صلى الله عليه وسلم لا يوقد في بيتهم نار الهلال والهلال والهلال، وكيف كانوا لا ينخلون الدقيق. أليس هذا يكفيك فتعرف أن النبوة قد أوضحت ما أجمله القرآن من نبذ الإسراف. فقال: ولكن إذا ظهر أن آثار النبوة المحمدية قد ظهرت في زماننا وأن الأطباء أخذوا يرجعون النوع الإنساني عن عاداته الرديئة ويقربونهم من الأخلاق النبوية فجدير بك أن تسمعني مقالاً في الإصلاح الحديث وإن لم يكن تاماً، حتى إذا وافق الأخلاق النبوية والسيرة المحمدية ورأينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وافقه العلم الحديث في الطعام فهنالك يكون أمر عظيم. أولاً: إنه معجزة جديدة لم تظهر إلا في قرننا هذا. ثانياً: إن المسلمين يرجعون للسيرة النبوية ويعرفون ما صحّ وما لم يصح في طعامه وشرابه، ثم يدرسون العلوم الحديثة في الطعام، ثم هم أنفسهم بلا مرية سيغيرون طرق مآكلهم متى عرفوا الحقيقة. فقلت: لقد قدمت في هذا المقام كلاماً في سورة «البقرة» عند آية: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾[البقرة: ٦١]، وفي سورة «الأعراف» عند آية الإسراف، وفي سورة «الحجر» في النصف الأول منها عند الإشارة إلى قصة آدم، وفي سورة «طه» عند قصة آدم في آخرها، وفي سورة «الشعراء» عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الشعراء: ٨٠]، وهناك مواضع أخر. فقال: ولكن لا أزال أقول إن العلم في زماننا سريع الترقي، فاذكر لي آخر ما وقفت عليه في أمر الطعام.

فقلت: سأسمعك مقالين: الأول: هو ما جاء في كتاب «دستور التغذية» لصديقنا الأستاذ محمد فريد وجدي. فسأذكر هنا لباب ما ترجم من آراء الدكاترة الأربعة وهم: هيج الإنكليزي، وكتناني التلياني، وسوبرسكي الفرنسي، وكوهن الألماني. هؤلاء وغيرهم الذين يريدون من الإنسان الرجوع إلى حال الفطرة في الطعام كآدم قبل الأكل من الشجرة، وهذا من أسرار القرآن التي لم تظهر إلا في هذا الزمان، ثم أقفي على آثار ذلك بضرب مثل لآراء هؤلاء العلماء بنهر النيل والمزارع المصرية مع الجسد وما فيه من الدم الخ، فيكون ذلك فصلين، وأتبعهما بفصل ثالث في ست فوائد طبية عن علماء عصرنا.

الفصل الأول: فيما ترجمه المؤلف من آراء أولئك الدكاترة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن الإنسان بتطوراته المتتالية في المدنية، وذهابه في الإبداع الصناعي كل مذهب، وبما استتبع ذلك من إخلاده إلى معيشة الترف، وإغراقه في تطلّب الملاذ البدنية، قد أخرج مسألة التغذي عن حقيقتها، فبعد أن كان يأكل طلباً لإقامة حياته وحماية جثمانه من العطب أصبح يفعله طلباً للذة المعجلة، حتى دفعته هذه العاطفة إلى تناول الأغذية الضارة المبيدة لجثمانه، وهو يعلم ذلك ويشعر به، إلا أنه قد شعر بأن خروجه هذا على القوانين الطبيعية كان له أسوأ تأثير على جسده وعقله معاً، وأن هذا المتاع الحيواني سريع الزوال، ثم يعقبه دور من الآلام والأعراض يطول أمده عليه، ولا يزال به حتى يصرعه على أبشع الأحوال بعد أن يحرمه من جميع الطيبات الجسدية والعقلية.

عني العلم منذ عهده الأول بسنّ سنن مقررة للتغذي، وما زال العلماء والفلاسفة يجعلون هذا الموضوع من أهم مباحثهم حتى يومنا هذا، بل استحال أمره في العهد الأخير إلى اعتباره أولى بالعناية من الوجهة الصحية والعلاجية من كل المسائل التي لها علاقة بالحياة الجسدية، لما ثبت أن الغذاء هو العامل الأكبر في الصحة والمرض، وفي طول الحياة وقصرها، حتى قال العلامة البكتريولوجي « متشنيكوف » مدير معهد باستور بباريس: إن الإنسان خلق ليعيش ثلاثمائة سنة، وإنّما هو يقتل نفسه بسوء سيرته في تغذّيه. وأقر بهذه الحقيقة جمهور الباحثين والمنقبين، وجاءت العلوم الكيماوية فأيدت أقوالهم بالتحليلات، إذ بينت ما يحويه كل نوع من أنواع الأغذية من المواد المختلفة وما يحتاج إليه الجسد كل يوم من كل منها، وحدثت بجانب هذه الفتوحات الكيماوية فتوحات أخرى طبية أثبتت بالتحليل أن أدواء القلب والسرطان والروماتيزم والبول السكري والزلالي وتصلب الشرايين والشلل والإمساك المستعصي إلى ما إليها مما يطول عده كلها متولدة من سوء التغذي، وعدم تخير صنوف الطعام، فأصبحت هذه المسألة والحالة هذه في عداد المسائل المحسوسة الممكن تجربتها تحليلاً وتركيباً، فهبّ الغيورون على الإنسان في أوروبا إلى وضع المؤلفات في هذا الصدد حتى صار لا يمكن إحصاء ما صدر منها في هذه الخمسين السنة الأخيرة.

مذهبا الطب

للطب اليوم مذهبان أحدهما يرى أن الجسم يحتاج أحياناً إلى العلاج بالمواد المختلفة مع استخدام التدابير الصحية، ويرى الآخر أن العلاج قد يفيد العضو المريض فيحوله من حال إلى حال، ولكنه في الوقت ذاته يوجب مرضاً على عضو آخر قد يكون فيه هلاك الشخص. فالطب في نظر هؤلاء يجب أن يقتصر على استخدام قوى الطبيعة من هواء طلق وغذاء جيد صحي خال من اللحم والمهيجات، وعمل جسدي معتدل واستحمام بالماء الفاتر أو البارد وغير ذلك من التدابير التي تعين الأعضاء المريضة على مكافحة المرض الذي حل بها. إن هؤلاء يقولون: إن العلاج لا يشفي المصاب، ولكن الذي يشفيه هي القوة الحيوية في جسمه، تلك القوة تظهر للحس بفعلها على الجراح. ألم تر أنه لو أصابك جرح أخذ بعد حين في الاندمال من نفسه فلا يزال سائراً في طريقه حتى يصح العضو المجروح ويصير كأن ليس به شيء، وتعود إليه جميع وظائفه ولم يبق للجرح عين ولا أثر. هذا الأثر المحسوس للاندمال والشفاء التدريجي هو أثر القوة الحيوية التي خلقها الله لتحفظ لنا وجودنا إلى حين.

فإذا أصاب أحد الأعضاء مرض لإهمالنا لقانون الصحة تولته القوة الحيوية بالعناية والعلاج كما تولت الجرح، فلا يجوز أن يكون لنا إذ ذاك من عمل إلا مساعدة فعل القوة الحيوية باتباع قوانين الصحة ومراعاة الحمية والعناية باستنشاق الهواء النقي وغير ذلك، فتعمل القوة الحيوية عملها في ذلك العضو ولا يمر غير قليل حتى يشفى المريض. أما لو أعطي علاجاً وهو في تلك الحالة ازدادت حالته سوءاً وتفاقم مرضه، فإن نجا منه فلا يكون ذلك إلا ببذل مجهود كبير من قواه الحيوية تهيئه لمرض مزمن. قالوا: وقد جاءت شهادات كبار الأطباء في ضرر العلاجات تؤيد ذلك.

قال الدكتور « غرانيشتاين » وهو من أقطاب الطب بألمانيا وقد نقله عنه الدكتور « بلز » في كتابه الطب الطبيعي : الضعف في درجاته وأشكاله التي لا تحصى ليس هو على وجه عام إلا نتيجة العلاج بالعقاقير سواء أكانت جيدة أم رديئة . العلاجات إن استعملت كما ينبغي تغلبت على المرض الأصلي ، ولكنها تترك دائماً في الجسم بقايا تظهر آجلاً أو عاجلاً وتكون نتائجها غير قابلة للشفاء . وعليه فللناس الحق في تسمية هذا النوع من الضعف بالضعف العلاجي . ثم قال : من عهد أجادت علينا الكيمياء بالمركبات المختلفة للزئبق والأنتمون وقشر الكنكينا « كذا » وحمض البروسيك والرصاص والزرنيخ والكبريت الخ ، ومن عهد السماح بتعاطيها بنوع من الجرأة المتناهية باعتبارها علاجات قوية التأثير ضد الآلام التي كانت مجهولة في العصور السابقة ، من ذلك العهد انتشر الضعف بحالة يؤسف لها وانتقل من الآباء إلى الأبناء . فالذي يلقي به القدر مرة واحدة تحت كلاكل هذا المرض يكون قد وقف حياته على التردد على الصيدليات .

وقال الدكتور « كيسر » كما نقله عنه الأستاذ « بلز » في كتابه المتقدم ذكره : إن الحكمة القديمة القائلة بأن الدواء قد يكون شراً من الداء ، والطبيب شراً من المرض ، هي صحيحة في كثير من الأحوال . إن عدداً كثيراً من الأمراض تشفى بقوة الطبيعة وحدها ، وأما في الأمراض كافة فالشيء الوحيد الذي يجب على الطبيب عمله ويستطيعه هو حصر وإبعاد المؤثرات القاتلة عن المريض ، وإبطال الحركة غير الطبيعية لبعض أجهزته وأعضائه . فإن فعل أكثر من هذا ليرضي المريض المحب للدواء ويحقق نظريته الوسواسية وشهوته النفسية فقد أضره كل الضرر . على هذه الطريقة كثيراً ما يولد الأطباء الأمراض الصناعية ، ويمكن القول بأنه في كثير من الأمراض التي يعالجها الأطباء عدد كبير من الأمراض المزمنة منها ما قد سببه الأطباء أنفسهم . وفي الحالة الحاضرة للطب العلمي يجب أن يجعل المريض بمعزل عن كل طبيب كما يعزل عن كل سم قتال . هذا ما يشهد به تاريخ الطب ، فإن كل نظرية طبية خاصة استدعت عدداً من الضحايا البشرية لم يتوصل إلى الفتك بمثلها أنكأ الأوبئة ولا أطول الحروب .

وقال الأستاذ « ستيفنس » أستاذ الكلية الطبية بنيويورك كما نقله عنه الأستاذ « بلز » : كلما تقدم سن الأطباء قل اعتقادهم في تأثير الأدوية وزادت ثقتهم في قوى الطبيعة . ثم قال : رغماً عن كل المخترعات الحديثة التي أحيطت بالتهليل فإن المرضى لا يزالون يشكون الأمراض كما كانت حالتهم قبل أربعين عاماً . ثم قال : إن سبب بطء تقدم الطب ناتج من أن الأطباء بدلاً من أن يدرسوا الطبيعة درسوا كتابات من تقدمهم .

وقال الدكتور « سميث » كما نقله عنه الأستاذ « بلز » : كل العلاجات التي تدخل في الدورة الدموية تسمم الدم بعين الطريقة التي تسممه بها السموم الجالبة للأمراض . الأدوية لا تشفي أي مرض كان ، بل الذي يشفيها هو الخاصة الطبيعية ليس إلا ، ثم قال : إن الديجيتال قد قتل ألوفاً من الناس ، وحمض البروسيك كان يستعمل بكثرة في أوروبا وأمريكا ضد السل الرئوي ، وقد عالجوا به ألوفاً من المرضى فلم يشف منهم واحداً ، بل إنه قتل مئات منهم . انتهى . وقد نقل الأستاذ « بلز » عن أكثر من ثمانين عالماً من علماء الطب الرسميين مثل هذه الأقوال التي تؤيدها المشاهدة ، فثبت من ذلك

كله أن أثر العقاقير في شفاء الأمراض أثر مهلك، وجدير بالإنسان إذا أصابه مرض أن يحتمي عن الأكل، وأن يعنى بأمر الصحة مستخدماً الوسائل التي ذكرها الأطباء الطبيعيون من الاستشفاء بالماء والهواء، ذلك خير من التعرض لأخطار العلاجات المختلفة. لم يجن العالم إلى اليوم من الطب من فائدة غير تخفيف الآلام بالمسكنات وكلها سام قتال، وقد كثرت الأطباء والصيدليات ولا تزال الأمراض والمرضى آخذين بالازدياد، وقد طرأت أمراض ما كان يعرفها آباؤنا ولا تعرفها للآن الأمم الخلوية التي لا تعرف طباً ولا علاجاً فما أثر الطب بعد ذلك؟ يظهر لنا أن علم الطب سيضمحل ويحل محله علم قانون الصحة، وسيزول كل ما يعزى للعلاجات من التأثيرات والخواص لظهور أثر الغلو فيها، ولن يبق إلا علم الجراحة، فهو العلم النافع الذي لا شك في نفعه. هذا ما يقوله أنصار الطب الطبيعي.

أساليب العلماء في معالجة الأمراض

ويقولون: أعجز الأطباء معالجة أقل الأمراض خطورة، فلم يتوصل طبيب إلى إزالة فقر الدم وضعف الأعصاب وغيرهما مما يعتري الناس من جراء أعمالهم بمحض خواص العقاقير، فأكثر الناس يشكون الضعف وفقر الدم، وقد صرفوا السنين في تعاطي العلاجات المقوية بدون فائدة. هذا بالنسبة للضعف وفقر الدم، أما بالنسبة لغيرهما من أمراض القلب والرئتين والمعدة والمخ فحدّث ولا حرج. وإن قلت إن واحداً ممن يصاب بهذه الأمراض لم ينل خيراً من العلاجات الطبية وانتهى أمره إلى اليأس لما كنت بعيداً عن الواقع. هذا العقم الظاهر من العلاجات دفع كثيراً من فضلاء الأطباء إلى تلمس وسائل جديدة لشفاء الأمراض، فأطالوا البحث وصرفوا العمر في التجارب، فاهتدوا لنتائج إن لم تكن هي الواقع بعينه فقد أدت خدماً جليلة. نذكر من هؤلاء العلماء الأطباء: هيج الإنجليزي وكنتاني الإيطالي وسوبرويسكي الفرنسي. وقد أحدث كل من هؤلاء حوادث من الشفاء عزت على الطب والأطباء وطارت شهرتها إلى أقاصي المعمور.

أسلوب الدكتور هيج في علاج الأمراض

يقول الدكتور هيج: إن أسباب الأمراض هي الحوامض السامة التي تنضاف إلى الدم من سوء التغذية، أكبرها خطراً حمض البوليك «أسيد أوريك» وحمض الأوكساليك والنطرون، وصرح بأن لا سبب للنوراستانيا ـ وهو مرض ضعف الأعصاب الذي ينتشر اليوم انتشاراً مريعاً بين جميع الطبقات ـ إلا حمض البوليك، وكذلك هو من الأسباب للإصابة بالنقطة والروماتيزم وألم الرأس والصرع والجنون وضعف القلب ووقوفه والربو والتهاب الشعب وسوء الهضم والبول السكري وأمراض القلب.

ليس هيج أول من عرف ضرر حمض البوليك، ولكنه أول من حدد دائرة نفوذه الضار من الوجهة المرضية. قال هيج ـ وهذا القول أساس مذهبه ـ: إن السميات التي تتخلف من المواد الغذائية تثبت في تفرعات الأوعية الدموية وتسد الأوعية الشعرية فتقل قوة سريان الدم ويشتد ضغطه على القلب ويكون سبباً لضعف عام للبنية ولاختلال جميع الأعضاء، فإذا أبطأت الدورة قلت تغذية

الأعضاء، ومتى اشتد الضغط على القلب يحدث له مرض ثم تنتشر سموم الأغذية بتوالي تواردها في سائر الأعضاء فتمرضها أيضاً. فيشكو صاحبها العوارض المختلفة ويعرض نفسه على الأطباء، فيشخصه كل منهم على ما تسمح له به نظرياته، فتارة ينصحونه بتعاطي المقويات، وأخرى بأخذ المنومات، ومرة يأمرونه بالسياحة وأخرى بالراحة، وحيناً يمزقون جلده بإبر الحقن، وهم في ذلك كله بعيدون عن حقيقة الداء، فلو علموا أنه ناشئ عن سموم الأغذية وعنوا بمعرفة مقادير السموم منها وأشاروا بحمية صحيحة لشفي المصاب، ولكنهم يعتمدون على العقاقير الطبية، فتنضم إلى كمية السموم وتزيد فعلها. يقول هيج: إن تراكم حمض البوليك في أوعية الدم يسبب انحرافاً في العقل واضطراباً في الحياة، وهي أخص أعراض النوراستانيا، فإذا سهل خروج حمض البوليك تغيرت حالة العقل حالاً كأنها حادثة سحرية، وتنقلب الحياة في نظر صاحبها سارة، حتى إن الإنسان ليحدث نفسه بإتيان الأعمال المستحيلة. وقال هيج: إن جميع الأمراض تزول بإزالة حمض البوليك، فاحذفوا هذا الحمض تعيشوا مائة سنة، ولا يوجد هذا الحمض غير الغذاء. بالتحليل وجد أن هذا الحمض يوجد في اللحم والفول والعدس والبازلة والفاصوليا واللوبياء الجافة والشاي والقهوة والكاكاو.

ثم قال: وعليه فيجب الاكتفاء بأكل النباتات وخصوصاً الإسفاناخ والخبازي والكرنب والقنبيط والفواكه واللبن والجبن والامتناع عن اللحم والفول والعدس والبازلة والفاصولياء واللوبياء الجافة. إذا سار المصاب بأي مرض على هذه الحمية مدة تحللت السموم وتسربت من الكليتين والجلد وغيرها وطهر الجسم منها وزايلته جميع الأعراض المرضية.

أسلوب الدكتور كانتاني

قاعدة الدكتور كانتاني غير قاعدة هيج وإن كانت النتيجة واحدة، فإنه قال بأن حمض البوليك هو سبب كل مرض في جسم الإنسان، ولكنه ليس هو العلة، بل العلة قلة الأكسوجين في الجسم لتحويله إلى بول ونزوله مع الفضلات. قال: والذي يوجب نقص مقدار الأكسوجين في جسمنا أنه يستهلك بإكثارنا من تناول الأغذية الأيدراتية الكربونية كـ « السكر والنشا » والدهنية. فإن لم يتناول الإنسان هذه الأغذية بقي الأوكسجين في دمه فحول حمض البوليك إلى بول فأتقى الجسم شره كلما تكوّن. وعلى ذلك فالدواء الوحيد لجميع الأمراض عند الدكتور كانتاني هو اتباع حمية، فلا يأكل الإنسان فيها الدهنيات ولا السكر والنشا، ويمتنع عن الخل والمخللات واللبن والجبن والأمراق والعجينيات والرز والبطاطس والحلوى والتوابل، ويكتفي بالبيض والنباتات الخضراء والفواكه مع الحركة في الهواء الطلق.

أسلوب الدكتور سوبرويسكي

يقول هذا الدكتور: إن سبب جميع الأمراض فساد تركيب الدم، وما فساده إلا كونه حامضاً غير محتو على قلويات، فصلاحيته أن يكون قلوياً حلواً، وعدم صلاحياته أن يكون حامضاً. والدليل على أن سبب الأمراض هو خلو الدم من القلويات؛ أنك لا تجد في الدم ولا في البول أملاحاً قلوية في جميع الأمراض الحمية، وهذا برهان على أن هذه الأملاح حرب لتلك الأمراض، فقد ثبت أنها تقتل

الميكروبات البدنية وتلاشي سمومها كما يقتلها السليماني، فالأفضل للمرضى أن يعطوا أغذية كثيرة القلويات، فإن المرض يزول مهما كان نوعه حتى تسلح الدم بالقلويات، فالفواكه والليمونادة تشفي أكثر مما تشفيه الخمور غالية الثمن، ولا يسقط مريض بضعف القلب إذا أعطي قلويات كافية، فإذا تكوّن سم في الدم انفرز حالاً بفعل تلك القلويات. ولما كانت الوظائف الحيوية تسرع الحميات فتستهلك القلويات فيجب إعطاء المريض أغذية قلوية. أما المرق فلاحتوائه على البوتاس يضعف القلب، والفواكه أولى منه بالعناية. الأمراض المزمنة تشفى بإعطاء الدم قلويات، ويذوب الرمل الصفراوي تحت تأثيره، ويشفى البول السكري والنقطة. وعدم وجود القلويات في الدم يوجد الهرم الباكر.

وقال الدكتور سوبرويسكي: كل تأكسد يبطئ التغذية والتصريف، فلا يصل للأعصاب غذاء كاف فيبطل نشاطها، فيعتري الإنسان مالا يحتسب من أمراضها، وكل الذين عاشوا كثيراً كانوا قنوعين جداً. فبالإفراط في الأكل تبقى فضلات كثيرة، وعلى قدرها يستهلك الجسم القلويات من الدم. لا يوجد للدم نقاءه وزيادة قلوياته إلا النباتات من الفواكه والأعشاب، وأفضلها ما كانت قلوياته أكثر. الأمراض كثيرة وسببها واحد وهو اختلال أعضاء التصريف، فمتى لم تختل فلا مرض، وتلك الأعضاء المصرفة هي الرئتان والكليتان والجلد والأمعاء، فإن مرضت إحداها وقع الجسم في المرض لا محالة. إن مرضت الرئتان يبقى في الدم كثير من حمض الكربون وهو سم، وإن تعبت الكليتان بقيت البولينا «الأورية» وحمض البوليك في الدم، وناهيك بهما من غولين للصحة، وإن انسدت مسام الجلد تبقى في الجلد السموم التي يجب أن تتصاعد منه بالتبخر الجلدي، وإن تعبت الأمعاء بقيت الفضلات في البدن. فالذين يقعون مرضى كانوا مرضى من قبل بأحد هذه الأعضاء فأهملوها. ثم أخذ الدكتور سوبرويسكي يفصل في قيمة الأغذية من الوجهة القلوية فقال: النباتات التي تحتوي على القلويات الشكوريا والراوند والإسفاناخ والكمثرى والأجاص والهندبال والخس والكرفس والجرجير والفجل، أما النباتات التي لها خاصية طرد حمض البوليك فهي الإسفاناخ والكرنب والقنبيط وكرنب بوكسل والبازلة الخضراء، لأن بها حوامض تعيق إفراز حمض البوليك «الأوريك».

هذه أساليب الدكاترة الثلاثة، فكلها ترمي إلى غرض واحد، وهو: العناية بأمر الغذاء وعدم إدخال الشيء إلى المعدة بغير حساب. فالطب كل الطب أن يعتدل الإنسان في غذائه وأن يكون نباتياً معتمداً في تقويم جسمه على النباتات والفواكه الناضجة، فإن أصابه مرض فعليه أن يعمد إلى الطرق الطبيعية من استنشاق الهواء النقي وتعهد الجلد بالنظافة والحمية التامة والله الشافي. هذا رأي رجال من أقطاب الطب العصري وهو رأينا أيضاً، ولكل إنسان بصيرة يتحرى بها الصواب، والله يهدينا إلى سواء الصراط. ولا بأس من تعزيز هذا البحث بإيراد رأي عالم ألماني كبير في أسباب الأمراض، فإليك:

العلامة «كوهن» الألماني يرى أن لجميع الأمراض سبباً واحداً وعلاجاً واحداً

نتقل مذهب العلامة «كوهن» الألماني المشهور عن الأستاذ «بلز» فقد نشره في المجلد الأول من كتابه الطب الطبيعي صحيفة ٩٣٣، فنقول: يرى كوهن أن الأمراض كلها لها سبب واحد وعلاج واحد، كذلك فهو يقول: إنه لا يوجد إلا مرض واحد يظهر بمظاهر مختلفة. والعلة الحقيقية لهذا

المرض هي اجتماع أجسام غريبة في جسم الإنسان ليس لها دخل في تركيبه وحفظه، فهي أجسام غريبة وإن شئت فقل جراثيم مرضية لم تستطع الأعضاء المفرزة ـ وهي الأمعاء والكليتين والجلد والرئتان ـ إفرازها. هذه الأجسام الغريبة يرى «كوهن» أنها تتسرب إلى أبداننا من تعاطينا أكثر مما نحتاج إليه من الأغذية، ومن تناولنا أغذية ضارة ومضادة للشروط الفزيولوجية للحياة الإنسانية، كاللحوم والتوابل والأشربة الكحولية المخدرة من النبيذ والبيرة والعرق والقهوة والشاي إلى غير ذلك، فهي من جهة ليس فيها قيمة غذائية، ومن جهة أخرى تحدث تهيجاً للجسم يعقبه الضعف لا محالة. ومن الأجسام الغريبة التي تسبب لنا الأمراض في رأي «كوهن» السموم الصيدلية التي تتناول باسم علاجات، والتبغ والسعوط «النشوق» وسم تلقيح الجدري الذي إذا دخل الجسد قل أن يخرج منه ويكون مصدر جراثيم مرضية له، ومما يوجد الأجسام الغريبة في البدن ما يحمله معه الهواء الفاسد والأبخرة المتصاعدة من الإصطبلات والغازات التي تستعمل للتطهير في البيوت، وما يتصاعد من عرق الغير والعثير الثائر في الطرق الخ، كل هذه تتسرب إلى أبداننا وتمكث فيها وتسبب لنا الأمراض المختلفة.

ثم إن مما يحدث المواد المرضية التعب، فإنه يهلك عدداً عظيماً من خلايانا، فتمكث في أبداننا بسوء نوع معيشتنا بدل أن تنصرف في الدم ومنه تخرج إلى الجو بواسطة الأعضاء المفرزة للسموم. هذه المواد الغريبة المرضية المختلفة من الأغذية يحاول الجسم بخضوعه للقانون الطبيعي الذي يدبر كل حياة أن يبعده عنه باعتبار أنه غير نافع له أو ضار به. ولكن أعضاءنا المفرزة لا تستطيع نظراً لكثرة المواد أن تفرزها كلها في آن واحد، فيتراكم ما يبقى منها في الجهة السفلى من البطن. ومن هنالك تتجه رويداً رويداً إلى الأطراف، وتلبث هناك تبعاً لناموس الثقل وتبعاً للوضع العام للجسم، إما ذات اليمين أو ذات الشمال أو أمام أو خلف. فتبقى هذه المواد غير محسوس بها، أو تصيب صاحبها قشعريرات واضطرابات لا يمكن التعبير عنها وقلق عام. وبالجملة تصيبه جميع الأعراض التي تسبق الأمراض الحادة أو الحمية، تلك المواد التي تتخلف في الجسم هي مواد عفنة أو متخمرة. والتخمر نوع من التعفن سببه التحلل الواقع في بعض المواد العضوية، فإذا حدث سبب داخلي أو خارجي أو برودة أو حرارة أو انفعال تحيا هذه المواد المرضية وتتخمر ثم تبحث لها عن مخرج، فتتحرك على موجب مواضعها، والمراكز الليمفاوية للجسم متجهة إلى أعلى الجسم وإلى الجلد أولاً. فإذا وجدت مانعاً يحول بينها وبين الخروج تحدث تمدداً في الجهة التي تحل فيها فتولد ورماً ظاهراً أو باطناً. وقد يحدث أن هذه المواد المرضية تسقط إلى الأطراف السفلى فتمكث في الساقين والقدمين. هذه المواد تندفع على الدوام للبعد عن مستودعاتها على قدر الإمكان والتسرب إلى الأعضاء البعيدة عنها كالرأس والعنق والأيدي والأرجل والأصابع وإبهام القدم، وهنالك تقف، لأنها لا تستطيع أن تخرج من مسام الجلد لعدم العناية بصحة الجلد، ولأن المعيشة ضد الطبيعة جعلت المسام الجسدية كأنها لم توجد أو قليلة الفائدة. وقد يكون الجلد على ما يرام من تأدية وظيفته، ولكن تدفق تلك المواد عليه فجأة لا يمكنه من تصريفها بمسامه دفعة واحدة. فإذا كان نشاط الجلد ضعيفاً أو معدوماً؛ والأمعاء والكليتان والرئتان لا تؤدي وظائفها على ما ينبغي كما هي الحالة العامة الآن؛ تسبب تلك المواد الغريبة في الأنسجة الجسمية

تغيرات مرضية تفسد الشكل الطبيعي للجسم رويداً رويداً، فتجمد الأنسجة وتتوتر العضلات بعد أن كانت لينة في اللمس، ويكون توترها ظاهراً محسوساً في أثناء تحركها. وفي أحوال أخرى يسبب وجود المواد الغريبة في الجسم تمدداً فيه. ويمكن التحقق من صحة هذه الأقوال. ويكفي أن نلاحظ أصحاب الأجساد السمينة الذين تمددت أبدانهم بتراكم المواد السمية الغريبة فيها، أو أن نتأمل في الأشخاص النحفاء الذين نجد أنسجتهم متوترة على درجات مختلفة. قلنا إن المواد الغريبة تميل على الدوام أن تتجه إلى الأطراف. والرقبة تكون كمضيق بين الجذع والرأس فتظهر تلك المواد الغريبة فيها متراكمة على الخصوص.

هذا سبب الأمراض فما هو الدواء؟ قال «كوهن»: لما كان سبب جميع الأمراض واحداً كما رأيت وهو تراكم المواد الغريبة في أجسادنا من جراء تعاطينا أغذية لا توافق تركيبنا وتعرضنا للتعب المفرط واستنشاق الغازات الضارة؛ فليس لها إلا دواء واحد، وهو ينحصر في الأمرين الآتيين اللذين نتيجتهما قطع الإمداد عن تلك المواد السمية وتسهيل خروجها.

(أولاً) الاقتصار في الغذاء على النباتات.

(ثانياً) استعمال الحمامات الجذعية والحمامات الجلوسية مع دلك ذلك الجسم بفوطة خشنة مبتلة والحمامات البخارية. الحمامات الجذعية هي أحواض يغمر الإنسان فيها جذع جسمه فقط أي من عنقه إلى فخذيه. والحمامات الجلوسية هي أحواض تغمر فيها المقعدة مع جزء من الظهر والبطن. والحمامات البخارية هي إحاطة الجسم بالأبخرة. جميع هذه الحمامات تباع في محل التجارة. انتهى. أقول:

ملخص هذا المقام

هذه هي الأساليب الثلاثة لهؤلاء الأطباء الثلاثة الأول، فالسبب عند «هيج الإنجليزي» هو أن يكون البول حمضياً بمواد لا تلائم الجسم، وهذه المواد تقف في فروع العروق فتسدها فيحصل الضغط على القلب وتكون أمراضاً مختلفة يعطي لها الأطباء أدوية مختلفة قتالة، والدواء عندهم: الاكتفاء بالنباتات والفواكه وترك اللحم وبعض الحبوب المذكورة كالفول الخ والشاي وما عطف عليه.

والدكتور «كانتاني» كلامه مثل كلام «هيج» ولكنه أشبه بمن يقول: يجب أن يكون في شوارع القاهرة زبالون لحمل الكناسات من البيوت. فالدكتور «هيج» أشبه بمن يقول: قذارة البيوت سببها بقاء الكناسة فيها. والدكتور «كانتاني» يقول: نعم.

قولك صحيح ولكني أقول: إن عدم الزبالين هو السبب، فلو وجد الزبال لرفع الكناسات من المنازل والذي يكون سبباً في إيجاد هذا الزبال لإزالة القمامات من المنازل هو النباتات الخضراء والفواكه والبيض مع ترك الخل والمخللات والجبن والعجينات والمرق والأرز والبطاطس والحلوى والتوابل. والدكتور «سوبرويسكي» يقول: إن هذه الزبالة تخللت رائحتها جميع طبقات المنزل. وذلك أن المادة الضارة إذا كانت في الماء فهي في الدم، والعلاج هو أكل النباتات.

إذن أكل النبات متفق عليه للشفاء من جميع الأمراض عند الثلاثة الأول ، وقد اختلفوا في اللبن وما تفرع منه وكذا البيض ، ونبذوا ما يتعاطاه الناس من التبغ ونحوه . و« كوهن » الألماني جعل السبب أعم وهي أجسام غريبة تتخلل البنية والمعنى واحد . فهو متحد مع من قبله إجمالاً والدواء واحد وهو الأغذية النباتية .

أيها الذكي ، خذ النتيجة التي ساقها الله لنا . كل النبات والفواكه ودع اللحم والقهوة والشاي والخمر والتبغ والسكر وما اشتق منه من الحلويات .

هذا ملخص ما تقدم . أما اللبن ففيه خلاف سببه أن البهيمة ربما كانت مريضة فينتقل المرض إلينا من لبنها . هذا ملخص هذا المقام . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني

في ضرب مثل لأجسامنا ودمها وغذائها وأمراضها بالأرض المصرية ونيلها و« الغرين » وهي المواد التي تجعل لونه قريباً من الحمرة وهي أهم أغذية النبات والسدود التي تمنع الماء أن يصل إلى بعض الأرض

اعلم أن كثيراً من الناس يقرؤون كلام الأطباء فيتحيرون ويصعب عليهم الفهم . فاعلم رعاك الله أن أجسامنا كالأرض ودماءنا كماء النيل ، و« الغرين » الذي فيه وهو المسمى بالطمي في بلادنا أشبه بالمواد الغذائية التي تجري مع الدم لبوصلها للأعضاء الباطنة والظاهرة ، النيل وفروعه كالعروق الصغيرة والكبيرة ، والتمثيل صحيح . وأعضاؤنا كالزروع والأشجار التي يسقيها ماء النيل . فلو أننا سددنا ماء النيل من أي مكان بسد ، أو سددنا أي فرع من فروع النيل ، فإن الماء يرجع إلى الوراء ، وهناك يحصل ضرران كبيران وهما : حرمان ما بعد هذا السد من السقي فيحصل تلف في الزرع من جهة قلة الماء ، وهلاك الزرع الذي قبل ذلك السد بطغيان الماء عليه . هكذا في الجسم إذا سد عرق كبيراً أو صغيراً بمواد لا توافق الصحة حصل إفراط فيما قبل هذا السد وتفريط فيما بعده ، فتحصل أمراض مختلفات في الجسم على حسب استعداده . وكما أننا إذا أردنا تلافي إهلاك زرعنا في حقولنا فتحنا تلك السدود سداً سداً . هكذا إذا أردنا الصحة أزلنا الحواجز التي في تلك العروق وفروعها . وما تلك الحواجز إلا المواد الغريبة .

هذا ملخص كلام هؤلاء الأطباء الأربعة . فإذا سمعت قول « هيج » الطبيب الإنجليزي أن حمض البوليك وحمض الأوكساليك والنطرون وغيرهما هي أسباب « النورستانيا » والنقطة والروماتيزم وألم الرأس الخ ، فما خرج عن أنه نظير قولنا إن ماء النيل إذا سد في أي بقعة اختل نظام النبات فهلك أكثره إما بقلة الماء وإما بكثرته والنبات مختلف ، وألمنا عليه يكون على مقدار نفعه ، هكذا هنا فإنها تحصل أمراض مختلفات يعبر عنها بعبارات مختلفة ، كما يقال في النبات قد هلك القمح والبرسيم والبطيخ وهكذا . ولكل واحدة من هذه النباتات منزلة عندنا نتألم لفقده بسببها ، وإذا سمعت قوله أيضاً : إن تراكم حمض البوليك في أوعية الدم يسبب انحرافاً في العقل واضطراباً في الحياة ، أو قوله : إن السميات التي تتخلف من المواد المغذية تثبت في تفرعات الأوعية الدموية وتسدّ الأوعية الشعرية فتقل

قوة سريان الدم ؛ فإنه كقولنا : إن وقوع الحجارة والطين في مساقي النيل يمنع الماء عما خلفها ويضر بكثرة الماء ما أمامها من الزروع .

وإذا سمعت « هيج » يقول : أزيلوا حمض البوليك تعيشوا مائة سنة ؛ فهو كقولنا : أزيلوا السدود من المساقي يشرب زرعكم ويدرّ ضرعكم وتعيشوا إلى حين» . وإذا سمعت « هيج » أيضاً يقول : دع الفول والعدس والبازلة والفاصوليا واللوبيا الجافة والشاي والقهوة والكاكاو ؛ فهو كقولنا : امنعوا الحشائش من مجرى الماء لنسقي الزرع في الأرض .

وإذا سمعت أن البلاد المصرية من قبل حكم المغفور له « محمد علي باشا » لم يكن بها مهندسون فكان الماء يجري بلا قانون ، فكثر الجفاف في وقت وكثر الماء في وقت آخر ، فاضمحلت مصر لقلة زرعها هكذا نقول في مزرعتنا ومساقيها وهي أجسامنا ، فنحن إذا أكلنا السكر والنشا والدهنيات والخل والمخللات ولبن البهائم المجهولة صحتها وجبنها والمرق والعجينيات والأرز والبطاطس والحلوى والتوابل من كل ما ذكره « كانتاني » الإيطالي ؛ أو أفرطنا في الأكل كما قال الدكتور « سوبرويسكي » الفرنسي ؛ أو تعاطينا اللحوم والتوابل والأشربة الكحولية المخدرة من النبيذ والبيرة والعرق والقهوة والشاي ؛ أو تداوينا بالسموم الصيدلية ؛ أو استعملنا السعوط « النشوق » ، أو أكثرنا الوقوف في الأماكن التي فسد هواؤها وتصاعدت أبخرتها مثل الإصطبلات أو كان فيها غازات للتطهير في البيوت ؛ أو جلسنا مع القوم الذين عرقهم له رائحة ؛ أو سرنا في الطريق ذات الغبار ؛ فهذه كلها تدخل أجسامنا وتضعفها كما قاله « كوهن » الألماني .

أقول : إذا فعلنا ذلك كله أو بعضه كما قاله هؤلاء الأطباء فإن أجسامنا تكون سعادتها وصحتها على حسب المصادفة ، كهيئة الأمة المصرية قبل أيام « محمد علي باشا » ، فقد كان سكانها نحو مليونين فقط لأنهم كانوا يعيشون بالمصادفات . فأما إذا أكلنا النباتات الخضراء والفواكه مع الحركة في الهواء الطلق كما قاله « كانتاني » المذكور وفصله الدكتور « سوبرويسكي » الفرنسي وقد ذكر بعضها وهي المحتوية على القلويات مثل الشكوريا والراوند والإسفاناخ والكمثرى والأجاص والهندبا والخس والكرفس والجرجير والفجل . فهذه وأمثالها هي القلويات ، وهناك نباتات أخرى تضارعها في فائدتها ولكن من طريق طرد ما يضر الجسم مثل حمض البوليك كالإسفاناخ أيضاً والكرنب والقنبيط وكرنب بروكسل والبازلة الخضراء التي بها حوامض تعيق إفراز حمض البوليك .

أقول : إذا سرنا على هذه الطريقة وأضفنا إليها ما يقوله الدكتور « كوهن » الألماني وقفينا ببعض تجاريه كالحمامات الجذعية والحمامات الجلوسية مع دلك الجسم بفوطة خشنة مبتلة والحمامات البخارية .

أقول : إذا اتبعنا هذا الصراط في حياتنا ـ لا سيما إذا قرأت أيها الذكي تمام الكلام على تلك الحمامات ونحوها وفوائد أخرى في سورة « الشعراء » عند آية : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : ٨٠] ، وآخر سورة « طه » عند قصة آدم ، فإنك تجد هناك تفصيلاً وشرحاً كافياً لتلك الحمامات وغيرها ، وهكذا نظائر أخرى في سورة « الحجر » عند الإشارة لقصة آدم في أولها ، وهكذا في سورة « الأعراف » عند آية : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وهكذا عند

آية: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[البقرة: ٦١]، ففي هذه المواضع كلها ملخص علم الصحة وشذرات جميلة في علم الطب ـ فإننا نكون في صحتنا أشبه بالمصريين من حيث نمو السكان في هذا القرن، إذ صلحت الترع والمجاري بعناية المهندسين وصار السكان (١٤) مليوناً بعد مليونين قديماً.

تذكرة

أيها الذكي، هاأنا ذا مثلت لك أجسامنا بالأراضي المصرية والنيل كالدم، والسدود فيه كالأحماض الضارة والأجسام الغريبة فيه، فأنت بين أمرين اثنين لا ثالث لهما: إما أنك تعيش كما يعيش أغلب نوع الإنسان الذين أشبهوا آدم حين أكل من الشجرة ولم يتعظوا بقصته ولم يعلموا مقاصد الكتب السماوية من إنزال هذه القصة وأمثالها في القرآن، فإذن كل كما يأكل الناس مقلداً لهم وإما أنك تنظر في هذه الحياة وتسلك سبيلاً آخر بحسب الطب الحديث على مقدار طاقتك، فهناك ترجع لحال آدم قبل الأكل من الشجرة. ويظهر لي أن النوع الإنساني مقبل على زمان أجمل وأبهج، فإذا سلكت هذه السبيل فاعلم أنها هي التي تؤخذ من قصة آدم. فالناس جميعاً آكلون ما يشتهون من هذه العوالم الأرضية وهم غافلون عما يضر وينفع. وهاهو زمان ظهور عجائب القرآن. فأنت إذا أكلت النباتات والفواكه وهكذا، فإن هذه النباتات نفسها تفتح سدود جسمك ولا تحتاج إلى ما يحتاج إليه النيل من المهندسين. وإذا أكلت الأطعمة الأخرى كاللحم أو المخلل أو السكر وكل ما اشتق منه فإنك تحتاج إلى مهندس يفتح سدودك، وهذا المهندس هو الطبيب يعطيك مركبات سمية وينزل عليك بالإبر فيملأ جسمك سماً زعافاً مع تقطيع الجلد ودخول الحقن السامة. الله هدانا النجدين فلنتبع أسهل النجدين، وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني وهو ضرب مثل بالنيل وفروعه للسم ودمه الخ.

الفصل الثالث

في نصائح عامة من كبار الأطباء وهي ست نصائح منقولة من ذلك الكتاب

النصيحة الأولى

أهم ما يجب أن يدقق فيه من يريد لنفسه دوام الصحة هو مسألة التغذي، فإن عليها مدار الحياة والخطأ في وجوهها الطبيعية يؤدي الإنسان إلى أشنع الأمراض المسببة لأشد الآلام. لذلك عنينا في هذا الكتاب بالإفاضة في هذا البحث، وسنفيض فيه ما وجدنا للإفاضة موضعاً. وقد اطلعنا على بحث جليل لأحد أطباء الإنجليز نشرته إحدى الجرائد نقلها عنها المقطم، فرأينا أن ننقله لقراء كتابنا هذا فإن فيه فوائد جليلة وقواعد قيمة:

قال «المقطم» في عدد ٨٣٨٩ الصادر في ١٩ أكتوبر سنة ١٩١٦ ما يأتي: وقد طالعنا مقالة لأحد أطباء أوروبا يتبين منها أن الذين اعتادوا أكل اللحم والبيض وما يدخل في حكمهما من الأطعمة يفرطون في الإكثار منها فيؤذون أنفسهم أذى كبيراً من حيث لا يدرون. وهذه المقالة مفعمة بالفوائد، فآثرنا اقتطاف أهم ما ورد فيها ونشره عملاً بما جرينا عليه من نشر المقالات المفيدة في حفظ الصحة. استهل الطبيب الكاتب مقالته بهذا السؤال، وهو: كم يحتاج الجسم البشري من البروتيين «الألبومن»

لكي يؤدي وظائفه حق الأداء؟ والبروتيين اسم جنس للأطعمة النتروجينية أو الألبومنية، وهو العنصر الجوهري في اللحم الهبر والبيض واللبن والأجزاء الألبومنية في بعض البقول. والموضوع من أهم مواضيع حفظ الصحة فإن الأمراض الناشئة عن الإفراط في أكل البروتيين كثيرة، والوفيات بها تزيد على الوفيات بسواها، فإن أمراض القلب والكليتين والكبد ناشئة عن سوء تمثيل البروتيين. فمعرفة ما يجب أكله من اللحم والبيض واللبن ونحوها من الأمور التي تعد أساساً لحفظ الصحة وإطالة العمر.

ثم إن أعظم الأطباء مجمعون على أن بعض الأمراض الأخرى العضالة كالسرطان ناشئة عن الخطأ في تعيين مقدار «البروتيين» في الطعام، وحسبنا هذا وذاك دليلاً على وجوب إفراغ العناية في هذا البحث. وأول من بحث في هذا الموضوع الدكتور «هندهيد» الدنمركي، فظهر له من أبحاثه أن (٢٥) غراماً من البروتيين في اليوم تكفي الشخص العادي وتحفظ صحته. وكان المظنون قبلاً أن المقدار اللازم يبلغ أربعة أضعاف هذا القدر. وقد قال هذا الطبيب: إن زيادة هذا المقدار في الطعام مضر بالجسم.

ولا يخفى أن أطعمة البروتيين كاللحم والبيض هي أغلى الأطعمة، وأن الفقراء والمتوسطين يتعبون كثيراً في تدبير أثمانها، ولكن متى ثبت لنا أن الناس يدفعون الأثمان الغالية لشراء الضرر والأذى وقصر العمر غلب علينا الضحك لولا أن المسألة من المبكيات. وقد دقق الدكتور «هندهيد» في تجاربه توصلاً إلى النتيجة التي استنتجها، فكان يختار رجال من الذين يعملون الأعمال اليدوية العنيفة ويكيل لهم الأطعمة ويزنها ويدقق في وزن مفرزات أجسامهم ويفحص قوتهم وأعضاءهم. ومن التجارب التي جربها أنه جاء برجلين اقتصر في إطعامهما عاماً كاملاً على البطاطس والمرجرين «الزبدة النباتية»، وكان يجنس الطعام يومياً بحيث يكون أقل ما يصيب الواحد منهما كل يوم ما لا يقل عن (٢٠) غراماً إلى (٢٥) غراماً من الألبومن بدلاً من (٨١) غراماً، وهو المقدار الذي عين من قبل بالتجارب العلمية. والمعلوم أن البروتيين قليل جداً في البطاطس. فاستخلاص المقدار المطلوب من الألبومن في البطاطس يقتضي ثلاثة أرطال منه، فكان الطبيب الدنمركي يطعم كلًّا من هذين الرجلين هذا المقدار من البطاطس مع ست أوراق (٥٤) درهماً من المرجرين ويمنعهما من أكل اللحم والبيض واللبن، فكانت صحتهما في آخر العام من أجود ما يكون، وحاضر أحدهما مع العدائين فقطع (٢٦٤) ميلاً في (٩٩) ساعة، أي في أقل من الوقت المفروض. وهذا بعض ما استنتجه الدكتور «هندهيد» من أبحاثه وتجاربه:

(١) إن الألبومن الموجود في الأطعمة النباتية يغني في الجسم عن الألبومن الموجود في الأطعمة الحيوانية كاللحم والبيض واللبن، وإن مقدار الألبومن الذي يحتاج الجسم إليه أقل من المقدار الذي كان يظن لازماً له.

(٢) إن الأطعمة التي يقل الألبومن فيها تزيد قوة الجسم على احتمال المشقة والتعب، فقد قال الطبيب المذكور: لا أعرف واحداً من الذين يكثرون من أكل اللحم أحرز قصب السبق في محاضرة طويلة.

(٣) إن عدد الوفيات بأمراض الكبد والكليتين والأمعاء يبلغ بين سكان المدن المترفين نحو أربعة أضعاف ما يبلغه الفلاحين الذين معظم طعامهم من الخبز والبطاطس والأدهان «الزيوت».

وقال: «إن العرب الذين يأكلون الخبز والتمر فيهم من صلابة العود وشدة الصبر على التعب ما يدهش الأوروبيين، وإن جراية الجنود السخ الهنود وهم من أشد جنود الدنيا عبارة عن كأسين من اللبن و٢٥ أوقية من الخبز وأوقيتين من الزبد وأربع أواق من الفاصوليا وخمس أواق ونصف أوقية من البطاطس وهم لا يأكلون اللحم إلا مرتين أو ثلاثة في الشهر. ونعم ما يفعلون. ويلخص استنتاج الدكتور «هندهيد» بقولنا: إن قيمة الألبومن النباتي أفضل من قيمة الألبومن الحيواني، ولكن يجب الاعتدال جداً في استعماله وبكميات معينة، وأنه يجدر بالناس أن يقلوا من أكل اللحم، وأن لا يكون أكله مع القلة مستمراً، بل أن يؤكل في فترات متباعدة.

قال الطبيب الدكتور: ولو كانت تجارب الدكتور «هندهيد» فريدة في بابها لما أعرناها هذا الاهتمام، فقد اتفق غير مرة للعلماء أن أخطؤوا في البحث مدفوعين بعامل الحماسة إلى استنتاج ما يتوقون إلى تأييده. وأعظم التجارب تدقيقاً قد لا يخلو من الخطأ فيؤدي إلى نتائج مغلوطة. ولكن التجارب المذكورة تطابق ما توصل إليه باحثون آخرون. فمن ذلك أن الأستاذ تشتندن تعمق في مثل هذا المبحث فاقتنع هو وأنصاره بأن تنقيص البروتيين في الطعام هو سبيل الصحة، وأن السواد الأعظم من الناس ينكب عن هذا السبيل عمداً. وقد جرب الأستاذ تشتندن هذه التجارب بنفسه وبجماعة من زملائه وتلاميذه وبينهم نفر من لاعبي الألعاب الرياضية، فألفى أن صحته تحسنت وقوته زادت بإنقاص ما يأكل ولا سيما من أطعمة البروتيين، ووافقه على ذلك آخرون، فكانوا يقوون وتجود صحتهم إذا نقصوا مقدار الطعام الذي يأكلونه.

ومما يبعث على الاستغراب في هذه التجارب أن نتائجها كانت متماثلة في لاعبي الألعاب الرياضية، وفي الذين يعيشون عيشة ساكنة هادئة، فإن قوتهم ازدادت بإنقاص ما يأكلونه من اللحم والبيض عما ألفوه قياساً على ما تطلبه قابليتهم. وقد تبين للأستاذ تشتندن أن هذه القابلية التي نحسبها طبيعية ونعتمد عليها في الدلالة على مقدار ما يجب أن نأكله ليست دليلاً مأموناً، بل هي نتيجة عادات سيئة في الأكل حادت بالإنسان عن جادة الصواب، فإن للقابلية إذا كانت طبيعية لا تسمح للمرء أن يأكل من الطعام إلا نصف القدر الذي يأكله الناس عادة أو ثلثه. إلى أن قال: ولكن الأمر المهم في مسألة الطعام هي عدم الإفراط في شيء منه، ولكن الخطر كل الخطر ناشئ عن الإفراط في أطعمة البروتيين أي اللحم والبيض واللبن. ويجب ملاحظة الفرق بين الآكلين، فالذي يعمل أعمال بدنية عنيفة يجب أن يعطى من الطعام أكثر مما يطعم من كان قليل الحركة أو كان شغله من الأشغال العقلية.

وختم الطبيب مقالته ببعض الوصايا العامة التي يجدر بالمرء مراعاتها في طعامه وهي: (١) الاعتدال في الأكل من جميع أنواع الطعام التي تقدّم على المائدة، ولا تأكل من طعام واحد مرتين. (٢) اترك المائدة وأنت شاعر بأنك تستطيع أن تأكل زيادة عما أكلت. (٣) زِن جسمك مرة بعد مرة وقابل بين أوزانه وعدّل طعامك بحسب ما ترى من نقص الوزن أو زيادته، فإن لم تهتم هذا الاهتمام القليل وتعن هذه العناية اليسيرة بجسمك فلا يحق لك أن تشكو إذا اعتلت صحتك، ولا ينتظر أن تكون من طويلي العمر. انتهت النصيحة الأولى.

النصيحة الثانية:ضرر الإفراط في الأكل

مترجمة من كتاب « صناعة إطالة الحياة » للعلامة الدكتور جاستون دورفيل

قال الدكتور دورفيل : الإفراط في الأكل جرح دام في جسم الإنسانية . وإني أستطيع أن أؤكد بأنه يقتل يومياً أكثر مما يقتله السل والسرطان مجتمعين ، وأنه غالباً سبب هذين الداءين . وقد قال المفكر الكبير تولوستوي وأصاب : إننا لنأكل ثلاثة أضعاف ما تتطلبه أجسامنا فنصاب بأمراض لا عدد لها تقطع الحياة قبل بلوغها أقصى حدها .

وقال الفيلسوف سنيك : الحياة ليست بقصيرة ولكننا نقصرها بأيدينا . وقد كان الدكتور المشهور « هيكيه » يمزح قائلاً لطهاة مرضاه الأغنياء : أنا مدين لكم بالشكر أيها الأحباب على ما تؤدونه من الخدم إلينا معشر الأطباء . وكان الفيلسوف سنيك المتقدم ذكره يقول : إنكم تشتكون من كثرة الأمراض فاطردوا طهاتكم . وقد ذكر الدكتور كارتون في كتابه « الثلاثة الأغذية المميتة » المصارعين الذين تراهم ممتلئين عضلاً ودماً من كثرة ما يعنون بالأكل . ثم قال : إن دولة قوة هؤلاء الأقوياء قصيرة الأمد ، وإن قوتهم المفرطة هذه ليست إلا كنار القش ، لأنهم كالفلتات الطبيعية أو النباتات المدفوعة للإفراط في النمو المعرضة لأن تحترق في يوم من الأيام بحرارة السماد الشديدة الذي هو سبب نموها غير الطبيعي .

قال الدكتور جاستون دورفيل بعد إيراد هذه الآراء : بعض المفرطين في الأكل ليسوا ممتلئين شحماً فمنهم من يكونون على العكس نحاف الأجسام ، ويستوي القسمان بالهلاك بسرعة ، وإن جهل كل منهما ما يؤديه إليه سم الأغذية من سوء المصير ، فترى الناس يحسدون الأولين « السمان » ويرحمون الأخيرين « النحاف » ، فيظنون أن بهم ضعفاً أو فقراً دموياً ، ويزيد الأطباء حالتهم سوءاً بإعطائهم المنبهات والمقويات ، فيا حسرة على هؤلاء الضعاف الذين يصف لهم الأطباء اللحوم النيئة المهلكة وزيت كبد الحوت الذي لا تستطيع أن تهضمه أشد الأمعاء ، فكم من الزمن يجب علينا أن نقضيه في الصياح ليعلم الناس أن الرجل الضعيف لا يفقد دمه كراته الحمراء إلا لأن سم الأغذية يبيدها ويبددها ، فإعطاؤه اللحم يزيد في تسممه الذي هو سبب هلاكه ويقربه من حفرة القبر ، من الناس من يفرط في الأكل ولا يصيبه أذى ، بل تظهر عليه علامات الصحة الكاملة ، فترى وجهه مورداً ومحياه متلألئاً ، فيعيش السنين الطوال لا يشتكي بأقل وجع ، ثم لا تلبث أن تسمع بأنه مات وهو في عنفوان القوة ، فتدهش لذلك ولا موجب للدهش فإن هذا الأكول لم يكن في جسده مراقب عتيد يعاقبه على كل إفراط وتفريط ، فتمادى في شأنه فتراكمت عليه السموم فقتلته ولا كرامة ، ولكن من المفرطين في الأكل من لا تزايلهم الأعراض المرضية فمن زكام إلى دمل إلى نزيف إلى مرض جلدي ، وما هذا كله إلا أدلة على أن جسمه يقاوم السموم فيصرفها كلما تراكمت فيه بهذه الأمراض المتوالية ، وهو عندي أفضل من الأول الذي يعيش صحيح الجسم محسوداً سنين معدودة ثم يصعق فجأة ، وترى الأطباء يرون الضعيف المفرط في الأكل مصاباً بدمل أو بمرض جلدي أو بنزيف أو بغير ذلك ، فلا يسألون عن كيفية معيشته ولا مقدار أكله ولا أنواع غذائه بل يسعون في مكافحة الأعراض المرضية فتزداد حالته سوءاً وربما هلك بين أيديهم . انتهت النصيحة الثانية .

النصيحة الثالثة : ضرر الأغذية المركزة

يقول الدكتور جاستون دورفيل : إذا كان الإفراط في الأكل من الأخطار الكبيرة فإن تناول الأغذية المركزة كالسكر واللحم بقصد التقوي أو تحسين التغذي أشد خطراً على الصحة ، نعم إن تلك الأغذية التي نعتبرها مقوية توجد لنا قوة فنحس بسعادة جسمية ، ولكنها سعادة مؤقتة إذ تنقلب إلى ضعف وانحطاط ، فهذه الأغذية التي يخيل للناس أنها مقوية هي كضربة سوط تنزل على الحصان المعيي فتجعله يجري قليلاً ثم ينحط انحطاطاً لا قيام له منه . فمن من الناس ضحايا هذا القرن الذي يقال إنه قرن النور؟ لم يتناول الأغذية المركزة من خلاصات اللحم ومستخرجات اللحم والبيتون والأنبذة والفوسفاتات والدقيق المشحون بالآزوتات والبرشامات المملوءة بالمهيجات والسكريات والشوكولاتات الخ مما لا يمكن استيعابه؟ قليل من علم الفسيولوجيا يفهمك نتيجة فعل الأغذية المركزة على خلايا أجسامنا . ذلك أن الأغذية التي نتعاطاها قسمان : قسم يعوض أنسجة أجسادنا وهي المواد الزلالية . وقسم أعد للاحتراق فباحتراقها بفعل الأكسوجين الذي في الدم تعطينا قوة تسري في عضلاتنا وأعصابنا وتحفظ حرارتنا .

للأغذية وظيفة ثالثة وهي تهييج الخلايا الجسمية . من هذا التهيج ينتج التبادل الذي يميز حياتنا . فإذا كان الغذاء الذي نتعاطاه ذائباً كان تهييجه لطيفاً بطيئاً مترقياً ، ولكن إذا كان الغذاء مركزاً كان تهييجه قوياً فجائياً . فلنفرض أن غذاءنا مكون من الخبز والبطاطس بمقادير مناسبة ومن النباتات الخضراء والفواكه ، فإن خلايانا بعد انهضام هذه الأغذية تأخذ منها الزلال بمقادير صغيرة ضرورية لتعويض مادتها الحيوية المستهلكة . وأما المواد الاحتراقية فتأتي بكمية مناسبة أيضاً وذائبة من البطاطس والخبز والفواكه فتتأثر خلايانا بتهييج لطيف أي فسيولوجي . ولكن إذا كان الغذاء مؤلفاً كما هي عادة معاصرينا من اللحوم والحلاوات المشبعة بالسكر والشوكولاتا والكحول مهما كان مقداره صغيراً اتجهت هذه المواد إلى خلايانا مجتمعة فأحدثت فيها اضطراباً غير فسيولوجي يتوهم أنه قوة بدنية ، ولكنه في الحقيقة ليس إلا خطوة نحو الصدمة النهائية .

قال الدكتور « باسكولت » في كتابه « التهاب المفاصل والإفراط في التغذي » ما يأتي : التهيج اللطيف للخلايا يحفظ الحياة بتسهيله تمثيل الأصول المغذية ، والتهيج القوي يختصر الحياة بحملها على الإسراع في عملها بحيث يعتريها التعب والانحلال قبل موعده الطبيعي .

وقال الدكتور « بول كارتون » في كتابه « الثلاثة الأغذية المميتة » ما نصه : حين تصل إلى خلايا الجسم أغذية شديدة التركز تتكبد تلك الخلايا هجوماً عنيفاً مميتاً مضاداً لحياتها الطبيعية ، وهذا التهيج المضاد للفزيولوجيا يقتضي رد فعل فجائياً شديداً يفرح به صاحبه في حينه ، ولكنه مع الإدمان ينقلب مضعفاً هدماً مولداً للمرض ، هذه المجهودات المفرطة التي يجب أن تعملها خلايانا لتتساوى مع شدة التهيج الغذائي تخيلها دائماً مظهراً كاملاً من مظاهر الحياة والصحة ، فكلما لغطت الآلة وارتعدت تحت تأثير الحرارة المفرطة افتخر صاحبها وارتاح ، وكلما صار الأولاد أكثر توردا وسمناً تحت تأثير اللحم والسكر ازداد أهلوهم سروراً بهم ، ومع ذلك فلا شيء أكثر خدعاً من هذه الظواهر الغشاشة ،

ولا شيء أكثر خطراً من هذه النتائج الجميلة التي يتحمسون لرؤيتهما غاية التحمس، لأن عقباها التي لا مناص منها الانحطاط والفساد والمرض والموت الباكر لجسم استنفذت جميع ذخائره الحيوية.

انتهت النصيحة الثالثة.

النصيحة الرابعة: ضرر السكر الصناعي وفوائد الطبيعي

يقول الدكتور جاستون دورفيل: السكر أحد الأغذية المهلكة لأجسادنا فالتناول منه كعادة معاصرينا من أربعة إلى ست قطع فوق الغذاء المفرط يكون بمثابة الحكم على الجسم بزيادة الحركة زيادة مرَضية مميتة، لقد كان آباؤنا منذ ثلاثة أجيال يجهلون السكر الصناعي وكانوا أبطأ منا انحطاطاً في قواهم، تقدم إلينا الآن الأغذية السكرية فنتناول منها بإفراط ونعطي منها لأولادنا، وقد شوهد أن كثيراً من أحوال الأرق لا سبب لها غير الإفراط في تعاطي السكر، وذلك سهل التفسير، فإن السكر أقوى الأغذية الاحتراقية يعطينا ميلاً شديداً للعمل فكيف يمكن النوم مع هذا الميل، ولقد عالجت حالات أرق مستعصٍ بمنع المصابين من تناول السكر مساء، هل معنى هذا الامتناع عدم تعاطي السكر بتاتاً؟ لا، ولكن الواجب معرفته أن السكر الصناعي علاج كالعلاجات يضر وينفع، فهو نافع لأهل الأعمال الجسدية كالزراع والصناع، وضار لذوي الحياة الجلوسية كالمؤلفين والسياسيين فلا يجوز لهم أن يتناولوا منه أكثر من قطعتين في اليوم، ويجب عليهم الامتناع عنه وعن كل الأغذية الاحتراقية مساء كالنشا والعجينيات أيضاً.

ثم إن من الإضرار بالأطفال إعطاءهم السكريات، فإن السكر الطبيعي يكفي لجميع حاجاتنا وهو موجود في الفواكه حياً وعلى حالة ذوبان، ولكن السكر الصناعي محروم من الحياة أي من قواه المغناطيسية فهو غذاء ميت.

إننا لنعلم الفائدة العظيمة لأجسامنا من تناول الأغذية المتمتعة بحركتها الحيوية، وقد كان الناس يضحكون من أهل القرون الوسطى الذين كانوا يعتقدون في القوة الحيوية، ولكنهم اضطروا اليوم لأن يرجعوا عن غيهم، لقد دلتنا الفزيولوجيا التجريبية على أنه من العبث إعطاء الضعفاء الحديد لتقويتهم، لأن الحديد إذا لم يعط حياة لا يتمثله الجسم بخلاف الحديد الحي المشمول في النباتات فإنه مقو عظيم للكرات الحمراء للدم.

وما قلته عن السكر أقوله عن الكحول، فإن المشروبات الروحية خطرة جداً، يقول لنا الدكتور كارتون في كتابه «الثلاثة الأغذية المميتة»: إن المقادير التي تستهلك من اللحم قد بلغت ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل ثلاثين سنة، فلا تنس أنه بجانب هذه الزيادة المضافة إلى زيادة مقادير الكحول والسكر نشاهد أن السل الرئوي يحتاج سنوياً أكثر من ١٠,٠٠٠ والسرطان أكثر من ٣٠,٠٠٠ نسمة.

الضرر لم يقف عند هذا الحد المادي بل تناول العقول أيضاً، وحسبي أن أقول بأن عدد المجانين كان سنة ١٨٦٥ نحو ١٤٠٠٠، فبلغ ٧١٥٤٦ في سنة ١٩١٠، وزاد كذلك عدد المنتحرين حتى بلغوا أكثر من ثمانية أضعاف ما كانوا عليه منذ بضع سنين. انتهت النصيحة الرابعة.

النصيحة الخامسة: متى وكيف وماذا يأكل الإنسان ويشرب

مترجمة من كتاب « الطب الطبيعي » للأستاذ بلز

قال الأستاذ « بلز » ما معناه تحت عنوان « متى وكيف وماذا نأكل ونشرب » في كتابه « الطب الطبيعي » ما يأتي: أريد أن أعطي نصائح فيما يمس هذه المسائل وهي: متى وكيف وماذا يأكل الإنسان؟

(١) متى نأكل؟

العادة أن الناس يأكلون ثلاث مرات في اليوم حتى تستطيع المعدة أن تستريح في خلالها، ولكن مما يجب ملاحظته هنا أن العشاء لا يجوز أن يكون كثيراً ولا متأخراً، لأن الأعصاب المعدية والمخية تزيد عمل المخ فينتج منها نوم غير هادئ، ومثل هذا النوم لا يكفي في تعويض ما فقده الإنسان. وتنتج عين هذه النتيجة أيضاً إن دخلت السرير عقب إتعابك المخ بشيء من الاشتغالات العقلية كالمطالعة والتفكر والمجادلة والبحث في السياسة، لأنك بذلك تكون وجهت التيار الدموي نحو المخ، ويكون النوم أقل تقوية للجسم لما يتخلله من الأحلام الكثيرة.

(٢) كيف يجب أن يأكل الإنسان؟

الشرط الأول في ذلك أن تمضغ اللقمة جيداً وفي مدة أطول ما تستطيع، وذلك بالنسبة لجميع الأغذية على السواء، وهذا لسببين: أولهما لأن إجادة المضغ وإطالة أمده هما العاملان الوحيدان في خلط اللعاب بالمواد الغذائية، واللعاب ضروري للهضم بل هو العامل الأول فيه، وثانيهما لأن عمل الأسنان يهيئ عمل المعدة وبغير ذلك لا تستطيع المعدة أن تستخرج من الأغذية كيموساً كافياً، ولكن لأجل أن يؤدي الإنسان هذا الواجب لجسمه يجب أن يكون لديه أسنان كفء للمضغ وهو الأمر النادر في جيلنا الحاضر، فإذا أردت أن تحفظ أسنانك صحيحة فحافظ على تنظيفها وابتعد عن الأشربة وعن الأغذية الساخنة، فإن في ذلك ضرراً عظيماً على الأسنان وعلى الحلق وعلى المعدة أيضاً، ثم يجب على الإنسان أن لا يداول في الأكل أو الشرب بين ساخن وبارد لأن ذلك يضر بالطلاء البراق الموجود على الأسنان فيتلفه، ويكون من وراء تلفه تآكل الأسنان وسقوطها، ولا يجوز الإكثار من الشربة والمرق. وينبغي أن يكون الخبز جافاً وغير مغموس في الماء فقد خلقت الأسنان للمضغ فيجب عليك أن تعملها فيما خلقت لأجله، فقد ثبت أن الأسنان التي لا تؤدي وظيفتها كما يجب تقع في المرض والانحلال. ويمكنني هنا أن أقول بأن الإنسان في ظروف مساعدة يمكنه أن يحفظ أسنانه سليمة حتى يموت. نعم إن الذي له أسنان ضعيفة بالوراثة لا يستطيع تقويتها وإرجاعها سليمة ولا يتم ذلك في نسله إلا بعد أجيال، ولكن من المؤكد أن الناس لو نجحوا في تحسين حالة أسنانهم أتى عليهم وقت بطلت فيه شكواهم من مرض الأسنان. ألا ترى أننا قلّ أن نصادف في عالم الحيوانات أفراداً منها لها أسنان مريضة.

يوجد مثل قديم يقول: « كل على قدر ما تشتهي »، هذا المثل صحيح ويستحق الاعتبار نظراً للأحوال الحاضرة المضادة للطبيعة التي يعيش فيها الناس. فهو صحيح من الوجهة الطبيعية لأني لا أتصور أن الطبيعة تعطي للإنسان شهية في الوقت الذي فيه معدته لا تستطيع القيام بوظيفتها، ولكن مما

يوجب الأسف أن صاحب الشهية اليوم يتناول من الأشربة والأغذية أكثر مما يلزم لجسمه ولا يتفق مع صحته فيضر نفسه ضرراً بليغاً، فيجب أن ينظر إلى هذا باعتباره حالة من الأحوال المضادة للطبيعة لا الموافقة لها، ألا تنظر للطيور وللحيوانات الأخرى فهل رأيت فيها ما يتبرم عقب الأكل من الإفراط فيه.

رغماً عما يقوله الناس اليوم من أنه لا ينبغي لمن أكل وملأ معدته أن يضجع، أنصح بالاضجاع عقب الأكل مدة من (٣٠) إلى (٤٥) دقيقة، فإن الأعضاء الأخرى متى ارتاحت انصرفت دورة الدم كلها إلى المعدة فتم هضمه على ما يرام، ومما يجب العناية به أن يتنفس الإنسان تنفساً طويلاً جملة مرات عقب كل أكل في الهواء الطلق ليخلط المقدار الكافي من أكسجين الهواء بالدم ليتم الهضم على أحسن حال.

(٣) ماذا ينبغي للإنسان أن يشرب ويأكل؟

يجب على الإنسان أن لا يتناول إلا الأغذية السهلة الانهضام الخالية من الأصول الضارة، وهذه الأوصاف تنطبق على جميع الفواكه والحبوب وخصوصاً القمح، فهو فضلاً عن وفرة أصوله المغذية يحتوي على جزء عظيم من الفوسفور وهو العنصر الضروري لحفظ سلامة المخ، فقد قال «مولخوت»: إذا لم يكن فوسفور فلا فكر. ويجب أكل النباتات الخضراء والفواكه، وإذا كان الإنسان اليوم لا يكتفي بها وحدها فقد كانت في الأزمان السالفة هي الغذاء الوحيد لكثير من الناس. ولقد كثر اليوم مبدأ الإفراط في العمل وهو أمر مضاد للطبيعة.

وإنا لنرى أن هذا الإفراط ليس ضرورياً بل هو ناشئ من سوء النظام، وفي نظرنا أن نصف هذا العمل يكفي لإقامة أمر الحياة كما يجب، وإذ ذاك لا يحتاج الإنسان أن يتناول الأغذية الثقيلة الدسمة كما هو حاله اليوم. فقد أثبت لنا الدكتور «ناتار» و«سوكسي» بصيامهما ورياضتهما أن الإنسان يكفيه قليل من الغذاء، والذي نراه أنه لا يجوز أن تخلو المائدة من الفواكه يوماً واحداً لأنها مرطبة، ولها دخل عظيم في حفظ الصحة. أما اللحم فيجب أن يعتبر في الأطعمة من توابلها لا غذاء قائماً بنفسه، فإن له تأثيراً مهيجاً ضاراً بالبدن، وليأخذ الإنسان دليلاً على ضرره وتهييجه من إجماع الأطباء على تحريم تعاطيه للمصاب بالحمى. والأغذية التي تضر المرضى تضر الأصحاء لا محالة، وإن يكن الأصحاء لا يحسون بضررها بسرعة على أن القيمة الغذائية للحم ليست بالقدر الذي يظنه الناس عادة، فإن الرطل من الحنطة أو من الحبوب الأخرى أو من النباتات الخضراء الخ يزيد في القيمة الغذائية عن رطل من لحم البقر الجيد. وهنا ننبه على أن أكثر الناس يخطئون خطأ عظيماً في اعتقادهم أن اللحم يزيد أجسادهم قوة ويملؤهم حياة وفتوة. بل الأمر بالعكس فإن الإكثار من أكل اللحم ضار للدرجة القصوى.

وأما النباتات فهي الغذاء الجيد الصالح لحفظ قوة الإنسان الجسدية والعقلية وتوفير سعادته البدنية، فكما أن الطبيعة تعيد في كل فصل شبابها وتستدعي بذلك إعجابنا، كذلك تفعل النباتات في أجسادنا فإنها تعيد إليها قوتها وتملؤها حياة ونشاطاً بخلاف سواها من الأشربة والأطعمة كالقهوة والشاي والبيرة واللحم والتبغ.

أما التوابل فإنها تهيج المعدة وتنشطها حتى قد تبلغ بها ضعفي قوتها، ولكنها تنتهي بإضعافها فلا يعود الإنسان قادراً على الهضم، وكلما أنس الإنسان بالأشياء المضادة للطبيعة بعد عن الموافقة لها ولا يسترد سيرته المعقولة في موافقة الطبيعة إلا بالتعود، قد يتبرم الإنسان من إخلاف عاداته حيناً من الزمان ولكن متى زال أثر العادة السيئة حل محلها أثر العادة الطيبة بما يستتبعه من راحة وصحة وهناء.

وعليه فإني أنصح بعدم أكل التوابل، والاكتفاء بتعاطي الأشياء مجردة، فإن كل صنف تابله فيه. أما ما يشربه الإنسان فلا ينتظر من مثلي أن ينصح بتعاطي الأشياء الضارة، ولو كان في الناس من يعز عليه أن يقلع عن عاداته فليصر عليها حتى الممات، ولكني أخاطب أولاده وأحاول أن أقنعهم بما يجب عليهم أن يتعدوا عنه. أنا لا أستطيع أن آذن لأحد بتعاطي البيرة ولا العرق ولا النبيذ ولا القهوة ولا الشاي. فإذا لم تكن لتستطيع أن تقلع عنها بتاتاً فقلل منها ما استطعت. أما المشروب الوحيد النافع للإنسان الملائم لصحته فهو الماء الصافي العذب فاشرب منه ما شئت. والذين لا يستطيعون إساغة الماء القراح فهم مرضى ولا يزالون مرضى حتى يستطيعوا إساغته دون سواه.

أنا لا أريد أن أرجع بالإنسان إلى دور الوحشية الأولى، ولكني أريد أن يستفيد الناس من مزايا الاخشيشاب في الأكل وهي المزايا التي يتمتع بها دوننا المتوحشون. ولا أريد كذلك أن أتخذ من حال الهنود المتبربرين مثالاً نحتذيه في حياتنا فإنهم أيضاً قد أصابتهم عدوى مدنيتنا فأصبحوا عن الصراط ناكبين. يظهر من حال طبيعتنا أننا لم نخلق إلا لأكل النباتات دون سواها. فإذا تأملنا في تركيب أجسادنا رأينا أنه ليس فينا ما لأكالة اللحوم من الحيوانات من القابلية لتعاطي اللحم، فليس لنا أنياب الوحوش ولا مناسر الكواسر الخ، وقد أحكم الله كل ما وضعه فلا يصح أن نفرض أنه غلط أو حاد عن جادة الإبداع. وعليه فلا أدل للإنسان في أمور عيشه وسعادته من القانون الطبيعي، فهو لا يهدينا إلا لما فيه المصلحة، ولا يزعنا إلا عما في تعاطيه المضرّة. فإذا خرج الإنسان عليه ولم يخضع لإرشاداته عاد أمره عليه بالوبال. وذاق من جراء عصيانه أسوأ الأحوال.

فإذا كان الله جل شأنه خلق لكل كائن استعداداً خاصاً لأنواع الغذاء لا يجوز له أن يتعداه؛ ساغ لنا أن نجزم هنا بأنه تعالى خلق الإنسان نباتياً صرفاً. وإذا كان الأمر كذلك فلا يعقل أن إنساناً يستعيد صحته وينال سعادته إلا إذا عاد للأغذية النباتية وترك ما سواها سواء أكان ذلك طفرة أو تدريجاً، ولا عجب إذا كان الإنسان وهو أكرم المخلوقات وأشرفها يقتصر من غذائه على أكرم الأطعمة وأطهرها وهي الفواكه الناضجة اليانعة، وقد دلتنا الطبيعة أيضاً أن الإنسان إذا اقتصر من الأغذية على ما يناسب استعداده وهو الأطعمة النباتية دون سواها عاش عمراً طويلاً مهناً في نفسه معافى في بدنه، بخلاف ما لو تعاطى ما يخالف استعداده كالعرق والبيرة والقهوة والتبغ الخ.

ومما يؤسف له أن نحواً من (٩٠) في المائة من الناس يعيشون في شروط معيشية تناقض الطبيعة وليس بعد ما قدمناه حجة في أن هؤلاء متعرضون بهذا السلوك السيئ لأفدح المصائب وأكبر الآلام.

الإنسان يعيش اليوم مقوداً لتقليد الجمهور محتملاً في هذا السبيل الآلام المختلفة وصنوف الضعف والذبول، فما أجدره بقراءة المؤلفات الموضوعة في الطب الطبيعي لينتشل نفسه من وهدة هذا

السقوط. نعم إن من يريد أن يتبع نصائحي يجب أن تكون له إرادة من حديد. ومما آسف له أن هذه الإرادة صارت اليوم أعز من أثمن أنواع الجواهر.

إن الطبيعة لترينا، وحال آدم في الجنة شاهد علينا، بأن ليس الحيوان وحده هو الذي خص بوجدان غذائه حاضراً أينما سار، بل أنعم الله على الإنسان أيضاً بهذه المزية وكفاه مؤنة هذه المشاق التي يحملها نفسه في تحضير الغذاء، وفضلاً عن أن الإنسان قضى على نفسه بنفسه أن يكون غذاؤه بعيد المنال كثير التكاليف أوجب على جسده أيضاً حاجات مصطنعة وهمية تمد جيش آلامه وتزيد في ويلاته على غير جدوى. انتهت النصيحة الخامسة.

النصيحة السادسة: إراحة المعدة وإعطاؤها زمناً كافياً للهضم

مترجم عن كتاب سر الصحة تأليف الأستاذ دوفورست

أولاً: يجب إعطاء المعدة زمناً قليلاً ترتاح فيه بين ساعات عملها، فإن مضى خمس أو ست ساعات من بعد انتهاء الأكلة إلى ابتداء ما يليها فليس بالوقت الطويل، فإن الهضم المعدي يتطلب من (٤) إلى (٥) ساعات في أغلب الأحوال.

ثانياً: كل الأغذية يجب أن تكون خارج المعدة قبل ساعة النوم، لأن النوم يضر الهضم ضرراً بليغاً.

ثالثاً: إذا كانت الأكلات مستوفاة وتعوطيت في الأوقات التي تكون قوى الجسم فيها على أتم ما يكون ـ أي في الساعة ٨ صباحاً و٢ ونصف بعد الظهر مثلاً ـ فإن أكلتين في اليوم تكفيان أكثر الناس وخصوصاً من كانت حياتهم جلوسية، فإذا كانت الساعات التي عيناها لا توافقهم فالأولى أخذ ثلاث أكلات في اليوم بشرط أن تكون الأخيرة خفيفة، وتؤخذ بين الساعة (٦) و(٧) للمصابين بالحمى أو بأمراض أخرى ممن يخضعون لنظام الأغذية السائلة، وكذلك الأفراد الطاعنون في السن والضعاف، والأطفال ممن دون السنة يستثنون من هذه القاعدة.

الضلالات الغذائية

عن الأستاذ دوفورست أيضاً

أولاً: الأكل بين الأكلات: إذا استسلم الإنسان لهذه العادة أفسد عليه نظام معدته، فإن الجهاز الهضمي معد للعمل بطريقة منتظمة ولا يستطيع أن يعمل في كل وقت، مثله في ذلك كمثل كل عضلة من العضلات الجسدية، فيجب أن لا يدخل شيء إلى الفم بين أكلة وأكلة ولو كان تفاحة.

ثانياً: الأكل بسرعة: اجتنب هذه الضلالة بأخذ الأغذية الجامدة، فإن حفظ الحياة لا يكون بقدر الأغذية المزدردة بل بقدر الأغذية التي يمثلها الجسم، ولأجل الحصول على تمثيل تام يجب أن تكون الأغذية التي تؤخذ جافة تستحيل إلى عجينه بواسطة الأسنان واللعاب.

ثالثاً: الأغذية الحارة جداً تضعف المعدة وكذلك السوائل الحارة جداً.

رابعاً: الأغذية التي تدخل المعدة باردة تقتضي من جهة الجسم صرف قوة حيوية لإيصالها إلى درجة الحرارة الجسمية قبل أن يبتدئ هضمها.

خامساً: الأغذية الدسمة «المقلوة على الخصوص» المركبة تهيج الشهوة ولكنها صعبة الانهضام جداً ولا تعطي دماً جيداً.

سادساً: الفلفل والخردل والقرنفل والقرفة وجميع التوابل ليست من الأغذية لأنها تهيج المعدة والمجموع العصبي وتحدث نزلات وأمراض عصبية مَعِدية ـ بكسر العين ـ وعللاً أخرى وتفسد الشهوة بتمويه الطعم الطبيعي للأغذية.

سابعاً: الجبن والمحفوظات في الخل من الأغذية، أي المخللات واللحم وما يستعمل نقلاً من الأجسام الدسمة المركبة، وخصوصاً إذا أدخل إليه من بيكربونات الصودا وقشدة التاوتر ـ وهي تتخذ مما يرسب في براميل النبيذ الخ ـ لا يجوز بأي وجه من الوجوه أن تدخل إلى المعدة الإنسانية، ولا يجوز أن تكون جزءاً من غذاء إنسان يريد أن يستعيد صحته أو يحفظها في حالة جيدة، والمنبهات من السوائل والمشهيات والخمر والشاي والقهوة والشوكولاتا هي أكثر ضرراً أيضاً. أما التبغ فلا يجوز أن يدنس جسم الإنسان الذي يحب حياته وصحته. انتهى الكلام على النصائح الست، والحمد لله رب العالمين.

المقام الثاني

فيما ذكره أحد الأطباء في بعض المجلات العلمية تحت العنوان الآتي

الفيتامينات: موارد الحياة

وهذا نصه:

تعددت أبحاث العلماء في الفيتامينات وأنواعها، فنشرت الصحف والمجلات في أوروبا عنها صفحات عدة، فآثرت تلخيص أهم ما عرف عنها لقراء «مجلة النهضة» الغراء، وفي نشرها فائدة لا تخفى على حضراتهم إذا طبقوا هذه المعلومات على غذائهم.

إن العلماء عرّفوا الفيتامين كما يستدل من اسمها بمورد الحياة وقسموها لأقسام: (أ) و(ب) و(ج) و(د) وقد كشفوها في مواد الغذاء الطازج النيء وهو على حالته الطبيعية، ومصدر الفيتامين في هذه الأطعمة هي أشعة الشمس التي لا حياة ولا غذاء بدونها، وهذه الفيتامينات تفقد وتزول في الغذاء متى قدم بتأثير النار والتعفن الخ.

إن هذا الاكتشاف يدلنا على منافع الغذاء الطبيعي بدون تحضير كالخضر النيئة، والفواكه الطازجة التي لا تدخل النار، وإليك البيان: إن أنواع الفيتامينات لا توجد في صنف واحد من الغذاء بل هي في أنواع عديدة من المآكل، فيجب على الإنسان أن يعدد أصناف مأكله حتى يستفيد من موارد الحياة هذه، لأنها ضرورية ولا يستغنى عنها، ونقصانها من الجسم أو فقدانها منه تسبب أمراضاً عديدة خطرة على الحياة كما ثبت ذلك من التجارب الآتية.

حبس بعض العلماء بعضاً من الحيوانات في مكان مظلم ومنعوا عنها الغذاء الطازج المحتوي على الفيتامين وهي بعيدة عن نور الشمس، فأصيبت هذه الحيوانات بالكساح، كما أن صغارها أصيبت بوقوف النمو تماماً وضعفت قوة بصرها وهزلت، وهذا تماماً ما يحصل للإنسان ويعرف بداء «أفيتمينوس».

ولما أعادوا هذه الحيوانات إلى نور الشمس وأطعموها غذاء طازجاً يحتوي على الفيتامين خلاف الغذاء الأول الذي أعطي لها مدة وجودها بالظلمة استعادت قوتها وشفي صغارها من الكساح ثم عاد العلماء إلى التجربة في الإنسان، فعمدوا إلى ركاب البحار الذين يأكلون الأطعمة المحفوظة في العلب والتي فقدت الفيتامين، فوجدوا أن هؤلاء جميعاً معرضين لمرض الأسقربوط ولفساد الدم وللين العظام عند الأحداث، فعالجوهم جميعاً بإعادة الأغذية المشبعة بالفيتامين وبأشعة الشمس الطبيعية إذا وجدت أو الصناعية « فوق البنفسجية » فشفوا تماماً في مدة وجيزة، وقد كانوا قبلاً يعالجون السنين الطوال دون أقل أمل في الشفاء، مثال ذلك الأسقربوط الذي يشفى بعصير الليمون المالح والبرتقال والخضر النيئة ولا يشفى بملح الليمون أو شربات البرتقال أو الخضار المغلي على النار، فثبت علمياً أن في المأكولات الطازجة النيئة فيتامين أو موارد حيوية لا غنى للإنسان عنها في غذائه، كما ثبت أن لبعض الزيوت النيئة فائدة كبيرة في شفاء الكساح ولين العظام عند الأطفال، فجربوا استعمال هذه الزيوت نفسها بعد غليها على النار أو وهي قديمة فلم تأت بفائدة مطلقاً، فثبت لديهم أن فيها مواد حيوية وهي الفيتامين، ووجدوا أن الحبوب كالقمح والفول والذرة إذا استعملت نيئة وطازجة كـ« الفريك » تعطي قوة عضلية عظيمة كما هي الحال في آكليها من الحيوانات، كقوة الثور على جر الأثقال الخ، ومتى طبخت أو خبزت تفقد قوتها الحيوية بنسبة إتلاف النار للفيتامين فيها، ولقد دلت التجارب في الإنسان والحيوان معاً حتى استعملوا أعضاء الحيوانات السليمة لشفاء الأمراض التي تصيب مثل هذه الأعضاء في الإنسان فاستعملوها نيئة بفوائد جمة، منها استعمال خلاصة المبايض والغدد الكلوية والدرقية والخصيتين والثديين الخ.

وأخيراً ظهر دليل قاطع حديث وهو: عالجوا فقر الدم الشديد الذي يصيب الأحداث من الناس عند بلوغهم وعلى الأخص البنات بجميع أنواع العقاقير والعلاجات فلم يجد نفعاً، حتى وفق العلم الحديث إلى اكتشاف خطير وبسيط جداً، فقد عالجوا هذا الداء المسمى الكلوروزا وفقر الدم الشديد بالكبد النيء الطازج المأخوذ من حيوان سليم وعلى الأخص كبد العجل يأتي بفائدة مدهشة عدوها في العلم معجزة، ولكن إذا عولج الكبد بالنار فلا فائدة فيه لأن النار تفقد الفيتامين. وبعد كل هذه التجارب أذاع العلماء قرارهم هذا النهائي القاضي بتعديل طرق الغذاء علمياً. انتهى من مجلة « النهضة النسائية ».

ولقد جاء تلغراف في الصحف أن حكيماً روسياً قضى ٢٠ سنة في التجارب أثبتت له أن الإنسان يمكنه أن يعيش ١٦٠ سنة إذا اقتصر على أكل النبات الذي لم يطبخ.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: إنك أثناء إلقائك هذا الموضوع تبينت لي في وجهك آثار آراء تختلج في قلبك. فقلت: نعم. فقال: فماذا رأيت في هذا؟ فقلت: الفيتامين في العلم والدين كالفيتامين في الغذاء، إن الذي جاش بخاطري في أثناء إلقاء هذا المقال هو أن الأمم الإسلامية التي ظهرت بعد القرون الثلاثة الأولى فعلت في الدين ما فعله الناس في الطعام من التجافي عن الحقائق والتباعد عن الأصول والاستغراق في مباحث القشور وظواهر الأمور.

اللهم إنك أنت العليم بما جناه الناس على أنفسهم في طعامهم، إذ أماتوا مواد الحياة بطبخه ونبذ قشوره وما يسمونه السنّ في القمح، وما يسمونه النخالة. وبعبارة أخرى: إن ما يستلذه الناس من مآكلهم التي اصطلحوا عليها هو المفسدة العظمى لصحتهم، هكذا فعلوا في الدين، ذلك أنهم لما تبوؤا العلم والإيمان أخذوا يفعلون في الدين ما فعلوه في الطعام واللباس، فكما أن حجب الجسم عن ضوء الشمس ولفه لفاً وثيقاً يحجب عنه الهواء والشمس وهكذا زجّ الطعام في النار كل ذلك مضعف لصحته، هكذا تهافت الناس على كتب المتأخرين وتركهم نفس كتاب الله تعالى، وإبعادهم عقولهم عن المباحث الشريفة أضعف أممهم وأنزلهم في الحضيض، وما الاتكال على الكتب الموروثة التي كانت نتائج اتصهار العقول الكبيرة في الأمم الإسلامية الغابرة وعدم تعرض عقولنا نحن إلى نفس كتاب الله تعالى وكتاب رسوله صلى الله عليه وسلم ومناظر المشاهد الطبيعية إلا كالاتكال على ما أوقدنا عليه النار وطبخناه من الطعام ـ كالعلوم المطبوخة بنار العقول الكبيرة الإسلامية بعد القرون الأولى ـ وكالاكتفاء بالملابس التي حجبت أجسامنا عن نور الشمس، وهي لا تغني عنه فتيلاً، فليكن عمدة المسلمين من بعد الآن كتاب الله تعالى وكتاب الطبيعة ودراسة علوم الآفاق والأنفس، وهذه الطائفة هي التي تتولى قيادة الأمم الإسلامية بعدنا، وهم هم الذين يفهمون كلام الله، وكيف يفهم كلام الله إلا بدراسة فعله. القرآن كلام الله والعالم فعله فلندرسه دراسة تامة، وبها نفهم كلامه وغير هذا لا يفيد. فقال: لقد نطقت بحكمة وأفدت بعلم، ولكن لا زلت أحب أن تفيض في هذا الموضوع بعض الإفاضة لتبيان الموازنة ما بين آراء المذاهب والفرق المتشاكسة وما بين الطعام المطبوخ. فقلت: لا جرم أن النار التي بها نطبخ طعامنا ما هي إلا أثر من آثار الشمس. ألا ترى رعاك الله أن الفحم الحجري المذكور المشروح في أول سورة «سبأ» وهكذا الخشب وغيره كلها قد خزن فيها ضوء الشمس تصلح لاتقاد النار فيه. والشمس هي المنضجة للحبوب والفواكه. فلما رأى الناس ذلك قديماً ظنوا أن للنار في الطعام آثاراً كآثار الشمس من حيث الإصلاح، فأوقدوا النار على طعامهم، والنار ما هي إلا ابنة الشمس والفرع ينوب عن الأصل، كما عبدوا الأصنام النائبة عندهم عن الكواكب كما هو موضح في أول سورة «البقرة» عند آية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾[البقرة: ٢١] الخ، هكذا فعلوا في الديانات.

ففي كل أمة متدينة علماء لهم مذاهب مختلفة صهرتها عقولهم وأوقدوا عليها نيران ذكائهم كما أوقد الناس النار على طعامهم، وهؤلاء العلماء إنّما استمدوا آراءهم من دينهم مع إضافة تفكرهم بعقولهم، كما أن الخشب والفحم استمدا الحرارة من الشمس، وقد دخلت صناعة الناس فيهما وأوقدوهما ناراً بطبخ طعامهم، وهل تريد لهذا بياناً أكثر مما في كتاب «الفرق بين الفرق» وكيف ظهر أن هناك نحو٧٣ فرقة كل فرقة ترى الحق معها وتدعي جهل جميع المسلمين، أوَلا ترى مذاهب الباطنية الموضحة في سورة «الكهف» عند آية: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[الكهف: ٥١]، وهكذا مذهب البهائية في الفرس والأحمدية في الهند وغيرهم، فهؤلاء جميعاً أشبه بمن يأكلون الطعام الذي أذهبت النار قوته الحيوية.

إذن فليرجع الناس إلى كتاب ربهم وإلى فعله في العوالم، وهذا هو الأمر الواجب اليوم على المسلمين جميعاً في أقطار الأرض.

أيها المسلمون، لا حياة لكم بعد الآن إلا بأن يكون القائمون بأمركم من علماء وحكماء وأمراء وملوك أحرص الناس على العلوم الرياضية والطبيعية، والتمكن منها ومن دراسة القرآن وأصح الأحاديث مع المحافظة على أركان الإسلام المعروفة، فهنالك حقاً تتجلى لهم هذه المذاهب الإسلامية في الفروع وفي الأصول وهنالك يظهر للإسلام رونق فوق ما نحن عليه الآن.

وكما أن مادة الحياة ضعيفة في المطبوخ من الطعام كما قدمنا بسبب إيقاد النار عليه وإن كانت النار ربيبة الشمس وابنتها، هكذا الحياة العلمية والدينية في بلاد الإسلام تبقى خامدة جامدة ما دامت قاصرة على دراسة الآراء المستنبطة في المذاهب المختلفة والفرق المتشاكسة والاقتصار على ذلك، بل هذه المذاهب كلها يجب أن يضم إليها دراسة نفس القرآن وما صح من الحديث وجميع العلوم الطبيعية.

إن المسموع إذا خلا من المنظور كان قاصراً على التقليد المحض وهو أنقص المعلومات، هذا ولتعجب أيها الذكي من أن هذا المقال كله يدخل في فحوى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ ﴾[الأحقاف: ٢٦] الآية، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء: ٣٦]، فانظر إلى الترتيب على وتيرة واحدة في الآيتين. فالمسلم يسمع القرآن والتاريخ المنتشر بين الأمم والعلوم الكثيرة. فإذا سمعها ووقف عند سماعها فهو غبي، فلذلك أعقبه بذكر البصر الذي يشاهد به العلوم الطبيعية وهي تجره إلى العلوم الرياضية ليدرس نظام الفلك وغيره. ولن يتم ذلك كله إلا بالعقل، فلذلك أعقبه بذكر الأفئدة. فانظر لترتيب محكم في الآيتين.

ثم انظر لأمة الإسلام الحالية والسابقة كيف ناموا على ما سمعوا واتكلوا على الشيوخ السابقين وعلمهم مسموع من المسموعات، فالقرآن مسموع وكلام العلماء مسموع، فلماذا لا يفكر المسلم في المحسوسات التي حوله لتوضيح ما سمعه؟.

يجمع هذا كله من وجه آخر آيتان: الأولى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، ومثلها آية: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ٢٢].

الآية الثانية: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يونس: ١٠١]، فالأولى لتدبر المسموع، والثانية لتدبر المنظور، والتدبر لا يكون إلا بالعقل.

إذن المسلمون بعدنا سيتجلى الله عليهم بقراءة علوم السمع وعلوم البصر وعلوم العقل، وهذه تجمع القسمين، وهم هم الذين يعقلون كلام الله تعالى ويفهمونه أكثر من الأمم السابقة بعد الصدر الأول، ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: ٤١].

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد شفيت صدري وشرحته بهذا البيان. فقلت: الحمد لله رب العالمين.

بهجة العلم والحكمة: في قوله تعالى أيضاً:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

إلى آخر الآيات وتمام السورة

هذه القصة الآدمية الإبليسية جاء في أولها كبر إبليس وعظمته وتكبره على السجود لآدم وامتناعه عن التواضع ـ كما امتنعت الآساد والنمور والسباع عن الخضوع للإنسان، وتناسلت في البراري والقفار والأودية ـ وتعالى بما أحس في نفسه من القوة النارية التي خلق منها، فاستوجب اللعنة وأخذ يغوي كثيراً من بني آدم ليطيعوه في أخلاقه فيتكبرون ويفعلون المعاصي كالقتل والحرب والحسد والعداوات، فكل هذه من آثار النيران المتأججة في القلوب التي تمت بصلة إلى طبائع الشيطان، ثم إن بني آدم زادوا معاصي أخرى على إبليس وهي المعاصي التي جاءت لهم من جبلتهم وظهرت على أيديهم بسبب أصل خلقتهم وهي الحرص والبخل والشح والطمع والإسراف في المآكل والمشارب وما أشبه ذلك، فهذا النوع من المعاصي سببه ناجم من أصل خلقته وهي المادة الطينية.

إذن المعاصي كلها قسمان: قسم جاء من طريق الغواية وهي آثار القوى الغضبية مشاكلة لأخلاق الشياطين، وقسم يرجع منشؤه إلى جبلة الإنسان وهي القوى الشهوية، وهاتان القوتان مركوزتان في أنواع الحيوان، فما كان منه من أنواع البهائم مثلاً وبعض الطيور الشهور اللاتي لا تأكل اللحوم وإنّما تغتذي بالثمار والحشائش وما أشبهها، فهذه تغلب فيها القوة الشهوية، وما كان منه من أنواع السباع والنسور وكل حيوان كاسر فقد غلبت عليها القوة الغضبية، والإنسان جمع القوتين وزاد عليهما قوة الحكمة والعلم والعقل وكان فيه الحكماء والعلماء، والإنسان الأول سار مع الفطرة قبل أن تفسد غريزته وتقتله بطنته وتذله شهوته وتستهويه هاويته ويذوق العذاب الأليم، وقصة آدم كررت في القرآن لتذكيرنا بما كان عليه أسلافنا القدماء من الهناء وراحة البال والسعادة الدنيوية قبل أن تنزل بنا الرزايا والبلايا والمصائب وحلول الداء وذهاب الهناء، ومن سار في كرتنا الأرضية يجد لهذه القصة الآدمية بعض الآثار من بعض الوجوه، ألم تر إلى أن بعض العوائد التي لا تزال عند بعض أهل السودان، فقد جاء في بعض المجلات التي تصدر في دار الهلال بمصر في زماننا ما نصه:

ماذا في السودان من غرائب العادات؟

للسودانيين الأصليين عادات غريبة، ولا سيما القاطنين منهم في أعالي النيل وما جاور خط الاستواء فإنهم أقرب إلى زنوج أفريقية منهم إلى أهالي الخرطوم، والساكنين في شمالها الذين يشبهون في كثير من عاداتهم وأخلاقهم أبناء الوجه القبلي من المصريين، ويحبون أن ينتسبوا إليهم ويكرمون النازلين منهم في ديارهم.

ولكن مما يمتاز به السودانيون القاطنون في الجنوب عن إخوانهم أهل الشمال الجرأة والشجاعة الكبيرة التي يكافحون بها الطبيعة والوحوش الكاسرة القاطنة في بلادهم كالأسود والفهود والقردة الوحشية والنمور العادية والثعابين القاتلة ذات الحجم الهائل والشكل المخيف، وهذه الشجاعة تكاد

تكون هي السلاح الوحيد الذي يستطيعون به مغالبة هذه الحيوانات الشديدة البأس حتى ينتصروا عليها ويدفعوا شرها عنهم وعن أطفالهم.

على أن كثيراً منهم يخرج للصيد في الصحراء، فإذا ما لاقى فيلاً أو ثعباناً عظيماً أخذ يطارده حتى يتغلب عليه ويصطاده، ثم يقوده إلى داره ليكون طعاماً له ولمن عنده من زوجته وأولاده. وقد أخبرني أحد الضباط أنه كان سائراً ذات مرة مع ضابط من السودانيين الأصليين وكان الليل قد نشر أجنحته والظلام مخيماً على الطريق وهما في وسط غابة مزدحمة بالأشجار والأدغال، وبينما هما كذلك إذا بهما يحسان تحت أقدامهما بلحم طري، فالتفت الضابط المصري إلى زميله السوداني وسأله: ما هذا يا فلان؟ فنظر الضابط السوداني إلى الأرض، وبعد أن تحقق منه قال له: هذا دبيب، والسودانيون يسمون الحية عندهم دبيباً، ثم أمره بالابتعاد وسلّ سيفه وضرب الحية ضربة قوية جعلتها تفزّ من مكانها فزاً فاتحة فمها تريد قتله والقضاء عليه، ولكنه أسرع فضربها ثانية وثالثة وهو ثابت في مكانه لا يتزحزح حتى قضى عليها وصارت جثة هامدة. وبعد أن تحقق من موتها قطع رأسها ثم حملها معه. ولما وصل خيمته قطعها قطعاً وشواها كلها وأخذ يلتهمها التهاماً.

ومن عادة السودانيين أن يأكلوا الفيل أيضاً فيصطادونه ويجعلونه طعاماً لذيذاً لهم. وليس ذلك لقلة ما عندهم من الحيوانات المستأنسة كالخراف والبقر والجاموس والإبل، بل إن عندهم من هذه الأنواع كثيراً ولا سيما أن هناك قبائل ليس لهم من عمل غير رعاية الإبل والبقر وتربية الخراف. وقد سمعنا من بعض الذين زاروا تلك القبائل أن الخروف الواحد يمكن شراؤه هناك بتسعة قروش أو عشرة. ولبعضهم طريقة خاصة في شيّ الخروف أو غيره من الحيوان، فإنهم بعد أن يقطعوه قطعاً يدهنون تلك القطع قبل دخولها النار بالفلفل. وبعد تمام شيها يأخذون في أكلها حارة، ويضيفون فوقها أثناء الطعام بعض التوابل مما يزيد في حرارتها وحرافتها.

ولا تطيب لهم لذة الطعام إلا إذا كان مضافاً إليه جانب من الفلفل والتوابل، ويعتقدون أن في ذلك صحة وعافية وقوة.

وإذا تزوج شخص عملت له عملية «البخور»، وهذه العملية خاصة بضعيف البنية. ولكن بعض الأقوياء يعملونها عند ابتداء زواجهم بل وبعده. وطريقتها أن ينام الرجل على سرير من ليف مصنوع على هيئة شبكة وهو عاري الجسم تماماً، ثم يوقد تحت السرير موقد تضع فيه المرأة بخوراً خاصاً يتصاعد دخانه حتى يشمل جسم الرجل مدة من الزمن، ثم يقوم فيلبس ثيابه ويتناول بعض الأطعمة المغذية كالفراخ أو الحمام، ويمكث على ذلك بضعة أيام يكتسب بعدها قوة ونشاطاً.

وبمناسبة الزواج نقول: إن بعض القبائل يجرون الزواج عند شيخ القبيلة ويسمونه في عرفهم «سلطان القبيلة»، وتجري صيغة العقد بين الزوج ووالد الزوجة بواسطة سؤال السلطان عن رغبة كل منهما في المصاهرة، ثم يدفع الزوج قدراً من المال إلى والد الزوجة فيأخذه ويشتري به حديداً يحفظه عنده، حتى إذا حصل بين الزوج والزوجة ما يوجب الانفصال دفع والد الزوجة هذا الحديد إلى الزوج وأخذ ابنته.

وتعدد الزوجات منتشر في قبائل السودان. ولكن لا يجد الرجل في ذلك ما ينغص عيشه بكثرة منازعات الزوجات، فإنهن كثيراً ما يكن على وفاق ووئام. والرجل السوداني يحب أهل زوجته حباً يقرب من العبادة، ولعل هذا في الأكثر هو السبب الذي ينتظم به شأنه وتزداد راحته، خصوصاً أن من طبائع السودانيين التعاون في الشدائد، والقناعة التي تجعلهم يرضون بالكسرة إذا رأوا أن في غيرها ما يوجب النزاع. ومعظم أكلهم الذرة العويجة أو الدخن يصنعون منه «المريسة» وهي طعام محبوب عندهم. وهناك يتعففون عن سرقة بعضهم بعضاً وقليلاً ما تقع حوادث سرقة كبيرة، بل إن الرجل منهم قد يترك متاعه في الطريق ويذهب لقضاء حاجته من مكان بعيد ثم يعود فيجد حاجته كما هي لم ينقص منها شيء.

وفي المواسم الشهيرة كعاشوراء ونصف شعبان يمدون طعامهم أمام منازلهم ويسمونه عشاء الميتين والغرض منه إطعام الفقراء وغيرهم بمناسبة هذه المواسم رجاء الرحمة من الله على موتاهم السابقين. انتهى ما جاء في المجلة المذكورة، والحمد لله رب العالمين.

إذا عرفت هذه القصة عجبت كيف كانت هناك القناعة والأخلاق الفاضلة المفقود أكثرها في الأمصار العامرة والمدن العظيمة في بعض بلاد الإسلام ومنها بعض بلادنا المصرية، وهناك تفهم ما ستسمعه من «إخوان الصفاء» في المحاورات بين الإنسان وأنواع الحيوان، وبه تفهم أن علماء الإسلام منذ ألف سنة كانوا قد بلغوا شأواً عظيماً في العلم والحكمة، وأدركوا بعض أسرار هذه القصة، وأخذوا يذكرون النوع الإنساني بما وقع فيه من الانهماك في الشهوات الذي كان هو السبب في ذلهم ذلاً لا يختص بالحياة الأخرى في جهنم، بل إن العذاب أخذ يحيط بالناس في هذه الحياة الدنيا وإن كان أكثرهم لا يفهمون اليوم أنهم قد عجل لهم العذاب الآن، إذن هنا ذنوب لحقها العذاب في نفس هذه الحياة الدنيا وسيستمر إلى آماد وآماد بعد الموت، وهذا نصه:

قال الملك: يا معشر الإنس قد علمتم وسمعتم ما قال وفهمتم ما أجاب، فهل عندكم شيء آخر؟ فقام إنسي آخر أعرابي وقال: نعم أيها الملك لنا خصال ومناقب تدل على أننا أرباب وهم عبيد لنا. قال الملك: هات واذكر منها شيئاً. قال: نعم. قال: وما هي؟ قال: طيب حياتنا ولذيذ عيشنا وطيبات مأكولاتنا من ألوان الطعام والشراب والملاذ مما لا يحصي عددها إلا الله تعالى، وما لهؤلاء معنا شركة فيها بل هم بمعزل عنها، وذلك أن طعامنا لب الثمار ولها قشورها ونواها وحطبها، ولنا لباب الحبوب ولها تبنها وورقها، ولنا شيرجها ودبسها ولها كنسها وخشبها، ولنا بعد ذلك ألوان الخبز والرغفان والأقراص والجرادق من السميد والمتلون والكعك وغيرها، ولنا ألوان الطبيخ من الكباج والإسفيداج والمضائر والهرائس والجواذيت وألوان الكوامخ وغيرها من الرواصين وألوان الأشربة وألوان الشوى والحلوى والخبيص والقطائف واللوزيج، ولنا ألوان الأشربة من الخمر والنبيذ الخالص والقارص والسكنجبين والجلاب والفقاع، وألوان الألبان من الحليب والرائب والماست والدوغ والسمن والزبد والجبن والكشك والمصل وما يعمل منها من ألوان الطبيخ والملاذ والطيبات والمشتهيات ولا يحصي كثرة ذلك إلا الله تعالى، وكل ذلك هم بمعزل عنه، وخشونة طعامهم وغلظها وجفافها

وقلة الرائحة الطيبة منها وقلة دسومتها وحلاوتها دليل على قلة لذتهم منها، وهذه الخصال للعبيد وتلك حال أرباب النعم الأحرار الكرام، وكل هذا دليل على أننا أرباب لهم وهم عبيد وخول لنا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فنطق عند ذلك زعيم الطيور وهو الهزارداستان وكان قاعداً على غصن شجرة يترنم فقام وقال: الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، القديم الأبد، الدائم السرمد بلا شريك ولا ولد، بل هو مبدع المبدعات وخالق المخلوقات وعلة الموجودات ومسبب الكائنات من الجمادات والنباتات وبارئ المبرآت مركب السماوات ومولد المولدات كيف شاء وأراد.

واعلم أيها الملك الكريم أن هذا الإنسي افتخر بطيب مأكولاتهم ولذيذ مشروباتهم ولا يدري أن ذلك كله عقوبات لهم وأسباب للشقاوة وعذاب أليم، إذ في حرامها عذاب وفي حلالها حساب، وهم فيما بينهما من الخوف والرجاء. قال الملك: وكيف ذلك؟ بيّن لنا؟ قال: نعم، وذلك أنهم يجمعون ذلك ويحصلونه بكدّ أبدانهم وتعب نفوسهم وجهد أرواحهم وعرق جبينهم، وما يلقون في ذلك من الشقاوة والهوان مما لا يعد ولا يحصى من كدّ الحرث والزرع وإثارة الأرض وحفر الأنهار وسد الشق وعمل البريدات ونصب الدواليب وجذب الغروب والسقي والحفظ والنظافة والحصاد والحمل والجمع والدياس والتذرية والكيل والقسمة والوزن والطحن والعجن والخبز وبناء التنور ونصب القدور وجمع الحطب والشوك والسرقين ووقود النيران ومقاساة الدخان وبناء الديكدان ومماكسة القصاب ومحاسبة البقال والجهد والعناء في اكتساب الأموال والدراهم وتعلم الصنائع والمكاسب المتعبة للأبدان والأعمال الشاقة على النفوس والمحاسبات والتجارات والذهاب والمجيء في الأسفار البعيدة في طلب الأمتعة والحوائج والجمع والادخار والاحتكار والإنفاق بالتقدير مع مقاساة البخل والشح، فإن كان جمعها من حلال وأنفقها في وجه الله فلا بد من الحساب، وإن كان من غير حل وإنفاقه في عير وجه الله فالويل والحساب والعذاب، إذ لا بد من القوت والثياب مثل ما لا بد من الموت والحساب، ونحن بمعزل من هذه كلها، وذلك أن طعامنا وغذاءنا هو مما يخرج لنا من الأرض من أمطار سمائها من ألوان البقول الرطبة والخضرة النضرة اللينة والحشائش والعشب، ومثل ألوان الحبوب اللطيفة المكنونة في غلفها وسنبلها وقشرها ومن ألوان الثمار المختلفة الأشكال وأنواع الطعوم والروائح الذكية والأوراق الخضرة النضرة والأزهار والرياحين في الرياض تخرجها لنا الأرض حالاً بعد حال وسنة بعد سنة بلا كد ولا تعب من أبداننا ولا عناء من نفوسنا ولا نصب من أرواحنا، ولا نحتاج إلى كد حراث ولا عناء ولا سقي متعب لأرواحنا، ولا نحتاج إلى بذر ولا حصاد ولا دياس ولا طحن ولا خبز ولا طبخ ولا شواء، وهذه كلها علامات الكرام الأحرار، وأيضاً إذا أكلنا قوتنا يوماً بيوم تركنا ما يفضل عنا مكانها لا نحتاج إلى حفظه ولا نحتاج إلى خازن ولا ناطور ولا حارس ولا احتكار إلى وقت آخر، بلا خوف لص ولا قاطع طريق، ننام في أماكننا وأوطاننا وأوكارنا بلا باب ولا غلق ولا حصن، آمنين مطمئنين مودعين مستريحين، وهذه علامات الأحرار وأنتم عنها بمعزل، وأيضاً فإن لكم بكل لذة ذكرتم من فنون مأكولاتكم وألوان مشروباتكم فنوناً من العقوبات وألواناً من العذاب

مما نحن بمعزل عنها من الأمراض المختلفة والأعلال المزمنة والأسقام المهلكة والحميات المحرقة من الغب والربع والثانية والثالثة والرابعة والتخم والجشأ الحامض والهيضة والقولنج والنقرس والبرسام والسرسام والطاعون واليرقان والديبلان والسل والجذام وذات الجنب والبرص والسكتة والصداع والسكرة والرمل وعسر البول والجرب والجدري والثآليل والدماميل والخنازير والحصبة والخراجات وأصناف الأورام، مما تحتاجون فيها إلى أنواع عذاب المعالجات من الكي والبط والحقنة والسعوطات والحجامة والفصد وشرب الأدوية المسهلة الكريهة الرائحة ومقاساة الحمية وترك الشهوات المركوزة في الجبلة، وما شاكل هذه من ألوان العذاب والعقوبات المؤلمات للأنفس والأرواح والأجساد، كل ذلك أصابكم لما عصيتم ربكم وتركتم طاعته ونسيتم وصيته، فإن أول الناس أول ناس ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾[طه: ١٢١]، ﴿ ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢]، ونحن بمعزل عن هذه كلها، فمن أين زعمتم أنكم أرباب ونحن عبيد لولا الوقاحة والمكابرة وقلة الحياء؟ وأنتم ما دمتم في الحياة صحيحي البدن ففي تعب وكد لتحصيل الالتماسات والمشتهيات، وما دمتم مرضى ففي عقوبة وحسرة، وبعد الموت في العقاب والعذاب والخطاب ووقوف الحساب، ونحن فارغون من هذه الجملة، فمن الموالي والعبيد منا ومنكم؟ قال الإنسي: قد يصيبكم يا معشر الحيوان من الأمراض مثل ما يصيبنا ليس هو شيء يخصنا دونكم. قال زعيم الطيور: إنما يصيب ذلك من يخالطكم منا من الحمام والديك والدجاج والبهائم والأنعام، أو من هو أسير في أيديكم ممنوع عن التصرف برأيه في أمر مصالحه، فأما من كان منا مخلى برأيه وتدبيره لمصالحه وسياسته ورياضته لنفسه فقلّ ما تعرض له الأمراض والأوجاع، وذلك أنها لا تأكل ولا تشرب إلا وقت الحاجة بقدر ما ينبغي من أجل ما ينبغي من لون واحد قدر ما يسكن ألم الجوع، ثم تستريح وتنام وتروض وتمنع من الإفراط في الحركة والسكون في الشمس الحارة أو في الظلال الباردة أو الكون في البلدان غير الموافقة لطباعها أو أكل المأكولات غير الملائمة لمزاجها، فأما الذي يخالطكم من الكلاب والسنانير ومن هو أسير في أيديكم من البهائم والأنعام فهي ممنوعة من التصرف برأيها في مصالحها في أوقات ما تدعوها طباعها المركوزة في جبلتها، وتطعم وتسقى في غير وقته أو غير ما تشتهي، أو من شدة الجوع والعطش تأكل أكثر من مقدار الحاجة ولا تترك أن تروض نفسها كما يجب، بل تستخدم وتتعب أبدانها فتعرض لها بعض الأمراض من نحو ما يعرض لكم، وهكذا حكم أمراض أطفالكم وأوجاعهم، وذلك أن الحوامل من نسائكم وجواريكم المرضعات يأكلن ويشربن بشرههن وحرصهن أكثر ما ينبغي من ألوان الطعام والشراب التي ذكرت وافتخرت بها، فتتولد في أبدانهن من ذلك أخلاط غليظة متضادة الطباع، فيؤثر ذلك في أبدان الأجنة التي في بطونهن وفي أبدان أطفالهن من ذلك اللبن الرديء، ويصير سبباً للأمراض والأعلال والأوجاع من الفالج واللقوة والزمانة واضطراب البنية وتشويه الخلق وسماجة الصورة، وما ذكرت من اختلاف الأوجاع والأمراض مما أنتم مرتهنون بها معرضون لها، وما يعقبها من موت الفجأة وشدة النزع، وما يعرض لكم من ذلك من الغم والحزن والنوح والبكاء والصراخ والمصائب، وكل ذلك عقوبة لكم وعذاب لأنفسكم من سوء أعمالكم ورداءة اختياراتكم، ونحن بمعزل من هذه

كلها، وشيء آخر ذهب عليكم أيها الإنسي، تأمله وانظر فيه. قال: ما هو؟ قال: إن أطيب ما تأكلون وألذ ما تشربون وأنفع ما تتداوون به هو العسل، وهو لعاب النحل وليس منكم، بل من الحشرات، فبأي شيء تفتخرون علينا؟ وأما الملبوسات الجيدة التي لكم أيضاً فهي من لعاب أضعف حيوان، وأما أكل لب الثمار ولب الحبوب فنحن مشاركون لكم فيها عند إدراكها رطبة ويابسة، فبأي شيء تفتخرون به علينا وقد كان آباؤنا مشاركين فيها لآبائكم بالسوية أيضاً أيام كانوا في ذلك البستان الذي بالمشرق على رأس ذلك الجبل كانا يأكلان من تلك الثمار والحب بلا كد ولا تعب ولا عناء ولا عداوة بينهم ولا حسد ولا استتار ولا جنى ولا ادخار ولا حرص ولا بخل ولا خوف ولا هم ولا غم ولا حزن، حتى تركا وصية ربهما واغترا بقول عدوهما وعصيا ربهما وأخرجا من هنالك عريانين مطرودين، ورميا من رأس ذلك الجبل إلى أسفله فوقعا في برية قفر لا ماء فيها ولا شجر ولا كنّ، فبقيا فيها جائعين عريانين يبكيان على ما فاتهما من النعم التي كانا فيها هناك، ثم إن رحمة الله تداركتهما فتاب عليهما وأرسل إليهما من هناك ملكاً يعلمهما الحرث والزرع والحصاد والدياس والطحن والخبز واتخاذ اللباس من حشيش الأرض والقطن والكتان والقصب بعناء وتعب وجهد وشقاء لا يحصي عددها إلا الله مما قد ذكرنا طرفاً منها قبل، فلما توالدت وكثرت أولادهما وانتشروا في الأرض براً وبحراً وسهلاً وجبلاً وضيقوا على سكان الأرض من أصناف هذه الحيوانات أماكنها وغلبوها على أوطانها وأخذوا منها ما أخذوا وأسروا منها ما أسروا وهرب منها ما هرب وطلبوها أشد الطلب؛ وبغيتم وطغيتم عليها حتى بلغ الأمر إلى هذه الغاية التي أنتم عليها الآن من الافتخار والمناظرة والمنازعة والمخاصمة، وأما الذي ذكرت بأن لكم مجالس اللهو واللعب والفرح والسرور وما ليس لنا من الأعراس والولائم والقصص والحكايات والمضحكات والتحيات والتهنئات والمدح والثناء والحلي والتيجان والأسورة والخلاخل وما شاكلها مما نحن بمعزل عنها؛ فإن لكم أيضاً بكل خصلة منها ضروباً من العقوبات وفنوناً من المصائب وعذاباً أليماً مما نحن بمعزل عنها، فمن ذلك أن لكم بإزاء الأعراس المآتم، وبدل التهنئة التعزية، وبدل الألحان والغناء النوح والصراخ، وبدل الضحك البكاء، وبدل الفرح والسرور الغم والحزن، وبدل المجالس والإيوانات العالية القبور المظلمة والتوابيت الضيقة المظلمة، وبدل الحصون الواسعة الحبوس والمطامير الضيقة المظلمة، وبدل الرقص الدسندان والسياط والعذاب والضرب والعقاب، وبدل الحلي والتيجان والخلاخيل والأسورة القيود والأغلال والسوامير والمقاطير والنكال وما شاكل ذلك، وبدل المدح والثناء الهجو والشتم وسوء الثناء، وبدل كل حسنة سيئة، وبدل كل لذة ألم، وبدل كل نعمة بؤس، وبدل كل فرح غم وهم وحزن ومصيبة مما نحن بمعزل عنه، وهذه كلها من علامات الأشقياء، وإن لنا بدلاً من مجالسكم وصحوناتكم وإيواناتكم ومنادمتكم هذا الفضاء الفسيح وهذا الجو الواسع، والرياض الخضرة على شطوط الأنهار وسواحل البحار، والطيران على رؤوس البساتين والأشجار، والتحلق على رؤوس الجبال، نسرح ونروح حيث نشاء من بلاد الله الواسعة، ونأكل من رزق الله الحلال من غير تعب وكد، وألوان الحبوب والثمار نجدها من غير أذية أحد، ونشرب من مياه الغدران والأنهار بلا مانع ولا دافع، ولا نحتاج إلى حبل ولا إلى دلو ولا إلى

كوز ولا قربة مما أنتم مبتلون بها من حملها وإصلاحها وبيعها وشرائها وجمع أثمانها بكد ونصب وتعب ومشقة من الأبدان وعناء النفوس وغموم القلوب وهموم الأرواح، وكل ذلك من علامات العبيد الأشقياء، فمن أين ثبت لكم أنكم أرباب ونحن عبيد لكم؟ انتهى من إخوان الصفا.

تذكرة

مما يناسب هذا المقام أن أذكر ما اتفق لي في أول شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠م عند طبع هذه السورة، ذلك أني أصابني زكام وإمساك وسعال في آن واحد، وقد قرأت في الكتب الطبية القديمة أن الزكام ينفعه أن يترك الإنسان الطعام والشراب يوماً وليلة ويصب الماء الحار الذي يطيقه على رأسه ويسرع بلفها في كساء حالاً، فتركت الطعام والشراب يوماً وليلة، ولكني سمعت قبل القيام من النوم قائلاً يقول: ليكن ذلك ٣١ساعة، فأخرت الطعام والشراب كما سمعت، ثم شربت ماء دافئاً مع عصير الليمون، ثم تعاطيت الطعام وأخذت أستحم بالماء المسخن كل يوم ثم أتبعه بالماء البارد، فذهبت الأمراض الثلاثة متتابعة ولم يظهر لها أثر ولا أعراض، وقد كنت لأجل السعال أشرب كل يوم فنجالاً واحداً مملوءاً بالزيت الحار الدفيء صباحاً قبل الأكل، فلأحمد الله على صحة هذه التجربة، وهاأنا ذا أعيش على الخضر والفاكهة مدة سنتين قد أحسست فيهما بصحة جيدة، والحمد لله رب العالمين.

حكاية عصرية تناسب هذا المقام

جاء في مجلة «الدنيا المصورة» ما نصه:

رجل وامرأة في جزيرة مقفرة

من أنباء برلين أن الدكتور بول ريتر كان يمني نفسه مثل الكثير من أرباب الخيال الواسع بأن يطرح مظاهر المدنية ويتجرد من أسبابها ويعيش عيشة الفطرة الأولى في مكان قفر لم تطأه أقدام بني الإنسان. ولكن ما لبث أن حقق هذه الأمنية وراح يعيش في جزيرة مقفرة وهي جزيرة شارلز داروين إحدى جزر أرخبيل جالاباجوس على بعد سبعمائة كيلو متر من سواحل أكوادور في أمريكا الجنوبية، ولم يصطحب معه في منفاه الاختياري إلا امرأة واحدة من صديقاته. ومرت الأيام بآدم وحواء الجديدين وهما بعيدان عن العالم لا يعرفان عنه شيئاً ولا يعرف العالم عنهما خبراً، حتى اكتشفهما المستر أوجين ماكدونالد رئيس إحدى البعثات الأمريكية في جزائر المحيط الباسفيكي. وكان الدكتور ريتر ورفيقته الفراو هلداكروين قد غادرا هامبورغ في شهر يونيو الماضي ووصلا إلى ميناء جواياكيل في جمهورية أكوادور في أكتوبر الماضي، ومن هناك اشتريا زورقاً شراعياً وأقلعا فيه إلى تلك الجزيرة النائية حتى وصلاها، فعاشا فيها كما كان يعيش آدم وحواء في جنة الفردوس. وقد نفذا مشروعهما بدقة. وكان الدكتور ريتر قد عوّد نفسه على الحياة البسيطة من قبل. فكان في أيامه السابقة عند إقامته في برلين يعيش في منزله عارياً مجرداً من ثيابه، وإذا خرج من منزله خرج في ثوب خشن مكون من قطع من القماش أوصلها بنفسه في بعضها البعض. وراض نفسه على أن يعيش على الفاكهة وغلال القمح والخضراوات. وكانت زوجته لا تستطيب هذه الحياة فلم يستطع أن يقنعها بأن تترك نعيم المدنية وأطايبها بل هجرته وراحت تعيش في فيلا منعزلة في بادن حيث أقامت مع أهل زوجها.

وإذ ذاك اتصل الدكتور ريتر بامرأة أخرى وهي الفراو هلداكروين، وكانت تشكو من اضطرابات عصبية وقدمت إلى الدكتور ليعالجها فتعارف بها وشفاها من مرضها بأن جعلها تعيش عيشة الطبيعة والفطرة الأولى. وكانت هذه السيدة متزوجة وسعيدة في زواجها. ولكن الدكتور ما لبث أن فتنها بآرائه ومذهبه واستولى على لبها بحديثه الخلاب وأغراها على أن تطالع كتب نيتشه الفيلسوف الألماني ولقنها تعليمات البوذية، وما لبثت أن أصبحت مريدة له مشتعلة بمحبته تطيعه طاعة عمياء. ولما أخبر زوجته بأنه راحل عن أوروبا وعن العالم المتمدن في صحبة امرأة أخرى لم تعارضه في ذلك بل طلبت له التوفيق في رحلته. وكان قد قرأ في بعض قصص الأسفار شيئاً عن جزيرة شارلز داروين فقرر أن يعيش فيها، وقضى بضعة أسابيع فيها يجمع الجهازات والأدوات العلمية التي تلزمه في رحلته حتى صرف كل ما يمكنه في شراء هذه الأشياء، واقترض مبلغاً من المال على حساب الميراث الذي يناله بعد وفاة أبيه. ولم يكن يخشى إلا شيئاً واحداً وهو مرض الأسنان، ولذلك اقتلع كل أسنانه ووضع بدلها طقماً صناعياً. وسافر الاثنان بعد أن أخبرا أصدقاءهما أنهما سيعيشان عرايا مثل آدم وحواء في هذه الجزيرة التي ستصبح لهما جنة عدن. ثم اختفت أخبارهما إلى أن اكتشفهما أخيرا رئيس البعثة الأمريكية عائشين في سعادة وغبطة وهناء. انتهى ما جاء في المجلة المذكورة.

اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً على نعمة العلم والحكمة، وعلى أنك علمتنا ما لم نكن نعلم وشرحت صدورنا إلى تطبيق آي القرآن على الحوادث الإنسانية والحيوانية، وكررت قصة آدم وإبليس في سور كثيرة لتذكرنا بما انتاب هذا الإنسان من الضعف والوهن والأمراض بسبب مجاوزته لفطرته التي فطرته أنت عليها.

فيا عجباً. كيف نرى هذا الإنسان يفرح ويفتخر بما هو مهلك له، وكيف أصبحت لذته منوطة بذلته. اللهم إن هذه الحال لها بعض الشبه بحال المسيح الدجال الذي من دخل جنته فهو في النار ومن دخل ناره فهو في الجنة، الناس جميعاً مغرمون بكل ما لذ وطاب، وهم جميعهم إلا قليلاً منهم يرون ذلك هو عين السعادة مع أنهم يرون بأعينهم العقاب العاجل لكل بطنة ولكل شهوة. اللهم إن هذه الحياة كلها على سنن واحد لا اختلال فيه. الناس جميعاً مستلذون بما العذاب نتيجته، فإذا استلذ الشرهون بكثرة المآكل فالعذاب واقع ما له من دافع في هذه الحياة، وإذا كثر الإسراف في الملابس وحفلات الزواج أعقبه الخراب العاجل أو الآجل، وإذا جاءت الأمم المستعمرة وقالت للناس: هانحن أولاء جئنا لنرقيكم ونسعدكم، كانت نتيجة ذلك إكثار الجهل وإذاعة الفسوق والعصيان وشرب الخمر لا فرق في ذلك بين أهل الهند ومصر وغيرهما من البلدان. ألم تر إلى ما حدث في زماننا أيام كتابة هذا الموضوع من أن المتطوعين المتبعين لغندي زعيمهم يقفون على أبواب الحانات ومعهم زوجة ذلك الزعيم لمنع الشاربين من الشرب، وعلى أبواب حوانيت البزازين ليمنعوا الناس من شراء الملابس الأجنبية، فيرى هؤلاء المتطوعون الجند أمامهم شاكي السلاح ليمنعوهم ويأخذوهم إلى السجون.

إذن المستعمرون يظهرون لهم أنهم نافعون لهم ولكنهم يريدون لهم الشر والعذاب. فما دخل المستعمر قرية إلا عمها سائر المعاصي والمعاصي محبوبة للنفس، إذن هي في ظاهرها جنة وفي باطنها

نار، فالمسيح الدجال وإن لم يظهر لنا بهيئته فقد ظهرت لنا آثاره بل آثاره ملازمات لهذا الإنسان، فالانغماس في اللذات سواء أكانت مآكل أو مشارب أو ملابس أو وعوداً برّاقة بالرقي من الأمم المستعمرة، كل ذلك نتيجته الهلاك والدمار والعذاب.

اللهم أنت حبستنا في هذه الأرض لنقص نفوسنا، وأنزلت في القرآن قصة آدم وإبليس لتذكرنا بفطرتنا، وهانحن أولاء نظن أنفسنا أننا أرقى من المتوحشين في نظرنا مع أنهم هم على الفطرة ونحن عاصون بعوائدنا وأحوالنا وجهلنا. اللهم ألهم المسلمين أن يفكروا في نظام أرقى من هذا النظام الحالي فيكون الناس ألفة واحدة نظيفة من الغش والخداع والبطنة والسرقة وما أشبه ذلك، فتحسن العقول والمدنيات ويقل المرض والطب والقضايا والقضاة، ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الأعراف: ٢٠٠]. انتهى صباح يوم الأحد ٢٢ يونيو سنة ١٩٣٠.

نور النبوة في هذا الزمان في الفيتامين والطيارات

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص: ٨٢]

جاء في الحديث الشريف: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» أخرجه الشيخان. وقال صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم» أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي، وهذا الحديث والذي قبله من كتاب «تيسير الوصول» المتقدم ذكره.

وجاء في الجزء الثالث من ذلك الكتاب ما نصه: «أمتي مثل المطر لا يدرى آخره خير أم أوّله» أخرجه الترمذي وصححه. وإنّما ذكرت هذه الأحاديث في هذا المقام ليتفكر فيها المسلم.

أيها المسلمون، إن انتشار الطيارات في الأمم يوجب على المسلمين تعلمها والارتقاء فيها حتى ينتظم البريد الجوي بين مسلمي مصر وبلاد شمال أفريقية ومسلمي الهند والصين والعرب، وهذا آت قريباً، ومتى تواصلوا ظهرت عجائب النبوة. ألا ترى أنهم في الأزمان المتأخرة لم يكن هناك ذلك التواد بينهم ولا ذلك التألم.

ألم تر أن المسيحيين لما هجموا على بلاد الإسلام أيام الحروب الصليبية كانوا متحدين، أما المسلمون فإن الذين جاهدوا وصبروا هم أهل الشام ومصر ومن حولهم من بلاد الإسلام أما المسلمون في شمال أفريقية فإنهم أبوا أن يعينوا إخوانهم، ألم تر أن المسيحيين في إسبانيا اجتاحوا بلاد الأندلس ولم يحرك المسلمون الآخرون ساكناً! أين الإسلام إذ ذاك؟ أفلست ترى أن هذا الزمان أي زمان الطيارات التي ستعم بلاد الإسلام هو المراد بالحديث الشريف؟ وأن المراد بالمؤمنين هم الكاملون؟ أما المؤمنون الذين ليس عندهم هذا الشعور فهم ناقصون.

ولا جرم أن المسلمين في المستقبل أولئك الذين يعرف بعضهم أخبار بعض ويعينهم على ذلك الطيارات بالرحلات والجولات في الأقطار وأنواع البرق والتلغراف ذي السلك والذي لا سلك له، فهؤلاء هم المرادون بهذا الحديث، إذ يتأثر المسلم في الصين بما يصيب أخاه في السودان عند سماع

أخباره، وهذه الطيارات كما تكون هي وغيرها سبب معرفة الأخبار الإسلامية في الأقطار النائية تكون أيضاً سبب لتبادل المنافع بين الأمم الإسلامية خاصة والأمم كلها عامة، ويصبح أهل الأرض كلهم كأنهم أمة واحدة، ويعمرون الأرض ويستخرجون كنوزها، ويكون الناس إذن أشبه بالطير من وجوه:

أولاً: أن كل طير يأخذ رزقه الخاص به مما نتج من الأرض بغير طبخ ولا خبز لا كما يفعل الإنسان.

ثانياً: إن الإنسان صار يطير كما يطير الطير.

ثالثاً: إذا استخرجت منافع الأرض سهل على كل امرئ أن يأخذ منها رزقه، فهو ليس في حاجة إلى مد يده لغيره، فكثرة المعاونة جعلت الرزق موفراً للجميع، أوَليس هذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

ولا جرم أن هذا هو الذي يظهر من أسرار الفيتامين، فالطيور تقتات بالحب الذي لا ضرر فيه، والإنسان بكثرة الصناعة فيه قتل مادة الحياة فابتلي بالأمراض فاحتاج إلى زيد وعمرو فشرعت الصدقات، فأما هذه الحال العالية للأمم الإسلامية فهي التي أشار لها حديث الصدقة، إذ قال صلى الله عليه وسلم كما في الجزء الثاني من كتاب «تيسير الوصول لجامع الأصول» في الفصل الثاني في الحث على الصدقة إذ قال صلى الله عليه وسلم: «تصدّقوا فيوشك الرجل أن يمشي بصدقة فيقول الذي يعطاها لو جئتنا بها بالأمس قبلتها أما الآن فلا حاجة لي فيها فلا يجد من يقبلها منه» أخرجه الشيخان والنسائي.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب فلا يجد أحداً يأخذها منه» أخرجه الشيخان.

فيا ليت شعري. أيتها الأمم الإسلامية، لم نزلت هذه الأحاديث؟ إنها نزلت لتثير في المسلمين الحمية حمية الإسلام، فنجعل هذه الحوادث نصب أعيننا ونسعى ونجد لبلوغ هذه المنزلة الرفيعة. نحن المسلمين قد تفرقنا في بقاع الأرض، فنحن في كل قطر من أقطارها. فنحن في أمريكا وآسيا وأوروبا وأستراليا. فلنعمم الطيارات بيننا مصداقاً لحديث التواد والتراحم. ولنعمر أرض الله مع الأمم حتى تعم البركات والسلام، ومتى عمّ ذلك لم يكن للصدقة معنى، وهنالك يظهر سر التوكل وتصح الأجسام بالمحافظة على الفيتامين. وبالجملة فأمام أمم الإسلام ما يأتي:

(١) تعميم الطيران كالطير والبرق السلكي والذي لا سلك له.

(٢) وهذا يترتب عليه أن يكونوا كأعضاء الجسد الواحد من حيث سرعة وصول الأخبار في الجسد بالأعصاب وفي الأمم الإسلامية بطرق المواصلات.

(٣) فإذا عمروا أرض الله مع الأمم بذلك السبب كثر الرزق فأخذ كل امرئ قوته من غير ادخار كالطير.

(٤) هنالك تردّ الصدقة ولا تقبل.

(٥) ولما كان الطير لا يمس الطعام بنار كان الفيتامين فيه موفراً فهكذا ستكون الأمم المستقبلة. أيتها الأمم الإسلامية، هذا هو الذي فهمته في حديث التوكل ومن حديث الصدقة.

(٦) إذا فهمنا هذا عرفنا سر حديث الترمذي المتقدم الذي شبهت الأمة فيه بالمطر لا يدرى آخره خير أم أوله، فهنالك نفهم سر هذا الحديث، لأن الأمم الإسلامية التي ستظهر بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله ستعرف نعم الله وتفهم هذه الدنيا، ومتى اتصفوا بالصفات الخمس المتقدمة كانوا خير أمة أخرجت للناس. فهم يكونون كالصدر الأول من الصحابة والتابعين الذين ملؤوا الأرض نوراً وعلماً، وهؤلاء سيكونون رسل السلام بين الأمم. فهاهنا ست معجزات نبوية أقبلت عليها الأمم الإسلامية، وهذا التفسير جعل مقدمة لهذه الحال الشريفة.

(٧) وهناك معجزة سابعة وهي أن المسلمين متى شاركوا الأمم في بحث الفيتامين وصاروا موقنين بسبب البحث العلمي أن المآكل التي تؤكل على فطرتها كما يأكلها الطير أصح من التي دخلتها الصنعة وأكثر تقوية لأجسامهم وإطالة لأعمارهم؛ فإنهم حينئذ تحصل عندهم القناعة فلا يحتاجون إلى التغالي في طهي الطعام الموجب الادخار. وإذن يتركون أخذ الصدقة لا سيما إذا صارت الكرة الأرضية كلها على وتيرة واحدة في استخراج الخيرات وكان لكل امرئ عمله الخاص به كالطير.

(٨) ولست في حاجة أن أذكرك أيها الذكي بما تقدم كثيراً في هذا التفسير من أن هذه الحال هي التي ستأتي في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾[محمد: ٤]، وهي الحال العيسوية التي فيها تكون الأمم كلها في حال سلام كما قاله المفسرون.

(٩) فهذا هو التوكل الذي أشارت له النبوة. وهذه هي الإنسانية الصادقة في هذه الأرض. ولما كان الصحابة رضي الله عنهم قد أمروا أن ينشروا الدين وكانت الأمم الأرضية إذ ذاك غير صالحة للسلام العام أنزل الله آيات الجهاد وأباح الغنائم للمجاهدين.

ولا جرم أن الغنائم قد أعانتهم على إصلاح الأمم على مقدار الطاقة في زمانهم، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وجعلوا تلك الغنائم موقوفة على الشهوات، فانحطت تلك الأمم وظهر سر حديث: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا الخ» وتراه في تفسير سورة «الأنفال» وغيرها.

إذن الأمم الإسلامية التي جعلت الغنائم مقصدها والشهوات رائدها وأخذوا يتقاتلون بالسيوف بعد العصور الثلاثة الأولى على الإمارة والملك ليسوا متوكلين على الله حق توكله، وستكون الأمم التي تفهم ما ذكرنا هنا من بعدنا خيراً منهم وأحسن أملاً واشرف مقاماً وأعلى كعباً في الإسلام ومن يعش يره.

(١٠) إن الأمم التي ستتصف بهذه الأوصاف التسعة تكون سبباً فيما يشبه حنث إبليس في حلفه في هذه الآية، إذ يقول: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[ص: ٨٢] إذ يكثر فيها عدد المستثنى ويقل عدد المستثنى منه.

إن الجهالة المحيطة بكرتنا الأرضية كلها:

(أ) يعبر عنها بإغواء إبليس: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[البقرة: ٢٦٨] وعِدَته الناس بالفقر تحملهم على الحرص والطمع والجمع والادخار والحسد، وهذا يفتح باب العداوات والشرور والحروب.

(ب) ويعبر عنها بتزيين الشيطان: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[النمل: ٢٤].

(جـ) وبالإزلال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[البقرة: ٣٦]، وهاهنا خرج الناس في مطاعمهم ومشاربهم وملابسهم عن السنن الطبيعي فانتابتهم الأمراض والفقر، والحيوانات قد برئت من هذه الأوصاف.

أما هؤلاء فإنهم أرغموا أن يعيشوا عيشة كلها ضنك وضيق بسبب العادات الموروثة في طعامهم الذي يتأنقون فيه ومساكنهم وملابسهم وعاداتهم، وهم جميعاً يريدون أن يخرجوا من نار هذه الأحوال وما هم بخارجين منها ولهم عذاب الذل المقيم بها في الحياة وبنتائجها بعد الموت، ولكنهم سيخرجون فرحين بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

انتهى تفسير سورة «ص»، والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة الزمر
هي مكية إلا قوله تعالى:
﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣) ﴾
إلى قوله تعالى:
﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) ﴾
فمدنية
آياتها ٧٥،نزلت بعد « سبأ »

هذه السورة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: من أول السورة إلى قوله: ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) ﴾، وفيه التوحيد والاستدلال بعجائب السماوات وخلق الأنعام والإنسان والنبات والينابيع الأرضية ونزول المطر واختلاف الزروع وعجائبها وهكذا.

القسم الثالث: من قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ إلى آخر السورة. فيه هيئة النفخ والحساب ووصف الفريقين: أهل الجنة. وأهل النار وما أشبه ذلك.

القسم الأول:في تفسير البسملة

بالرحمة قامت السماوات والأرض وانتظم العالم وبهر الوجود، فهي كضوء الشمس، وكما أن ضوء الشمس يأخذ منه كل حيوان ونبات ما يليق له ويواتي طبعه ويوافق هيكله وهو من الرحمة العامة أيضاً، هكذا جميع الرحمات تنال المخلوقات منها على حسب استعدادها.

وكما أن علماء الطب في زماننا كما تقدم مراراً في هذا التفسير، يقولون إنهم قدموا للفيران طعام الأرز وأبقوها في الظلمات أياماً فضعفت أجسامها وأخذت تقترب من الموت سراعاً، ولما قدموا لنفس الفيران البرتقال فأكلته وهي في الظلام لا تقابل ضوء الشمس قويت وانتعشت وصارت ترتع وتلعب. فاستنتجوا من ذلك أن الأرز لم يأخذ من ضوء الشمس إلا قليلاً. فأما البرتقال فإنه أخذ منها كثيراً، واستنتجوا هذه القاعدة الغذائية فقالوا: إن الأرز أكله غير صحي. أما أكل البرتقال فهو مقوٍّ جداً. والأول لم يستفد من ضوء الشمس إلا قليلاً والثاني استفاد كثيراً. ففيه خزن الله قوة حيوية

عظيمة منه تنتقل إلى الإنسان. وقد قالوا: إن ذلك في الأرز المقشور، أما الذي بقشره الملاصق للحب فهو مفيد كما يفيد القمح إذا لم ينخل وأكله بحاله. وعلى هذه القاعدة كانت جميع قشور الفواكه التي يمكن أكلها مع الفاكهة نافعة صحية للإنسان

كل ذلك لاستفادتها من ضوء الشمس. إذن مادة الحياة جعلها الله في ضوء الشمس، وضوء الشمس يخزن في الأغذية، وعلى قدر ما خزن فيه من ضوئها تكون نتائجه في حياتنا، ولذلك يقولون: إن الأجسام المكشوفة للشمس المعرضة لضوئها أصح وأقوى من المغطاة المحجوبة عن الشمس، لأن سر الحياة يمتصه الجسم من ذلك الضوء، ولا ريب أن استمداد القوة من نفس الضوء مباشرة بمسام الجلد أبلغ قوة وأنفذ وأتم من أخذها من الطعام.

أقول: كما أن علماء الطب قالوا ذلك ووضح في غير هذا المكان وهذا في رحمة خاصة؛ فهكذا نقول في الرحمة العامة فهي تتفاوت مقاديرها بتفاوت القوابل لها من المخلوقات.

فاعجب ــ ألهمك الله الرشد وأنعم عليك بنعمة العلم وهداك الصراط المستقيم ــ من طفل لا يشعر إلا بما حواه جلد من عواطف ومطالب، ويرى أن جميع من حوله له مسخرون، فلا يرى في أمه إلا أن ترضعه، ولا في أبيه إلا أن يداعبه ويلاعبه، ولا في إخوته وأخواته إلا أن يضاحكوه. فهو لا يهتم بغير شؤون نفسه. فإذا ترعرع وكبر وصارت له زوجه وولد اتسعت رحماته، فبعد أن كانت لا تتعدى محيط دائرة جسمه أخذت تسع أسرته وبنيه، وقد يسبغ النعمة على الأهل والجيران بل البلدة بل الأمة إن كان ملكاً بل الأمم كلها إن كان عالماً عام النفع. إذن كما أننا رأينا البرتقال امتص من الشمس «الفيتامين» قوة الحياة أكثر من حب الأرز وكانت نتائجهما على مقدار ما استفدنا منهما، هكذا استمدت نفس الصبي واستمدت نفس الرجل من الرحمة العامة ــ التي أحاطت بظواهر العوالم وبواطنها كما أحاط النور بظواهرها ــ رحمة خاصة، فكانت عند الصبي لا تعدو دائرة جسمه وعند الرجل أعظم، فتتسع الدائرة شيئاً فشيئاً حتى ربما بلغت المشرقين، وما هي إلا استمداد من تلك الرحمة العامة كاستمداد الغذاء مادة الحياة سواء بسواء.

وكما أن من الناس من يعيشون ويموتون ولا يعقلون من الحياة إلا ما يعقله الصبي في مثالنا ولا يهتمون إلا بدائرة أجسامهم، فحكوماتهم وممالكهم وتعليمهم كل ذلك يدور على محور واحد وهو المنفعة الخاصة ولا يبالون بالمنفعة العامة، وإنّما تأتي عفواً من حيث لا يقصدون، وهكذا في نوع الإنسان قوم آخرون هم في الذروة العليا، علموا من العلم ما حرك هممهم إلى المنافع العامة، فنفوسهم أشبه بالشموس، وعلومهم وأعمالهم أشبه بأضوائها، ونتائجهم أشبه بنتائج ضوء الشمس، وهؤلاء هم عماد أهل هذه الأرض، انظر في الشرق والغرب لا تجد إلا هذه القاعدة، نعم إن الأمم اليوم أقرب إلى المادة ولكن لم يرفع رأس الإنسانية إلا أناس وجدوا في أنفسهم ميلاً إلى العلم والكشف، فهاموا به هياماً وانقطعوا له انقطاعاً وحبسوا نفوسهم وصبروا على البلواء إيقاناً بما هم قائمون به، ومنهم من قتل، ومنهم من سجن. ذلك كله في العصور المتأخرة وذلك في الأمور الجزئية من كشف أمر طبيعي أو كيماوي أو فلكي. وفوق هؤلاء وهؤلاء الحكماء المحققون. وفوقهم جميعاً الأنبياء والمرسلون.

فالرحمة عندهم بلغت منتهاها وانتهت إلى الذروة، فصاروا هم الشموس المشرقة على الناس أجمعين. لا يريدون بالتعليم والتبليغ جزاء من القوم الذين أرسلوا إليهم ولا شكوراً. كلا. ولقد ضرب الله لهم مثلاً فيما نشاهده في منازلنا. فإننا نرى الأم ترضع ولدها، وإذا سئلت عن ذلك قالت لا أريد إلا حياته ولا مطلب لي وراء ذلك، فهذا منها إخلاص، وهذا الإخلاص جعل فيها غريزة لا تقدر على دفعها. هكذا الأنبياء ويليهم المصلحون من المؤمنين. فتش في نفسك أيها الذكي، فإن رأيت في نفسك هذا المعنى فاعلم أنها قد اقتبست هذه الرحمة من الرحمة العامة، واعلم أنك نافذ الكلمة، وإن رأيت نقصاناً فسيكون نفعك وآثارك على مقدار ما وصلت إليه من الإخلاص.

إذا فهمت هذا فافهم بعض سر البسملة في أول سورة « الزمر ». إنها مسبوقة بذكر الإخلاص وما أشبهه مرتين في سورة « ص »:

(١) ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾[ص: ٤٦]. ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾[ص: ٤٧]

(٢) ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[ص: ٨٣].

(٣) وقد ذكر بعدها في سورة « الزمر »: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾[الزمر: ٢].

(٤) ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾[الزمر: ٣].

(٥) ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾[الزمر: ١١].

(٦) ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾[الزمر: ١٤].

ومن هذه الست أنه أمر أن يعبد مخلصاً الدين لله. وأن يعلن أنه أمر بذلك، وأن يعلن نفس هذه العبادة مع الإخلاص. فهذه الثلاثة من الست المتقدمة.

إذا علمت هذا فما أسهل أن تفهم الآية المذكورة قبيل هذه البسملة في آخر سورة « ص »: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[ص: ٨٦]، وإذا كنا نرى المرأة لا تتكلف في إرضاع طفلها ونعرف الفرق بين إخلاصها في إرضاعه وبين تكلفها في إرضاء زوجها الذي تكرهه مثلاً، فهكذا نحن نعرف الفرق بين الأنبياء في إخلاصهم في تعليمهم الأمم وبين أولئك الذين يعيشون في جلودهم ويجعلون الناس كأنهم خلقوا لفائدتهم. المخلصون لا يبتغون أجراً على عملهم. فنفس العمل مسرّتهم ولذتهم وسعادتهم وإن كانوا في السجون أو في النفي، كما ترضى المرأة بالسجن والنفي ولا ترضى بالامتناع عن إرضاع ولدها، فهذا مثل تقريبي لآية: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[ص: ٨٦].

هذه الآية نزلت لنعتبر نحن بها، فليداوم المرء على الطاعة والبحث والجد في العلم حتى يحس في نفسه بهذه العاطفة والحب العام، ولن يكون في القلب الحب العام إلا بمعاودة النظر في هذه العوالم كرة بعد أخرى، فهناك تتربى عاطفة الحب، فالحب لا يكون إلا بعد العلم ولا إخلاص إلا مع الحب، فليكن تعليم المسلمين هكذا: (١) إعداد العقل للفكر. (٢) وإعداد العواطف للحب. (٣) وإعداد اليدين للعمل.

إذا علمت ذلك فانظر في آيات هذه السورة تجدها قد أحاطت بما يعمله المخلصون من المسلمين.

أولاً: لهم لوحان يقرؤونهما وهما لوح السماوات ولوح الأرضين وتكوير ليلهما ونهارهما، وهذا في آية: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾[الزمر: ٥] إلى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾[الزمر: ٥].

فماذا يقرؤون فيهما؟ يجدون في هذين اللوحين محواً وإثباتاً، ضوء يمحو الظلام ثم ظلام يعقب الضوء، إذن هنا لوحان فيهما محو وإثبات كألواح الصبيان في المكاتب، ويرون فوق الأرض هذا العمل نفسه فيحب الإنسان ماله وولده وفتاة جميلة، فيجد المال فني والذرية يعتريها المرض أو الموت والمعشوقة نحل جسمها أو ساء سلوكها أو كبرت سنها ويبس جلدها، أو يجد نفسه أصيب بأمراض منعته هذه اللذات كلها مع وجودها، إذن لا فرق بين الظلمات والأنوار وبين الصور المتتاليات فيما نحبسه على الأرض، فلا جميل إلا قبح ولا شابّ إلا كبر ولا صحيح إلا مرض ولا غني إلا افتقر ولا حي إلا مات ولا حبيب إلا أعرض، وكم غدر الأحباب وأساء الأبناء وأدبر المقبلون وآذى المحسنون.

هناك يقولون: إن هذه الألواح قد استفادت هذه الصور الجميلة من عوالم وراءها كما استمد البرتقال قوة الحياة الأرضية من ضوء الشمس فيما تقدم، وكما استمدت نفوسنا رحماتها من رحمة عامة. فلننظر إذن ولنقس ما لم نعلم بما نعلم. نحن علمنا أن ضوء الشمس فيه قوة الحياة وعلى مقدار إمداده للغذاء تكون قوتنا، إذن الغذاء لم تكن فيه هذه القوة من نفسه بل من ضوء الشمس. إذن هذه القوة لم تكن كامنة فيه بل هي اكتسبته من الشمس. إذن فلتكن هكذا نفسي. فإذا كانت طبيعة الأرض عجزت عن أن تعطي البرتقال مثلاً وبقية الثمار الفيتامين واحتاجت تلك الثمار إلى عالم فوق أرضنا وهي الشمس فاستمدت منها قوتها هكذا نفوسنا المخلوقات في أجسامنا لم تكن فيها الرحمة من نفس المادة الأرضية هذه التي عجزت عن أن تمد الفاكهة بالفيتامين، بل رحمتها استمدت من رحمة تعم ظواهر المادة وبواطنها، ونسبتها إلى نفوسنا كنسبة ضوء الشمس إلى أغذيتنا وفواكهنا. فإذا احتاجت مادة الأرض إلى ضياء الشمس لتمد البرتقال بمادة الحياة فلتكونن رحمة الأم لولدها مستمدة من رحمة عامة عجزت عنها المادة الأرضية، وذلك من باب أولى لأن عواطف الأرواح أرقى وأعز من قوى الأغذية.

وإذا صح هذا القياس وإن كان إقناعياً فليصحنّ القياس الآتي، وهو أن هذين اللوحين الأرضي والسماوي وما صور بينهما من مخلوقات نرى لهن جمالاً بديعاً في الأنوار وفي الصور الجميلة والوجوه الحسنة والأزهار والزروع، فنفرح ببعضها ونعشقها ونهيم بها غراماً، ثم نرى ذلك كله أصبح كأمس الدابر فيقولون إذن: لا لا، إن هذه العوالم وراءها من يرسمها وينقشها ويرقشها ويجندرها ويحسن صورها ويملؤها بالروعة والجمال ليعطينا دروس الجمال ويلهمنا العواطف ويعلمنا الحب، ثم لا يبقي جميلاً أمامنا بل هو يهدم الأرض والسماوات وما فيهما.

إذن لماذا هذا؟ ليقول لنا: أنتم عرفتم مادة الفيتامين في الغذاء لم تكن من المادة بل من ضوء الشمس، وعرفتم أن الرحمة فيكم لم تكن من عندكم بالبرهان، فما أسهل أن تعلموا أن المادة لم

ترسم هذه الرسوم والأشكال ولم تبدع هذا الجمال، إذن الجمال عندي أنا فليكن حبكم لي حباً راجعاً إلى جمال فوق ما رأيتم، لقد رأيتم آثار الرحمة وأغرمتم بآثار الجمال والنقوش والعلوم والأزهار والصور الحسان. هذه كلها آثار الجمال لا نفس الجمال، فارتقوا في الأسباب وافرحوا بما سترون من جمالي، هناك ترون جمالاً لا حد له وتحبون حباً لا نهاية له، ربّ الدار أحب إلى الزائر من نفس الدار، وهذه العوالم المنقوشة المرصوفة المجندرة المزوقة المرقشة البهجة المحكمة الصنع رسل أرسلت إليكم لتغريكم بأن تروا من نقشها وصوّرها فأحسن صورها، فإذا سمعتم قولي: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾[البقرة: ١٥٦] فاعلموا أني أنا الذي أصبتكم بهذه المصائب لأني أربأ بكم أن تعيشوا في هذه العوالم التي ليس لها عندي منزلة أكثر من منزلة الألواح للصبيان، فأنا أرسلتكم إلى الأرض لتدرسوها وأرسلت عليكم النكبات لتتركوها، وبعد أن أريتكم الجمال حرمتكم منه وحرمتكم من كل ما تحبون، لأن وظيفة المادة تعليمكم، ولا بد من نقلكم إلى عالم آخر يكون أجدر بنفوسكم وأحق بها، وفوق كل جميل أجمل منه، ﴿ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾[يوسف: ٧٦].

ليس على الأرض محبوب إلا لخصلة من خصال خمس: أن يكون جميلاً أو عليماً أو شجاعاً أو محسناً أو بينه وبين المحب له سر مجهول غير ظاهر، ولا جرم أن الجمال والعلم والشجاعة الخ لا بقاء لها في الأرض فمن أين أقبلت وإلى أين ذهبت؟ إن كل هذه إلا آثار أنا خالقها وإلي ترجع. فكل الجمال والعلم والقدرة والحكمة مني ظهرت وإلي ترجع لتوجهوا حبكم إلى منبع الجمال والعلم والحكمة والقوة، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢].

من ذا الذي يرى عنايتنا التامة بالحشرات، فأعطينا النملة (٤٠٠) عين كل واحدة مستقلة عن أختها وهكذا الذبابة أربعة آلاف عين، وألهمناهن كل ما يحتجن إليه في الحياة. من ذا الذي يرى هذا ولا يزداد لنا حباً وبقدرتنا وبعلمنا إعجاباً ويتمنى لقاءنا. وإلى هنا تم الكلام على اللوحين: لوح الأرض، ولوح السماء في آية خلق السماوات والأرض.

ثانياً: لهذه الطائفة درسان: درس خلق الحيوان والإنسان. ودرس خلق النبات وإنزال الماء في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾[الزمر: ٦]. وهاهنا ذكر الأنعام وعجائب الخلق والأحكام والرحمة الخ، وفي قوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾[الزمر: ٢١] إلى قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[الزمر: ٢١] فهاهنا أظهر المحاسن الباطنة والأنوار الروحانية في إبداع الخلق الذي لا يعرف إلا بالعلم والحكمة، وما تقدم أكثره في الجمال الظاهر.

ثالثاً: هذه الطائفة ليلها قيام وصلاة وفكر وعلم حباً لله وشوقاً إليه: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا ﴾[الزمر: ٩] الخ.

رابعاً: هم صابرون ولهم مسرات في الدنيا كما لهم في الآخرة: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ﴾[الزمر: ١٠] الخ.

خامساً: من أخلاقهم التعقل والحكمة فلا يقبلون قولاً إلا بعد نقده واستخلاص الحقيقة منه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ ﴾[الزمر: ١٨] الآية.

سادساً: هم خلفاء الله قوامون على عباده يبشرونهم بالرحمة ويخوفونهم النقمة: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾[الزمر: ٥٣] إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[الزمر: ٥٤].

سابعاً: هذه الطائفة تنال الرضا والعلم وانشراح الصدر والهدى، وأن الله يكفيهم، وذلك في آية: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٩] الخ، وآية: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[الزمر: ٧] الخ، وآية: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[الزمر: ٢٢] الخ، وآية: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[الزمر: ٢٣] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[الزمر: ٢٣]، وآية: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر: ٣٦] الخ.

ثامناً: يكون جزاؤهم أن يكونوا في غرف من فوقها غرف مبنية الخ، وأن تشرق لهم الأرض بنور ربهم، وأن تسلم عليهم الملائكة وتحييهم، وهنالك يرون ما هو أعلى وأجلّ وهو نهاية النهايات إذ يرون الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم، فتكون لذتهم أعلى اللذات ويقولون: الحمد لله رب العالمين، وهذه اللذة العقلية تقدمتها اللذة الحسية في الغرف التي فوقها غرف مبنية، وهل هذه اللذة إلا بالعلوم والمعارف، وهل التسبيح والتحميد اللفظيان إلا مقدمتان للتسبيح والتحميد العقليين، وما ذلك إلا إدراك نظام هذه العوالم، ولن تكون هذه اللذة في الآخرة إلا بمقدمات في الدنيا، بل من لم يدرك بعضها في الحياة فكيف يستكملها بعد الموت.

إن الذكر اللفظي يراد به أن يكون وسيلة للتعقل. ألم ترى كيف يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[آل عمران: ١٩١]الخ فالذكر اللفظي مقدمة للتفكر، والتفكر هو المقصود، ومقصوده هو جمال النظام العام، والعامة يكتفون بالحمد والتسبيح اللفظيين وينتظرون الثواب في الآخرة بالجنة، وهذه المرتبة هي التي يدخل فيها أكثر الناس، فتكون العبادة لها مقابل وهو ثواب الآخرة، وهؤلاء يقل حظهم العقلي، أما أولئك المفكرون العارفون الواقفون على الحقائق فينالون فوق الجنة الحسية سعادة اللقاء والنظر لوجه ربهم ومقدمات هذا دراسة هذه الدنيا.

واعلم أن ما في هذا التفسير أو أكثره من العجائب كاف لإيجاد هذه الطبقة الشريفة، فهم هم الذين يسعدون في نفس هذه الحياة بجمال العلم، ويكون مبدأ الجزاء حاصلاً في الدنيا وهو الابتهاج بالنفس هذه الحقائق، ويكونون نوراً للأمم وهم خلفاء الله في أرضه، عليهم يعوّل الناس في دنياهم وفي طريق آخرتهم، والإنسانية المستقبلة مدارها على أمثال هذه الطائفة.

وإذا شئت زيادة البيان فاقرأ ما تقدم عن «إخوان الصفاء» في جزاء المحسنين، إذ جعل ثواب المحسنين في هذه الحياة الدنيا أنهم يفرحون بالوقوف على الحقائق في عجائب المعادن والنبات والحيوان والسماء والأرض، وهكذا نقلت جملة عن الإمام الغزالي هناك في نحو هذا، وهكذا تنظر ما جاء في سورة «السجدة» من الكلام على جسم الإنسان وموازنته بالعوالم، وما جاء في سورة «فاطر» عند آية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[فاطر: ٢٧] من أن معرفة العجائب هي نهاية اللذات لهذا النوع الإنساني، وما هذه العجائب إلا آثار الرحمة المذكورة في البسملة في أول السورة، وتلك الآثار

بمعرفتها يكون الحب والحمد المذكور في آخرها. فالرحمة أولاً والعلم والحب والحمد آخراً، وهذا من عجائب القرآن.

ألست بهذا أيها الذكي تفهم سر النبوة؟ إذ روى الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم عليه السلام فقال لي: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر». ولا ... أن العلوم والمعارف المنطوية في التسبيح والتحميد هي أعلى الجنة وهذا من عجائب النبوة.

إذا عرفت هذا فاسمع ما جاء في كتاب «تيسير الوصول لجامع الأصول» تحت العنوان الآتي ما نصه:

فصل في الاستغفار والتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد والحولقة

عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خصلتان أو خلتان لا يحصيهما رجل إلا دخل الجنة وهما يسير ومن يعمل بهما قليل: يسبح الله دبر كل صلاة عشراً، ويحمده عشراً، ويكبره عشراً، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعقدها بيده. قال: فتلك خمسون ومائة باللسان وألف وخمسمائة في الميزان، وإذا أخذت مضجعك تسبحه وتكبره مائة مرة، فتلك مائة في اللسان وألف في الميزان، فأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة؟ قالوا: كيف لا نحصيهما يا رسول الله؟ قال: يأتي أحدكم الشيطان وهو في صلاته فيقول: اذكر كذا وكذا حتى ينفتل فلعله أن لا يفعل ويأتيه في مضجعه فلا يزال ينومه حتى ينام» أخرجه أصحاب السنن.

وعن ابن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: «جاء رجل فقال: يا رسول الله لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً فعلمني ما يجزيني؟ قال: قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال: يا رسول الله، هذا لله فماذا لي؟ قال: قل اللهم ارحمني وعافني واهدني وارزقني. فقال هكذا بيديه فقبضهما. فقال صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد ملأ يديه من الخير» أخرجه أبو داود بتمامه والنسائي إلى قوله: ولا قوة إلاّ بالله.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول قبل موته: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه. فقلت له في ذلك. فقال: أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] السورة» أخرجه الشيخان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» أخرجه مسلم والترمذي.

وعن بسيرة مولاة لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما وكانت من المهاجرات الأول، قالت: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس والتكبير، واعقدن بالأنامل فإنهن مسؤولات مستنطقات ولا تغفلن فتنسين الرحمة» أخرجه أبو داود والترمذي واللفظ له.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة » أخرجه أبو داود والترمذي.

وعن أغرّ مزينة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم مائة مرة » أخرجه مسلم وأبو داود، وفي رواية لمسلم: « توبوا إلى ربكم فوالله إني لأتوب إلى ربي تبارك وتعالى في اليوم مائة مرة »، وللبخاري والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة ». قوله: « ليغان » أي يغطى ويغشى والمراد به السهو.

وعن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: « كنت إذا سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعني الله تعالى بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني رجل عنه استحلفته فإذا حلف لي صدقته، وأنه حدثني أبو بكر الصديق رضي الله عنه وصدق أبو بكر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله تعالى إلا غفر له، ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾[آل عمران: ١٣٥] الآية » أخرجه أبو داود والترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه، ومن قال سبحان الله وبحمده، في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » أخرجه الثلاثة والترمذي.

وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير؛ كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة » وفي رواية عوض الثالثة « وبنى له بيتاً في الجنة » أخرجه الترمذي.

وعن جويرية زوج النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم، قال: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته » أخرجه الخمسة إلا البخاري، وقوله: « زنة عرشه » أي: بوزن عرشه في عظم قدره، و« مداد كلماته » أي: مثلها وعددها، وقيل: المداد مصدر كالمدّ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده. سبحان الله العظيم » أخرجه الشيخان والترمذي.

وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة». قال مكحول: فمن قالها ثم قال: «لا منجى من الله إلا إليه» كشف الله عنه سبعين باباً من الضر أدناها الفقر. أخرجه الترمذي. وبهذا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١) إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا
لَّهُ ٱلدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ
إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ
كَٰذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى
ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ (٥) خَلَقَكُم
مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ
أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ
تُصْرَفُونَ (٦) إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ
لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٧) ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا
كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ
أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ
قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٩) قُلْ يَٰعِبَادِ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى
ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ
أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ
مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى (١٤) فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن

تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن
يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ
أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ
ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ
حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ
مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ
ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ
وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾
أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾
ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ
تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟
وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن
دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى
ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ
رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى

عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا
عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ
عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ
عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾
أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ
ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ
ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾
قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ
ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟
وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا
قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ
هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ وهو القرآن كائن ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي: لا من غيره ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ ملتبساً ﴿ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ من الشرك والرياء ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ أي: هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ أي: من دون الله ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي: الأصنام قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ أي: قربة، فإنهم كانوا إذا قيل لهم: من خلقكم وخلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأوثان؟ فكانوا يجيبون بما تقدم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ﴾ أي: يرشد لدينه ﴿ مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ﴾ فيقول: إن الأصنام تشفع ﴿ كَفَّارٌ ﴾ باتخاذه الآلهة ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ ﴾ اختار ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ يعني الملائكة. ثم نزه نفسه فقال: ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ في ملكه الذي لا شريك له فيه،

فقهره مطلق في المخلوقات فكيف يجوز عليه أن يقهره غيره فيموت فيحتاج إلى الولد. كلا. فقهره عام في العالم العلوي والسفلي، أما في العالم العلوي فهو قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ والتكوير اللف واللي، يقال: كار العمامة على رأسه وكوّرها، ولا جرم أن كل واحد من الليل والنهار في تتابعهما أشبه بتتابع أكوار العمامة بعضها على بعض. ألا ترى إلى الأرض وقد دارت حول نفسها وهي مكورة، فأخذ النهار الناشئ من مقابلتها للشمس يسير من الشرق إلى الغرب يلف حولها طاوياً الليل، والليل من الجهة الأخرى يلتف حولها طاوياً النهار، فالأرض كالرأس والظلام والضياء يتتابعان تتابع أكوار العمامة ويلتفان متتابعين حولها وهذا التعبير من أعجب ما يعلم به أن القرآن يرشدنا إلى كروية الأرض أولاً، ويرمز إلى دورانها حول نفسها ثانياً، ذلك لأن الليل والنهار ليسا من خواص الشمس، فلا ليل ولا نهار هناك، وإنما هما في الأرض، فتكوير الأرض ظاهر الآية، ودورانها أتى تابعاً بالرمز والإشارة، وقوله: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي: إلى منتهى دوره أو منقطع حركته ﴿ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب على كل شيء ومنه الشمس والقمر ﴿ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة. وأما العالم السفلي فقوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أي: خلق الله نفس آدم وجعل منها حواء وجعل منهما سائر الناس، ولم يخلقهم بلا عناية بل أنزل الماء من السماء وأنبت الزرع والشجر وخلق الإبل والبقر والغنم والمعز من كل نوع منها زوجين اثنين ذكراً وأنثى فتكون كلها ثمانية أزواج، وتلك الأزواج الثمانية تتغذى بالنبات والشجر النابتة بالماء النازل من السماء، فكأنها نزلت من السماء. وقيل إن هذه الأزواج الثمانية نزلت من السماء، وهذا يوافق قول بعض علماء العصر الحاضر على سبيل الحدس والتخمين: إن أصول المخلوقات نزلت من عالم آخر غير الأرضي، والأمر في هذا غير معلوم فنكله إلى الله تعالى. فالعقول البشرية لا تطيق هذه الحقائق العالية، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾.

ثم أخذ يصف عجائب خلق الإنسان والأنعام في الأرحام ويظهر العجائب في إبداعهما فقال: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ نطفة ثم علقة ثم مضغة وهكذا إلى تمام الخلق ﴿ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الذي هذه أعماله ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ هو المستحق لعبادتكم ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره، على أن الله لم يكلف الناس بالعبادة إلا لرقي نفوسهم فأما هو فغني عن عبادتهم، وهذا قوله: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ لأنه خلق النفوس الإنسانية والعالم كله لارتقائه ونشوئه، فلذلك قال: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ الذي هو مانع من ارتقاء النفوس، وإن كان بإرادته لمانع قام بنفس حقائق تلك النفوس تعلقت الإرادة به على ما هو عليه ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ لأنه على مقتضى سننه القويم العادل وصراطه المستقيم ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي: لا يؤخذ أحد بذنب الآخر ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالمحاسبة والمجازاة ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فلا يخفى عليه خافية من أعمالكم ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ راجعاً إليه

بالدعاء لا يدعو غيره ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ ﴾ أي: أعطاه ﴿ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ من الله ﴿ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ أي: نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ﴿ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ وهي الأصنام ﴿ لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ أي: ليردّ عن دين الله تعالى ﴿ قُلْ ﴾ لهذا الكافر ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ﴾ في الدنيا إلى انقضاء أجلك ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ وهي عامة في الكفار ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ أي: بل أمّن هو مطيع كمن هو عاص، وقوله: «آناء» أي: ساعاته، وقوله: «ساجداً وقائماً» حالان من ضمير «قانتاً» وقوله: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ حالان أيضاً، والقنوت: القيام على الطاعة كقراءة القرآن وطول القيام، وبالجملة كل من قام بعمل يثاب عليه. ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بعد أن ذكر الله تفضيل المطيع على العاصي وذلك في القوة العملية أخذ يوازن بينهما من حيث القوة العلمية، فنفى المساواة بين العالم وغير العالم ولم يبين نوع العلم إشارة إلى أن وجه الموازنة بين الناس ليس مختصاً بعلم واحد بل جميع العلوم، ولا جرم أن العلوم ثلاثة أقسام: علوم لا تتوقف على عمل كالعلم بالله وملائكته الخ، وكالعلوم الحكمية، وعلوم يستتبعها عمل كعلم الفقه، وعلم قوامه العمل كجميع الصناعات، وهذه الأقسام الثلاثة كلها فيها علم ولو قلّ. فالنجار والخائط والناسج كل هؤلاء صناع، والعمل في صناعتهم أكثر من العلم بل لا نسبة بين علومهم وأعمالهم، والمهندس وعالم الفلك علمهم أغلب من أعمالهم. فكل طائفة من هؤلاء أفضل من الجاهل من حيث ما عرف. وعليه تكون الأمم العالمة بهذه العلوم أفضل من الجاهلة بها. فالفضل تابع للعلم. وعلى مقدار معارف الإنسان يكون فضله.

ولا جرم أن المسلمين اليوم اكتفوا بلفظة تداولت على ألسنتهم وهي أنهم مؤمنون. ومتى قال الإنسان: آمنت وأسلمت، فإنه إذا ترك نفسه مهملاً عاطلاً حقّ له الفضل وهذا خطأ فاضح، فإن الله فاضل بين النفوس بالعلوم. فالنفس العالمة بما هو من طباعها وما تقدر عليه بحسب استعدادها أفضل من النفس الأخرى التي قدرت على علم وتركته جهالة بقدرها واتكالاً على صفة الإيمان. فمن كان أهلاً لعلم الهندسة أو الفقه وتركه نذالة وجهالة وكسلاً وكان هناك آخر مستعد بطبعه وبحاله المنزلية إلى حرفة الحدادة أو البرادة فقام الثاني وأتقن حرفته وقام بها خير قيام؛ فإن هذا الثاني أفضل من الأول لأنه قام بما يقدر عليه ولو كان أقل فضلاً مما يقدر عليه الآخر الذي لم يقم بما هو في إمكانه تحصيله، كما أن الإنسان إذا ترك التعقل والتفكر ودخل في عدد العجماوات بذلك الإهمال صار أدنى منها لأنها قامت بما في طاقتها وهو قصر، ولذلك قال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أي: عما أودع فيهم.

وعلى هذا التفسير يكون المسلمون اليوم قد تركوا مواهبهم وعطلوها وأناموها، وهذا نزول من المقصرين منهم عن بعض خصائص الإنسانية، لأن الحيوان لا قدرة له على الصناعات ولا العلوم وقد سهل الله له الرزق ولم يجشمه المشاق فوق طاقته. أما الإنسان فإنه جعل رزقه غير ميسور كرزق الحيوان، وبسط له المواهب ليستعملها، فإذا قصر فيها فقد تنزّل إلى الحيوانية. وقد اعتاد المسلم أن يقصر ذلك على الإيمان وحده، ولكن هذه الآية تعمم وتدعو إلى درس سائر العلوم والصناعات

بحيث يخصص كل فيما خلق له ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦] فليقم كل فرد من الأمة بما يواتي طبعه.

فحرام على رجال الحل والعقد في مصر والشام وجزيرة العرب وبلاد الترك والروس والفرس وبلاد المغرب أن يبقوا مكتوفي الأيدي، بل عليهم أن يعمموا التعليم ثم ليختاروا على حسب درجات الامتحان لكل علم ولكل حرفة من هم أهل لها، ويراعى في ذلك القوة البدنية والاستعداد والأحوال العارضة. وحينئذ يتخرج من كل قطر من أقطار الإسلام طوائف للعلوم وللصناعات جميعها، ويتم النظام كما تم النظام في تزاوج الذكور والإناث، إذا جاء العدد متساوياً في الزوجين تقريباً في كل زمان ومكان. هكذا خلقت الغرائز ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ١٨٧].

إن الغرائز خلقت في الناس على قدر الحاجة، فقلّ الأذكياء للحكمة مثلاً وكثر أصحاب الأعمال الجسمية ليتم نظام المدن، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيقومون بأمر العلم ويرقون نفوسهم ونفوس غيرهم، وسيأتي في اللطائف مزيداً لهذا ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ بلزوم طاعته ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: للذين أحسنوا حسنة في الدنيا كالصحة والعافية، فجعل الله الحسنة في مقابلة الإحسان، فإذا سار على علم الصحة فذلك إحسان، وإذا استقام وترك الذنوب وإذا فعل البر والمعروف وإذا قام بالطاعات، كل ذلك إحسان، ونتيجة هذا الإحسان من الإنسان الحسنات في الدنيا من العافية والصحة وحب الناس وفي الآخرة الجنة، ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فمن تعسر عليه الاستقامة في بلد فليرحل إلى غيره، فليهاجر الإنسان من البلد التي فيها معصية إلى بلد لا معصية فيها ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على مشاق الطاعات واحتمال البلاء ومهاجرة الأوطان ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أجراً لا يهتدي إليه حساب الحاسب.

وعن علي رضي الله عنه: «كل مطيع يكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلا الصابرون فإنه يحثى لهم حثياً»، ويروى: «إن أهل العافية في الدنيا يتمنون لو أن أجسادهم تقرض بالمقاريض لما يذهب به أهل البلاء من الفضل». وقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: أمرت بإخلاص الدين ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وأمرت بذلك لأجل أن أكون أول المسلمين، أي: مقدمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة. فقد أمر أولاً بالإخلاص في الدين، وثانياً بأن يكون سابقاً ليقتدي به غيره ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لما دعاه قومه إلى اتباع ملة آبائه وأجداده أمر أن يقول ذلك، وليكون ذلك إخافة لأمته إذا حادوا عن الصراط لأي داع ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ أي: لا أعبد سواه، وهذا الحصر لا يستفاد من قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[الزمر: ١١].

وأيضاً ذكر هذا ليرتب عليه قوله: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ وهذا تهديد وخذلان لهم ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الكاملين في الخسران ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالضلال ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالإضلال ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يدخلون النار ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ مبالغة في خسرانهم ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ شرح لخسرانهم ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي: لهم أطباق وسرادقات

من فوقهم وفراش ومهاد من تحتهم، وهي من جهة أخرى ظلل لمن هم تحتهم في النار فهي ظلل بالنسبة لمن تحتهم فراش ومهاد بالنسبة لهم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ العذاب ﴿ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ ليجتنبوا ما يوقعهم فيه ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ الأوثان ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ بدل اشتمال ﴿ وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ورجعوا إلى عبادته بالكلية وتركوا ما سواه ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ في الدنيا بالثناء عليهم بصالح الأعمال. وعند نزول القبر. وعند الخروج من القبر. وعند الوقوف للحساب. وعند جواز الصراط. وعند دخول الجنة. وفي الجنة. ففي هذه المواطن السبعة يبشرون بالسعادة والرضوان ويسعدون سعادة بالروح والريحان ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ وهم الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا، يريد أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، وهي أنهم ﴿ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ ﴾ في الدين وغيره ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ بحيث يكونون نقادين فيميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل، فيقدّمون الواجب على المندوب في الدين والمندوب على المباح. وإذا جني عليهم وقدروا على العفو قدّموه على القصاص. وإذا رأوا طريقين في أمور الحياة قدموا ما هو أنفع للأمة كاستعمال الآلات الحديثة في الزراعة والصناعة كاستعمال الطيارات في النقل في الحرب والغواصات البحرية وكاختراق باطن الأرض لاستخراج المعادن وهكذا من كل ما به يرتقي نوع الإنسان. فهؤلاء يبشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأمر ربه أن يسودوا في الدنيا وتثني عليهم الأمم والأجيال المقبلة. وإذا ماتوا بشرتهم الملائكة في المواقف كلها فتتصل البشارة لهم في سائر المواطن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي: المنتفعون بعقولهم، فانظر في هذا التعبير وكيف يقول: إن الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه هم الذين هداهم الله وهم أولو الألباب. مدحهم بالهداية وبالعقول الكاملة. لماذا؟ لأنهم يختارون خير الأمرين في دينهم ودنياهم.

أقول: ولو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفت في ارتقاء المسلمين في هذه الحياة الدنيا. ألا ليت شعري كيف نام الناس وتركوا عقولهم كأنها لم تخلق فيهم.

يرى المسلمون الأمم قد ارتقت صناعاتها وتجاراتها وأعمالها وعلومها وهم نائمون. أليس هذا كلام الله؟ وسيقوم قريباً في هذا العصر من يرقون هذه الأمة من أبنائها، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[ص: ٨٨].

ولما كان الاستعداد الإنساني هو الذي إليه المرجع في رقي الإنسان وانحطاطه وهو تابع للقضاء والقدر، فإذا سبق بعذاب على امرئ لم يكن للهداة قدرة على إصلاحه أعقبه بقوله ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ أي: أأنت مالك أمرهم. فمن حق عليه كلمة العذاب لعدم أهليته للكمال فأنت تنقذه. كلا. فليس لك أمرهم. قد كررت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار ووضع ﴿ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ موضع الضمير إيماء إلى أن دعاءهم إلى الإيمان سعي في إنقاذهم من النار المحققة، ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ يقول الله: للكفار ظلل من النار وللمتقين علالي بعضها فوق بعض ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ من تحت تلك الغرف وعدهم الله ذلك ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

الكلام على أعظم أسباب دخول الجنات والارتقاء إلى أعلى الدرجات

اعلم أن الله تعالى لما ذكر الجنة وغرفها وأنهارها وأن وعده فيها لا شك فيه ؛ أردفه بذكر إنزال الماء من السماء وإدخاله ينابيع في الأرض وسقي الزرع به ، ثم أعقبه بالكلام على شرح الله لصدر المؤمن للإسلام وذم الذين قست قلوبهم ، ومدح القرآن وأنه أحسن الحديث يشبه بعضه بعضاً في الحسن ولا تملّ تلاوته ، تضطرب منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله بالرحمة وعموم المغفرة . ذكر أنهار الجنة وغرفها فناسب أن يذكر نعم الأرض ، كأن الله يقول لنا : هل شاقكم نعيم الجنان ، هل أحببتم الغرف التي فوقها غرف مبنية ، هل تفرحون بأنهار الجنة وأشجارها؟ إذا كان كذلك وهو حقاً ما فطرتم عليه فانظروا أنهاري في أرضكم ، وتعجبوا من المطر النازل من السماء والمسالك والمجاري والعروق التي تخللت أرضكم وقد تنوعت تلك الينابيع وتنوعت خواصها وأنبتت الزرع والكلأ والخصب ونفعت نفعاً كثيراً ، إذا فكرتم في ذلك فإن قلوبكم تنشرح للحكمة والعلم وتستنير بصائركم بالأنوار الربانية ، فاقرؤوا القرآن فهو أحسن الحديث لفظاً ومعنى ، ذلك هو السبيل المستقيم لدخول الجنة والتمتع بغرفها وأنهارها وأشجارها ، فالأنهار والزروع كما تبقى بها الأجسام ترقى بها العقول ، فالعقل بالتفكر والجسم بالغذاء والدواء . فانظر كيف جعل الله جنات الدنيا وحدائقها أسباباً لجنات الآخرة وغرفها . انظر كيف كان التفكر في جنات الأرض سعادة نفسية كما أن الانتفاع بها سعادة جسمية ، ونتيجة ذلك دخول الجنة . فيا ليت شعري كيف أعرض المسلمون وغفلوا . جنات في الدنيا أمروا بالتفكر فيها ولا نفكر فيها إلا بوجودها . اللهم أزل الجهالة من بلاد الإسلام وأذقهم نعمك كما ذاقوا مرارة النقمة والإذلال ، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[البقرة : ١٢٧] .

ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي : المطر ﴿ فَسَلَكَهُۥ ﴾ فأدخله ﴿ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ عيوناً ومسالك ومجاري كما يرى للإنسان عروق ومسالك في جسده ، أي : حال كونه ينابيع ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ ﴾ بالماء ﴿ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وكونه براً وشعيراً وسمسماً ودواء وغذاء إلى ما لا حصر له ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ يجف ﴿ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ بعد نضارته وحسنه ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ﴾ فتاتاً متكسراً فالحطام كل ما تفتت من نبت وغيره ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ لتذكيراً بحكمة الصانع ﴿ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ الذين تقدم القول فيهم : إنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه وإن الله هداهم ، ومن هدايته لهم أنهم يتفكرون في هذه العجائب .

لطيفة في المياه والينابيع

الماء الصالح للشرب

اعلم أن الله عز وجل جعل الماء الصالح للشرب محتوياً على ما ينفع الجسم من المواد الغريبة عنه ، مثال ذلك :

(١) أملاح قليلة مركبة من الكربون والكالسيوم . (٢) وأخرى مركبة من الكربون أيضاً والمغنسيوم . (٣) وقليل من الفلور . (٤) والكلور كل منهما مركب مع مادة أخرى . (٥) والسليس .

ومما يلزم في الماء الصالح للشرب: (١) أن يكون بارداً. (٢) وطعمه خفيف. (٣) ومذيب لمقدار من الهواء. (٤) ومذيب للصابون. (٥) ومنضج للبقول.

ويجب أن لا تزيد الأملاح في الماء عن ٥٠ سنتي جراماً في اللتر الواحد. وهذه المواد الداخلة في الماء قد جعلها الله فيه لأن البنية تحتاج إليها والأغذية لا تحتوي على مقدار كاف منها. فانظر كيف جعل الله الكالسيوم المركب مع الكربون والمغنسيوم المركب أيضاً ومركبات من الكلور والفلور ومن السليس؛ انظر كيف جعلها في الماء الذي نشربه ونحن لا علم لنا بها. وجعل احتواء الماء على هذه شرطاً لانتفاعنا بالماء. فإذا نقصت هذه الموادّ قلّ انتفاعنا بالماء، وإذا زادت كانت المياه ضارة بنا ولم تصلح لشربنا.

المياه المعدنية

انظر إلى الينابيع في الأرض كيف جعلها الله لتنويع المياه. فبينما الماء ينزل من السماء مطراً؛ إذا هو في الأنهر جارياً ساقياً للزرع؛ إذا هو في مجار تحت الأرض يجري، والناس من فوقها لا يعلمون، وإنما يحفرون الآبار فتخرج مياه من تلك المجاري فيجدونها مختلفة الصفات، وبها يتداوون ومنها يشربون. وكثيراً ما يستخرجون من تلك المياه أملاحاً نافعة في الصنائع.

(١) **المياه الحارة:مثل ماء فيشي**: ومن المياه ما تكون حرارتها مرتفعة عن درجة الحرارة الاعتيادية لكونها آتية من أغوار الأرض أو لكونها بالقرب من البراكين. فهذه المياه تسمى بالمياه المعدنية الحارة وذلك كمياه فيشي التي درجة حرارته ٤٥، واعلم أن الأسماء المعدنية تختلف تسميتها بحسب المعادن التي فيها.

(٢) **المياه الغازية والمياه الحمضية التي تفور بتعرضها للهواء**: تلك مياه فيها حمض الكربونيك ذائباً ومركبات كربونية قلوية أيضاً وملح الطعام والحديد المركب مع الكربون، ومثل هذه تفور متى تعرضت للهواء. وذلك مثل ماء سلس.

(٣) **المياه القلوية:ماء فيشي**: يكون فيها مركبات الصوديوم وبعض مركبات الكربون.

(٤) **المياه الكلورية**: يكون فيها ملح الطعام ومركب الكلور مع البوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم وهكذا.

(٥) **المياه الكبريتية**: مثل مياه مدينة حلوان. ففيها مركبات الكبريت المختلفة.

(٦) **المياه الحديدية**: كمياه «أورتزا» فيها حديد متحد بالكربون.

فتعجب من هذه المياه المختلفة الآتية من الينابيع، وانظر قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الزمر: ٢١]، وتعجب كيف كان في تلك الينابيع حديد أو كبريت أو كلور، والكلور قد علمت فيما مضى أنه أحد العنصرين المركب منهما ملح الطعام. أو كربون وهو المادة الفحمية أو غيرهما من المعادن.

انظر كيف تسمع الناس في مصر وغير مصر يقولون: تعال لنستشفي بماء فيشي أو بماء حلوان أو بالمياه الكلورية وهم غافلون. لقد صرف الله الماء للناس ليتذكروا.

انظر كيف نوّع الماء لنستشفي به. ينظر الإنسان فيرى الماء قد تخلل باطن الأرض وجرى في عروقها ومجاريها ومر على مركبات حديدية وكبريتية وأخرى مغنيسية وأخرى كلورية. فيظن لأول وهلة أن ذلك رمية من غير رام، حتى إذا نظر نتائجها من أنواع الأدوية عرف أن ذلك كان لحكمة مقصودة. هذا معنى قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[الزمر: ٢١] أي: إن تلك المنافع التي ترونها في ماء حلوان وفي ماء فيشي وفي ماء كرلسباد المحتوي على مركب من الكبريت والصوديوم وأمثالها لم تكن مصادفة، بل أنا الذي أدخلتها في الأرض وأمررتها على تلك العناصر وجعلت ذلك للمداواة من الأمراض المختلفة. وإنما فعلت ذلك لتتفكروا، لتتأهلوا لعالم أرقى من عالمكم الأرضي. فهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[الزمر: ٢١] فأولو الألباب هم الذين يعقلون ذلك من وجهين: من وجه المنفعة المادية. ومن وجه المنفعة العقلية. فالمسلمون اليوم عالة على أوروبا في هذه المياه وغيرها. فلا هم درسوها وعقلوها. ولا هم استخرجوها وانتفعوا بها. والأمران متلازمان، وإنما يقلدون الفرنجة فيها وهم غافلون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

لقد غفل أكثر العلماء فنسج المسلمون على منوالهم وناموا. فليبين قارئ هذا التفسير للناس عجائب الدنيا حتى يدرسوها وينتفعوا بها ويرتقوا إلى الله بالتأمل في محاسنها. أما الاتكال على الفرنجة فإنه عار وأي عار. فأين أولو الألباب إذن في الإسلام وأين تذكرهم؟.

لا بد أنك أيها الذكي انشرح صدرك لما رأيت في الماء من العجائب، ولما أدركت من الحكم العجيبة لذلك أردفه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: بيان وبصيرة، أي: أفمن دخل النور قلبه فانشرح وانفسح للإسلام لما يرى من تلك البدائع والعجائب المهيئة للحكمة فاهتدى بها؛ كمن طبع على قلبه لغفلته وجهالته. وورد أن علامة ذلك الانشراح الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت، وقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ دليل على المحذوف الذي قدرته في الجملة السابقة. وقوله: ﴿مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: من ترك ذكر الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ غواية ظاهرة ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ حال كونه ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ يشبه بعضه بعضاً في الصدق والبيان والوعظ والحكمة والإعجاز وما أشبه ذلك، كما تتشابه أجزاء الماء والهواء وأجزاء النبات والزهر وأبنية الحيوان، ﴿مَّثَانِيَ﴾ تثنى وتردد قصصه وأنباؤه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه، وهذا إيضاح لكونه متشابهاً، فكما أنك تجد في جميع أجزاء الهواء والماء والنبات والحيوان المواد التي تركب منها بلا خطأ ولا خلل؛ فلا هواء ولا ماء ولا نبات إلا وأنت واجد في كل جزء منه الأجزاء التي تركب منها، وذلك دليل على الإتقان وعدم الخلل والخطأ، هكذا الكلام الصادق المسوق لغرض واحد تراه أينما حللته يرجع إلى الأمور التي إذا ركبت وأدرجت فيه تنتج الغرض الذي سيق له الكلام.

حكمة ألمانية

قال لي أحد الأصدقاء يوماً وقد كان في بلاد ألمانيا: أنا قرأت حكمة باللغة الألمانية وهي: يجب على المؤلف أن يظهر في كتابه كما ظهر الله في مصنوعاته، فما معنى هذا؟

قلت: معناه أن يكون المؤلف له غرض يرمي إليه، وقد مزج الفكرة بنفسه بحيث يتصرف في القول والمعنى تصرف الله في المادة، حتى إنك لترى مقدماتها ترمي لغايات معلومة، هكذا الكتاب يجب أن يكون مؤلفه أشبه بناسج الثوب ينسج على منواله، وأن يفعل فيه فعل الجسم الإنساني في التصرف في الطعام، وفعل النحلة حولت رحيق الأزهار إلى عسل بهيئة منظمة بحيث يحوّل ما يقرؤه ويفكر فيه إلى صورة ترسمها نفسه كما يحوّل النبات صور العناصر الأرضية إلى الهيئة النباتية، فتضيع سائر صفات العناصر وتحدث صفات جديدة. فهذا معنى التشابه المذكور في الآية، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وقد عرفت الاختلاف، فإنك إذا ألفت كتاباً ووضعت فيه أنواعاً من السير والأحكام ولكنك لم تصقل ذلك بصقالك أنت؛ كانت تلك القصص والأحكام غير منسقة ولا منظمة ونفرت منها النفوس ولم تؤد إلى الغرض المطلوب، كما إذا بقيت المواد الأرضية والهوائية مفرقة غير متحدة في الصورة النباتية، فإنها لا تؤدي المقصود من النبات، بل هي تراب وطين مثلاً تستعمل لما له التراب والطين، وقوله: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي: تضطرب وتشمئز وتأخذهم قشعريرة وهي تغير يحدث في جلد الإنسان عند ذكر الوعيد والوجل والخوف، وكذلك القلوب، وقوله: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بالرحمة وعموم المغفرة، فإذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت الجلود ووجلت القلوب، وإذا ذكرت آيات الرحمة والوعد لانت الجلود وسكنت القلوب، ومن أين يكون هذا لو لم يكن القرآن متشابهاً بالمعنى الذي عرفته، ولو لم يكن متشابهاً مثاني على وتيرة واحدة لم يحدث تلك الآثار في القلوب، كما لا يحدث النبات آثاره المغذية مثلاً إلا بذلك التشابه.

وعلى المؤلفين في أمة الإسلام أن ينحوا نحو القرآن بحيث تكون نفوسهم متأثرة بما يكتبون عاقلة لها، فإنها لا محالة تحدث أثراً في نفس السامعين، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]، فإن المتكلف في القول لا يؤثر في سامعه ولا يحدث في النفوس خوفاً ولا رجاء، لأن القول مصحوب بآثار نفس القائل، وليس معنى هذا أن تكون بليغاً كالقرآن، بل أن تتخلق بأخلاق الله ورسوله ويكون تأليفك بناء على شوق ووجدان في نفسك، وإلا فلا يفيد ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الكتاب أو الكائن من الخشية والرجاء ﴿ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ هدايته ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ﴾ ومن يخذله ﴿ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ يخرجه من الضلالة إلى الحق.

ذكر عذاب الظالمين في الدنيا والآخرة

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ كمن هو آمن، أي: إن الإنسان يتقي المخاوف بيديه صيانة لوجهه، فإذا كان هؤلاء الظالمون في النار وغلت أيديهم إلى أعناقهم فإنهم لا يتقون النار إلا بوجوههم ﴿ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي: قيل لهم، فوضع الظاهر موضع المضمر ﴿ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي: وباله ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: من الجهة التي لا تخطر ببالهم أن الشر يأتي من جهتها ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ ﴾ الذل والصغار كالمسخ

والخسف والقتل في الحياة الدنيا ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ من عذاب الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ لآمنوا، أو لو كانوا من أهل العلم والنظر لعلموا ذلك واعتبروا ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ بيّنا للناس فيه من كل وجه ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: لكي يتعظوا ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ منصوب على المدح مستقيماً ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ بريئاً من التناقض ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والمعاصي.

ضرب مثل لحال المشركين والمؤمنين

قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا ﴾ بدل، و﴿ فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ متنازعون مختلفون ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ أي: ذا خلوص له من الشركة سالماً ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ أي: صفة، أي: هل تستوي صفتاهما وحالاهما ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الذي لا إله إلا هو ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيشركون به غيره، هذا مثل ضربه الله للعابد والمعبودين له بعبد اشترك فيه شركاء فتنازعوه واختلفوا، وكل واحد يدعي أنه عبده ويستخدمونه في مهن شتى، وهو متحير لا يدري أيهم يرضى بخدمته، وعلى أيهم يعتمد في حاجاته، ومن منهم يرزقه، ومن منهم يداويه، فهو أبداً في حيرة، وشبه المؤمن بعبد له سيد واحد فهمه واحد وقلبه مجتمع لا مفرّق.

لطيفة

اعلم أن هذا المثل وإن ورد في الكفر والإيمان يعلمنا كيف يكون الإنسان سعيداً في الدنيا، وذلك أنه لا سعادة إلا بجمع الهم على أمر واحد، ذلك أن حاجات الإنسان لا تكاد تحصر، وخطيئاته وسيئاته وما يعتوره من مصائب الدهر كل صباح وكل مساء، فإذا تفرق همه على تلك الوجوه كلها تقطع وعاش في غاية الشقاء، وإنما يسعد الإنسان إذا عمل كل ما في طاقته ثم هو يكل نتائج الأعمال إلى الله، وما نابه من مصيبة يحتملها ويصبر عليها ويجزم بأنها أجنحة يطير بها إلى العلا، وما نال من نعمة يحمد الله عليها ويتخذها ذريعة لارتقاء نفسه بالعمل الصالح، فيكون شكره على النعمة وصبره على النقمة موجهين لغرض واحد، فمتى نال الإنسان هذه المرتبة أصبح سعيداً، بل متى أدرك أن هذه الدنيا والآخرة وهذه العوالم كلها كأنها جسم واحد بنظام واحد وهو واثق أن ذلك النظام في غاية الكمال وأن كل دابة أو إنسان إذا لم يكن على ما هو عليه كان النظام خطأ، فإذا أيقن الإنسان بذلك لكثرة الدراسة العلمية والتفكر أصبح لا يحزن على فائت ولا ينتظر غائباً ولا يبالي بمستقبل ولا ماض، ويصبح وهو راض بكل ما يكون سعيد بهذا الرضا، واعلم أن هذه المرتبة قلما ينالها الإنسان في هذه الحياة، بل تمر غالباً كبرق خاطف أو كفواق ناقة أو جلسة خطيب، ثم يغلب الطبع على الإنسان فيحزن ويفرح ويألم ويرجو ويخاف كسائر الناس، ويندر من تصير هذه له ملكة راسخة، ويقلّ من تلازمه في أغلب الأوقات، ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ أي: بصدد الموت أو في عداد الموتى ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ أي: إنك وإياهم ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذّبوا ويعتذرون هم بما لا طائل تحته، ويقول التابعون للرؤساء: أطعناكم فأضللتمونا، وتقول السادة: أغوانا الشياطين وآباؤنا الأولون، ويحتج بعض الأصحاب بأنهم مع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلوا أعداءهم على هذا التأويل، ويحتج أصحاب معاوية بأنهم يأخذون بدم

عثمان، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يرون أن هذه الآية نزلت في المسلمين وأهل الكتاب، فلما كان يوم صفين ويوم عثمان عرفوا أنها في المسلمين أيضاً. وفي حديث البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من كان عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال فليتحلله اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحملت عليه». وفي مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار».

ذكر الصادقين والكاذبين

قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ بإضافة الولد والشريك إليه ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ من غير توقف وتنكر في أمره ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ المثوى: المنزلة والمقام، أي: يكفيهم ذلك مجازاة لأعمالهم ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ الذي جاء بالصدق الأنبياء والذي صدّق به المؤمنون وكذلك ملائكة الوحي والأنبياء ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ الذين اتقوا الشرك ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ من الجزاء والكرامة ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ في أقوالهم وأفعالهم ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ أي: يستره عليهم بالمغفرة ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: يجزيهم بمحاسن أعمالهم ولا يجزيهم بمساويها، أو يجعل لهم محاسن أعمالهم مثل أحسنها في زيادة الأجر وعظمه لفرط إخلاصهم فيها ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ استفهام إنكاري للتقرير، أي: جنس العبد فيشمله صلى الله عليه وسلم والأنبياء والمؤمنين، وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[الحجر: ٩٥]، وقوله: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ يعني قريشاً، فإنهم قالوا له: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا بعيبك إياها. وأيضاً بعث صلى الله عليه وسلم خالداً ليكسر العزّى، فقال له سادنها: أحذركها إن لها شدة، فعمد إليها خالد فهشم أنفها. فكأنهم لما خوّفوا خالداً خوّفوا من أرسله وهو النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ﴾ حتى غفل عن كفاية الله له وخوفه مما لا ينفع ولا يضر ﴿ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ يهديه إلى الرشاد ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ إذ لا رادّ لفعله، كما قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ﴾ غالب منيع ﴿ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ ينتقم من أعدائه.

تقرير الآية السابقة باللاحقة

وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ لوضوح ذلك بالبرهان ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ ﴾ أي: أرأيتم بعد ما تبين لكم أن الله هو خالق العوالم كلها أن آلهتكم إن أراد الله أن يصيبني بضر هل هن يكشفنه ﴿ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ ﴾ بعافية ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ مانعاتها عني حتى تأمروني بعبادتها ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ﴾ أي: هو ثقتي وعليه اعتمادي ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

لعلمهم بأن الكل منه تعالى ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ حالكم، أي: اجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم، وهذا تهديد لهم ﴿ إِنِّى عَٰمِلٌ ﴾ فيما أمرت به من إقامة الدين ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أنا أم أنتم ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ دائم، وهذا تهديد وتخويف ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ ﴾ لأجلهم ملتبساً ﴿ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ إذ نفع به نفسه ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي: فإن وباله لا يتخطاها ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي: وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى وإنما أمرت بالبلاغ وقد بلغت.

ذكر النوم والموت

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ الأرواح ﴿ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي: يقبضها عند انقضاء أجلها وهو موت الأجساد ﴿ وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ ومعنى ذلك أنه يقبضها عن الأبدان ويقطع صلتها بها ظاهراً وباطناً عند الموت، وظاهراً فقط عند النوم ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ فلا يردّها إلى البدن ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ وهي النائمة إلى البدن عند اليقظة ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو وقت الموت. روي عن ابن عباس أنه قال: «إن في ابن آدم نفساً وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتميز، والروح التي بها النفس والحياة، فتتوفيان عند الموت، وتوفى النفس وحدها عند النوم» ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ التوفي والإمساك والإرسال ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ على كمال الحكمة والإتقان وشمول الرحمة وعمومها ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيها عنها بالكلية حين الموت وإمساكها باقية لا تفنى بفناء الأجساد وما يعتريها من السعادة والشقاوة، وكيف تتوفى ظاهراً حيناً بعد حين إلى انقضاء الآجال. وعن علي كرم الله وجهه قال: «تخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعها في الجسد فبذلك يرى الرؤيا، فإذا انتبه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة». وعن سعيد بن جبير: «إن أرواح الأحياء وأرواح الأموات تلتقي في المنام فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجسادها إلى انقضاء مدة حياتها».

لطيفة في معجزات القرآن في هذا الزمان بمناسبة هذه الآية

أذكر لك بمناسبة هذه الأحاديث والآية ما قيل عن الأرواح في هذا الزمان لتعجب كل العجب من قول سعيد بن جبير: «إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في حال النوم»، ومن موافقته للعلم الحديث، فهاك مقالة لروح مستحضرة في المجامع النفسية. قالت ما ملخصه: إذا نام الإنسان انطلقت روحه من البدن وازدادت قواها عما في اليقظة، فتتذكر شيئاً من ماضيها وتكشف بعض المستقبل وتناجي الأرواح الأخرى في هذا العالم وفي سواه، ألا ترى إلى الأحلام البعيدة التصديق أنها ذكرى أماكن وأشياء كان رآها الإنسان أو سوف يراها في عالم البرزخ بعد هذه الأرض، والروح غالباً وقت النوم يبحث عن ماضيه ومستقبله. ثم قالت: ما أشد جهلكم يا بني آدم، تجهلون أسهل الأمور، يسألكم بنوكم: ماذا نستفيد من النوم؟ وما هي أحلامنا؟ فترتبكون مع أنكم تدّعون أنكم تعرفون كل شيء، إن النوم يحل النفس قليلاً من البدن، فيكون الإنسان وقت النوم أشبه به بعد الموت من بعض الوجوه، وكل من كان أكثر استحضاراً واستذكاراً لما رأى في المنام يكون أسهل انحلالاً عند الموت

والعكس، فأمثال هؤلاء ينضمون وقت النوم إلى جماعة الأرواح العلوية وينتفعون بأحاديثهم وتعاليمهم، وهذا ينزع عنكم خوف الموت لأنكم تموتون كل ليلة على حسب قول أحد الأبرار ـ يريد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ـ قال: وكلامي هذا عن الأرواح العلوية، وأما عامة الناس الذين تبقى أرواحهم بعد الموت ساعات وأياماً على حالة الاضطراب المعلومة لكم في الاستحضار للميتين حديثاً فهؤلاء قلما ينتبهون لما يعملون وقت الرقاد.

وكم من امرئ يقابل امرأ في النهار فيرى في قلبه انقباضاً. لماذا؟ لأنه قد يكون اطلع على أحاديثه وقت النوم فوجده يبغضه. ويرى آخر فيقابله بلهف وشوق نهاراً. لماذا؟ لأنه قضى معه وقت الرقاد ساعات في صفاء وسرور. ثم قال: وبالاختصار إن للنوم أثراً في حياتكم اليومية وأنتم لا تشعرون. ثم قال: فالنوم للأرواح العلوية التي في الأجساد باب للناموس والمنهاج المؤدي إلى السماء حتى يوافيها الأجل وتعود إلى مقرها السعيد. ثم قال الروح: والحلم تذكر الإنسان ما رآه وقت الرقاد. فلستم تحلمون دائماً لأنكم لا تتذكرون دائماً ما رأيتموه، وإنما تذكرون ما يعرض لكم في حال الاضطراب الملازمة لمبارحة الروح وعودتها إلى الجسد. ويضاف إلى ذلك أموراً أخرى مما تصنعونه وقت اليقظة ومشاغل الأفكار، وذلك هو الباعث لتلك الأحلام التي يراها الجاهل والعالم على حد سواء بلا فائدة. وربما كانت تلك الأحلام كرواية حذف منها جمل متعددة فما بقي منه أصبح لا سياق له. وتستخدم الأرواح الشريرة أحياناً الأحلام لتنكيد الأنفس الضعيفة. انتهى ملخصاً.

فعلى هذا تكون الأحلام إما أفكاراً أو مشاغل ازدحمت، وإما مسائل منتظمة ولكن حذف منها كثير فصارت لا معنى لها، وإما مغامز شيطانية لإخافة النفوس الضعيفة. فأما الأرواح الشريفة فإنها تنتفع وإن لم تعلم شيئاً عن ذلك بالنهار. إن رواية سعيد بن جبير من مقابلة أرواح الأحياء للأموات هي عينها ما قرأته عن نفس الأرواح. أليس هذا من العجب. أليس ظهور هذا منسوباً للأرواح معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم. إن عقولنا لا يمكنها أن تفهم أن أرواحنا تحادث أرواح الأموات. عقولنا لا دليل عندها على ذلك، وقرأنا الأحاديث فوجدناها تقول ذلك. وهانحن أولاء نرى مطابقة العلم الحديث ومحادثة الأرواح لهذا المنقول. إن هذا هو المعجزة وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[ص: ٨٨].

ثم قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ هي الأصنام ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهم أتتخذونهم شفعاء ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟﴾ أي: الآلهة ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ إنكم تعبدونهم ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: لا يشفع أحد إلا بإذنه فلتكن العبادة له لأنه هو الشفيع في الحقيقة لأنه هو الآذن في الشفاعة لمن يشاء من عباده ﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا ملك لسواه ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ﴾ نفرت وانقبضت عن التوحيد أو استكبرت ﴿ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ يعني الأصنام ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون، والاستبشار أن يمتلئ القلب سروراً حتى يظهر على الوجه فيتهلل ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ فهو موصوف بكمال العلم والقدرة

﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين. عن ابن المسيب: «لا أعرف آية قرئت فدعي عندها إلا أجيب سواها». وعن الربيع بن خيثم وكان قليل الكلام أنه أخبر بقتل الحسين رضي الله عنه، وقالوا: الآن يتكلم، فما زاد أن قال: آه أوقد فعلوا؟ وقرأ هذه الآية. وفي حديث مسلم أنه صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام من الليل فيقول: اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. اهـ.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ هذا إقناط لهم من الخلاص ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ وهذا في مقابلة ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[السجدة: ١٧]، ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي سيئات أعمالهم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي: وأحاط بهم جزاؤه، ثم اعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ ﴾[الزمر: ٤٥] الخ جاءت الآيات بعدها اعتراضية وعطف عليها بالفاء قوله: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ أي: أعطيناه إياها تفضلاً فإن التخويل مختص به ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي: على علم مني بوجوه كسبه، أو لأني أستحقه، فمثل هؤلاء القوم إذا ذكر الله وحده اشمأزوا وإذا ذكر سواه استبشروا، مع أنهم إذا مسهم الضر ذكروا من اشمأزوا من ذكره، وإذا آتاهم نعمة ادّعوا أنها باستحقاقهم ومن كسبهم ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أي: امتحان له أيشكر أم يكفر، فكيف يدّعي أنه أوتيها على علم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي قال: إنما أوتيته على علم، كقارون ومن معه فإنه قالها ورضي بقوله من حوله، فكأنهم قالوه، وهكذا يدور هذا المعنى في ذهن كل متكبر جبار من الماضين ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من متاع الدنيا وما يجمعون منها ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي: جزاء سيئات كسبهم ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كفروا ﴿ مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي: سيصيبهم مثل ما أصاب أولئك فقتل صناديدهم ببدر وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين ﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين من عذاب الله، ثم بسط لهم الرزق سبعاً فقيل لهم: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ حيث حبس عنهم الرزق سبعاً ثم بسط لهم سبعاً ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بأن الحوادث كلها من الله وأنه القابض الباسط. انتهى التفسير اللفظي.

لطائف القسم الثاني من السورة

(١) في قوله تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾[الزمر: ٥] الخ.

(٢) وفي قوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾[الزمر: ٦].

(٣) وفي قوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[الزمر: ٩].

مع قوله: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾[الزمر: ١٨].

ومع قوله: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر: ١٠]

(٤) وفي قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ ﴾[الزمر: ٢١] الخ.

(٥) وفي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾[الزمر: ٣١].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾

إن هذا المقام قد سبق شرحه في هذا التفسير في سورة «البقرة» وفي سور كثيرة بعدها فارجع إليه تره سهلاً مبسوطاً على قدر ما يحتمله هذا الكتاب.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

هذا المقام مشروح مبسوط في أول سورة «النساء» فارجع إليه وفي سور بعد ذلك، ولكن لا بد من ذكر ما يناسب المقام في مسألة خلق الجنين في بطن أمه الذي هو في ظلمات ثلاث، فأقول: لأذكر لك في خلق الإنسان خمسين حكمة:

(١) جعل أعضاءه قطعاً لا قطعة واحدة ليسهل له الأعمال بها، فجعلها على مقدار الحاجة من قصير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق.

(٢) جعل بينها مفاصل فقدّر شكل كل واحد منها على قدر وفق الحركة المطلوبة بها، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتاد أثبتها بأحد طرفي العظم وألصق الطرف الآخر بها كالرباط.

(٣) ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منها ومن الآخر نقراً غائصة فيها أشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق.

(٤) فبهذا صار الإنسان يقدر على تحريك شيء من جسده دون غيره، فلولا حكمة تلك المفاصل لتعذر عليه ذلك.

(٥) الرأس مركب من عظام مختلفة الأشكال والصور وقد ألف بعضها إلى بعض بحيث استوت كرة الرأس، فمنها ستة تختص بالقحف والباقي في الأسنان وهي ٣٢ وفي اللحى الأسفل والأعلى.

(٦) وجعل الرقبة مركبة من سبع خرزات مجوّفات مستديرات منطبقات على بعضها متصلة بالظهر وعظم العجز والعصعص، ووصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف واليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين، هذه كلها اتصلت ببعضها وهي ٢٤٨ عظماً سوى العظام الصغيرة التي جعلت ليحشى بها خلل المفاصل.

(٧) وخلق العين لها أشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق في غير وقتها.

(٨) الأشفار جمال للعين.

(٩) شعرها لا يزيد ولا ينقص، فلو زاد لأضر بالعين وكذلك لو نقص.

(١٠) في مائها ملوحة لتقطيع ما يقع فيها.

(١١) الحاجبان جمال للوجه أيضاً.

(١٢) وستر للعين.

(١٣) شعرهما كشعر الأهداب لا يزيد لئلا يكون تشويهاً وإن نقص ذهب الجمال وقلت الفائدة للعين لأنه يحجب الضوء ويقلله.

(١٤) ولما كانت اللحية وشعر الرأس زيادتهما ونقصهما يوكلان للإنسان حتى إذا كان الجمال في طولهما أو في قصرهما فعل الإنسان ما يراه مناسباً للوسط الذي عاش فيه . لما كان كذلك جعلا قابلين للزيادة وللنقص . فإذن جمال الأهداب والحواجب ثابت عند جميع نوع الإنسان . وجمال الرأس واللحية يوكل للإنسان أمره فيتركه ليطول أو يقصره .

(١٥) الشفتان ستر للفم وهما كباب يغلق وقت ارتفاع الحاجة إلى فتحه .

(١٦) وهذا الباب ستر على اللثة والأسنان .

(١٧) هما تفيدان الجمال ولولا ذلك لشوّه الخلق .

(١٨) هما تعينان على الكلام .

(١٩) اللسان للنطق والتعبير عما في الضمير .

(٢٠) ولتقليب الطعام ولإلقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه ويسهل ابتلاعه .

(٢١) الأسنان مفرقة وليست عظماً واحداً فإن تلف بعضها صلح الباقي .

(٢٢) جمع فيها بين النفع والجمال .

(٢٣) جعلت صلبة .

(٢٤) جعل في الأضراس كبر وفيها ما يشبه الزوائد لأجل درس الغذاء ، فإن المضغ هو الهضم الأول .

(٢٥) الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام مع الجمال .

(٢٦) بيض لونها مع حمرة ما حولها .

(٢٧) تساوت رؤوسها كأنها الدر المنظوم .

(٢٨) في الفم نداوة محسوسة لا تظهر إلا في وقت الحاجة ، فلو أنها ظهرت وسالت لكان تشويهاً للإنسان ، فجعلت ليبل بها الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم .

(٢٩) فإذا لم يكن أكل ذهب من الريق ما كان زائداً وبقي ما هو للترطيب .

(٣٠) الذي بقي للترطيب يبل اللهوات والحلق لأجل الكلام ولئلا يجف ولو جف لهلك الإنسان .

(٣١) الذوق جعل في اللسان ليعرف ما يوافقه ويلائمه ، فما وافقه قبله واجتنب ما لا يوافق ، ولولا ذلك لم يفرق الإنسان بين الملائم وغير الملائم فيموت ، فالذوق كخفير النحل الذي يجعل عند باب الخلية ليمنع الأجنبي عن الدخول .

(٣٢) يعرف مقدار الحرارة والبرودة .

(٣٣) شق السمع وجعل فيه رطوبة مرة لتحفظه من الدود ، ويقتل أكثر الهوام التي تريد أن تلج إلى السمع .

(٣٤) حفظ الأذن بصدفة تجمع الصوت فترده إلى صماخيها .

(٣٥) وفيه زيادة حس لتحس بما يصل إليها بما يؤذيها من هوام وغيرها .

(٣٦) وجعل فيها تعاريج لترديد الصوت ولتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه صاحبها من النوم . وهناك معان عجيبة في الأذن تقرؤها في سورة « آل عمران » فارجع إليها تجد هناك شرح العين وشرح الأذن شرحاً وافياً . أما هنا فإنما هي ظواهر .

(٣٧) جعل الحنجرة مهيأة لخروج الأصوات، ودوّر اللسان في الحركات والتقطيعات فيقطع الصوت في مجار مختلفة تختلف بها الحروف لتسع طرق النطق.

(٣٨) جعل الحنجرة مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسبب ذلك الأصوات فلم يتشابه صوتان.

(٣٩) هكذا خلق بين كل صورتين اختلاف فلم تشتبه صورتان بل يظهر بين كل صورتين فرقان: فبالأول يميز السامع بين كل صوتين. وبالثاني يميز بين كل صورتين.

(٤٠) خلق اليدين لأمرين: جلب المقاصد. ودفع المضار. وجعل الكف عريضاً. وقسم الأصابع الخمس. وقسم الأصابع بأنامل. وجعل الأربعة في جانب والإبهام في جانب فيدور الإبهام على الجميع. فالإبهام يدور على الأربعة والأربعة مختلفات طولاً وقصراً فصلحت للقبض والإعطاء.

(٤١) إن بسطها كانت طبقاً يضع فيه ما يريد.

(٤٢) إن جمعها كانت آلة يضرب بها.

(٤٣) إن ضمها ضماً غير تام كانت مغرفة له.

(٤٤) وإن بسطها وضم أصابعه كانت مجرفة.

(٤٥) خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تضعف.

(٤٦) يلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل لولاها.

(٤٧) يحك بها جسمه عند الحاجة إلى ذلك، فلو عدمها وظهرت به حكة لعجز عن دفع ما يؤلمه ولا يقوم غير الظفر مقامه في حك جسده، إنه لا صلب كصلابة العظام، ولا رخو كرخاوة الجلد، فلذلك صلح للحك.

(٤٨) والإنسان يهتدي بظفره إلى موضع الحاجة في الحك، أما غيره فلا يهتدي لذلك إلا بشق الأنفس.

(٤٩) يطول الظفر ويقصر كما تقدم في شعر الرأس واللحية ليبقى منه ما يحتاج إليه لحاجته ويقص الباقي، وهذه بقدرها الإنسان باختياره وهو الذي يراعي الحاجة في ذلك.

(٥٠) كل ذلك قدّره الله للإنسان وابتدأ خلقه في بطن أمه، ويولد فاقد التمييز، ولو ولد عاقلاً فهيماً لحار من هذا الوجود الذي لم يعرفه ولم يعهد مثله، وهو مع ذلك يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولاً وموضوعاً معصباً بالخرق ومسجى في المهد، وهو في أشد الحاجة إلى ذلك لضعفه، فلا تهنأ له حياة ولا تحسن تربيته، فلما خلق غير مميز سهل الأمر وأعطي التمييز شيئاً فشيئاً حتى يكون رجلاً كبيراً.

فهذه نبذة من آلاف من الحكم التي أودعها الله في خلق الإنسان ذكرناها لتكون تذكرة لك في هذا المقام، ولينشرح صدرك بالعلم وليعطيك صورة من الملاحظات الدقيقة، ولترى أننا مغمورون في حكم وعلوم وعجائب وطول الأنس بها، وإعطاؤها لنا دفعة واحدة هو الذي أذهلنا عن تعقلها، فما أجمل العلم وما أبهج الحكمة ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[البقرة: ٢٦٩].

اللطيفة الثالثة في:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
وقوله: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾
وقوله: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾

تبين من هذه الآيات أن العالم أفضل من غير العالم، ولم يخص العلم بل ذكره مجرداً من المفعول، وجعل البشرى للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وجعل للمحسنين حسنة في هذه الدنيا، والمحسنون هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

تبين من هذه الآيات أن العلم بجميع العلوم والصناعات مطلوب، وأن المتصفين بذلك أفضل من غيرهم، والعلم لا يكون مفيداً إلا إذا تولاه النقاد وبحثوا فيه، وإلا فكيف يتبعون أحسنه؟أي: كيف يتبعون أحسن القول الذي سمعوه إلا ببصيرة نقادة. إذا تم ذلك فإن هؤلاء محسنون أحسنوا الاختيار. والمحسنون لهم في هذه الدنيا حسنة.

يا أمة الإسلام، هذا كلام الله وهو الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم:

(١) فعلى المسلمين أن يكون لهم لجان تبحث في الفنون والعلوم والصناعات، بحيث يكون هؤلاء أخصائيين في العلوم المختلفة.

(٢) وهذه اللجان تستعرض جميع العلوم والفنون والصناعات التي عرفتها الأمم وجميع ما يكشفه المسلمون في المستقبل، ثم يميزون بعقولهم النيرة وبصائرهم النقادة ما هو أكثر نفعاً للأمة، فيأمرون بإتقانه واستعماله، وما ليس كذلك فيتركونه.

(٣) يعرض على هذه اللجان علوم ما فوق هذه الغبراء وما تحت الثرى من علوم الطبقات الأرضية وما فوق السماوات العلى من أوضاع فلكية وكواكب درية وما بين ذلك مما كان ومما يكون.

(٤) متى حصل ذلك كان للمسلمين في هذه الدنيا حسنة، وهذه الحسنة ليست عند المسلمين الآن، ولكنهم في زمن قريب سيكون عندهم ذلك المجد الباذخ، إذ ينظرون ويقرؤون، ونعمة ربهم يتقبلون فيشكرون، انظر تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الآية: ٢٨٦] في سورة «البقرة»، فهناك بسط للمقام أوفى، ولأكتف بهذه الجوهرة:

جوهرة: في قوله تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

إن هذه الآية تفتح باب الموازنات بين الأمم، فالأمة التي ارتقت بالعلم والحكمة والصناعات أقوى من الأمة الكثيرة العدد القليلة العلم والصناعة، خذ لذلك مثلاً: هذه دولة اليابان منذ سنين غلبت الروسيا، وكانت الأولى لا تبلغ في العدد مقدار ثلث الثانية، وهذه الأمم الآسيوية التي تعد بمئات الملايين أقل علماً وصناعة من أوروبا، والكثرة العددية لا تغني عنها شيئاً، هذه بلاد جاوة وسومطرة وما حولها من جزائر الهند الشرقية قد احتلتها هولندة التي تعد على أصابع اليدين أعداد الملايين، وتلك الأمم تعد بعشرات الملايين ولكن القليل غلب الكثير، وهذا مصداق الآية هنا ومصداق

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وليس معنى هذا أن هؤلاء خبثاء وهؤلاء صالحون، وإنما ضربنا الآية هنا مثلاً لا نصاً، فهنا الاختلاف بالقوة والضعف، وهما ناشئان من العلم والجهل، وهذا قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

إذن ليست الكثرة بمغنية فتيلاً أمام العلم، فهاهو ذا الإنسان قليل العدد أخضع الحيوان مع كثرته ومن عجب أن نسل الحيوانات المفترسة قليل والحيوانات التي خلقت لغذائها كثيرة الذرية. فإذن قول الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى   إنما العزة للكاثر

لا يصح إلا إذا اتفق الخصمان سلاحاً وعلماً، أما إذا فاق أحدهما في علمه وصناعته فهنالك يختل الميزان ويصدق عليهما قول الله تعالى هنا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

اللهم أنت المعلم، ولو أردت تعليم المسلمين لقيضت لهم عقولاً فاهمة تقول لهم إن الفعل هنا لم يذكر معموله فأشعر بالعموم، ونحن المسلمين أقرب إلى أهل أوروبا ـ الذين أرسلهم الله لإيقاظنا بالحرب والاحتلال ـ من أمة اليابان الذين قلدوهم وارتقوا مثلهم، فهلا كان فينا رجل رشيد يعلمنا أن نعمل بهذه الآية؟ أفليس من المخجل المعيب أن الجهل اليوم لا ينطبق إلا على أمة أنزل الله في كتابها هذه الآية، يسمعونها وكأنهم لا يسمعون، ويقرؤونها وكأنهم لا يقرؤون، هذه الآية تليت علينا في كتابنا المقدس فلم نعمل بها، ولكن اليابان استخرجت معناها من عقول علمائها وعملت به فارتقت، أما المسلمون فهم الذين ضرب المثل بجهلهم بين الأمم، وقد آن أوان مجدهم ورقيهم. والحمد لله رب العالمين.

ثم اعلم أيدك الله أن الأمم الإسلامية أمرها عجب، قد نامت نوماً عميقاً، فإن لم يقم كاتب بنصحهم لم يجاروا الأمم في رقيها. أوَلا يعلم المسلمون أن أمة اليابان استيقظت في عشرات السنين ولحقت أوروبا وكانت نهضتها مصاحبة لنهضة مصر، فقد دخلت العلل في تعاليمها فوقفت أمداً، وهاهي ذه تريد إرجاع سنة الرقيّ كرة أخرى. وقد جاء في الأهرام هذه السنة ما نصه:

المحصول الأدبي في ألمانيا

دل الإحصاء في ألمانيا على أنه يوجد في كل ٢٥٠٠ نفس شخص يستطيع أن يؤلف كتاباً. وقد كان عدد الكتب الجديدة في ألمانيا ٢٤٨٦٠ كتاباً في سنة ١٩٢٧، فنزل هذا المقدار في سنة ١٩٢٨ إلى ٢٢٩٥١ كتاباً، ومع ذلك فإن ألمانيا لا تزال أكثر الأمم إنتاجاً للكتب. ويوجد من ذلك ٤٥٠٠ مؤلف جديد في الأدب و٢٣٠٠ في الفنون و٢١٠٠ في الدين و٢١٠٠ في كل من السياسة والعلوم والاقتصاد الخ. اهـ.

وإذا أردت أن أكتب في معنى هذه الآية وجب أن أستحضر كل ما تقدم في التفسير. إذن كل ما تقدم وما سيأتي تفسير لها، فقضية العلم والجهل قضية الحياة والموت بعينها، ولكن لا بد من ذكر نبذة في الطب، وأخرى في الاقتصاد، وأخرى في التعليم العام إيفاء لبعض الحقوق التي تقتضيها الآية، فهاهنا ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في نبذة في الطب

جاء في جريدة الأهرام في يوم ٩ أبريل سنة ١٩٢٩ تحت العنوان التالي ما نصه :

خطر يهدد الصحة ٣٩ مصاباً من طعام واحد

كثيراً ما نقرأ في الكتب والصحف ونسمع من أفواه رجال الصحة وغيرهم أن الوقاية خير من العلاج . إذن كيف تكون الوقاية في موضوعنا هذا والفقراء عديدون والجهلاء أكثر؟ مساكين الناس وخصوصاً الفقراء منهم ولا سيما الجهلاء والأطفال الذين يضطرهم الجوع والحالة إلى تناول المأكولات المعروضة للبيع في الطرقات والحوانيت المعرّضة للأتربة والميكروبات ، وهي التي جهزت وطهيت وعرضت للبيع بدون مراعاة للنظافة ، فتكون غالباً سماً زعافاً يودي بحياة الكثير أحياناً أو على الأقل يجعلهم تحت العلاج أياماً .

نعم مساكين هؤلاء الناس فإنهم يكونون ضحية هذا الإهمال ، نعم مساكين هؤلاء الباعة أيضاً لأنهم لم يعرفوا للنظافة معنى ولم يقدّروا لإهمالهم نتيجة لجهلهم وغباوتهم ، وخصوصاً إذا تركوا وشأنهم فهم أحرار فيما يعملون ، كأن أرواح الناس وسلامتهم ليست بشيء في نظرهم ما داموا يربحون حتى ولو كانوا يعرفون الحقيقة ، فإذا طفت في شوارع المدينة ومنها الشوارع الهامة العظيمة أو سرت في حاراتها فإنك لا تعدم رؤية هذا يبيع البقلاوة أو البسبوسة قد سترها الذباب ، وذلك يعرض الكسكسي أو الكشري قد غطي بطبقة من الأتربة والأوساخ . ولست في حاجة إلى التعرض لنظافة هذا البائع الشخصية وكذا الأدوات التي يستعملها وكيف جهزت وحفظت هذه المأكولات . وحسبي في ذلك أن يستعيد القارئ صورة من هذه الصور التي يراها أحياناً ولا سيما في الأحياء الوطنية الفقيرة .

بجوارنا رجل يبيع مثل هذه المأكولات وغيره كثير ، ولولا شدة حرصنا على سلامة التلاميذ والمحافظة على صحتهم ومنعهم ابتياع وتناول تلك المأكولات المضرة لراحوا ضحية هذه السموم ، إذ أن معظم التلاميذ يخرجون من منازلهم في الصباح ويتناولون طعام الإفطار في الخارج ، ولكن هذا البائع لم يعدم أناساً كثيرين يعرض لهم مأكولاته .

وكان يوم أمس يوماً تجلت فيه صورة صحيحة من هذا الضرر الذي يهدد صحة الناس ويجعلها في خطر ، إذ كان يبيع كشرياً كما هي عادته ، فلم يلبث من تناول قليلاً من الطعام حتى ظهرت عليه أعراض التسمم ، فكنت ترى هذا يقع مغشياً عليه وآخر لا يملك نفسه من القيء وثالثاً يتلوى من المغص وهكذا ، فدعوت رجال الإسعاف الذين كانوا يعثرون على المصابين في مختلف الشوارع المجاورة ، فحملوا بعضهم إلى الجمعية والآخر إلى مستشفى القصر العيني . ولقد كانت عربات اليد تستعمل في نقل المصابين إلى الجمعية بواسطة الأهالي ، وبعضهم استدعى الطبيب إلى منزله . وقد بلغ عددهم جميعاً تسعة وثلاثين رجلاً وأطفالاً ، وأكثرهم تحت العلاج الآن في مستشفى القصر العيني وجمعية الإسعاف .

ومن الغريب أن الناس لما حضروا إلى هذا البائع ليسألوه عن معروضاته عقب الحادث قال لهم : إن حاجتي نظيفة وهاهو انظروا إلي وأنا آكل منها ، وهنا تناول هذا البائع من طهيه فلم يكد

يستقر في جوفه حتى ظهرت عليه أعراض التسمم ولحق بإخوانه، والبوليس ينتظر شفاءه لإتمام التحقيق معه، ولعله لو سئل بعد ذلك لقرّر أن حاجته نظيفة جداً.

ولقد ذكرني هذا الحادث بحادث يضارعه في الإسكندرية، إلا أن البائع كان مغربياً اختفى قبل القبض عليه ولم يظهر له أثر، فهل هناك علاج لهذه الحالة؟ وهل لحضرات أصحاب الصحف الذين كرسوا حياتهم لخدمة الأمة أن يعالجوا هذا الموضوع شأنهم في كل موضوع هام، إذ الصحة أغلى شيء في الحياة. اهـ.

فيا ليت شعري، أليس الأمر راجعاً للعلم، فالعلم بالضارّ يمنع من تناوله. ثم انظر ما جاء أيضاً في مجلة «طبيب العائلة» تحت العنوان التالي ما نصه:

مضار الحلوى على الأطفال

من الأسف أن أحدنا إذا مر بمدرسة في الصباح قبل موعد الدخول أو عصراً عند انصراف التلاميذ الصغار بصر بهم مجتمعين حول بائع الحلوى يتنافسون في الشراء منه، غافلين عن ملايين الميكروبات التي تحط مع الذباب على الحلوى المعرضة للغبار، ولما هو أشد فتكاً من الغبار. وليس الأمر قاصراً على هذه الجراثيم وحدها، وإنما هذه الحلوى في ذاتها تضر بالأطفال أبلغ الضرر، ولو كانت من أجود الأصناف ومن أكبر المحال، ويرجع ذلك إلى أن المادة السكرية المصنوعة منها الحلوى تهدم صحة الطفل وتسيء إلى نموه الطبيعي وتفسد عمل الأجهزة التكوينية. وبعبارة أخرى: إنه يجب أن نمنع السكر بأنواعه عن الأطفال. وعلينا أن نحثهم على تناول الفواكه، فهي تحتوي المادة السكرية الصحية فضلاً عما فيها من عناصر مفيدة للجسم كالفيتامين والحديد الخ، وكذلك لا بأس من تناول العسل بنوعيه الأبيض والأسود بين فترة وأخرى دون الإكثار منهما، ومن الملاحظ أن الأطفال يحبون الفاكهة بغرائزهم ويفضلونها على الحلوى عادة، فحري بنا أن نشجع فيهم هذا الميل لمنفعته الصحية فضلاً عن ملاءمته لأمزجتهم.

وهناك اعتقاد سائد بين الناس يقول: إن الشاي يضر بالأطفال، وهذا صحيح من جهة واحدة، وذلك إذا كان الشاي من صنف رديء لأنه يحتوي في هذه الحالة على حامض التنيك الذي يفسد الأنسجة. أما إذا كان الشاي جيد النوع فلا بأس من شرب الأطفال منه مع مراعاة عدم الإسراف فيه. يقول المؤلف: كلا. بل الأصح تركه كله.

قائمة الأكل في المستقبل

يعرف الناس ما تشتمل عليه قائمة الأكل التي تقدّم في الفنادق. ويقول العلماء: إن رجل المستقبل سيرى قائمة أخرى تختلف عن هذه كل الاختلاف في ألوان الطعام. وقد ذهب الدكتور برنار الكيماوي الإنكليزي الشهير إلى أن فطوره سيكون شعاع الشمس وغداءه كمية من الهواء وعشاءه قدحاً من ماء البحر. وعلى ذلك لن يخشى أهل المستقبل أن يعوزهم ما في الأرض من غذاء مهما كثر عددهم، بل سيصبحون في غير حاجة إليه. وسينسون مذاق الخبز واللحم. وسيكون للإنسان ثلاث معدات ليهضم الغذاء الذي تقدم ذكره، وإن يكن يرى لأول وهلة أنه بسيط وليس يحتوي على مادة

جافة أو صلبة، ولكن الإنسان لن يلجأ إلى التغذية بالتحليل الكيماوي إلا بعد عهد مديد، فإن البرازيل وحدها إذا أصلحت أراضيها الزراعية أمكن أن تكفي حاصلاتها ثلثي سكان الكرة الأرضية. ويوجد في أفريقيا من الأراضي ما يكفي لأكثر من سكان الأرض الحاليين بعدة ملايين. فإذا ازداد السكان في الكرة الأرضية بحيث لم تف بحاجياتهم الحاصلات الزراعية أمكن الالتجاء إلى التغذية الكيماوية. ويوجد في الأرض المواد التي تصلح للتغذية بهذه الطريقة. انتهى ما جاء في المجلة المذكورة، والحمد لله رب العالمين.

تم الفصل الأول. ومن أراد قراءة الطب لحفظ صحته فليرجع إلى ما تقدم في سورة «البقرة» عند آية: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ ﴾[البقرة: ٦١] الخ، وآية «الأعراف»: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ ﴾ [الأعراف: ٣١] الخ، وفي سورة «الحجر» عند التلميح بقصة آدم، وفي سورة «طه» عند قصة آدم أيضاً وفي سورة «الشعراء» عند آية: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الشعراء: ٨٠]. ولم أذكر هذه النبذة الصغيرة إلا لأذكرك بما يكفيك في تلك المواضع، فارجع إليها إن شئت.

الفصل الثاني: في الاقتصاد وفي جمع الثروة

ولا سبيل لذلك إلا بالعلم، ولقد مضى في هذا التفسير كثير من هذا الموضوع، فاقرأه في سورة «إبراهيم» فإنك تجد تقصير المسلمين في أرضهم وجبالهم وأنهارهم للجهل، وتجد هناك مسألة البحر الميت الذي فيه ثروة تزيد على ما عند المسلمين في الكرة الأرضية، والجاهل ينظر إليه نظره إلى بركة ماء منتنة حقيرة، ولكن العلم هو الذي أفهمنا ذلك، فالعالم يرى البحر الميت سعادة والجاهل لا يعقل ذلك. إذن لا يستوي الرجلان، والمسلمون اليوم هم الأمة التي بقيت وحدها في الجهل، ولكنها اليوم استيقظت فلا بد من تعميم التعليم، وذلك هو الفصل الثالث الآتي قريباً.

فلأذكر لك أولاً التعليم في جامعات أوروبا حتى نعرف كيف نرقي المعاهد الدينية فتشمل العلوم كلها، ثم أتبعه بما كتبه الكتّاب في فوائد التعليم الإجباري، ثم ما كتبوه في توزيع العلوم على أفراد المتعلمين:

الفصل الثالث: في التعليم
في الجامعات الأوروبية
حديث مع مدير جامعة لوزان

جاء في جريدة الأهرام في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٩ ـ ٩ رجب سنة ١٣٤٨ ما نصه:

رأيت أثناء رحلتي الصيفية أن أعرف شيئاً عن أحوال الطلبة المصريين في أوروبا فلقد زاد عددهم، وهو ماض في الزيادة عاماً بعد عام بما ترسله الحكومة من البعثات العلمية سنوياً وأحياناً شهرياً من خريجي المدارس العليا والخصوصية ومن موظفيها وعمال ورشها، وبالرغبة المتزايدة التي بدت على الطلبة ومن ولاة أمورهم لإشباع استعدادهم من علوم أوروبا وآدابها ولغاتها ومنتدياتها، ومن الاتصال برجالها والوقوف على عاداتها ونظامها. وقد زرت فيما زرت جامعة لوزان والسربون وكلية الحقوق بباريس، وقابلت بعض الطلبة وبعض المشرفين على أحوالهم في أوروبا من تعليم

ومسكن ومعيشة وأخلاق وإرسال التقارير لوزارة المعارف أو لولاة أمورهم. يزيد عدد الطلبة المصريين في أوروبا الآن عن الألف طالب. وأكثرهم يتعلمون الطب والصيدلة، ويتلوهم من يتعلمون القانون، ثم يجيء بعدهم من يتعلمون الهندسة والعلوم الطبيعية والآداب والكيمياء. ويلاحظ أن عدداً قليلاً من الطلبة يذهبون إلى أوروبا أو يطردهم أولياء أمورهم من مصر إليها لا للعلم، ولكن لإمضاء الوقت في اللهو والتنقل. ويهمل هؤلاء التعلم إهمالاً يبلغ من بعضهم أنه يعيش في باريس سنوات دون أن يحسن النطق والتخاطب والتفاهم باللغة الفرنسية. ولا يعرف إلا بعض ألفاظ يتعلمها أي شخص في شهر أو شهرين. ومن الأسف أن هذا النفر القليل ـ على قلته ـ يضر سمعة مصر. لأنه النفر الذي يغشى الأندية والمجتمعات والملاهي. أما الأكثرية المكبة على التعليم فهي لا تختلط عادة بغير كتبها ومحاضرات أساتذتها. فلا يعرف الجمهور الأوروبي الناضج عنهم شيئاً. ولذلك لا تستفيد مصر من اجتهاد هؤلاء من حيث تشريف سمعة مصر وإكبار نبوغ أبنائها. ويلاحظ أن بعض الطلبة، مع شديد رغبتهم في التعليم، لا يكون معهم المال الكافي للدخول في الجامعات والاستمرار. أو لا يكون معهم التحصيل العلمي اللازم للدخول في الجامعات. فيضطر هؤلاء وأولئك إلى البقاء مدة بغير استفادة، مع إتعاب إدارات البعثات المصرية والمفوضيات والقنصليات في إعانتهم ونصيحتهم وكتابة الخطابات عنهم إلى وزارة المعارف للتصرف في شأنهم. كما أن الطلبة الفقراء يشغلون أنفسهم بإرسال خطابات للأمراء ووزارة الأوقاف وكبار الأغنياء يستجدون معونتهم، ونادر جداً جداً أن يجاب ملتمسهم. ويلاحظ أيضاً أن طلبة مرضى بعلل باطنية أو وقتية يأتون إلى أوروبا فيزدادون ضعفاً، وبعضهم يموت أو يعود ضعيفاً هزيلاً. لهذا نلفت نظر الطلبة وأولياء أمورهم إلى عدم الذهاب إلى الخارج من غير مال كاف وصحة وافية، وإلا كان الذهاب مضيعاً لأخلاقهم ومستقبلهم، لأنه ليس للأجنبي في أوروبا كرامة أو فائدة إلا إذا كان معه المال، وليس الحال هناك كالحالة في مصر، إذ يستطيع الأجنبي المعدم أن يشتغل ويعيش بسهولة لا يجدها المصري نفسه. وذلك لأسباب معروفة ليس هنا المحل لبيانها.

زرت جامعة لوزان وهي في قلب مدينة لوزان نفسها بسويسرة. وقد فتحت هذه الجامعة سنة ١٥٣٧ وكانت تدرس علم اللاهوت فقط. ويلاحظ أن جامعات أوروبا قديمة في إنشائها وأنها كانت معاهد دينية ثم تطورت إلى أن صارت جامعات مدنية.

ولو أن الأزهر دارج النهضة الفكرية في مصر لكان هو اليوم الجامعة المصرية نفسها، ولما احتجنا الآن لإنشاء جامعة للعلوم المدنية، ولما احتجنا لمشروعات إصلاحية للأزهر تارة تعتبر متطرفة وطوراً تعتبر مجحفة بالدين، حتى صار الأزهر في حالة تذبذب، فلا يعرف أهو صاعد أم هابط بينما كل شيء يتطور إلى الخير أو إلى الشر. في سنة ١٥٤٩ عرفت جامعة لوزان باسم الأكاديمية إلى سنة ١٥٨٧، وكانت في البناء المخصص الآن لكليتي الآداب والحقوق. واستمرت الأكاديمية إلى عام ١٧٣٨، وفي المدة التي سبقت ذلك جرت تعديلات كبيرة في نظامها ليس المقام متسعاً لبيانه. بعد ذلك قسمت الأكاديمية إلى ثلاث كليات: كلية للاهوت. وثانية للحقوق. وثالثة للآداب والعلوم. ووسعت دراسة

التاريخ وأضيف أساتذة جدد لتعليم الجغرافيا والآداب الألمانية والنبات والفسيولوجيا والهندسة الوصفية. وفتحت فصول حرة للخارجين.

أما جامعة لوزان كما هي اليوم فقد أنشئت بأمر عال في ١٠ مايو سنة ١٨٩٠ عدل بقانون في ١٥ مايو سنة ١٩١٦. وقد ترك هذا القانون للجامعة تحديد عدد كراسي الأساتذة وأنواع الدراسات. على أن الجامعة تشمل: (١) كلية اللاهوت البروستانتي. (٢) كلية الحقوق. (٣) كلية الطب. (٤) كلية الآداب. (٥) كلية العلوم. وقد أضيف إلى كلية الحقوق مدرسة العلوم الاجتماعية والسياسية. ومدرسة الدراسات التجارية العليا. ومعهد البوليس العلمي.

وتنقسم كلية العلوم إلى قسم العلوم الحسابية والطبيعية ومدرسة الصيدلة ومدرسة المهندسين ويبلغ عدد أساتذة الجامعة الآن ١٢٩.

وقد أنشئت كلية الآداب في سنة ١٨٩٥ وقد جعل بها فصول صيفية للطلبة الأجانب، وهي على الأخص لإتقان اللغة الفرنسية، وتستمر الفصول ستة أسابيع في يوليو وأغسطس. وتعطى شهادة للطلبة المستمعين المواطنين.

وللجامعة جمعية عمومية من جميع الأساتذة. وهي تعين رئيسها الذي يكون مديراً للجامعة مدة سنتين، ويختار عادة المدير بالدور بين عميدي الكليات. ولكل كلية مجلس مؤلف من الأساتذة الذين يختارون العميد لمدة سنتين. وللمدارس الملحقة بالكليات رئيس يسمى مدير كمدير مدرسة الهندسة ومدرسة العلوم السياسية، والجامعة شخص معنوي ومديرها يمثلها أمام جميع الهيئات والمحاكم.

زرت مدير جامعة لوزان مسيو موريس باشو، وهو عالم رياضي كبير متواضع في مستهل العقد الخامس من حياته، قابلني في الجامعة خصيصاً مع أنه كان في إجازة. وسألته أسئلة كثيرة، منها سؤال عن شروط دخول الطلبة الأجانب. فأجاب: إن شروط الدخول في جامعة لوزان بالنسبة للطلبة الأجانب هي نفس الشروط اللازم توفرها في الطلبة السويسريين. إنما الطلبة الأجانب الذين لم يتلقوا تعليماً جامعياً منظماً مثل تعليم جامعتنا يجب أن يمضوا امتحان دخول خاص.

(س): كيف يختار المدرسون لمنصب الأستاذية؟

(جـ): إذا خلا كرسي أستاذ بالجامعة فإن مجلس الدولة ـ هنا مجلس المقاطعة ـ يختار أستاذاً خلفاً له من الأشخاص المعروفين بمؤلفات ممتازة، أو تلقوا تعليماً فائقاً في المادة التي كان يدرسها الأستاذ السابق.

(س): من الذي يتولى الإنفاق على الجامعة؟

(جـ): تقوم الحكومة بالإنفاق على الجامعة. على أن للجامعة إيرادها الذي يبلغ حوالي مائة ألف فرنك في السنة.

(س): ما درجة إقبال المصريين على جامعتكم وما هي المواد التي يفضلونها وما أحوالهم؟

(جـ): منذ سنين مضت والطلبة المصريون يدخلون جامعتنا. وهم على الخصوص يدرسون الطب والقانون أو يدخلون مدرسة الهندسة. وقد كونوا من بينهم جمعية منهم. وهم على العموم من خيار الطلبة. ويميل عددهم إلى الازدياد عاماً بعد عام. ويبلغون الآن نحو الثلاثين طالباً. انتهى.

فوائد التعليم الإجباري

جاء بجريدة الأهرام في يوم الأحد ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٩ ما نصه :

(١) كان توماس جفرسون ـ من أشهر رؤساء جمهورية ولايات أميركا المتحدة السابقين ـ ولعاً بالتعليم العالي، حتى إنه كتب على قبره بعد وفاته أنه أبو جامعة فرجينيا. وقد أراد أن يتحداه يوماً كبار رجال التعليم فسألوه عن التعليم الأولي، فأجاب: لو جبرنا على أن نختار أهون الشرين، إلغاء التعليم الأولي. أو إبطال التعليم العالي في الكليات والجامعات لتخيرنا الثاني بغير تردد. فخير لنا أن يكون مجموع أفراد الأمة رجالها ونساؤها ملمين بالقراءة والكتابة؛ مستتبرين قليلاً؛ من أن نحصر العلوم العالية في فئة قليلة. ونخلق من خريجي الجامعات أقلية من أفراد أرستقراطيين. ومن أشد الأحوال خطورة أن تترك سواد الأمة جاهلاً كالدواب وتثقف طبقة غنية تثقيفاً عالياً، كما هي الحال في بعض بلدان أوروبا ـ في ذلك الحين ـ إن كل أمة تنشد الديموقراطية والنجاح قبل إلغاء الأمية تعرض ذاتها للملمات عظيمة وتجعل بلادها مهزلة بين الدول.

(٢) ولما وضع التعليم الأولي على بساط البحث والمناقشة في مؤتمر التعليم الدولي الذي عقد في فندق كارلتون بارك في جنيف هذا العام، عقب مغادرة جلالة الملك فؤاد للفندق ببضعة أيام، نهض رئيس المؤتمر دكتور مزو، من فطاحل رجال التعليم، ومنظم مدارس الصين واليابان وجزائر الفلبين، وقال: إن بلدان الشرق جميعها أشد اهتماماً بالتعليمين الثانوي والعالي منها بالأولي. وقد أدى هذا الخطأ البين إلى نشوء طبقة من المتعلمين الذين تولوا الزعامة في تلك البلاد بين شعب أغلبيته الساحقة تتمرغ في حمأة الجهالة، وأكثريته تقتله الأمية. ولا يشك أحد في أن استغلال هذه الفئة الصغيرة للأكثرية؛ واتخاذها إياها طعمة له؛ من أكبر الأسباب في تأخر الشرق وانحطاطه. والآن لنسمع الآنسة النابغة كلمة قالتها آنسة فاضلة. ولعل أقوال النساء أشد وقعاً في نفسها من أقوال الرجال. في مؤتمر الاتحاد العالمي للتربية الذي عقد أيضاً في جنيف عقب المؤتمر سابق الذكر. ألقت الدكتورة مرغريتا كامبس الإسبانيولية خطاباً ضافياً عن الأمية والمحافظة على القوانين، أدلت فيه بأرقام ناطقة عن البلدان التي يزداد فيها ارتكاب الجرائم بنسبة الأمية. وأشارت إلى هولندا والدانمرك والسويد والنرويج التي انعدمت فيها الأمية منذ عهد بعيد. وما تبع ذلك من القضاء على الجرائم لدرجة أن في كثير من ولاياتها لم تنعقد محاكم الجنايات فيها منذ خمس وعشرين سنة، فضلاً عن استتباب السلام والهدوء والسكينة. مما يحدو بالزائر أن يعتقد أن سكان تلك الممالك أقرب إلى الملائكة منهم إلى بني الإنسان.

(٣) وخطب في الاجتماع عينه دكتور هرمن ليو المندوب الصيني عن الأمية والتفاهم بين الأمم. وتلاه دكتور يان الأميركي فبحث في موضوع الأمية وتأثيرها في الكساد الاقتصادي، وأبان أن تعليم الجمهور القراءة والكتابة أنجع الوسائل لتحسين الحالة الاقتصادية. وبرهن على أن كثرة الأميين في الأمة تؤثر في المتعلمين من أفرادها. لأن وجود طائفة صغيرة من أهل الثقافة بين طغمة من الجهال يحط من قيمتهم ويقتل معلوماتهم ولا يقوى فيهم الدفاع للنشاط والعمل.

(٤) وقال خطيب آخر: إن المدرسة القروية ينبغي أن تكون مركز الحياة الاجتماعية والأدبية في القرية. كما ينبغي أن يكون معلموها زعماء القرية يرشدون الأهالي إلى تحسين معيشتهم من جميع الوجوه، كرفع مستوى الصحة والأخلاق، والزراعة والصناعة. وجعل المدرسة في غير أوقات الدراسة قاعة كبيرة لاجتماع أهالي القرية للبحث في شؤونهم الاجتماعية والصحية وسماع النصائح والإرشادات والمحاضرات أحياناً.

(٥) وقد شاهدت بين مندوبي المؤتمر الذي ألقيت فيه هذه الكلمات دكتور منصور فهمي. وكان بين الحضور أيضاً الآنسة سنية عزمي ناظرة مدرسة المعلمات الراقية ببولاق. والأستاذ مرسي قنديل ناظر مدرسة سوهاج الثانوية. مندوبين عن مصر. ويا حبذا لو ذكروا للقراء شيئاً عما فاتني تدوينه من هذه الأقوال، وقد فاتني أن أذكر أن مندوباً هندياً أراد أن يدافع عن بني جنسه الذين تغلب فيهم الأمية. فأغرق في الدفاع واسترسل فيه إلى حد أنه خيل إلى الأذهان أنه يحبذ الأمية ولا يرحب بالتعليم الإجباري، فاحتد عليه الرئيس وحنق السامعون. وقد مثل الدور عينه في مؤتمر ثالث واسع النطاق لم يكن لي حظ حضوره في الدانيمارك. كما علمت من أحد الأساتذة المندوبين عن وزارة المعارف بمصر. تقول الآنسة منى: إنني أريد نشر التعليم بلا قيد ولا شرط ـ تقصد التعليم الإجباري طبعاً ـ فذكرني قولها بكلام وزير معارف روسيا الذي أصدر سنة ١٨٢٤ منشوراً يقول فيه: العلم نافع فقط إذا كان كملح الطعام. يؤخذ منه كميات قليلة جداً. فإذا زاد التعليم وكثر التنوّر انقلب إلى ضده. لأن تعليم القراءة والكتابة للجميع خطر على الدولة.

(٦) وقد فات الوزير المحترم أن الاستعارة تعوزها الدقة والضبط. لأن الملح في الطعام ينبغي أن يؤخذ حقيقة بمقادير صغيرة. ولكن هذا لا يفهم منه أن عشرة في المائة من الناس يستعملون الملح وتسعين في المائة لا يتذوقونه أبداً، فيفسد طعامهم، ولكن المرحوم الوزير كان يعيش في أوائل القرن التاسع عشر فهو معذور. أما نحن فقد أوشكنا أن نبدأ الثلث الثاني من القرن العشرين. فما عذرنا؟ اقرأ التعليم في روسيا قديماً لمؤلفه دارلنجتون.

(٧) كان غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا السابق يكره التعليم الأولي رغم انتشاره في بلاده. وكان من أقواله المأثورة: إن الديموقراطية في التعليم مخالفة لأوامر الله ومناقضة لمبادئ الدين والمسيحية. واليوم أصبحت ألمانيا بعده ديموقراطية في السياسة والاجتماع. في التعليم والعمل والحياة بجميع مناحيها. انتهى.

وهاهنا لا بد من إتمام هذا المقام ببيان أن كل امرئ يوضع فيما استعد له، فأقول: لا ريب أن الله عزّ وجل ما خلق أمة إلا ولها نظام خاص سواء أجهلوه أم علموه، وهذا النظام لا أشك أنه يكفل سعادتهم في الدارين، ألا ترى أن عدد النساء والرجال يكاد يكون متساوياً، فقس عليه جميع ما يحتاجه الناس في حكمتهم وصناعاتهم، فإن بحثوا وجدوا في ذريتهم كل ما ينفعهم كما وجد كل رجل امرأة. وقد سهل الله الذكورة والأنوثة فعرفها الناس، ولكنه ستر الغرائز والأخلاق الكامنة لنبحث عنها بأنفسنا. وليعلم الناس قاطبة مسلمين وغير مسلمين أن نظام أهل الأرض الآن ناقص

نقصاً فاحشاً، فإن جميع الأمم لم تستكمل استخراج المواهب العقلية ولا المنافع المادية، فيجب البحث في استعداد التلاميذ مع تعميم التعليم، وليمتحن كل تلميذ امتحاناً خاصاً وليوضع فيما خلق له حتى ينفع أمته. ويجب أن لا يراعى إلا الاستعداد، فابن النجار والحجار ربما صلح لإدارة المجموع أو للفلسفة أو للطب. وابن الغني والأمير ربما لا يصلح إلا للأمور الصناعية. فليوضع كل في مركزه، ثم لتخصص كل أمة فيما استعدت له. وهذا المقام قد استوفاه كتابي «أين الإنسان» الذي ألفته ونشرته منذ عشرين سنة. انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

قد تقدم في التفسير اللفظي بعض عجائب الينابيع:

(١) اعلم أن في جوف الأرض مياهاً دلت عليها الينابيع العذبة التي تخرج من قرار البحر في كثير من محال مشهورة بذلك.

(٢) وأيضاً تنقذف مياه من جبال النيران عند ثورانها.

(٣) كذلك الحفر المعدنية تفيض المياه من داخلها.

(٤) إن بعض الأنهار تفيض ولا ترجع بعد ذلك أصلاً فأين ذهب ماؤها؟ لا شك أنه حبس في باطن الأرض.

(٥) الأرض قد تبتلع جبلاً وتظهر بحيرة عظيمة في محل ذلك الجبل، فأين كان الماء إذن؟ إنه كان في باطن الأرض.

(٦) الآبار الارتوازية التي حول «مودينه» وغيرها من البلاد.

الماء معلق فوق رؤوسنا أيضاً

فمنه السحب والضباب ويكون ثلجاً لا يتحرك فيتوّج رؤوس الجبال الشامخة ويغشي جوانبها وأكنافها المنحدرة ويشكلها بأشكال لازوردية شفافة. هذه جعلت مخازن لا تنفد فتكون دائماً مدداً للينابيع والعيون والنهيرات والأنهار.

أسباب الينابيع

(١) الآثار الجوية المائية.

(٢) ذوبان الجليد والثلج.

(٣) رشح المياه.

(٤) فعل القنوات الشعرية الأرضية.

(٥) جري المياه جهة الأجزاء المنخفضة من الأرض.

ويوجد في معظم المحال أحواض صغيرة متفرقة منعزلة عن بعضها تأتي إليها من جوانبها مياه الأراضي القريبة لها في قنوات صغيرة تحت الأرض. فإذا فاضت عليها تلك المياه أرسلتها في قناة واحدة متصلة بحافة من حوافيها تذهب بها إلى ما شاء الله.

وربما لا يكون هناك حوض، وإنما يخرج من الصخرة تيار يختلف حجمه بدون أن يعرف أصله. وهذان التياران يسميان بالينابيع والعيون. وهذه الينابيع اختلافها عظيم جداً ولذلك تسمى بحسب ما يحدث فيها، فيقال ينابيع حارة أو باردة وطبيعية ومعدنية ومحللة وماصة ومحجرة ومقطعة ودورية وقحطة وقابضة وغير ذلك.

وقد اشتغل الكيماويون والطبيعيون والأطباء بدراستها ومشاهدتها وتحليلها، واستنبطوا منها وسائط نفيسة لشفاء الأمراض المختلفة، والمسلمون نائمون. انتهت اللطيفة الرابعة.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾

قال ابن عمر رضي الله عنهما: عشنا برهة من الدهر، وكنا نرى هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾[الزمر: ٣١]. قلنا: كيف نختصم وديننا واحد وكتابنا واحد؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت بأنها فينا نزلت. وروي مثله عن أبي سعيد الخدري، ولكنه ذكر يوم حنين. وقال إبراهيم مثل ذلك في مقتل عثمان.

هذا ما ورد عن الصحابة. ومعنى هذا أن الصحابة رضوان الله عليهم ما كانوا يظنون أن المسلمين تنطبق عليهم هذه الخصومة، فلما رأوا ما نزل بهم عرفوا أنهم يختصمون، أي: كما يختصم أهل الديانات المختلفة. فكما يختصم المسلمون وأهل الكتاب يختصم الحزبان المتشاجران من المسلمين. هذا هو الذي قالوه. وانظر كيف حالنا اليوم.

حكم الصحابة الذين هم أعلم بكتاب الله منا بأن المسلمين يختصمون عند ربهم يوم القيامة. لماذا يختصمون؟ لأنهم اقتتلوا. ولعمري إن هذا شيء يسير بالنسبة لما وقعنا فيه. اقتتل المسلمون ومات بعضهم وتولى الحكم بنو أمية فماذا حصل؟ ارتقى الإسلام ولم يسلط على المسلمين غيرهم، وملكوا الأمم شرقاً وغرباً، وإنما هو نزاع قام باجتهاد فيما بينهم، وكل له حجة والله هو الذي يفصل بينهم.

أما نحن فواحسرتاه غلبنا الفرنجة، فيا ليت الأمر قاصراً على عداوة بعضنا لبعض، بل الأمر أعظم من ذلك جداً. إننا اقتتلنا حتى خضعنا جميعاً لغيرنا، فإذا اختصم الصدر الأول عند الله فكيف تكون حالنا نحن والفرنجة يجوسون خلالنا ويمنعون العلم عنا ويبعثون في بلادنا الفساد والضلال والخلاعة والفسوق ويهلكون الحرث والنسل، أتدري لم ذلك؟ ومن المسؤول؟ المسؤول هم العلماء والملوك والأذكياء، سيقف العلماء بين يدي الجبار والعامة والملوك وسائر الرؤساء فيقول لهم: أعطيتكم أرض مصر واليمن والشام وبلاد الأناضول وبعض بلاد الهند والصين وبعض الجزائر وبعض أفريقية، وقلت لكم: إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون. أيها المسلمون، فماذا صنعتم؟ تركتم جبالي فلم تدرسوا ما فيها، وبحاري فلم تعرفوا عجائبها، وأرضي فلم تستوعبوا منافعها. فيقول العامة: يا ربنا إن علماءنا قالوا لنا: هذه علوم الدنيا لا علوم الدين وقالوا لنا: كفاكم أن تعرفوا ما بني عليه الإسلام واكتفوا بعلم الفقه، فيسأل العلماء فيقولون: هكذا قال من قبلنا، ويسأل الملوك فيقولون: هكذا علمنا العلماء. فيقول الله لهم: لقد أهنتكم في الدنيا بدخول الأجانب في بلادكم، وسأعاقبكم على تفريطكم.

أتحتجون بعلم الفقه وقد نص فقهاؤكم أن العلوم كلها فروض كفايات؟ والعقاب على تركها شامل للأفراد والجماعات. ألم يكن لكم عقول تفقهون بها؟ ألم يكن لكم أعين وأسماع وأبصار؟ أظننتم أني أقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الزمر: ٢١] لأكتفي منكم في ذلك برؤية النظر. وإذا كان النظر البصري كافياً فأي فرق بين الإنسان والحيوان وبين العالم والجاهل. إذن يكون نظر الخليل في ملكوت السماوات والأرض كنظر العامة وهذا غير معقول.

أيها المسلمون، أعطيتكم أرضي وأنرت لكم سمائي، فلم تنظروا ولم تفكروا، وقلتم: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا. ألم أقل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[الرعد: ١١].

هذا ما يقال لمن مضى من بعض الملوك والعلماء. فأما في المستقبل القريب فللإسلام شأن غريب وأمر عجيب وسعادة وأي سعادة، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[ص: ٨٨]. وبهذا تم الكلام على القسم الثاني من السورة.

تذكرة

اعلم أن هذه اللطائف الخمس كنت كتبتها أيام الكتابة العامة لهذا التفسير. ولكن أثناء طبع هذه السورة قد فتح الله عز وجل بعجائب وبدائع وحكم جميلة في هذه الآيات وما بعدها. ولما كنت معتاداً أن أكتب ما يستجدّ من الفتح، رأيت أن أكتب لطائف أخرى أجمل وأبدع لهذه الآيات السابقة وما بعدها بعد تمام تفسير السورة قريباً فتدبره. اهـ.

القسم الثالث

﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾
وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ
سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى
ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ
رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ
رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾
قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ
فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ
ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

التفسير اللفظي

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى دين الإسلام، فقال بعض المشركين: قد زنينا وقتلنا وانتهكنا الحرمات فإذا أسلمنا فكيف يغفر الله لنا؟ ومن هؤلاء وحشي، فإنه قال: إن من قتل أو زنى أو أشرك يلق أثاماً يضاعف له العذاب وأنا قد فعلت ذلك كله. وأيضاً عياش بن أبي ربيعة والوليد ابن الوليد ونفر من المشركين أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا. وأيضاً قال ابن عمر: كنا نقول «ليس شيء من حسناتنا إلاّ وهي مقبولة»، فلما نزل: ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾[محمد: ٣٣] ـ وقد فسرت المبطل بالكبائر والفواحش ـ فمن أصاب شيئاً من ذلك نقول: هلك، فلما نزلت هذه الآية استبشر بها الجميع، فأسلم وحشي عياش بن أبي ربيعة ومن معه، وكفّ الصحابة رضي الله عنهم عن اليأس من صاحب الكبيرة، بل استبدلوا اليأس بالخوف عليه. والآية هي: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: تجاوزوا الحد بارتكاب الكبائر ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ لا تيأسوا من مغفرته أولاً وتفضله ثانياً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بالتوبة فإن لم تكن فبالتعذيب في الآخرة، وذلك للمسلم ويغفرها بمجرد الإسلام لمن أسلم من الكفار ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾. ولما كان خير الأمرين وهما: التوبة والتعذيب في الآخرة، أولهما، أردفه بقوله: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي: توبوا إليه ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ أخلصوا له العمل ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ إن لم تتوبوا. ولما كان ظاهر الآية

المتقدم ربما يجعل بعض النفوس تغتر بظاهرها؛ أردفه بما يوجب الاحتراس في مثل هذا المقام وعدم الاتكال، فالدين وإن كان واسعاً قد حدّد الله فيه لكل امرئ درجة، فإذا أباح لنا أن نأكل ما نشتهي من أنواع اللذات فليس معنى هذا أن يتساوى المنغمس في الحلال المرتطم في لذاته المباحة ومن هو منفق للمال متصدق به خادم للجميع، بل الأول أشبه بالحيوان وأقرب للأنعام، وكونه مسلماً لا يمنع من نقص درجته، إن الأول لا يذكر بجانب الثاني، ومع ذلك فهو في رحمة الله الذي وسع في ملكه الكلب والخنزير والنمل والنحل وما أشبهها مع الإنسان في الأرض، بل ذلك يعدّ كمالاً في ملكه، لأن الملك الذي خلا من الناقص ناقص، فما مثل المسلمين يوم القيامة إلا كمثل تلاميذ المدرسة فيهم السابق واللاحق والضعيف. وليس انتساب الضعيف البليد إلى المدرسة بمانع من رسوبه في الامتحان واعتباره متأخراً. كلا، بل قال الله تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: ٢١]، فأي نسبة بين درجات التلاميذ بالمدرسة ودرجات المؤمنين يوم القيامة. وكفاك هذا المثال إيضاحاً لحال الرجل المقصر في المسلمين، ولذلك حضّ الله على الأخذ بالأحسن، فقال: لا تتكلوا على المغفرة وتقعدوا كاسلين، بل اجتهدوا وسابقوا إلى الخيرات ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾فإذا سمعتم المغفرة فلا يحملنكم ذلك على الاتكال لأن هذا يقعد بهممكم وينزلكم أسفل الدرجات وغيركم يطير إلى المعالي. فقد يكون المسلم في أسفل الجنة وبعض عبيده أو خدمه أو المساكين من قريته قد طاروا إلى العلالي أو نظروا وجه ربهم. فلا تتهاونوا في عمل الصالحات فضلاً عن التوبة والإخلاص ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ بمجيئه فتتداركون، بادروا إلى العمل واحذروا ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ أي: بعض الأنفس وهي نفس الكافر ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ أي: قصرت في جانبه، أي: في حقه وطاعته، فالجانب كناية فيه مبالغة. قال الشاعر:

أما تتقين الله في جنب وامق ... له كبد حرّى عليك تقطع

﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ المستهزئين بدين الله وبكتابه وبرسوله وبالمؤمنين، فلم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر بأهلها ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى ﴾ أرشدني إلى دينه وطاعته ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الشرك والمعاصي ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل. فرد الله عليه قائلاً: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: قلت ليست من الله، وتكبرت عن الإيمان بها الخ ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ زعموا أن له ولداً أو شريكاً، أو قالوا: الأشياء إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾ منزل ﴿ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ الشرك والمعاصي ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ بفلاحهم وبالطرق التي تؤديهم إلى الفوز والنجاة. ثم بين المفازة فقال: ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من خير و شر وإيمان وكفر ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يتولى التصرف فيه ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: مفاتيح خزائنهما، واحدها مقلاد أو مقليد، ومن ملك مقاليد الخزائن تصرّف فيها كيف يشاء فهو كناية ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ مقابل قوله: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ لمن دعاك إلى دين آبائك ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ ﴾ أي: أجهلت فغير الله أعبد بأمركم بعد هذا البيان. فـ « تأمروني » جملة اعتراضية، ﴿ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ بالتوحيد. ثم هدد الله المشركين موجهاً الخطاب لرسوله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الذي عملته قبل الشرك، أي: أوحينا إليك لئن أشركت ليحبطن عملك، وإلى الذين من قبلك لئن أشركوا ليحبطن عملهم. وقوله: ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ معطوف على جواب القسم السادّ مسدّ جواب الشرط ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ ردّ لما أمروه به ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ إنعامه عليك ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ وقرئ بالتشديد، أي: ما قدّروا عظمته في أنفسهم حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكاً ووصفوه بما لا يليق به ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ أي: والأرضون حال كونهن مجتمعات مع عظمتهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته يوم القيامة، كأنها يقبضها قبضة بكف واحد، والسماوات مطويات بقدرته، والقصد التنبيه على عظمته وكمال قدرته وحقارة كل فعل عظيم بالنسبة إلى قدرته، والدلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ما أبعد وما أعلى من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ المرة الأولى ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ خرّوا مغشياً عليهم ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، وحملة العرش أو نحوهم ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ قائمون من قبورهم ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ يقلبون أبصارهم كالمبهوتين ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ بما أقام فيها من العدل، وذلك حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين خلقه، فما يضارون في نوره كما لا يضارون في الشمس في اليوم الصحو ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي: كتاب الأعمال أو اللوح المحفوظ الذي فيه جميع أعمال الخلق ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ بين العباد ﴿ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما وعدوا به ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ جزاءه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فلا يفوته شيء من أفعالهم. ثم أخذ يفصل ذلك، فقال: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ ليدخلوها ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ توبيخاً ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ من نوعكم ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أي: وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: كلمة الله بالعذاب علينا وهي الحكم عليهم بالشقاوة ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ والمخصوص بالذم جهنم ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ أي: سيقت مراكبهم كالوفود إلى الملوك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ فزتم ونجوتم وطهرتم وصلحتم ﴿ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ وجواب « إذا » تقديره « دخلوها »، ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ بالبعث والثواب ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ ﴾ مكننا مما استقررنا عليه نتصرف فيه تصرف الوارثين فيما ورثوه ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ أي: ينزل كل منا في أي مقام أراده من جنته

الواسعة ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ الجنة ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ ﴾ محدقين ﴿ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ أي: حوله ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ حال من الضمير في حافين ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ملتبسين بحمده، أي: ذاكرين له بوصفي الجلال والإكرام تلذذاً به، ذلك للدلالة على أن أقصى درجات السعادات الاستغراق في صفات الحق ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بين الخلق، فبعضهم يدخل النار وبعضهم الجنة، وبين الملائكة بإقامتهم في منازلهم ﴿ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على ما قضى بيننا بالحق، والقائلون هم المؤمنون والملائكة. انتهى التفسير اللفظي.

لطائف القسم الثالث من السورة

(١) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[الزمر: ٥٣] الخ.

(٢) في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾[الزمر: ٦٧] الخ.

(٣) في قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾[الزمر: ٦٩] الخ.

(٤) في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾[الزمر: ٧٥].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

هذه الآية للتنبيه على أنه لا يجوز للعاصي أن يظن أنه لا مخلص له من العذاب، فإن ذلك قنوط من رحمة الله وهو من الكبائر، وكذلك من أمن مكر الله، فكل من تاب غفر الله له، ومن لم يتب فأمره لله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾

في حديث رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، إن الله يضع السماء على أصبع والأرض على أصبع والجبال على أصبع والشجر والأنهار على أصبع وسائر الخلق على أصبع، ثم يقول: أنا الملك، فضحك وقال: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾[الزمر: ٦٧] الآية. انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

فيه ذكر النور والكتاب والقضاء بالقسط والشهداء، وجاء في الحديث أنه يتجلى الرب على خلقه فما يضارون في نوره كما لا يضارون في الشمس في اليوم الصحو.

كل ذلك راجع إلى ظهور الحقائق وتبيان كل شيء والعدل التام بالميزان العدل، ولعمري إن ما ذكر من ذلك في عالم الآخرة هو الذي يشاهده العقلاء والحكماء في الدنيا، وهل هناك فرق بين عالم وعالم أو بين الدنيا والآخرة من حيث النظام والإشراق، الأرض تشرق بنور ربها يوم القيامة، وأرضنا اليوم وسماواتنا مشرقة بنور الرب، ولكن ذلك النور وذلك العدل اليوم محجوب بحجاب غليظ عن أعين أكثر الناس، إن أكثر الناس اليوم ممنوعون عن الوقوف على الحقائق، لأن هذا هو نظام هذه الدنيا

ونظامها أن من فيها يكونون ضعاف البصائر، فإذا تجلى الله لهم في عالم بعد هذا أدركوا أن كل أفعاله موزونة. وهل لك أيها الذكي أن أذكر لك قلًّا من كل من ذلك الإشراق الذي تجلى به الله في هذه الدنيا على المفكرين، وحجبه عن أكثر الغافلين لما يرون من موت وحياة، ومرض وصحة، وغنى وفقر، وظلم وعدل، وتفاوت في الأرزاق والأعمال والآجال والأخلاق والأجسام، والرفعة والضعة، والعز والذل وما أشبه ذلك، فإذا أشرقت البصائر أدركت الحقائق فظهرت للمبصرين.

وفي هذا المقام جواهر:

الجوهرة الأولى
عدل الله في عالم النبات والحيوان من حيث التغذية

انظر إلى عالم الحيوان والنبات، قد تقدم أن النبات يحتاج إلى مقدار كبير من الكربون لغذائه وتقوية أعضائه، فلذلك يأخذ من الهواء حامض الكربونيك، وهو مركب من الكربون والأكسوجين فيحلله في بنيته تحليلاً تاماً، ويأخذ الكربون أي المادة الفحمية لنفسه، ويخرج الأكسجين إلى الهواء، ثم إن الهواء يأخذ ذلك الأكسوجين فيوصله إلى الحيوان فيستنشقه ويدور في الدورة الدموية فيصلحها، ويخرج الحامض الكربونيك إلى الهواء، فالحيوان يركب في جسمه الحامض الكربونيك ويدفعه إلى الهواء، والنبات يتقبله فيحلله ويرجع إلى الهواء الأكسوجين، ويظن العالم «بروفيار» أن مقدار ما يخرجه النبات من الأكسوجين يسدّ ما يحتاج إليه الحيوان تماماً، فانظر للعدل، وانظر للنظام، ألا ترى أن نظام النبات والحيوان قد قام بالعدل؟ أوليس هذا هو نور الله المشرق يراه المكرون ويحجب عنه الغافلون.

يقرأ الناس: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وإذا امتحنوا طالباً أعطوه مسائل من العلوم، فمتى أجاب فيها عرفوا أنه عالم بتلك العلوم، ويجالس الرجل عالماً فيعرف من حديثه مقدار علمه، ونحن وإن كنا لم نطلع من العلوم إلا على مقدار صغير مما تحتمله عقولنا ففي الأرض ندرك من هذا المثال ومن أمثاله مقدار العدل والنظام التام الذي نعيش فيه، نعيش في الدنيا فنرى أننا لا نحيا إلا مع النبات والحيوان، وننظر فنجد أننا لو كنا نحن والحيوان في الأرض وليس معنا نبات وكان لنا رزق آخر غير النبات لم يستقم العيش على الأرض، لماذا؟ لأنه لا نبات يحلل الكربون الذي يخرج من تنفسنا ويتراكم جيلاً بعد جيل فيفسد الهواء ويموت الأحياء، فبالعدل والنظام وجود النبات وتحليله لذلك الكربون وإرساله ما كان مركباً معه من الأكسوجين إلى الهواء أمكن أن نعيش فوق الأرض.

أيها الذكي، كم من متعلم علم الطبيعة وهو يمر على هذا مر النسيم على الحصباء أو الصرصر على الفضاء. يقرأ كثير من الناس العلوم ولا ينظرون نظرة عامة، فالعلوم في عقولهم أشبه بالأدوات المستحضرة لبناء البيت من لبن وطين وخشب وحجر، ثم لا يجمع بينها ولا يرى لها صورة جميلة في نفسه منقوشة على صفحات قلبه يزدان بها فؤاده. ذلك مثل أكثر المتعلمين.

الجوهرة الثانية: العدل بين البر والبحر في النبات والحيوان

يرى الناس فوق الأرض حدائق وأعناباً، وبساتين وأعشاباً، وجنات ألفافاً، وزهراً باهراً، وجمالاً ظاهراً، وعجباً عجاباً. ينظرون البحر فلا يرون إلا ماء أجاجاً وأمواجاً ثقالاً لا نبات فيه ولا شجر ولا حدائق ذات ثمر. لكن بعد التأمل والبحث يرى في البحر كما في البر حقول ومزارع نضرات وأشجار باسقات عجيبات. ولأذكر لك منها الجزائر المرجانية لترى العدل قائماً بين الماء والتراب والبحر والبر.

لو أنك ذهبت إلى المحيط الهندي وإلى المحيط الهادي «الباسفيكي» لرأيت هناك شجيرات المرجان الحية ذات الأغصان والفروع مغبرة أو مصفرة تسر الناظرين، أو حمراء كالقرنفل، أو زرقاء كالزمرد، تتلاعب بها الأمواج، وهي لطيفة المزاج لدنة الأعطاف، ثم لا تلبث بعد حين أن تبرز من اجتماعها جزائر مستديرة الشكل كأنها شكل الخاتم أو شكل الحلقة، وهي مكونة من تلك الأشجار اللينة الأعطاف التي تراكمت وصلبت وصارت صخوراً مرجانية يبلغ محيطها فراسخ كثيرة. وترى ماء المحيط ينكسر على جوانبها البيضاء البهجة المناظر السارة للناظرين. منظرها عجيب وأمرها غريب تجذب قلوب الشعراء وتخلب لب الحكماء. وترى هناك أمرين بديعين: أمر ماء البحر المتلاطم الأمواج المتكسر على شواطئ جزيرة المرجان وهي زرقاء سوداء لفرط عمقها، وأمر الحوض الذي هو وسط الجزيرة الذي يضرب ماؤه الصافي إلى الصفرة والخضرة معاً.

ماء المحيط متقلب يرتفع وينخفض. وماء تلك الجزيرة راكد في وسطها ساكن. وهذه الجزر يقل ارتفاعها عن الماء وسواحلها مكسوة بنخيل الكوكو «الشكولاتة»، والمرجان الذي تبنى منه الشطوط المرجانية لا يعيش على أعمق من ٢٥ قامة. وما أكثر هذه الجزائر. فمنها مجموع جزائر تبلغ ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف جزيرة مرجانية، ومنها مجموعة تبلغ ١٠٠٠ ألف جزيرة. وهي جزائر متناسبة الارتفاع. فالأولى هي المسماة «بلكاديف»، والثانية هي المسماة «ملاديف».

فانظر كيف اعتدل الأمر بين البر والبحر فكان نبات في البر ونبات في البحر، ولكن لا تظن من قولنا نبات أننا نقول: إن المرجان نبات. كلا. إنه حيوانات كثيرة صغيرة منتظمة في حال واحدة معاً، تكون على هيئة الأغصان والأوراق والأزهار، وهي حيوانات باجتماعها أشبهت هيئة النبات.

الجوهرة الثالثة: العدل في خلقة العيون وعدمها وهو من نور الله في أرضنا

معلوم أن العين خلقت لمنفعة الحيوان، ولا حيوان إلا وهو محتاج إلى العيون، ولكن ظهر أن من الحيوان ما تكون العين بالنسبة له حملاً ثقيلاً ولا ثمرة لها عنده، ذلك أنواع من السمك تعيش على عمق ٢٧٥٠ قامة، والقامة مقياس مقداره ستة أقدام. وتسمى هذه بالحيوانات القرارية. فضوء الشمس معدوم عندها لأنه لا يصل إلا إلى عمق ٢٠٠ مائتي قامة، وما تحت ذلك فهو ظلام حالك. ولذلك لا يرى أثر للعيون في كثير من فصائلها. ومن السرطان نوع يكون له عيون وهو عائش قرب سطح الماء. فإذا عمق مسكنه وصار ما بين ١٠٠ قامة و٤٠٠ قامة من السطح فقد عينيه، وقد يبقى له منهما موضع الأثر. وما يعيش منه على بعد ٥٠٠ قامة إلى سبعمائة قامة يعدم الآلة البصرية.

فانظر إلى العيون كيف عدمت عند عدم الحاجة إليها، إذ لا ضوء تبصر به، وكيف ظهرت في الحيوان عند اقترابه من ضوء الشمس وعدمت عند عدم الضوء ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام: ٨٣]

الجوهرة الرابعة: السمك ذو المصباح

وهل أتاك أيها الذكي نبأ السمك الذي يعيش في قرار البحار في الظلام الحالك الذي لا تصله الشمس وهو مع ذلك ذو عينين كاملتين عجيبتين تامتين. فانظر كيف يبصر بهما ولا ضوء هناك. وقد قلنا: إن الضوء لا يعدو مائتي قامة، فكيف وهو في أبعد الأغوار ولا ضياء هناك. فانظر كيف أبدع الله لذلك الحيوان ما أبدعه لنا على هذه الأرض. ألم تر أننا في ظلمة الليل نوقد المصابيح الكهربائية والزيتية والشمعية، وما أشبه ذلك. أعطانا الله ذلك لنستضيء إذا احتجنا إلى الضياء، ونكف عن الاستضاءة إذا أردنا النوم والسكون فيكون الضوء تحت إرادتنا بأفعالنا. أما في النهار فالضوء عام بغير إرادتنا. فانظر ماذا فعل الله مع ذلك الحيوان، أعطاه عضواً يشع سراجاً وهاجاً بحيث يكون أمام عينيه ليكشف به الفريسة. ويظهر ذلك النور أمام عدوه المفاجئ له ليبهره بالنور، ثم يطفئه أسرع من البرق. فهذا السمك يستعمل النور بحكمة يكشف بهالفريسة ويطفئه إذا هاجمه العدو، وقد جعل له أمام عينيه ما يعكس الضوء بمقياس خاص. فانظر كيف أعطى الله السمك المقتنص العيون والضوء الذي تحت إرادته، ليكشف القنيصة، ولولا ذلك لم يقدر أن يعيش إذ حياته بالصيد، ولا صيد مع العمى والظلام. وكيف منع العيون عن غير هذا النوع، لأنه ليس في حاجة لذلك، لأن رزقه متوافر لديه حاضر عنده، وإلا لأعطي العيون والضياء. والضوء هناك والعيون يشبهان بما أعطي السبع من البراثن والأنياب المحددة والقوة العظيمة حتى يقدر على الصيد. وقد علمت في هذا التفسير أن الحيوانات المفترسة في البر والبحر رحمة لحفظ البر والبحر من التعفن بالرمم، فيكون الوباء العام كما أوضحناه مراراً في هذا التفسير. بهذا فلنفهم قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾[الزمر: ٦٩]، فهذا نوع من إشراق الأرض بنور الله، ولا يدرك هذا النور وهو العدل والنظام في هذه الدنيا إلا قليل، وأكثر الناس عن هذا الجمال معرضون.

فيا ليت شعري كيف يكون كتابنا هذا مقتضاه ونرى المسلم لا يقرأ علم التوحيد إلا على نمط مبهم غامض. ألا ترى كيف يجعل بحثه قاصراً على نحو: إن العالم حادث وكل حادث لا بد له من محدث. وهكذا وهو مغمض العين عن هذا الجمال بعيد عن هذا المنال. يقول الله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾[الزمر: ٦٩]، ويقول: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾[الملك: ٥]، والمسلمون وحدهم أكثرهم يغمضون العيون عن هذا المنظر الجميل البهيج. فهذا هو الإشراق النوري في الأرض وهو نظير الإشراق يوم القيامة في عالم الأرواح. وإذا أشرقت الدنيا على هذا النمط وقد أدرك هذا الإشراق حكماء الإنسان؛ ومعلوم أن عالم الأرواح أصفى وأبهج وأعدل، فهناك فليكن العدل والعلم وكلما كانت الأرواح أصفى وأنقى بالعلم والتهذيب والأخلاق كانت إلى الوقوف على الحقائق أقرب وبالعلم تعرج إلى العلالي والمعارج. ولا معنى للعروج إلا زيادة انكشاف الحقائق. وكل من كان في الدنيا أكثر علماً وشوقاً له كان في الآخرة أسرع وصولاً وتحقيقاً وعروجاً. وهذا هو:

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

في هذه الآية ذكر الملائكة وأنهم حافون حول العرش وأنهم يسبحون، وأن التسبيح ملتبس بحمد الله، وأنهم في مراتبهم التي يستحقونها هم والمؤمنون وغيرهم، وأن المؤمنين والملائكة يقولون: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وسيأتي في سورة «حم المؤمن» وهي سورة «غافر» أي: في أولها؛ أن الذين يحملون العرش والحافين حوله وهم الكروبيون يسبحون مع حمد ربهم، وأن أرجلهم في الأرض السفلى، ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وجميع الملائكة يغدون ويروحون بالسلام عليهم إلى آخر ما سيأتي، فذكر في هذا المقام هؤلاء الذين هم سادات الملائكة، وهم المدبرون لهذا العالم من عرشه لفرشه، ذلك لأن معنى اختراقهم للعرش ووصول أرجلهم للفرش الإحاطة بالعوالم كلها علماً وتدبيراً بأمر ربهم، ومعنى كون الملائكة تسلم عليهم أنهم يتلقون الأوامر عنهم، فرجع المر كله إلى العلم والعمل. وهذا هو الذي أوجب ذكرهم هنا للمناسبة، ألا ترى أن ما قبلها فيه أن الأرض أشرقت بنور ربها، وأن القضاء عدل، وأن أهل الجنة سيقوا إليها وفتحت أبوابها لهم وسلم الملائكة عليهم، وحمدوا الله إذ أورثهم أرض الجنة، فهاهنا حمدان: حمد المؤمنين لما دخلوا الجنة فقالوا: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ ﴾[الزمر: ٧٤] الخ، فهذا حمد على شيئين: صدق الوعد. وميراث أرض الجنة.

وحمد الملائكة يحمدون الله حمداً ليس خاصاً بأمر يرجع إلى أنفسهم أو صدق الوعد معهم. كلا، بل هو حمد على تربية العالم كله علويه وسفليه. وهذا الحمد أعلى. ولذلك ترى أهل الجنة الذين حمدهم مقيد ينظرون إلى الملائكة الحافين حول العرش، وقد أنزلوا مراتبهم وحمدوا محامد عالية شريفة.

يجلس أهل الجنة في الجنة ويرون الملائكة حافين من حول العرش الخ. حال الملائكة أرقى من حال أهل الجنة، لأنهم مدبرون للعالم وأهل الجنة في ركن منه وهي الجنة، والعالم الروحي أرقى من العالم الجثماني وأجمل، فلذلك عبر بلفظ «ترى» إشارة إلى رفعة شأنهم وكأن الناس ينظرون إليهم نظر الاحترام.

إن درجة الملائكة قبل درجة أولي العلم في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران: ١٨]. فأهل الجنة من العامة، والعلماء بعد الملائكة، فلذلك كان حمدهم راجعاً للنظام العام.

وكلما كان الإنسان في الدنيا أغزر علماً بجمال هذا العالم كان أسرع رقياً في درجات الآخرة وأقرب إلى الملائكة. فلا قرب لله إلا من حيث ازدياد العلم والانكشاف، والحمد لله رب العالمين. انتهت اللطيفة الرابعة.

انكشاف الحقائق من أسرار القرآن
في آخر سورة «ص» وأول سورة «الزمر»
من قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ ﴾[ص: ٦٩]
إلى قوله: ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[الزمر: ٦]

سبحانك اللهم وبحمدك. تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. أنت الذي أنعمت بنعمة العلم والعرفان، وشرحت صدورنا ويسرت لنا ظهور بعض الحقائق العلمية التي أغفلت عنها أمم وأمم. تبين لي أن أمم الإسلام المستقبلة قد أذن لها أن تعرف من العلم ما لا يعرفه كثير ممن سبقها بعد العصور الثلاثة الأولى.

إن حقائق العوالم والأسرار الكامنة في القرآن كانت تكشف لأفراد فيكتمونها وجوباً ويموتون، وإذا كتبوا عنها فإن ذلك كان تحت ستار. أما اليوم فإني أرى أن الحقائق ستنجلي للأمم المستقبلة الإسلامية الذين سيكونون خير أمة أخرجت للناس، كما كان الصحابة والتابعون وتابعوهم ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]. ونظرة في المحاورة الآتية تبين مغزى ما قلته الآن:

في يوم السبت ٦ أغسطس سنة ١٩٣٠ حضر لديّ صديقي الذي يباحثني في هذا التفسير فقال: إن آخر سورة «ص» وأول سورة «الزمر» فيهما مشكلات حيرت عقلي وأدهشت لبي. إن هذا التفسير قد تجلت فيه حقائق كثيرة، ولكن أكثر الحيرة والشك ترجع إلى ما يأتي:

(١) الله عظم الإنسان إذ أمر الملائكة الأرضية بالسجود له، ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[ص: ٧٢].

(٢) وإذ خلق السماوات والأرض، وكوّر الليل والنهار، وسخر الشمس والقمر.

(٣) أنزل له من الأنعام ثمانية أزواج الخ.

ولكنه أذله بما يأتي:

(١) أباح لإبليس أن يغوي أكثر ذريته.

(٢) وحكم على ذرية آدم أن يكونوا مع إبليس وذريته في جهنم ويملؤها من الفريقين.

(٣) ثم إنه في الرحم يكون في ظلمات ثلاث.

فهو في الرحم في ظلمات، وإذا خرج إلى الأرض يكون تحت سلطة الشياطين، وإذا مات دخل أكثر بني آدم جهنم. إذن هذه ظلمات متواليات: في الرحم، وفي الحياة، وبعد الموت. فالظلمات متتبعات على هذا الإنسان. ظلمات جسمية في الرحم، وظلمات عقلية بالوسوسة فوق الأرض، وظلمات جهنمية بعد الموت. فهذه أمور مشكلات، وإذا قرأنا ما تخلل هذه الظلمات وجدنا رحمة واسعة، إذ جاء فيما بين السورتين: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ وهي آية من السورة، فذكر الرحمة هنا مشكلة. وكيف تذكر الرحمة هنا والمقام فيه الرحمة والغضب؟ فهل تسليط إبليس على ذرية آدم وإدخالهم جهنم يناسب الرحمة المذكورة في أول السورة؟ هذه مشاكل علمية لم تحلها العقول قديماً إلا رمزاً، وما السبيل لحلها؟ فقلت: الحمد لله. إن بيانك الذي أردت به إيضاح الإشكال أفادني حقيقة الجواب. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: لأوضح لك المقام إيضاحاً تاماً. أنت ذكرت أن هذه الآيات فيها

أن بني آدم في ظلمات الرحم . وأنهم تحت سلطان الشياطين في الدنيا وهم معهم في جهنم ، وأن هذا كله ينافي الرحمة . هذا ملخص إشكالك . فقال : نعم . فقلت : وماذا تقول إذا علمت أن الله لو لم يفعل ذلك لم يكن رحيماً بنا ، وأن تسليط إبليس وظلمات الرحم الثلاث كلها نعمة لا نقمة ، وما نظنه في بادئ الرأي نقمة هو في حقيقته نعمة ، لكن بعد الدرس والعلم ، والله جلّ أن يعطي النعمة لمن لا يستحقها ، وهل يستحق إدراك الحقائق إلا الدارسون . أنا سأسمعك الحقيقة اليوم ناصعة واضحة ، وهل يفهمها إلا العارفون أو يدركها إلا المفكرون الذين درسوا من كل فن طرفاً . فقال : لقد شوقتني إلى الجواب وإدراك حقيقة هذه الأسرار . فقلت : انظر رعاك الله إلى الطفل في بطن أمه كما ذكرته أنت . إنه وضع في الحجب الثلاث ؛ في الرحم محافظة عليه كما هو معلوم للناس قاطبة ، فلو أنه تعرض للشمس لم يعش ، بل لو ظهر للهواء مجرداً من ضوئها لم يعش . فالله عز وجل لم يمنعه من نعيم الهواء وضوء الشمس ضناً بالنعمة وإذلالاً ، وإنما منعه ذلك رحمة ورأفة وتحنناً ، فلا حد لهذه الرحمة ولولا هذا لم يتربَّ في بطن أمه . وأنا موقن أنك ما ذكرت هذا في الاعتراض إلا لأنك جعلته ضرب مثل للظلمات العقلية التي سببها إغواء الشياطين للإنسان ، وإلا فأنت تعلم وجميع العقلاء يعلمون أن هذه الظلمات في الرحم نعمة . فالذي دعاك لذكرها إنما هو التنبيه على أن هذه الحجب تذكرنا بالحجب العقلية التي تعتريه بعد خروجه إلى الأرض وهو يعيش مع الناس . قال : حقاً هو كذلك . فقلت : وماذا تقول إذا قلت لك إن ما جعلته أنت ضرب مثل للإذلال رأيته أنا ضرب مثل للإنعام . فقال : أنا لم أفهم ما تقصده فأرجو إيضاحه . فقلت : إن الله حجب الجنين في الرحم في ظلمات ثلاث ، وقد اتفق العقلاء أن هذا رحمة لا نقمة ، ذلك لأن الجنين لا يقدر أن يقابل ضوء الشمس ولا الهواء طبعاً لضعفه ، فأنت انتهزت هذه الفرصة وجعلتها أشبه بضرب مثل لما سيلحقه من الظلمات ، وأنا أوضح لك الآن أن هذه ضرب مثل لما سيلحقه من النعم . إن هذا الجنين المحجوب بالظلمات الثلاث رحمة به ، إذا خرج إلى الأرض حجب بنحو ١٦ ظلمة جسمية محافظة على حياته ورحمة به ، وما يقرب من مائة ظلمة عقلية محافظة على عقله وإلا لاختل نظام تفكيره ، فإذا رأينا الجنين حفظ بهذه الظلمات الثلاث في الرحم ، فالرجل يحفظ من الهلاك الجسمي بظلمات تبلغ ١٦ ، ومن الهلاك العقلي بظلمات تبلغ نحو المائة ، وكما أن الجنين لو تعرض للجو لمات ، هكذا الطفل والمراهق والبالغ والشيخ إن كان جو الأرض ليس فيه طبقات من الغبار والذرات التي تحجب ضوء الشمس وتلطفه وتخففه ثم تكون سبب انتشاره لكانت الحياة لا تطاق ، فأنواع الغبار والدخان الخارجات من الأرض المعتمات لهذا الجو ما هي إلا حجب لأبصارنا ، وهذه الحجب لولاها لم نطق الحياة على الأرض ، ولم ينتظم ضوء الشمس حين وقوعه على الأرض ، ولم يكن عندنا فجر ولا صبح ولا وقت فيه شفق ، بل تطلع الشمس وتغرب فجأة ، ويكون ضوؤها شديداً دائماً ، فلا تطيق العيون رؤية قرص الشمس صباحاً ولا مساءً ، ويكون الضوء فجائياً والظلام فجائياً . فهذه الحجب والظلمات في الجو نسبتها إلى حياتنا على الأرض كنسبة الظلمات الثلاث للجنين ، ومثل ما قلنا في ظلمات الجو النافعات في انتشار الضوء الموزعات له على الكرة الأرضية المصلحات لحال أهل الأرض نقول في وساوس الشيطان .

وما وساوس الشيطان إلا أمثال ما نراه من تهافت الذباب على طعامنا وشرابنا مع أننا نأكل العسل الذي نشأ من خلايا النحل. فنسبة وسوسة الشيطان إلى عقولنا من حيث إنها تصدّنا عن الاطلاع على الحقائق فجأة ونحن لا نطيقها كنسبة ظلمات الجو البالغة ١٦ ظلمة من حيث إنها تخفف ضوء الشمس الواصل إلى عيوننا بحيث يقل في أكثر النهار عما يمكن أن يصل إلينا فوق ألف مرة. إذن ضوء الشمس لا بد أن يخفّ بحجب حين يصل لنا، والعلوم والمعارف التي يتجلى الله بها على عقولنا إذا لم تحجبها الوساوس الشيطانية التي استعدت لها نفوسنا بشهواتنا وأخلاقنا الأرضية فإنها تكون سبباً في إهلاك أرواحنا لأنها لا تقدر أن تتحمل جميع الحقائق دفعة واحدة، كما لا تحتمل عيوننا ضوء الشمس من غير أن يلطف بظلمات الجو، وكما لا يحتمل الجنين أن يعيش إلا في ظلمات تقيه.

أنا أقول هذا وأنا أصبحت موقناً به إيقاناً تاماً. وهذا هو اليقين الذي أعلنه لأهل الأرض قاطبة ولك أنت أولاً. فقل لهم جميعاً: إن الله أذن بإظهار الحقائق.

إن ما في الأرض من الأخلاق الفاسدة وإغواء الشياطين الأرضية؛ كل ذلك رحمة، لأنه لولاه لم تتحمل العقول شموس المعارف الأرضية التي تستعد لها النفوس الأرضية بفطرتها. وكما أن الطعام الذي كثرت مادة الغذاء فيه كاللبن واللحم والبيض إذا داوم امرؤ عليه فإن عاقبته تكون هلاكاً له غالباً، لأن هذه المواد الممتلئة أغذية إذا وردت على الجسم أخذت تهجم على الحويصلات هجوماً شديداً فتظهر القوة وحسن الشكل وحمرة الخد ورونق الجسم، ثم لا يلبث الجسم أن يصل لإحدى نتيجتين: إما أن يكون قوياً فتخرج له بثور وتظهر أمراض بها تخرج تلك العلل. وإما أن يكون ضعيفاً فلا يقدر على ذلك التصريف بالأمراض فيفاجئه الموت بكرة أو عشياً.

هذا ما تقدم في هذا التفسير مراراً وتكراراً عن علماء الطب في العصر الحاضر. أقول: كما أن الطعام هذا شأنه هكذا العلوم والمعارف فهي أغذية للروح، وللروح استعداد خاص كما للجسم. فكما أن الأغذية اللبنية واللحمية والبيضية قد يكون فيها خطر على الأجسام كما تقدم، هكذا العلوم التي تصل للعقل فجأة تهلك الروح. وكما أن الأغذية النباتية ونحوها ــ وفيها أغذية غير مركزة بل هي داخلة في ضمن مواد أخرى ـ تدخل على الحويصلات الجسمية بلطف فلا تزعجها، هكذا المعارف والعلوم إذا وصلت إلى الأرواح والعقول شيئاً فشيئاً تدريجاً تكون مقبولة ولا خطر فيها، وكما أن الشمس يظهر نورها على جميع الأرض وقد خففت بالغبار في الجو هكذا الأنوار الإلهية التي يرسلها إلى عقولنا لا بد من تخفيفها حتى تتحملها عقولنا، وأول حجبنا أجسامنا فهي ظلمانية، ثم شهواتنا وأنواع شرورنا التي تحيط بنا إحاطة الغبار والدخان في جونا بعيوننا، وكما أن الغبار والدخان ظاهرهما عذاب وباطنهما رحمة، هكذا وسوسة الشياطين التي لا تكون إلا تبعاً لشهواتنا هي نعمة باطناً نقمة ظاهراً، وأضرب لك مثلاً: لقد ظهر في أمريكا غلام منذ نحو ٢٠ سنة فأكثر، دخل المدرسة وأخذ يتعلم الحساب، فما مضت نصف سنة وهو لم يبلغ سبع سنين حتى فاق أباه في العلوم الرياضية كلها، وأتى بحساب يجهلونه، فإنهم كلما قالوا له: الجمع الطرح الضرب القسمة اللوغارتم المعادلات الجبرية؛ يقول لهم: أنا أعرفه، وكان أبوه رئيس الكلية، فطلبوا علماء الطب من أقطار الأرض فبحثوه، وقالوا

جميعاً: إن هذا الغلام قصير الأجل لأن عقله أكبر من جسمه، وهذا الجسم لا يتحمل هذا العقل، وقد مات وسنه ١٣ سنة، وقد ظهر كثير أمثاله على هذا النمط، فهؤلاء جاؤوا إلى الأرض ليوقظونا إلى أمثال هذه الحكم، ولنعرف أن حياتنا كما أن فيها ذباباً وحيات وعقارب لإيذائنا فيها نحل ودود قز وأنعام لإسعادنا، وأن النقيضين لا بد منهما، وأن النعم التي لا نقم معها مجهولة مكفور بها، والضد يكون سبباً في ظهور ضده. وأنا أيها الصديق أرى أني قد استوفيت هذا المقام وأنا أحمد الله حمداً كثيراً، ولعلك قد اكتفيت بما سمعت. فقال: أما هذا البيان فلم أسمعه في حياتي منك ولا من سواك، ولكني لا أترك القول يمر بلا فهم ببعض ما تقدم. ما هي الظلمات التي في جونا؟ وكيف تقول: إن الغبار والدخان تصنعان حجباً في الجو تبلغ ١٦ حجاباً؟ وكيف تقول: إن ضوء الشمس يكون أقل فوق ألف مرة، كل هذه ألغاز لا تحل إلا بالإيضاح. فقلت: يا صاح وهل يوضح هذا إلا العلوم. فقال: أي علوم؟ فقلت: علوم الطبيعة والفلك. فقال: أحب أن تشرح المقام شرحاً وافياً لنفرح بالعلم ونسعد بالحكمة.

فقلت: اعلم أن الجاهل يعيش ويموت ولا حظ له من هذا الوجود، أما الحكيم وأما العالم فإنه هو يرى أن هذه الدار أشبه بالقصور المسحورة فإن مشاهده أشد غرابة من مشاهد دور الصور المتحركة التي تمثل فيها الوقائع الحربية والطبيعية وغيرهما فمشاهد الدنيا مملوءة بالأحوال الغريبة.

(١) فانظر إلى الكواكب ليلاً والشمس في وسط السماء فإنك تراها قريبة منا، ثم انظر إلى الشمس عند الشروق وعند الغروب فإنك تجدها بعيدة عنا، وهذا عجب! كيف تبعد الشمس في الشروق والغروب وتقرب وقت الزوال؟ أليست الأرض تدور حول الشمس في دائرة منتظمة وبعدها من جميع الجهات متحد في اليوم الواحد؟ فهل تبعد عند الصباح وتقرب وقت الظهر؟ إذن ليست تجري في دائرة بل في خطوط منكسرة ولا قائل به.

(٢) ثم انظر إلى الشمس صباحاً فإننا نقدر أن ننظرها بأبصارنا مع بعدها، وانظر إليها وقت الظهر فإننا لا نستطيع النظر إليها مع قربها منا في رأي العين وكثرة الضوء.

(٣) ثم إن النجوم الثوابت نراها قريبة منا والشمس نراها بعيدة صباحاً ومساء كما تقدم، مع أن الشمس بيننا وبينها بسير النور ٨ دقائق و١٨ ثانية، وبيننا وبين الكواكب آلاف وملايين السنين بسير الضوء، فكيف كانت هذه المشاهد ساحرة لعقولنا غريبة الأطوار عجيبة الأحوال.

هذه هي الغرائب الساحرة المحيطة بنا وهذا لا يفهم إلا بالنظر في علم انكسار الضوء من علم الطبيعة أولاً، وبالنظر في علم الفلك من حيث ضوء الشمس وانتشاره على الأرض ثانياً، وقبل ذلك نشرح علم الهواء. إذن هنا ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في شرح الهواء.

الفصل الثاني: في انكسار الضوء في علم الطبيعة.

الفصل الثالث: في آثار ذلك الانكسار في علم الفلك. فقد جاء في كتاب الأصول الوافية في علم القسموغرافيا لأستاذنا المرحوم حسني بك.

الفصل الأول: في علم الهواء

تحاط الأرض من جميع الجهات بغاز ضروري لوجودنا، وعلى أي ارتفاع يرتقى إليه يوجد الهواء دائماً، لكن من المحقق أن هذا الهواء لا يمتد إلى غير نهاية في الفراغ، بل يكون حولنا طبقة تسمى جواً. ويتكون من الجو والكرة الأرضية جسم واحد لأنها تجذبه إليها ويشترك معها في جميع حركاتها.

ويظهر أن تركيب الجو ثابت في جميع الأقطار وفي جميع الارتفاعات، وهو مخلوط من الأكسوجين والآزوت بنسبة ٢٠,٨٠ حجم من الأكسوجين إلى ٧٩,٢٠ من الآزوت، وبنسبة ثقل قدره ٢٣ جزءاً من الأكسوجين إلى ٧٧ من الآزوت. ويحتوي خلاف ذلك على بخار الماء وأثر من حمض الكربونيك.

وللجو جميع خواص الغازات. ومرونته وكثافته يتناقصان كلما ارتفع الإنسان، وذلك لأن الهواء جسم ثقيل كباقي الغازات، وعليه يجب أن تكون الطبقات السفلى أكثف وأكثر انضغاطاً من الطبقات العليا التي تحمل ثقلها، وبالاقتراب من نهاية الجو يجب مقابلة طبقات خفيفة للغاية وقليلة المرونة جداً.

وحرارة الطبقات الجوية تنقص بقدر ١° في كل ١٥٠ متراً أو ٢٠٠ متراً من الارتفاع لغاية ٧٠٠٠ متراً تقريباً، ويظن أن التناقص بعد هذا الارتفاع أقل من ذلك، وأن الطبقات الأخيرة ذات حرارة لا تنخفض عن – ٦٠°، وأما ثقل الجو فيمكن تعيينه على وجه التقريب بالاعتبارات الآتية، وهي أن الضغط الجوي يتزن بعمود من الزئبق ارتفاعه ٧٦ سنتيمتراً أو بعمود من الماء ارتفاعه ١٠,٣٣٤ متراً، وبناء عليه فالضغط الكلي على سطح الأرض أعني ثقل الجو يعادل ثقل عمود من الماء قاعدته سطح الأرض وارتفاعه ١٠,٣٣٤ متراً ويفرض أن نصف قطر الأرض المساوي ٦٣٦٦١٩٨ متراً رمزه نق فثقل الجو مقدراً بالطونولاته يكون: ٤ ط نق ٢ × ١٠,٣٣٤ = ٥٢٦٣,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ تقريباً، وهو يعادل ثقل ٥٨٥٠٠٠ مكعب من النحاس كل مكعب ضلعه كيلو متر واحد.

الضوء المنتشر

وللهواء الجوي مزية أخرى مهمة للغاية هي أنه الواسطة في نور النهار قبل أن ترسل لنا الشمس أشعتها وذلك لأن أجزاءه تعكس الأشعة الضوئية التي تسقط على سطحها في جميع الجهات سواء أتاها هذا الضوء من الشمس مباشرة أو من انعكاسات سابقة، وهذا ما يسمى بالضوء المنتشر أو المتفرق.

فإذا لم يكن جوّ فإن جميع النقط الأرضية التي لا تكون مستضيئة بالشمس مباشرة والتي لا تتلقى الأشعة التي تعكسها المادة الأرضية تصير مغمورة في ظلمة تامة ولون السماء الأزرق الذي هو لون الهواء منظوراً من سمك عظيم لا يرى وتصير السماء حالكة السواد، ويمكن وقتئذ رؤية النجوم والسيارات وقت الظهر، والانتقال من النهار إلى الليل يحصل دفعة واحدة بمجرد غروب الشمس لا تدريجياً كما هو الحاصل كما أن النهار يمحو ظلمات الليل بمجرد ظهور الشمس ثانياً في الأفق.

ارتفاع الجو

إذا كان الجو متجانساً سهل حساب ارتفاعه، وذلك أنه لما كان أخف من الزئبق بقدر ١٠٤٦٠ مرة فإن سمك طبقة الهواء التي تتزن بعمود من الزئبق ارتفاعه ٧٦ سنتيمتراً تصير بداهة ١٠٤٦٠ × ٧٦, ٠ أو ٧٠٥٠ متراً تقريباً، ولكن ذلك إنما هو نهاية صغرى، لأن كثافة الهواء تأخذ في النقص كلما ابتعد عن سطح الأرض، والحسابات التي أجراها المعلم «بيوت» المؤسسة على أرصاد غيلوساك وغيره تعين للجو سمكاً قدره ٤٨٠٠٠ متراً وهو تقريباً $\frac{١}{١٣٠}$ من نصف قطر الأرض.

تعتم الضوء بالجو

شكل القبة السماوية المنحط، إذا كان الجو شفافاً للغاية فإن الأشعة الضوئية التي تمر منه لا يعتريها أدنى عتمة مهما كان اتجاهها، لكن ليس الأمر كذلك. فإن الهواء يعتم الأشعة التي تمر منه شيئاً فشيئاً، وتأخذ هذه العتمة في الازدياد بالطبع بازدياد كثافة طبقة الهواء، فالشعاع الذي يأتي من الأفق يمر من طبقة من الهواء أكثف من التي يمر منها الشعاع الذي يأتي من السمت بقدر ست عشرة مرة، ولهذا السبب يمكننا أن ننظر إلى الشمس في الأفق ونتحمل ضوءها بدون أن يحصل خطر لأبصارنا، والأبخرة الكثيفة الموجودة دائماً في الأجزاء السفلى من الجو تضعف الضوء أيضاً، وعلى رأي «بوجيه» ضوء الشمس في الأفق أقل منه في السمت بقدر ١٣٥٠ مرة. والضوء الذي يأتينا من الأشياء الأرضية الموضوعة في الأفق أو من الكواكب في لحظة شروقها ضعيف جداً بالنسبة للضوء الذي تبعثه لنا الكواكب الكائنة بجوار السمت، ولذلك نرى هذه الكواكب أقرب إلينا من تلك. ولهذا يظهر شكل القبة السماوية منحطاً. انتهى ما أردته من ذلك الكتاب.

وأقول: بهذا عرفنا تركيب الهواء وارتفاعه وكثافته وغيرها:

(١) فالارتفاع يقرب من ٤٨ كيلو متراً.

(٢) والتركيب من الآزوت والأكسوجين: الأول ٧٧جزءاً والثاني ٢٣، وثقله ٥٨٥ ألف مكعب من النحاس كل مكعب ضلعه كيلو متر.

(٣) وحرارته تنقص درجة في كل ١٥٠ متراً أو ٢٠٠، وهذا يستمر إلى ٧٠٠٠ متراً، وبعدها تصير الحرارة ٦٠درجة.

(٤) وطبقة الهواء فوق الأرض أكثف من الطبقة البعيدة عنها ١٦مرة.

(٥) وضوء الشمس في الأفق أقل منه في السمت ١٣٥مرة.

(٦) والضوء الآتي من الكواكب القريبة من الأفق أضعف جداً من الضوء الآتي من الكواكب التي تقرب من سمت الرأس فتكون الأولى أبعد عنا من الثانية.

(٧) وعليه تظهر قبة السماء منحطة.

(٨) والهواء الجوي هو السبب في انتشار الأضواء صباحاً ومساءً.

(٩) ولولا الهواء لم تكن السماء إلا سوداء نهاراً وترى النجوم ظهراً.

(١٠) ولولاه لانتقل الناس فجأة من الظلام إلى النور وبالعكس.

فملخص هذا الفصل عشر مسائل، ولكن الكلام على انتشار الضوء هو الذي نحتاج إلى الكلام عليه في الفصل الثاني.

الفصل الثاني: في الكلام على انتشار الضوء من علم الطبيعة

هنا قال صاحبي: أريد شرح انكسار الضوء سهلاً بسيطاً يفهمه الجاهل والعالم. فقلت: اعلم أن الأمور البسيطة هي أصول الأمور العظيمة، ضع عصا في إناء فيه ماء وانظر ألست تراه أشبه بالمنكسر. فقال: إي وربي. فقلت: هذا هو الانكسار، فهذه المسألة البسيطة هي أصل الانكسار المذكور في علم الفلك، وأصل للصباح والمساء، وانتشار النور على الأرض، فقال: هذه أمور لا تزال تحتاج إلى البيان. فقلت: إذن أريك ذلك عملاً فأسمعك ما جاء في كتاب «العلوم الطبيعية» للعلامة «بول برت» الأستاذ في السربون ووزير المعارف العامة بفرنسا الذي ترجمته إلى الإنكليزية زوجته، وقد ترجمت هذا الفصل من ذلك الكتاب، فقد جاء تحت هذا العنوان «انتشار الضوء» ما يأتي:

انظر. أنا الآن معي زجاجة مملوءة ماء وقد وضعت في الماء عوداً من القش. (انظر شكل ٦).

تجربة «أ»
عود صغير من القش يظهر للعين أنه مكسور في الماء وهذا هو انكسار الضوء.

تجربة «ب»
إن الشعاع الضوئي في الماء انكسر وصار سبباً في أن قطعة النقد أخذت تظهر عند النقطة «أ».

تجربة «أ» (شكل ٦) تجربة «ب»

إن العود يظهر في تجربة «أ» كأنه مكسور وهو يقرب في نظر العين من الأفق عند دخوله في الماء، ولا جرم أنك عالم علماً ليس بالظن أن العود لم ينكسر، ولكنك قلما تقدر أن تحافظ على إحساسك من انخداعه بهذا الانكسار، وهذه هي التجربة الأولى. التجربة الثانية: «ب» وهو صندوق من القصدير وقد وضعت في أسفله قطعة من النقود وهي «الين». تعال يا جيمس وقف حتى تنظر أبعد طرف من قطعة من النقود أمامك. وهاأنا ذا الآن أخذت في صب الماء في الصندوق قليلاً قليلاً بلطف خيفة أن تنتقل قطعة النقد من مكانها. أخبرني ما الذي شاهدته؟ فأجاب: أنا أشاهد قطعة النقد بحسب الظاهر ترتفع وتتحرك إلى الجهة «أ»، وإنما حصل ذلك لأن أشعة الضوء من قطعة النقد تنعطف وتنثني كما انثنت وانعطفت قطعة العود من القش قليلاً فيما سبق.

هذا معنى انكسار الضوء. وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني الذي أتيت به من علم الطبيعة مع إيضاحه، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث: في آثار ذلك الانكسار في علم الفلك

أنت أيها الذكي لاحظت العود وهو في الماء وشاهدت أنه في رأي العين قد انكسر، والحقيقة أن الانكسار إنما هو في الضوء، لأنه متى دخل من جسم ألطف إلى جسم أكثف حصل له هذا الانكسار، وهذه الظاهرة أصبحت مفهومة، ولكن هل يدور بخلد الأطفال إذ يضعون الأعواد في الماء ويرونها قد انكسرت ويضحكون من ذلك ويعجبون، أن هذه المسألة هي أعظم رحمة أنزلها الله إلى الأرض كما

سأوضحه لك، وما هذا العود في الماء المتقدم وانكسار الضوء فيه بالنسبة لانكسار ضوء الشمس في الجو عند ملاقاته الطبقات المعتمة إلا كنسبة الهواء المنطلق في المنزل بهيئة رياح عند إيقاد النار فيه فيرتفع الهواء فيحل محله هواء آخر من خارج الباب، فهذه الظاهرة الصغيرة الهوائية في المنزل هي بعينها التي تحصل في خط الاستواء، وغاية الأمر أن الشمس تستبدل بالنار هنا، فالشمس تلح بحرارتها على الهواء فيخف فيرتفع فتأتي الرياح من الشمال والجنوب فتحل محل الهواء الذي ارتفع، فهكذا نقول هنا، فإذا رأينا العود لما وضعناه في الماء انعكس في الإناء وظهر لنا أنه مكسور فهذا عينه هو المسمى انكسار الضوء.

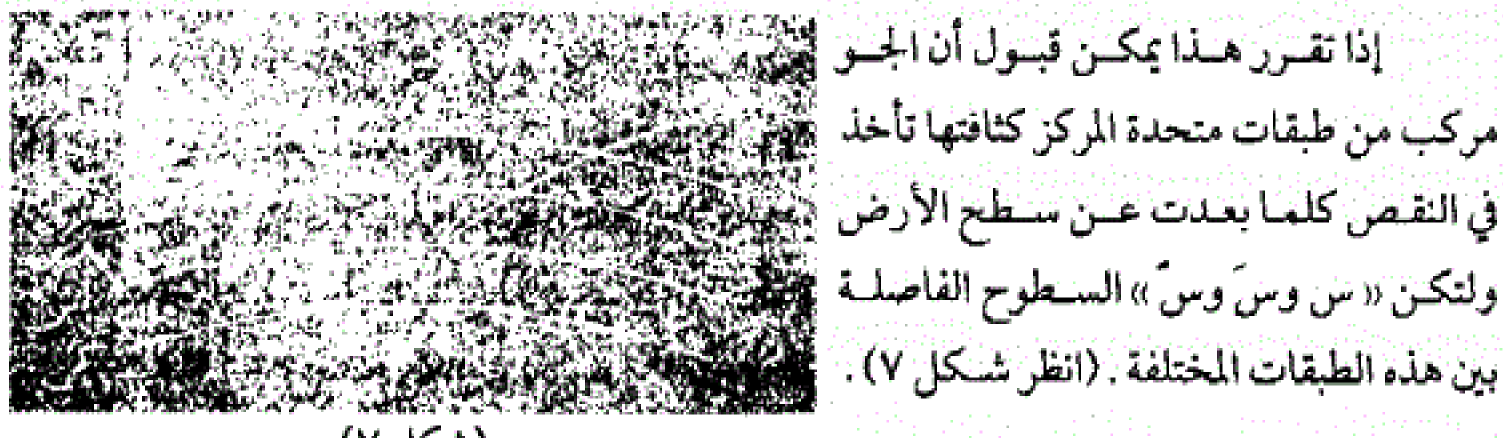
فإذا رأيت الأرض قد زانها ضوء الصباح قبل طلوع الشمس وزانها الضوء بعد غروب الشمس. وإذا رأيت البلاد الشمالية بعد درجة ٦٦ حين يكون الليل أسبوعاً أو شهراً أو شهرين، فإنك ترى البلاد هناك مستضيئة ضوءاً بديعاً جميلاً يفوق في سناه كل جمال، وهذا الضوء يبقى بعض أيام أو أسابيع، لأن الشمس إذا غربت هناك فإنها لا تزال تحت الأفق قريباً من سطح الأرض وهي تدور دورة رحوية. فإسعاد هؤلاء بذلك الضوء الجميل الذي يريهم الطرق الثلجية الجميلة، وتكون إذ ذاك حركة البيع والشراء متسعة، وتكون بحارهم جامدة يمرون على مائها بأنفسهم ودوابهم.

فيا ليت شعري من أين جاءت لهم هذه النعم كلها! جاءت بسبب انكسار الضوء إذا جاء من الجو اللطيف إلى الجو الكثيف على وجه الأرض. فالكثافة في الجو كانت أعظم نعمة على الإنسان والحيوان، وبسببها كان انكسار الضوء فانتشر في الآفاق، وهاك إيضاح هذا المقام مما جاء في كتاب «الأصول الوافية في علم القسموغرافيا المتقدم» تحت العنوان الآتي وهذا نصه:

انكسار الضوء

يمتد الضوء على خط مستقيم في وسط متجانس، لكن عندما يقابل شعاع ضوئي السطح الفاصل بين وسطين في اتجاه مائل فإنه يزوغ، ويسمى هذا الزوغان انكساراً، وإذا مد عمود على السطح الفاصل بين وسطين من النقطة التي ينكسر فيها الشعاع الساقط فإن هذا العمود والشعاع يعينان مستوياً يسمى مستوي السقوط، وعوضاً عن أن يستمر الضوء في طريقه على خط مستقيم يزوغ ويقرب الشعاع الضوئي المنكسر أو يبعد عن العمود بدون أن يخرج عن مستوي السقوط، فيقرب من العمود إذا حصل المرور من طبقة هوائية إلى أخرى أكثف منها ويبعد في الحالة العكسية.

إذا تقرر هذا يمكن قبول أن الجو مركب من طبقات متحدة المركز كثافتها تأخذ في النقص كلما بعدت عن سطح الأرض ولتكن «س وسَ وسً» السطوح الفاصلة بين هذه الطبقات المختلفة. (انظر شكل ٧).



(شكل ٧)

فالشعاع الضوئي الآتي في الاتجاه «ل م» يقرب من العمود بدخوله في الطبقة «سَ سً» ويتبع الاتجاه م ن مثلاً، وفي «ن» يعتريه زوغان جديد ويتبع الاتجاه «ن ق» في الطبقة «سً سَ»، وأخيراً يزوغ في «ق» ويتبع الاتجاه «ق و» داخل الطبقة «س سً» بحيث إن الراصد الموجود في «و» يرى الشيء في الاتجاه «و لَ»، وفي الحقيقة لا يتبع الضوء خطاً منكسراً بل خطاً منحنياً، لأن كثافة طبقات الهواء تأخذ في الازدياد بدرجة غير محسوسة، والراصد يرى الشيء المضيء «ل» في اتجاه المماس في «و» لخط السير المنحني، وصورة الكوكب أو وضعه الظاهري لا يدل حينئذ على وضعه الحقيقي، وبالنسبة للراصد يكون الارتفاع الظاهري للكوكب فوق الأفق أكبر من الارتفاع الحقيقي، وتلك هي الظاهرة المسماة بانكسار الضوء، وجميع الكواكب توجد بهذه المثابة في غير مواضعها. وحيث إن الخطأ يكون أعظم كلما كانت الطبقات المقطوعة أكثر كثافة وأكثر ميلاً بالنسبة للأشعة الضوئية فلا يكون الانكسار واحداً للارتفاعات المختلفة. انتهى الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين.

نتيجة هذه الفصول الثلاثة

إن الإنسان في الظلمات الثلاث وهو جنين في بطن الأم وفي الرحم وفي المشيمة؛ قد جعلت هذه رحمة وصيانة له، كما أنعم عليه وصين بما ملئ به جوّنا من الغبار والدخان اللذين كانا سبباً في انكسار الضوء فأمكننا أن ننظر نور الشمس وقرصها بأعيننا صباحاً ومساءً، وانتشر نور الصباح والمساء، وأشرق الضوء نهاراً على أقطار المسكونة. كل ذلك بسبب ذلك الغبار المتخلل طبقات الهواء التي أصبحت أشبه بزجاجة نضعها على أعيننا فنتحمل رؤية الضوء، وبها نرى الشمس وقت الصبح أكبر منها وقت الظهر، لأن الغبار فوق سطح الأرض أكثف منه في أعلى الجو، وكل ذلك بسبب انكسار الضوء، وما هذا الانكسار الضوئي إلا نتيجة الطبقات المعتمة التي ظاهرها أنها نقمة وباطنها نعمة، إذ بدون ذلك لا تهنأ لنا الحياة، إذ لا انتشار للضوء فلا منفعة في الحياة، ومثل هذا يقال في وساوس الشيطان التي لا تكون إلا في قلوب أشربت حب الشهوات وأنواع الشرور، فتكون مأوى للنفوس الشريرة التي فارقت الدنيا أو التي من الجن، فهذه الوساوس إنما تجول في قلوب استعدت لها كما استعدت عين الأرمد القذر لولوج الذباب بها سواء بسواء.

فإذا ساعدت الملائكة الإنسان بإنماء الزرع وحفظ العوالم، فهذا من نتائج سجودها لآدم المذكور في آخر سورة « ص »، كما نرى دود القز والنحل والخيل والبغال والحمير والطيور آكلات الدود كلها مساعدات لنا على هذه الحياة، وإذا رأينا الشياطين يوسوسون للناس فإنهم لم يفعلوا شيئاً أكثر مما فعلت فينا الأسود والنمور والحيوانات الذرية المحدثات للطواعين في الأرض. فكما نحارب حيوانات الطاعون بعلومنا وأعمالنا هكذا نحارب وساوس الشيطان بما عرفنا من العلوم وبالجد.

إن حياتنا على الأرض نفسها نعمة كبرى، لولاها لم نعقل هذه العوالم المحيطة بنا، ولقد عرفناها بحواسنا الخمس التي اقتسمت المعارف المحسوسة قسمة عادلة كما في فن المقولات المشروح في هذا التفسير مراراً، وآثار هذه المعارف تنبعث إلى النفس فتكون صورها علوماً، ولن يكون ذلك إلا بهذه الصور الإنسانية المحبوسة في ظلمات ثلاث في الجنين، وفي ١٦ ظلمة في الجو إذا صار رجلاً، وظلمات

كثيرة في النفس من حيث الأخلاق، فهذه الظلمات طبقات يترشح منها ويتخللها بعض المعلومات فترفع النفس شيئاً فشيئاً في أثناء الحياة، حتى إذا مات الإنسان وجد أنه أصبح أرقى مما كان عليه في الحياة، وهذا هو الذي غاب عن ملائكة الأرض إذ قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[البقرة: ٣٠]، قال لهم: إني أعلم ذلك ولكني ربيتهم في تلك الشرور وأعطيتهم تجارب وعلوماً في أثناء ذلك، فأنا أعلم ما لا تعلمون. ألا ترون أنهم يعرفون أسماء الأشياء الجزئية في الأرض وأنتم لا تعلمونها. إذن هذا العمل لحكمة عظيمة. فأنا وإن غمستهم وغمرتهم في الظلمات لم أفعل ذلك احتقاراً لشأنهم، بل جعلته أشبه بالمنظار يوضع على العين، لأنهم لا يطيقون جميع العلوم مرة واحدة. فأنا ما خلقت هذا باطلاً. وهذا قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[البقرة: ٣٣].

اللهم إني أحمدك، قد كشفت لنا حجاب هذه المسائل العويصة وسهلت السبل بطبعها ونشرها وهذا آخر القول في هذا المقام والحمد لله رب العالمين. كتب في نصف ليلة الاثنين ٨ من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠.

وهاهنا سألني ذلك العالم صديقي قائلاً: أنا إلى الآن لم أفهم الحجب الستة عشر ولا الحجب التي تبلغ نحو مائة وإنما فهمتها فهماً إجمالياً. نعم عرفت الظلمات الثلاث وهي البطن والرحم والمشيمة، ولكن تلك الستة عشرة ظلمة وما بعدها لم تتضح لي. فقلت: إن ما تقدم واضح، ولكنك أنت تريد ما هو أوضح. فقال: هو ذاك. فقلت: ألم أذكر لك فيما تقدم هنا عن علماء الفلك أن الجو الذي هو أقرب إلى الأرض تكون كثافة غباره أكثر من كثافة ما هو أعلى ١٦ مرة؟ قال: بلى. قلت: فهذه هي ١٦ حجاباً أو ظلمة، وأزيد عليه فأقول: اقرأ ما تقدم في سورة «فاطر»، ألم تر إلى (شكل ١٦) من الأشكال التي رسمت هناك لإيضاح آية: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾[فاطر: ١١] الخ، وكيف ترى فيه النسيج الهدبي المبطن للقصبة الهوائية قد جعل أشبه بالكناسين والزبالين، لأن تلك الأهداب تتحرك ليلاً ونهاراً من الداخل إلى الخارج لتخرج الغبار الداخل مع النفس لئلا تفسد المملكة الرئوية الخادمة للمملكة الدموية. قال: نعم أتذكر ذلك وقرأته، وماذا يفيدنا؟ قلت: ثم انظر إلى سورة «ص» وقد جاء في آخرها: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص: ٨٢]، وتأمل ما كتبته هناك عن «هيج» الإنجليزي و«كانتاني التلياني» و«كوهن الألماني» وطبيب نطاسي فرنسي. ألم أذكر لك في الكلام المنقول عن أحد هؤلاء أن الغبار والدخان الداخلين في الرئة يكونان سبباً في فساد صحة البدن وبذلك تحدث الأمراض، وهذا الغبار والدخان الداخلان في الرئة يفعلان ما تفعله جميع المآكل القوية التغذية كاللحم والبيض، وتفعلان فعل المواد الأخرى المركبة من أنواع الحلوى والتوابل، فهذه كلها هي التي تجعل في العروق سدوداً وحواجز، وتلك السدود والحواجز تفعل في الجسم ما تفعله السدود في المساقي فيحصل الهلاك للزرع تارة بالغرق وتارة بقلة الماء، وتكون هناك الأمراض المختلفة المضنية من الدماميل والقروح السرطان والجذام والبرص والصداع وما أشبهها مما لا حصر

له . فقال : نعم تقدم هذا . قلت : فحينئذ غبار الجو ودخانه ضاران بنا ، ولأجل هذا الضرر جعل الله في باطن القصبة الهوائية أهداباً لتطرد ذلك الضار ، وخلق أطباء يوقظوننا لأجل هذه المهلكات ويقولون : تباعدوا عن غبار الطرقات وعن الدخان وعن كل ما فيه روائح ضارة . قال : نعم . فقلت : إذن هذه المواد الغريبة في الهواء ضارة . إذن هي حجب بيننا وبين الصحة ، وبيننا وبين السعادة ، وظلمات تغشى على ضوء الشمس فيكون ضوؤها صباحاً أقل منه وقت الظهيرة ، لأن الغبار والدخان وأمثالهما يكونان أقرب إلى وجه الأرض ويفصلان بين عيوننا وبين الشمس ، فتتحمل عيوننا الضوء ويحصل هنا منافع لا حد لها . فهاهنا ضرر محقق ومنافع محققة . فالمنافع هي أن الشمس يظهر نورها رويداً بالتدريج كما تقدم ويكون صبح وشفق إلى آخر ما تقدم ، ولولا هذا الضار وهي الحجب لم تهنأ لنا الحياة على الأرض ، لأن الضوء لا ينتظم توزيعه على الأرض . فأرواحنا في أجسامنا لا تقدر على مواجهة ضوء الشمس بدون تدريج ، وهذا وضح وضوحاً تاماً كما تقدم ، إذن لا فرق بين الظلمات الثلاث للجنين وبين الظلمات الست عشرة للرجال والنساء ، فهذه وتلك جيء بها لأن المصلحة قضت بذلك .

بقيت مسألة الظلمات والحجب الآتية من الوسوسة الشيطانية وهي كالمتقدمة سواء بسواء . إن الإنسان مخلوق غريب جداً ، فهو من جهة ملك ومن جهة بهيمة ومن جهة شيطان . وهذه الأصول الثلاثة تفرعت عنها أخلاق فاضلة وأخرى ناقصة قد تقدم أكثرها في سورة « البقرة » عند قصة آدم فارجع إليها هناك . وهذه مشروحة في الربع الثالث والرابع من « الإحياء » ، فالثالث للأخلاق الناقصة والشرور ، والرابع للأخلاق الفاضلة . والأخلاق الفاضلة تكون لغلبة القوة الملكية على القوتين الأخريين ، والإنسان من حيث إنه ملكي إلهي يكون حكيماً ذكياً جميل الخلق . ومن حيث إنه بهيم يكون بخيلاً طماعاً جماعاً جباناً خائناً كاذباً . ومن حيث إنه شيطان يكون معانداً حقوداً حسوداً ظلوماً متهوراً . فهذه أخلاق الشياطين . وما قبلها أخلاق البهائم . والأولى أخلاق الملائكة .

وقد تصل الأخلاق الشريرة في العد إلى نحو المائة ، وإليها الإشارة في بعض الآثار إلى التنين الذي له ٩٩ رأساً بها ينهش ابن آدم . فهذا التنين الآن موجود ويبتدئ نهشه للإنسان في هذه الحياة من حقد ودغل وطمع وغش وكذب وزور وبهتان وغيبة ونميمة ، فهذه كلها طباع شريرة تؤذي صاحبها في الحياة وتظهر نتائجها بعد الموت ، فهذه كلها حجب تحجب الإنسان عن معرفة الحقائق ، ولولا هذه الموانع لاطلعت أرواحنا الملكية العالية في أصلها على المعارف مرة واحدة فهلكت كما يموت من اطلع على كنز مرة واحدة وكان ضعيف النفس وهكذا ، فهذه حجب خلقت فينا لمصلحتنا ، فالله كما خلق الظلمات في الرحم لمنافع الجنين وخلق الغبار والدخان في الجو القريب من الأرض وهو ضار بنا ليحول بين أعيننا وبين الشمس لئلا تستضر بها ولمنافع أخرى تقدمت ، هكذا نراه خلق فينا شهوات البهائم ورذائل الشياطين لتكون بمثابة مانع وحاجب يحجب عنا الحقائق حتى لا نهلك .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : اللهم إني أحمدك حمداً يوافي نعمك ، وضرب كفاً على كف ، وقال : والله لقد انحلت بهذا مشكلات الدين والدنيا ، أكثر الناس يعيشون ويموتون وهم جاهلون ،

ويظهر أن هذا التفسير قد فتح ما كان مقفلاً على أكثر الناس، هاهنا عرفنا الدين والدنيا، وعرفنا الحقائق، وبامتزاج العلوم الطبيعية بالعلوم الدينية أدركنا حقائق جهلتها أمم وأمم، إذن أصبحت الوسوسة والذنوب كلها لحكمة، وإذا قيست بالظلمات الثلاث في الرحم والظلمات الست عشرة في الجو فقد انحلت المشكلة، إذن الناس يوم القيامة وفي البرزخ يوضعون في أماكن استحقوها بحسب استعدادهم، وما جهنم إذن إلا مكان تعيش فيه نفوس ناقصة لا تقدر أن تعيش في غيرها كما يعيش السمك في البحر. وهذا سر عظيم لم يتضح إلا في هذا التفسير، بل هذا الذي به نفهم: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ونفهم: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف: ١٥٦]. ومن عجب أن الظلمات الثلاث بضربها في ٥ تصير ١٥، وهي تقرب من ١٦، و١٦ بضربها في ٥ تصير ٨٠، و٨٠ تقرب من الأخلاق الرديئة التي قلتم إنها تقرب من مائة. وبهذا تجلت الحقائق. فقلت: الحمد لله رب العالمين.

انتهت اللطائف التي جعل كل طائفة منها خاصة بقسم من أقسام السورة.

اللطائف العامة لأقسام السورة كلها

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ ﴾ مع قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ ﴾ والكلام على السنة الشمسية والبروج والمنازل وسير القمر

جاء في كتاب «صبح الأعشى» ما نصه:

اعلم أن للشمس حركتين: سريعة وبطيئة. أما السريعة فحركة فلك الكل بها في اليوم والليلة من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، وتسمى الحركة اليومية. وأما الحركة البطيئة فقطعها فلك البروج في سنة شمسية من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب. ولتعلم أن جهة المشرق وجهة المغرب لا تتغيران في أنفسهما بل جهة المشرق واحدة وكذلك جهة المغرب وإن اختلف مطالعهما. قال تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾[المزمل: ٩] أي: جهة الشروق وجهة الغروب في الجملة. إلا أن الشمس لها غاية ترتفع إليها في الشمال، ولتلك الغاية مشرق ومغرب وهو مشرق الصيف ومغربه. ومطلعها حينئذ بالقرب من مطلع السماك الرامح. ولها غاية تنحط إليها في الجنوب. ولتلك الغاية أيضاً مشرق ومغرب. وهو مشرق الشتاء ومغربه. ومطلعها حينئذ بالقرب من مطلع بطن العقرب. وهذان المشرقان والمغربان هما المراد بقوله تعالى: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾[الرحمن: ١٧]. وبين هاتين الغايتين مائة وثمانون مشرقاً ويقابلها مائة وثمانون مغرباً. ففي كل يوم تطلع في مطلع من الشرق غير الذي تطلع فيه بالأمس. وتغرب في مغرب غير الذي تغرب فيه بالأمس. وذلك قوله تعالى: ﴿ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾[المعارج: ٤٠]، ونقطة الوسط بين هاتين الغايتين؛ وهي التي يعتدل فيها الليل والنهار يسمى مطلع الشمس، فيها مشرق الاستواء. ومغرب الاستواء، ومطلعها حينئذ بالقرب من مطلع السماك الأعزل. وقد قسم علماء الهيئة ما بين غاية الارتفاع وغاية الهبوط اثني عشر قسماً. قالوا: والمعنى في ذلك أن الشمس في المبدأ الأول لما سارت مسيرها الذي جعله الله خاصاً بها قطعت دور الفلك التاسع في ثلاثمائة وستين يوماً. وسميت جملة هذه الأيام سنة شمسية ورسمت

بحركتها هذه في هذا الفلك دائرة عظمى على ما توهمه أصحاب الهيئة . وقسمت هذه الدائرة إلى ثلاثمائة وستين جزءاً وسموا كل جزء درجة . ثم قسمت هذه الدرج إلى اثني عشر قسماً على عدد شهور السنة . وسموا كل قسم منها برجاً . وجعلوا ابتداء الأقسام من نقطة الاعتدال الربيعي لاعتدال الليل والنهار عند مرور الشمس بهذه النقطة . ووجدوا في كل قسم من هذه الأقسام نجوماً تتشكل منها صورة من الصور ، فسموا كل قسم باسم الصورة التي وجدوها عليه .

وكان القسم الأول الذي ابتدؤوا به نجوماً إذا جمع متفرقها تشكلت صورة حمل . فسموها بالحمل وكذلك البواقي . قال صاحب مناهج الفكر : وذلك في أول ما رصدوا . وقد انتقلت الصور عن أمكنتها على ما زعموا ، فصار مكان الحمل الثور . وهي تنتقل على رأي بطليموس في ثلاثة آلاف سنة وعلى رأي المتأخرين في ألفي سنة . إذا علمت ذلك فاعلم أن الدورة الفلكية في العروض الشمالية تنقسم إلى ثلاثمائة وستين درجة كما تقدمت الإشارة إليه . والسنة ثلاثمائة وستون يوماً منقسمة على الاثني عشر برجاً المتقدم ذكرها ، لكل برج منها ثلاثون يوماً ، وتوزع عليها الخمسة أيام والربع يوم . والليل والنهار يتعاقبان بالزيادة والنقصان بحسب سير الشمس في تلك البروج ، فما نقص من أحدهما زيد في الآخر . وذلك أنها إذا حلت في رأس الحمل وهي آخذة في الارتفاع إلى جهة الشمال . وذلك في السابع عشر من برمهات من شهور القبط . ويوافقه الحادي والعشرون من آذار من شهور السريان . وهو مارس من شهور الروم . والرابع والعشرون من خرداماه من شهور الفرس . اعتدل الليل والنهار فكان كل واحد منهما مائة وثمانين درجة . وهو أحد الاعتدالين في السنة . ويسمى الاعتدال الربيعي لوقوعه أول زمن الربيع ، فيزيد النهار فيه في كل يوم نصف درجة . وينقص الليل كذلك . فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة . ونقص الليل كذلك . ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وتسعين درجة . والليل على مائة وخمس وستين درجة . ثم تنقل إلى الثور فيزيد النهار فيه كل يوم ثلث درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات ونقص الليل كذلك . ويصير النهار بآخره على مائتين وخمس درجات . والليل على مائة وخمس وخمسين درجة . ثم تنقل إلى الجوزاء فيزيد النهار فيها كل يوم سدس درجة وينقص الليل كذلك . فتكون زيادة النهار فيها لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات . ونقص الليل كذلك . ويصير النهار آخرها على مائتين وعشر درجات والليل على مائة وخمسين درجة . وذلك غاية ارتفاعها في جهة الشمال . وهذا أطول يوم في السنة وأقصر ليلة في السنة . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شمالياً صاعداً لصعودها في جهة الشمال ، ثم تنقل الشمس إلى السرطان وتكر راجعة إلى جهة الجنوب . ويسمى ذلك المنقلب الصيفي . وذلك في العشرين من بؤنة من شهور القبط . ويبقى حزيران من شهور السريان . ويونيه من شهور الروم خمسة أيام . وحينئذ يأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان . فينقص النهار فيه كل يوم سدس درجة . ويزيد الليل كذلك . فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات ، وزيادة الليل كذلك . ويصير النهار بآخره على مائتين وخمس درجات . والليل على مائة وخمس وخمسين درجة .

ثم تنقل إلى الأسد فينقص النهار فيه كل يوم ثلث درجة. فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات. وزيادة الليل كذلك. ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وتسعين درجة. والليل على مائة وخمس وستين درجة. ثم تنقل إلى السنبلة فينقص النهار فيها كل يوم نصف درجة، ويزيد الليل كذلك فيكون نقص النهار فيها لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة، وزيادة الليل كذلك. ويصير النهار بآخرها على مائة وثمانين درجة والليل كذلك. فيستوي الليل والنهار. ويسمى الاعتدال الخريفي لوقوعه في أول الخريف. ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شمالياً هابطاً، لهبوطها في الجهة الشمالية. ثم تنقل إلى الميزان في الثامن عشر من توت من شهور القبط. وهي آخذة في الهبوط والنهار في النقص والليل في الزيادة فينقص النهار فيه كل يوم نصف درجة. ويزيد الليل كذلك. فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة. وزيادة الليل كذلك. ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وستين درجة، والليل على مائة وخمس وتسعين درجة. ثم تنقل إلى العقرب فينقص النهار في كل يوم ثلث درجة. ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات. وزيادة الليل كذلك. ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة، والليل على مائتين وخمس درجات. ثم تنقل إلى القوس. فينقص النهار فيه كل يوم سدس درجة. ويزيد الليل كذلك. فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات، وزيادة الليل كذلك. ويصير النهار بآخره على مائة وخمسين درجة. والليل على مائتين وعشر درجات. وهو أقصر يوم في السنة وأطول ليلة في السنة وذلك غاية هبوطها في الجهة الجنوبية. ويسمى سير الشمس في هذه البروج جنوبياً هابطاً لهبوطها في الجهة الجنوبية. ثم تنقل إلى الجدي في السابع عشر من كيهك وتكر راجعة فتأخذ في الارتفاع ويأخذ النهار في الزيادة والليل في النقصان. فيزيد النهار فيه كل يوم سدس درجة. وينقص الليل كذلك، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات ونقص الليل كذلك. ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة. والليل على مائتين وخمس درجات. ثم تنقل إلى الدلو، فيزيد النهار فيه كل يوم ثلث درجة، وينقص الليل كذلك. فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات ونقص الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وستين درجة، والليل على مائة وخمس وتسعين درجة. ثم تنقل إلى الحوت فيزيد النهار فيه كل يوم نصف درجة وينقص الليل كذلك، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة ونقص الليل كذلك. ويصير النهار بآخره على مائة وثمانين درجة والليل كذلك. فيستوي الليل والنهار وهو رأس الحمل وقد تقدم. ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة جنوبياً صاعداً، لصعودها في الجهة الجنوبية. وهذا شأنها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وهذا العمل إنما هو في مصر وأعمالها. فإذا اختلف العروض كان الأمر في الزيادة والنقصان بخلاف ذلك والله أعلم.

وقد تقدم بعض هذا ولكن ما ذكرناه هنا أضبط وأوضح وهو من صبح الأعشى. ما أعجب هذا النظام والإتقان. فانظر كيف انتظم الحساب لانتظام السير وعلى مقتضاه رتب الناس شهورهم. فللقبط شهور وللسريان شهور تخالفهم وهكذا الروم. وهاك بيانها (انظر هذا الجدول):

شهور القبط منسوبة لدقلطيانوس الملك	شهور السريان منسوبة للإسكندر	شهور الروم منسوبة لأغطس ملك الروم
توت	يوافق أوله ٢٠ آب الموافق لشهر	أغسطس
بابه	يوافق أوله ٢٧ أيلول الموافق لشهر	سبتمبر
هاتور	يوافق أوله ٢٧ تشرين الأول الموافق لشهر	أكتوبر
كيهك	يوافق أوله ٢٦ تشرين الثاني الموافق لشهر	نوفمبر
طوبه	يوافق أوله ٢٦ كانون الأول الموافق لشهر	ديسمبر
أمشير	يوافق أوله ٢٥ كانون الثاني الموافق لشهر	يناير
برمهات	يوافق أوله ٢٤ شباط الموافق لشهر	فبراير
برموده	يوافق أوله ٢٦ آذار الموافق لشهر	مارس
بشنس	يوافق أوله ٢٥ نيسان الموافق لشهر	إبريل
بؤنه	يوافق أوله ٢٥ أيار الموافق لشهر	مايو
أبيب	يوافق أوله ٢٤ حزيران الموافق لشهر	يونيو
مسرى	يوافق أوله ٢٤ تموز الموافق لشهر	يوليو

وقد نظم الشيخ إبراهيم الدهشوري شهور السريان فقال:

وابْدَأْ بِأَيْلُولٍ مِنَ السِّرْيَانِي تَشْرِينُ الأَوَّلُ يتبعنه الثاني
كَانُونٌ كَانُونٌ شَبَاطٌ يَطْلَعُ آذَارُ نَيْسَانُ أَيَّارٌ يَتْبَعُ
ثُمَّ حَزِيرَانٌ وتَمُّوزُ وأبْ تبارك الرحمنُ يَهْدِي مَنْ احَبْ

وقد نظم أيضاً الشيخ المذكور شهور الروم فقال:

يَنيرُ فبريرُ مارسٌ للروم إبريلُ مايُه خامس المعلوم
يُنيُهُ وَيُلْيَهْ ثُمَّ أغشت شتمبر أكتوبر نوفمبر دجنبرُ

وقد نظم الشيخ أبو عبد الله الكيزاني أبياتاً ذكر فيها الأشهر التي تكون ثلاثين يوماً والناقصة عنها، ولم يتعرض للزائدة عنها فقال:

شهور الروم ألوان زيادات ونقصانُ
فتشرينهم الثاني وأيلول ونَيْسَانُ
ثلاثُونَ ثلاثُونَ سَواءٌ وحَزِيرَانُ
شباط خُصَّ بالنقص وقدر النقص يومان

قد سماها شهور الروم لموافقتها لها وإلا فهي للسريان. اهـ.

الكلام على المنازل

جاء في كتاب «صبح الأعشى» ما نصه:

إن النهار الطبيعي أوله طلوع الشمس وآخره غروبها.

والنهار الشرعي أوله طلوع الفجر الثاني وآخره غروب الشمس.

فيخالفه في الابتداء ويوافقه في الانتهاء. وطلوع الشمس وغروبها ظاهر يعرفه الخاص والعام، أما الفجر فإن أمره خفي لا يعرفه كل أحد. وقد تقدم انقسامه إلى كاذب وهو الأول، وصادق وهو الثاني. وعليه التعويل في الشرعيات. فيحتاج إلى موضح يوضحه ويظهره للعيان.

وقد جعل المنجمون وعلماء الميقات له نجوماً تدل عليه بالطلوع والغروب والتوسط. وهي منازل القمر، وعدّتها ثمان وعشرون منزلة، وهي: الشرطان، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والخرتان، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزبانان، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود وسعد الأخبية، والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر، وبطن الحوت.

والمعنى في ذلك أن الشمس إذا قربت من كوكب من الكواكب الثابتة أو المتحركة سترته وأخفته عن العيون، فصار يظهر نهاراً ويختفي ليلاً ويكون خفاؤه غيبة له. ولا يزال كذلك خافياً إلى أن تبتعد عنه الشمس بعداً يمكن أن يظهر معه للأبصار وهو عند أول طلوع الفجر، فإن ضوء الشمس يكون ضعيفاً حينئذ فلا يغلب نور الكوكب فيرى الكوكب في الأفق الشرقي ظاهراً.

وحصة كل منزلة من هذه المنازل من السنة ثلاثة عشر يوماً وربع سبع يوم ونصف ثمن سبع يوم على التقريب كما سيأتي على المنازل الثمانية والعشرون، خص كل منزلة ما ذكر من العدد والكسور.

ولما كان الأمر كذلك جعل لكل منزلة ثلاثة عشر يوماً وهي ثلاث عشرة درجة من درج الفلك وجمع ما فضل من الكسور على ثلاثة عشر يوماً بعد انقضاء أيام المنازل الثمانية والعشرون، فكان يوماً وربعاً، فجعل يوماً في المنزلة التي توافق آخر السنة وهي الجبهة فكان حصتها أربعة عشر يوماً. ويقي ربع يوم ونسيء أربع سنين حتى صار يوماً فزيد على الجبهة أيضاً.

فكانت كواكب المنازل المذكورة تطلع مع الفجر منها أربعة عشر يوماً ثلاث سنين، وفي السنة الرابعة تطلع بالفجر خمسة عشر يوماً.

وهاك ملخص ما ذكره في حسابها:

المنازل	شهور القبط	شهور السريان	شهور الروم
الشرطان أول طلوعها بالفجر	٢٣ برموده	١٨ نيسان	أبريل
البطين أول طلوعها بالفجر	٦ بشنس	أول أيار	مايه
الثريا أول طلوعها بالفجر	١٩ بشنس	١٤ أيار	مايه
الدبران أول طلوعها بالفجر	٢ بؤنه	٢٦ أيار	مايه
الهقعة أول طلوعها بالفجر	١٥ بؤنه	٩ حزيران	يونيه
الهنعة أول طلوعها بالفجر	٢٨ بؤنه	٢٢ حزيران	يونيه
الذراع أول طلوعها بالفجر	١١ أبيب	٥ تموز	يوليه
النثرة أول طلوعها بالفجر	٢٤ أبيب	١٨ تموز	يوليه
الطرف أول طلوعها بالفجر	٧ مسرى	آخر تموز	يوليه
الجبهة أول طلوعها بالفجر	٢٠ مسرى	١٣ آب	أغسطس
الخرتان أول طلوعها بالفجر	٤ من أيام النسيء وفي السنة الكبيسة في ٥ منه	٢٧ آب	أغسطس
الصرفة أول طلوعها بالفجر	١٢ توت	٩ أيلول	سبتمبر
العواء أول طلوعها بالفجر	٢٥ توت	٢٢ أيلول	سبتمبر
السماك أول طلوعها بالفجر	٨ بابه	٥ تشرين الأول	أكتوبر
الغفر أول طلوعها بالفجر	٢١ بابه	١٨ تشرين الأول	أكتوبر
الزبانان أول طلوعها بالفجر	٤ هاتور	آخر يوم من تشرين الأول	أكتوبر
الإكليل أول طلوعها بالفجر	١٧ هاتور	١٣ من تشرين الثاني	نوفمبر
القلب أول طلوعها بالفجر	آخر يوم من هاتور	٢٦ من تشرين الثاني	نوفمبر
الشولة أول طلوعها بالفجر	١٣ كيهك	٩ كانون الأول	ديسمبر
النعائم أول طلوعها بالفجر	٢٦ كيهك	٢٢ كانون الأول	ديسمبر
البلدة أول طلوعها بالفجر	٩ طوبه	٤ كانون الثاني	يناير
سعد الذابح أول طلوعها بالفجر	٢٢ طوبه	١٧ كانون الثاني	يناير
سعد بلع أول طلوعها بالفجر	٥ أمشير	٣٠ كانون الثاني	يناير
سعد السعود أول طلوعها بالفجر	١٨ أمشير	١٢ شباط	فبراير
سعد الأخبية أول طلوعها بالفجر	١ برمهات	٢٥ شباط	فبراير
الفرغ المقدم أول طلوعها بالفجر	١٤ برمهات	٧ آذار	مارس
الفرغ المؤخر أول طلوعها بالفجر	٢٧ برمهات	٢٢ آذار	مارس
بطن الحوت أول طلوعها بالفجر	١٠ برموده	٥ نيسان	أبريل

هذه هي المنازل من حيث نزول الشمس فيها . فما أجمل حسابها السهل ونظامها العجيب . فإذا أردنا أن نعرف أين تكون الشمس في أي منزلة فالأمر ظاهر واضح ، فلنعرف الشهر واليوم يحصل المطلوب .

الكلام على القمر والمنازل بالنسبة له

جاء في كتاب « صبح الأعشى » ما نصه :

وأما حركته البطيئة فحركته من جهة الشمال إلى جهة الجنوب ، ومن جهة الجنوب إلى جهة الشمال ، وتنقله في المنازل الثمانية وعشرين في ثمانية وعشرين يوماً بليلها كالشمس في البروج ، قال تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾[يس : ٣٩] ، فما تقطعه الشمس من الشمال إلى الجنوب وبالعكس في جميع السنة يقطعه القمر في ثمانية وعشرين يوماً . والمنازل للقمر كالبروج للشمس . وذلك أنه لما اتصل إلى العرب ما حققه القدماء برصدهم من الكواكب الثابتة وكان لا غنى لهم عن معرفة كواكب ترشدهم إلى العلم بفصول السنة وأزمنتها رصدوا كواكب وامتحنوها . ولم يستعملوا صور البروج على حقيقتها ، لأنهم قسموا فلك الكواكب على مقدار الأيام التي يقطعه القمر فيها ، وهي ثمانية وعشرون يوماً ، وطلبوا في كل قسم منها علامة تكون أبعاد ما بينها وبين العلامة الأخرى مقدار مسير القمر في يوم وليلة . وسموها منزلة إلى أن تحقق لهم ثمانية وعشرون على ما تقدم ذكره في الكلام على طلوعها بالفجر ، لأن القمر إذا سار سيره الوسط انتهى في اليوم التاسع والعشرين إلى المحاق الذي بدأ منه . فحذفت المتكرر . فبقي ثمانية وعشرين ، ويزاد بالشرطين ، لأن كواكبه من جملة كواكب الحمل ، الذي هو أول البروج . ثم هذه المنازل على قسمين : شمالي وجنوبي كما في البروج ، وكل قسم منها أربع عشرة منزلة . فالشمالي منها ما كان طلوعه من ناحية الشام ، وتسمى الشامية ، وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال التي هي رأس الحمل والميزان صاعداً إلى جهة الشمال ، وهي الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والخرتان والصرفة والعواء والسماك . وبطلوعها يطول الليل ويقصر النهار . والجنوبي منها ما كان طلوعه من ناحية اليمن وتسمى اليمانية . وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال المذكور هابطاً إلى جهة الجنوب . وهي الغفر والزبانان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرغ المقدم والفرغ المؤخر وبطن الحوت . وبطلوعها يقصر الليل ويطول النهار .

ثم المنزلة عند المحققين قطعة من الفلك مقدارها ربع سبع الدور . وهو جزء من ثمانية وعشرين جزءاً من الفلك عبارة عن[١] لا عن الكواكب . وإنما الكواكب حدود تفرق بين كل منزلة وأخرى . فعدل بالتسمية إليها وغلبت عليها .

(١) بياض بالأصل .

ونزول القمر في هذه المنازل على ثلاثة أحوال إما في المنزلة نفسها وإما بينها وبين التي تليها وإما محاذياً لها خارجاً عن السمت شمالاً أو جنوباً. وقد تقدم الكلام على عدول القمر عن بعض المنازل ونزوله في غيرها.

ولتعلم أن المنازل مقسومة على البروج الاثني عشر موزعة عليها: فالشرطان والبطين وثلث الثريا للحمل. وثلثا الثريا والدبران وثلثا الهقعة للثور وثلث الهقعة والهنعة والذراع للجوزاء. والنثرة والطرف وثلث الجبهة للسرطان. وثلثا الجبهة والخرتان وثلثا الصرفة للأسد. وثلث الصرفة والعواء والسماك للسنبلة. والغفر والزبانان وثلث الإكليل للميزان. وثلثا الإكليل والقلب وثلثا الشولة للعقرب. وثلث الشولة والنعائم والبلدة للقوس. وسعد الذابح وسعد بلع وثلث سعد السعود للجدي، وثلث الفرغ المقدم والفرغ المؤخر وبطن الحوت للحوت. إذا علمت ذلك فإذا أردت أن تعرف القمر في أي منزلة هو أو كم مضى له فيها من الأيام فخذ ما مضى من سنة القبط شهوراً كانت أو أياماً أو شهوراً وأياماً وأبسطها أياماً، وأضف إلى ما حصل من ذلك يومين ثم اطرح المجموع ثلاثة عشر ثلاثة عشر، وهو عدد لبث القمر في كل منزلة من الأيام، واجعل أول كل منزلة من العدد الخرتان، فما بقي من الأيام دون الثلاثة عشر فهو عدد ما مضى من المنزلة التي انتهى العدد إليها.

مثال ذلك أن يمضي من سنة القبط شهر توت وأربعة أيام من شهر بابه، فتبسطها أياماً تكون أربعة وثلاثين يوماً فتضيف إليها يومين تصير ستة وثلاثين يوماً، فاطرح منها ثلاثة عشر مرتين بستة وعشرين للخرتان منها ثلاثة عشر وللصرفة ثلاثة عشر تبقى عشرة. وهي ما مضى من المنزلة الثالثة وهي العواء.

وإن أردت أن تعرف في أي برج هو فاحسب كم مضى من الشهر العربي يوماً وزد عليه مثله ثم زد على الجملة خمسة وأعط لكل برج خمسة، وابدأ من البرج الذي فيه الشمس، فأعط لكل برج خمسة فأينما نفد حسابك فالقمر في ذلك البرج. والاعتماد في ذلك على كم مضى من الشهر العربي بالحساب دون الرؤية والله أعلم.

الكلام على أحوال الأهلة التي عليها مدار الشهور في ابتدائها وانتهائها

واعلم أن مسير القمر مقدر بمعرفة الشهور والسنين قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]، والشمس تعطيه في كل ليلة ما يستضيء به نصف سبع قرصه حتى يكمل، ثم تسلبه من الليلة الخامسة عشرة كل ليلة نصف سبع قرصه حتى لا يبقى فيه نور فيستتر. ويروى عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه سئل عن القمر، فقال: يمحق كل ليلة ويولد جديداً، ويبعد مثل هذا عن جعفر الصادق. إذا علمت ذلك فللقمر حركتان: سريعة وبطيئة، كما تقدم في الشمس. أما الحركة السريعة فحركة فلك الكل به من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق في اليوم والليلة. واعلم أن الهلال إذا طلع مع غروب الشمس كان مغيبه على مضي ستة أسباع ساعة من الليل. ولا يزال مغيبه يتأخر عن مغيبه في كل ليلة ماضية هذا المقدار حتى يكون مغيبه في الليلة السابعة نصف الليل. وفي الليلة الرابعة عشرة

طلوع الشمس، ثم يكون طلوعه في الليلة الخامسة عشرة على مضي ستة أسباع ساعة منها. ولا يزال طلوعه يتأخر عن طلوعه في كل ليل ماضية بعد الإبدار هذا المقدار حتى يكون طلوعه ليلة إحدى وعشرين نصف الليل. وطلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الغداة. وإذا أردت أن تعلم على مضي كم من الساعات يغيب أو يطلع من الليل. فإن أردت المغيب وكان قد مضى من الشهر خمس ليال تقديراً فاضربها في ستة تكون ثلاثين، فأسقطها سبعة سبعة يبقى اثنان، فيكون مغيبه على مضي أربع ساعات أسباع ساعة وكذلك العمل في أي ليلة شئت. وإن أردت الطلوع وكان قد مضى من الإبدار ست ليال مثلاً فاضرب ستة في ستة يكون ستة وثلاثين، فأسقطها سبعة سبعة يبقى واحد فيكون طلوعه على خمس ساعات وسبع. وكذلك العمل في أي ليلة شئت.

ثم قال: للناس في إخراج أول الشهر العربي طرق أسهلها أن تعرف أول يوم من المحرم ثم تعد كم مضى من السنة من الشهور بالشهر الذي تريد أن تعرف أوله وتقسمها نصفين، فإن كان النصف صحيحاً أضفت على الجملة مثل نصفه. وإن كان مكسوراً كملته وأضفته على الجملة، ثم تبتدئ من أول يوم من السنة وتعد منه أياماً على توالي أسماء الأيام بعدد ما حصل معك من الأصل والمضاف، فحيث انتهى عددك فذلك اليوم هو أول الشهر. مثال ذلك في الصحيح النصف: إن أردت أن تعرف أول يوم من شعبان وكان أول المحرم يوم الأحد مثلاً؛ فتعد من أول المحرم إلى شعبان وتدخل شعبان في العدد فيكون ثمانية أشهر، فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة، فتضيف الأربعة إلى الثمانية تكون اثني عشر، ثم تبتدئ من يوم الأحد الذي هو أول المحرم، فتعد الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت، ثم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، فيكون انتهاء الاثني عشر في يوم الخميس فيكون أول شعبان يوم الخميس. ومثاله في المكسور النصف: إذا أردت أن تعرف أول رمضان أيضاً وكان أول المحرم الأحد كما تقدم فتعد ما مضى من شهور السنة وتعد منها رمضان يكون تسعة أشهر، فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة ونصفاً فتكملها بنصف تصير خمسة، فتضيفها إلى الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعة عشر، ثم تبتدئ عدد الأيام من أول المحرم وهو الأحد كما تقدم، فيكون انتهاء الرابع عشر في يوم السبت، فيكون أول رمضان يوم السبت.

ومن الطرق المعتبرة في ذلك أن تنظر في الثالث من أيام النسيء من شهور القبط كم يوماً مضى من الشهر العربي فما كان جعلته أصلاً لتلك السنة. فإذا أردت أن تعرف أول شهر من شهور العربية أو كم مضى من الشهر الذي أنت فيه؛ فخذ الأصل المحفوظ معك لتلك السنة. وانظر كم مضى من السنة القبطية شهراً فخذ لكل شهرين يوماً. فإن انكسرت الأشهر وجاءت فرداً فاجبرها بيوم زيادة حتى تصير زوجاً. وزد على ذلك يومين أصلاً أبداً. ثم انظر كم يوماً من الشهر القبطي الذي أنت فيه فأضفه على ما اجتمع معك. وأسقط ذلك ثلاثين فما بقي فهو عدد ما مضى من الشهر العربي. ومنه يعرف أوله.

ومثال ذلك نظرت في الثالث من أيام النسيء فوجدت الماضي من الشهر العربي ثلاثة أيام، فكانت أصلاً لتلك السنة، ثم نظرت في الشهور القبطية فوجدت الشهر الذي أنت فيه «أمشير» مثلاً، فتعد من أول شهور السنة القبطية وهو «توت» إلى «أمشير» يكون ستة أشهر، فتأخذ لكل شهرين

يوماً تكون ثلاثة أيام فتضيفها على الأصل الذي معك من أيام النسيء وهو ثلاثة، تصير ستة، فزد عليها اثنين يصير المجموع ثمانية. ثم تنظر في الشهر القبطي الذي أنت فيه وهو «أمشير» تجده قد مضى منه يومان فتضيفهما على المجموع يكون عشرة. وهو الماضي من الشهر العربي الذي أنت فيه ومنه يعرف أوله. انتهى من كتاب «صبح الأعشى».

هذا هو نهاية الكلام على المنازل والبروج وسير القمر والشمس فيهما وعلى الشهور القمرية والشمسية، كل ذلك تفسير للآية التي نحن بصدد الكلام عليها: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[الزمر: ٥]. انتهى.

أيها الذكي، هاهي ذه الدنيا أمامك ظاهرة واضحة، فمتى عرفت يومك في شهرك استخرجت منه منزلة الشمس وبرجها وسير القمر فيهما، والسنة التالية تتبع السابقة، فالنظام تام والحساب بديع. أفلا تعجب لهذا الحساب الذي لا خلل فيه وعلى مقتضاه كانت أحوالنا المعاشية.

يا سبحان الله، شمس وقمر منظم سيرهما ومنازل وبروج منظمات، وعلى مقتضاهما كانت حياة الإنسان والحيوان، فلولا النظام هناك لاختل النظام هنا، فهاهو ذا شهر «توت» أول يوم منه يسمى النيروز وهو رأس سنة القبط، وفي (٧) منه يبتدئ لقط الزيتون، وفي (١٧) منه تفتح أكثر الترع بمصر، وفي ١٨ منه أول فصل الصيف، وفي ١٩ منه يهيج السوداء في البدن، وفي ٢١ منه يبتدئ بيض النعام، وفي ٢٨ منه يذهب الحر، وفي ٢٩ منه أول رعي الكراكي، وفي ٣٠ منه يزرع الهليون.

شهر بابه: فيه يبذر كل ما لا تشق له الأرض كالبرسيم ونحوه، وفي آخره تشق الأرض بالصعيد ويحصد الأرز ويطيب الرمان، وتضع الضأن والمعز والبقر الخيسية، ويستخرج دهن الآس واللينوفر ويدرك التمر والزبيب وبعض المحمضات، وفي ثالثه رأس سنة السريان، وفي رابعه أول تشرين الأول من شهورهم، وفي خامسه عرس النيل، وفي سادسه يطيب شرب الدواء، وفي سابعه نهاية زيادة النيل، وفي ثامنه يكره خروج الدم، وفي حادي عشره يبتدئ النيل في النقص. وفي ثالث عشره بداية الوخم، وفي رابع عشره يكثر الناموس، وفي خامس عشره يبتدئ زرع القرط، وفي سادس عشره تبتدئ كثرة السعال، وفي تاسع عشره يبتدئ زرع السلجم، وفي الثاني والعشرين منه يبتدئ صلاح المواشي، وفي الثالث والعشرين منه تبتدئ كثرة الغيوم، وفي الرابع والعشرين منه تبتدئ أهل مصر الزرع. وفي السابع والعشرين منه يبتدئ سمن الحيتان، وفي الثامن والعشرين منه أول المد، وفي التاسع والعشرين منه أول الليالي البلق.

شهر هاتور: فيه يزرع القمح ويطلع البنفسج والمنثور وأكثر البقول، ويجمع ما بقي من الباذنجان وما يجري مجراه، ويحمل العنب من قوص. وفي ثانيه يبتدئ حصاد الأرز. وفي خامسه أول تشرين الثاني من شهور السريان وفيه يبتدئ برد المياه. وفي سادسه أول المطر الموسمي، وفي سابعه يبتدئ أهل الشام الزرع. وفي ثامنه يبتدئ هبوب الرياح الجنوبية. وفي تاسعه يبتدئ زرع الخشخاش. وفي حادي عشره يبتدئ اختفاء الهوام. وفي ثالث عشره يبتدئ غليان البحر. وفي رابع عشره تعمى الحيات. في سادس عشره يجمع الزعفران. وفي ثامن عشره تكثر الوحوش. وفي الثامن والعشرين منه

يغلق البحر الملح وتمتنع السفن من السفر فيه لشدة الرياح . وفي الثالث والعشرين منه تبتدئ سخونة بطن الأرض . وفي الرابع والعشرين منه أول اسفيدارماه من شهور الفرس .

شهر كيهك : فيه تدرك الباقلاء وتزرع الحلبة وأكثر الحبوب . ويدرك النرجس والبنفسج وتتلاحق المحمضات . وفي أوله ابتداء أربعينات مصر . وفي ثالثه يبتدئ موت الذباب . وفي خامسه أول كانون الأول من شهور السريان . وفي سابعه آخر الليالي البلق وأول الليالي السود . وفي حادي عشره يبتدئ الشجر في رمي أوراقه . وفي ثاني عشره تظهر البراغيث . وفي سابع عشره أول فصل الشتاء ، وهو أول أربعينيات الشام . وفي ثامن عشره يتنفس النهار . وفي الحادي والعشرين منه يكثر الطير الغريب بمصر . وفي الثالث والعشرين منه أول مردوماه من شهور الفرس . وهو نوروزهم وأول سنتهم . وفي الخامس والعشرين منه يهيج البلغم . وفي السادس والعشرين منه تلقح الإبل . وفي السابع والعشرين منه يكثر شرب الماء في الليل . وفي الثلاثين منه يبتدئ تلقيم الكروم .

شهر طوبه : في زرع القمح فيه تغرير . وفيه تشق الأرض للقصب والقلقاس . ويتكامل النرجس وفي أوله تبيت الرياح الشديدة . وفي ثانيه يدرك القرط . وفي سادسه أول كانون الثاني من شهور السريان وفي عاشره آخر أربعينيات مصر . وفي حادي عشره أول نصب الكروم . وفي ثاني عشره يشتد البرد . وفي ثالث عشره يبتدئ زرع المقات . وفي سابع عشره يبتدئ غرس الأشجار . وفي ثامن عشره تبتدئ كثرة الندى وهو آخر الليالي السود . وفي تاسع عشره يبتدئ وقوع الثلج بالشام وغيره . وفي الرابع والعشرين منه يبتدئ صفو ماء النيل . وفي التاسع والعشرين منه يبتدئ اختلاف الرياح .

شهر أمشير : فيه تغرس الأشجار وتقلم الكروم ويدرك النبق واللوز الأخضر ويكثر البنفسج والمنثور . وفي رابعه يبتدئ افراخ النخل . وفي سادسه أول شباط من شهور السريان . وفي حادي عشره يبتدئ إنتاج الطيور وزرع بقول الصيف . وفي ثاني عشره يبتدئ تحرك دواب البحر . وفي الثاني والعشرين منه ثاني جمرة فاترة ، ويبتدئ مرض الأطفال ويبتدئ خروج ورق الشجر . وفي الثالث والعشرين منه يبتدئ خروج الدواب للمراعي . وفي الرابع والعشرين منه أول حردادماه من شهور الفرس . وفي الخامس والعشرين منه يبتدئ هيجان الرياح . وفي السابع والعشرين منه تبتدئ ثالث جمرة حامية . وفي الثامن والعشرين منه أول المفرطات . وفي التاسع والعشرين منه آخر نهي ابقراط .

شهر برمهات : فيه تزهر الأشجار ويعقد أكثر الثمار ويزرع أوائل السمسم . ويقلع الكتان . ويدرك الفول والعدس . وفي ثانيه يحمد خروج الدم وهو أول الأعجاز . وفي ثالث عشره تفتح الحيات أعينها . وفي خامس عشره تطيب الألبان . وفي سادس عشره يبتدأ خروج دود القز . وفي ثامن عشره يهيج الدم . وفي تاسع عشره ظهور الهوام . وفي العشرين منه يزرع السمسم . وفي الرابع والعشرين منه أول تيرماه من شهور الفرس . وفي السادس والعشرين منه يبتدئ شرب المسهل . وفي السابع والعشرين منه خروج الذباب الأزرق .

شهر برموده : فيه تقطف أوائل عسل النحل . وفيه تكثر الباقلاء . وينفض جوز الكتان ، ويكثر الورد الأحمر ، والبطن الأول من الجميز ويقلع بعض الشعير ويدرك الخيار شنبر . وفي أوله يؤكل الفريك

وفي رابعه يعصر دهن البلسان. وفي خامسه تبتدئ كثرة الزهور. وفي سادسه أول نيسان من شهور السريان. وفي ثاني عشره يخاف على بعض الزرع. وفي ثامن عشره آخر قلع الكتان، وفي العشرين منه ينهى عن أكل البقول. وفي الثاني والعشرين منه ظهور الكمأة. وفي الثالث والعشرين منه الختام الكبير للزرع. وفي الرابع والعشرين منه أول تردماه من شهور الفرس. وفي الخامس والعشرين منه نهاية مد الفرات. وفي الثامن والعشرين منه يبيض النعام.

شهر بشنس: فيه يكثر التفاح القاسمي. ويبتدئ التفاح المسكي. والبطيخ العبدلي والحوفي، والمشمش والخوخ الزهري والورد الأبيض. وفي نصفه يبذر الأرز ويحصد القمح. وفي سادسه أول أيار من شهور السريان. وفي رابع عشره يجمع الخشخاش. وفي ثامن عشره يجمع العصفر. وفي الحادي والعشرين منه تبتدئ برودة الأرض. وفي الرابع والعشرين منه أول شهر برماده من شهور الفرس.

شهر بؤنه: فيه يكثر الحصرم ويطيب بعض العنب والتين البوني وهو الديفور. والخوخ الزهري والمشعر. والكمثرى البوهي والقراصيا والتوت، ويطلع البلح ويقطف جمهور العسل. وفي ثالثه يبتدئ توحم النيل. وفي سادسه يكمل الدرياق. وفي سابعه أول حزيران من شهور السريان. وفي تاسعه يبتدئ مهب الريح الشمالية. وفي عاشره يبتدئ تنفس النيل. وفي خامس عشره تتحرك شهوة الجماع. وفي ثاني عشره عيد ميكائيل. في ليلته يوزن من الطين زنة ستة عشر درهماً عند غروب الشمس، ويرفع في مكان ويوزن عند طلوع الشمس، فما زاد كان بكل خروبة زادت على الستة عشر ذراع. وفي ثالث عشره يبتدئ نقص الفرات. وفي رابع عشره تهب الرياح السمائم. وفي تاسع عشره تذهب البراغيث، وفي العشرين منه تهيج الصفراء. وفي الثاني والعشرين منه يعقد الجوز ويقوى اندفاع النيل. وفي الرابع والعشرين منه يثور وجع العين، وهو أول مهرماه من شهور الفرس. وفي السابع والعشرين منه يؤخذ فاع النيل. وفي الثامن والعشرين منه ينادى عليه. وفي التاسع والعشرين منه يدرك البطيخ.

شهر أبيب: فيه يكثر العنب والتين ويقل البطيخ العبدلي ويطيب البلح وتقطف بقايا العسل وتقوى زيادة النيل. وفي رابعه أول نهي أبقراط، وفيه يموت الجراد. وفي سابعه أول تموز من شهور السريان. وفي عاشره يبتدئ وقع الطاعون. وفي ثاني عاشره تبتدئ قوة السمائم. وفي ثالث عشره تدرك الفاكهة. وفي سابع عشره تغور العيون. وفي ثامن عشره يجمع السماق. وفي الثاني والعشرين منه يدرك الفستق. وفي الرابع والعشرين منه أول أبان ماه من شهور الفرس. وفي السادس والعشرين منه طلوع الشعرى اليمانية. وفي التاسع والعشرين منه يدرك نخل الحجاز.

شهر مسرى: فيه يعمل الخل ويدرك البسر والموز وتتغير طعوم الفاكهة لغلبة الماء على الأرض ويدرك الليمون التفاحي، ويبتدئ إدراك الرمان. وفي رابعه نقصان دجلة. وفي خامسه أول العصير. وفي ثامنه أول آب من شهور السريان. وفي ثاني عشره فصال المواشي. وفي رابع عشره تقل الألبان. وفي خامس عشره تسخن المياه. وفي سابع عشره تختلف الرياح. وفي ثامن عشره يحذر لسع الهوامّ. وفي الثامن والعشرين منه آخر العصير. وفي الرابع والعشرين منه يهيج النعام. وفي الخامس والعشرين منه تكثر الغيوم. وفي الثامن والعشرين منه آخر السمائم. وفي التاسع والعشرين منه أول آذرماه من شهور الفرس.

أيام النسيء: ودخولها في الثامن والعشرين من آب من شهور السريان، ويختلف آخرها باختلاف السنة الكبيسة وغيرها.

انتهى الكلام على المنازل والبروج وسير القمر والشمس فيهما، وعلى الشهور القمرية والشمسية، وذلك من كتاب «صبح الأعشى»، والحمد لله رب العالمين.

هذا ما أردت نقله هنا من كتاب «صبح الأعشى» لتفهم أيها الذكي لماذا ذكر الله الأرض مع الشمس والقمر، إذ ذكر أنه أحياها وأخرج منها حباً وجعل فيها جنات وعيوناً وثماراً نأكلها. ثم أعقب هذا بالشمس والقمر، فبدأ بالمسبب ثم أتبعه بسببه. فالمسبب هي هذه الزروع والحبوب والفواكه التي تضمنها ذكر الأرض إجمالاً، وقد فصلت بعد آيات. وأسبابها الأضواء السماوية، فلما انتظم حساب الأسباب وأوقاتها انتظمت أوقات المسببات وحسابها. فيا أيها المسلمون على هذا النمط فلتكن علوم الإسلام ودين الإسلام. فإما أن المسلمين يعرفون هذه العلوم وإلا فهم مقصرون في معرفة كتاب الله، والله هو الولي الحميد، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. انتهيت من كتابة هذا المقام الساعة الثانية بعد نصف ليلة الجمعة ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٠. وبهذا تمت اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

إن العلم من خواص القرآن. فكم حض على العلم وأمر بالتعقل والتفكر والتدبر. إن أول سورة نزلت بيت على العلم: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق: ١-٥].

فإذا كانت أول سورة نزلت قد أسست على هذا الأسلوب فهذا الدين سيظهر له أثره التام في أمم عرفت قيمة العلم، وإذا لم يجعل الله نسبة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون؛ فقد فصل بينهما فصلاً تاماً وجعل الجهال كأنهم من طينة غير طينة أهل العلم مبالغة في التفرقة وتفاوت المنازل. وإذا كان العلم هذه صفته فمن حقنا أن نسهب في شرحه على ما يقتضيه المقام. فلنجعل الكلام عليه في مقامين:

المقام الأول: في شرف العلم وطرق التعليم وجدّ الأمم في تحصيله.

المقام الثاني: في شذرات من العلوم العامة تذكرة للأمم الإسلامية.

المقام الأول

في شرف العلم وطرق التعليم وجدّ الأمم في تحصيله

وفي هذا المقام ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في تمثيل العلم بمعدن الراديوم.

الفصل الثاني: فيما قاله الفيلسوف كنت الألماني في كتاب التربية.

الفصل الثالث: فيمن ترك الملك من الملوك والوزراء حباً في علم الحكمة وفيمن خلع لباس الحكمة واشتغل بالملك.

الفصل الأول في المقام الأول: في تمثيل العلم بمعدن الراديوم

يقول صلى الله عليه وسلم: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام». إن المعادن جاءت في الوجود مرتبة على مقتضى الحاجة. فكلما كان المعدن كثير التناول وكانت الحاجة إلى عمومه داعية؛ كثر وجوده كالقصدير والنحاس والحديد. وكلما كان الاحتياج إليه أقل كأن كانت له مزية بها يحكم الناس في مبايعاتهم كالذهب والفضة؛ كان وجوده أقل على مقتضى الحاجة، فلو كثرا لذهبت تلك المزية لأن كثرتهما يتلوها رخصهما، ورخصهما يستدعي نصب الناس وتعبهم في حمل الكثير منهما لأجل البيع والشراء. إذن الحكمة تامة في وضع هذا الوجود. عمّ الهواء ويليه الماء ثم الأقوات للحيوان والإنسان، لأن الحاجة تدعو لذلك، ولكن الدواء أقل لأن الحاجة إليه في وقت دون وقت. وكما أن الحكام والملوك أفراد في النوع الإنساني هكذا الذهب والفضة أشبه بأولئك الأفراد في المعادن. وهاهنا ظهر معدن آخر أندر من الذهب والفضة، بل أندر جداً، وهو الراديوم، ذلك المعدن الذي خلق ليكون له السلطان الأعظم في عوالمنا الأرضية. ذلك المعدن الذي يهلك من اقتربوا منه من غير احتراس ويشع في الظلام. ذلك المعدن الضار النافع، فهو شديد الضرر كثير النفع، ولا سبيل لاستعماله إلا مع العلم ومعرفة خواصه. لذلك حبسه الله ولم يظهره للناس إلا عندما صارت عندهم بعض المعرفة بخواص المادة لينتفعوا به ويحترسوا من ضرره، فهذا المعدن العجيب أشبه بالحكماء في الأرض، فكما أن هذا المعدن قل وجوده وكثر نفعه هكذا أولو الألباب الذين خلقوا لرقي النوع الإنساني العاشقون المغرمون بمنافعه يقلون ويندرون كندرة ذلك المعدن، وآثارهم تتناول أمماً كثيرة كما أن الراديوم يتناول أعمالاً كثيرة مع قلته في المعادن، ولعل هذا الوصف شاقك أيها الذكي أن تعرف خواص الراديوم الذي ضربه الله مثلاً لحكماء الأمم الذين يخلقون في الأرض لينفعوا الأمم مع قلة عددهم فيها، فهاك ما جاء في «البلاغ الأسبوعي» يوم الأربعاء ٢٠ يونيه سنة ١٩٣٠ وهذا نصه:

الراديوم وخواصه العجيبة

الراديوم مسحوق أبيض يشبه في شكله ملح الطعام، والرطل منه يساوي في ثمنه ألف رطل من الذهب، وذلك لندرته، وإذا تيسر لشخص أن يحوز القليل منه فقل أنه قد حاز مالاً وفيراً وثروات طائلة، ومع ذلك هو شديد الخطورة على الإنسان، فلو وضعنا رطلاً أو رطلين في مكان معين واقترب منه أي عدد من الأشخاص لماتوا كلهم ولما بقي منهم أحد، والغريب أن الإنسان يمكنه أن يضع في يده القليل من مسحوقه بدون أن يشعر بألم ما، ولكنه يراها تتقشر وتتفتت طبقات بعد مضي أسبوع، ولربما عمي من أمسك بذلك المسحوق وانتابه الموت السريع بعد ذلك، والقليل من الراديوم الذي يملكه العالم اليوم طالما أودى بحياة من أرادوا إجراء التجارب عليه. ولقد حدث أن عالماً أراد أن يلقي محاضرة علمية على الراديوم، فأخذ القليل منه ووضعه في أنبوبة أحكم غطاءها ثم وضع تلك الأنبوبة في جيب صديريه، ولكنه لشد ما كانت دهشة الجميع عندما رأوا أن الجلد الواقع تحت جيب الصديري محمراً وأخذ يتساقط، وسرعان ما تكون خرّاج مؤلم بشع المنظر لم يندمل إلا بعد أسابيع

طويلة . والراديوم يلمع في الظلام كوهج النيران تماماً . والعجيب في أمره أنه يشع باستمرار ضوء وحرارة ومع ذلك لا يفقد شيئاً من وزنه ، وهكذا فهو كشعلة من الفحم تتقد على ممر الأيام ولا تفنى ولا تزول ، ويمكننا إذا حصلنا على رطل من الراديوم أن نذيب بواسطته في كل ساعة رطلاً من الثلج بدون توقف أبداً ، وهو بذلك القوة المستمرة التي كدّ علماء الماضي في البحث عنها . وإذا وضعنا كمية كافية من الراديوم في فرن قاطرة أمكننا أن نسير القاطرة بلا توقف وبدون بذل أي مجهود في تنظيف القاطرة أو إعطائها كمية أخرى من الوقود . وقد حدث أن عالماً وضع كمية من الراديوم في صندوق من الورق القوي لمدة من الزمن ، وعندما انكسر الصندوق ونزع منه أنابيب الراديوم ورمى الصندوق في ناحية من نواحي منزله ؛ شاهد أن ضوءاً ينبعث من الصندوق بعد إطفاء أنوار المنزل ، وذلك لأن الصندوق قد امتص بعضاً من شعاع الراديوم ، وبالفعل كل مادة تلاصق الراديوم لا بد أن تتأثر بالراديوم وتأخذ منه بعض خواصه وأهمها الإشعاع . وهنالك نوع من أصباغ الراديوم تدهن به مفاتيح الخطوط الكهربائية ، وذلك لأن المفتاح يولد كهربائية لا بأس بها كلما أدرناه ، كذلك تستعمل تلك الصبغة المنيرة في تغطية مينات الساعات أو بندول الساعات الكبيرة ، أو توضع فوق أوراق تلصق بزجاجات السم تنبيهاً للمقترب حتى يبتعد عن الخطر .

لا شك أنك تعجب كيف أن الراديوم ذلك المعدن النفيس يوضع فوق ميناء ساعة رخيصة الثمن لا تساوي في قيمتها أكثر من خمسين قرشاً . والحقيقة أن ميناء الساعات تغطى بطبقة من سلفات الزنك مضافاً إليها قليل جداً من الراديوم . إن قطعة بسيطة من الراديوم لا تزيد حجمها عن رأس الدبوس . إذا اختلطت بكمية كبيرة من سلفات الزنك تكفي لتغطية أوجه مئات الآلاف من الساعات . وإذا فحص الإنسان ميناء الساعة من خلال مجهر وجد جملة فرقعات صغيرة تحدث بالاستمرار بين الذرات ، وهذه الفرقعات تحدث بسرعة (٢٠٠ , ٠٠٠) مرة في الثانية . فوظيفة الراديوم هي توليد حركة فرقعات متوالية تشعل الزنك وتجعله ينير ، ويبقى الراديوم الذي في وجه الساعات باقياً بينما الزنك يبلى بعد سنوات ، وللراديوم منافع جليلة لبني البشر ، ففيه الشفاء من أمراض شتى كالسرطان ، وكذلك يشفي الأورام والخرّاجات ، وفي كل بلد كبير من بلدان العالم مستشفى به القليل جداً من الراديوم ، وربما لا يستعمل الطبيب في عمله قطعة تزيد في حجمها عن رأس الدبوس ، ومع ذلك ثمنها مئات من الجنيهات

أما تاريخ اكتشاف الراديوم فكله سلسلة طريفة من القصص المتتالية : ففي سنة ١٨٩٦م بينما كان العالم الفرنسي باكوريل يجري بعض تجاريه في بعض المعادن التي تضيء دون ارتفاع درجات حرارتها ؛ عرض لضوء الشمس معدناً يقال له بتشبلند وهو أحد أكاسيد الأورنيام غير النقية حتى اشتعلت من تلقاء نفسها ، وبعد ذلك درس أثر ذلك المعدن في الألواح الفوتوغرافية ، ولما كان اليوم الذي يجري فيه تجاريه مطيراً لذلك وضع اللوح الفوتوغرافي ووراءه الورق الحساس وعليه المعدن في مكان خفي حتى تصحو الشمس ، ولكنه دهش عندما رفع اللوح وشاهد تكوّن صورة أحسن من صورة الشمس ، وهكذا تمكن من اكتشاف مادة لها خواص الراديوم .

وبينما كان الأستاذ كوري وزوجته يجريان التجارب العلمية شاهدا أن معدن البتشبلند الذي كانا يستعملانه أقوى في تأثيره من الأورنيام، وعند ذلك أيضاً شاهدا هناك مادة أقوى أخرى غير الأورنيام هي التي يجريان عليها تجاربهما، وعندئذ أخذت مدام كوري تجد حتى تمكنت من فصل المادة الأخرى الغريبة التي يجريان عليها تجاربهما، وذلك أنهما كانا يشتريان فضلات مناجم الأورنيام ويغليانها حتى رأيا المعدن الجديد الذي سمته كوري بالبولنيوم نسبة إلى بولندا بلادها وموطنها.

وبعد إجراء عمليات أخرى أخذت تزيد في غلي الفضلات حتى تمكنت من استخلاص معدن الراديوم، ولاستخلاص الراديوم لا بد لنا من الحصول على معدن البتشبلند القليل الوجود، وهو لا يوجد إلا في النرويج ومصر وكارولينا الشمالية وكلورادو ومنطقة يوتا، ويمكن استخلاصه من عروق الذهب، وإذا أردنا الحصول على رطلين من الراديوم فلا بد لنا تكرير خمسة آلاف طن من البتشبلند، وإذا أردنا الحصول على قليل من الراديوم يعادل ملء قمع من أقماع الخياطة « كستبان » فلا بد لنا من تكرير ما يعادل حمل قاطرة من البتشبلند، وأن نعمل خمسة آلاف عملية مختلفة تستغرق ستة أشهر.

ولقد عرض العلماء أنواعاً من الحيوانات لشعاع الراديوم فنفضت شعرها وبصرها ثم ماتت بعد ذلك. وإذا زاد العلماء جزءاً من الراديوم على ثروة العلم الحاضرة فهم يزيدون بذلك ثروة جديدة على ثروات العالم، لأن الراديوم يستمر في إشعاع حرارته وضوئه مدة ستمائة سنة ثم تصبح قوته نصف ما كانت، وبعد ستمائة سنة أخرى تصبح الحرارة والنور ربع ما كانت، وهكذا بعد مضي عشرين ألف سنة يتحول كله إلى رصاص.

وبالراديوم يمكننا تحويل بعض المعادن إلى الأخرى كما يأمل بعض العلماء ذلك، وكما يرجونه في القريب العاجل. ولو أمكنهم الحصول على كل القوة الكامنة في الذرات لأمكنهم تحويل ما يريدون ولانقلب العلم رأساً على عقب.

وقد أدى اكتشاف الراديوم ودراسته إلى نظرية غريبة هي أن كل الذرات الموجودة الآن كانت أجراماً صغيرة جداً تسبح في المجموعة الشمسية حول القطب ولن يمكن فناؤها، وفقط تتغير من حالة إلى أخرى، وبخاصية التغير هذه من حالة لأخرى يوالي العلماء أبحاثهم حتى يغيروا ما بالأرض ويكشفوا أسرار الكون. انتهى ما جاء في مجلة « البلاغ الأسبوعي »، والحمد لله رب العالمين.

هاهو ذا الراديوم وهذه خواصه وعجائبه. يا سبحان الله ويا سعدانه. أليس من العجب أن أرواحنا جاءت إلى هذه الأرض وهي أشبه بالغريبة عنها. أرواح أرسلت إلى الأرض وهي لا تزال تتخبط مدى الدهور والأعوام فيها، لا تهتدي فيها سبيلاً ولا تجد لها طريقاً إلا بما أعطيت من موهبة العقل. جاءت أرواحنا إلى الأرض ولبست هذه الأجسام، نظرت فرأت في الأرض نباتاً وحيواناً ونظاماً جميلاً، ورأت أن للحيوان غرائز قد كفته السعي، فهو يعيش بقوانين لا عوج فيها ولا خلل، بل هو يسير منتظماً محفوظاً سعيداً موفر الرزق، أما نحن معاشر بني آدم فإننا أخذنا نتخبط في هذه الدنيا وطفقنا نشعر بالحاجة إلى التعلم والاهتداء بنور بصائرنا، فرجعنا إلى الكتاب الذي أمامنا فرأيناه كتاباً جميلاً مكتوباً بخط مجسم واضح فأخذنا نقرأه، وما هذا الكتاب إلا هذا الوجود، فقرأنا سطوراً

وسطوراً تعلمنا منها إيقاد النار والغزل والنسج والسفر في البحار في السفن، وهكذا من كل ما تقدم يعد بالعشرات في سورة « طه » عند آية : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠] فهناك تجد أن علوم بني آدم أولاً أخذوها عن الحيوانات، ولكن نحن أشرف منها وأعظم، والاهتداء بالحيوان وحده نقص لنا.

هنالك قيض الله من الناس قوماً منزلتهم فيهم منزلة الماس والياقوت والأسرب من المعادن. فهذه المعادن الثلاثة مسلطة على المعادن، بل هذه الثلاثة بعضها مسلط على بعض، فإن الأسرب الحقير هو ذو السلطان على أخويه المسلطين على البقية. أفلا ترى إذن أن أقص عليك ديانات الإنسان لتعلم منزلة دين الإسلام من ديانات الأمم. انظر تر أن دين البوذية الذي له السلطان على نحو ثلث أهل الأرض اليوم المنتشر في الهند الذي هو أقدم الديانات لم ينتشر إلا في البقعة التي جاء فيها، وليس له سلطان على أفريقيا ولا على أوروبا ولا على غربي آسيا. وتجد دين كونفسيوس الذي انتشر في الصين قبل المسيح بمئات السنين لم يتعد دائرة الصين واليابان وهو بمعزل عن الأقطار الأخرى. وتجد دين اليهودية قد حصره اليهود بين ظهرانيهم.

أفلا ترى أن هذه الديانات كلها أشبه بالمعادن المذكورة المسلطة على بقية المعادن بالقطع. فيا سبحان الله ويا سعدانه. انظر إلى دين الإسلام الذي نزل في جزيرة العرب التي اختارها الله لنزوله، لأنه يعلم أن أمم العرب أقرب للإخلاص لله. فهم مخلصون صادقون متى عرفوا الحقائق واقتنعوا بها. فهم لما نزل دين الإسلام وعلموا أنه رحمة للعالمين كلها طاروا في الأرض شرقاً وغرباً، فدخل هذا الدين على البوذية في ديارهم، وعلى أتباع كونفسيوس في عقر دارهم، وعلى أمة اليهود، فأسلم بعضهم، وعلى أمم النصارى أولئك الذين اتبعوا المسيح عليه السلام، وسارعوا إلى دين بوذا وإلى دين خريستا قبله في الهند فألصقوه بهذا الدين، وجاؤوا بالأب والابن وبالروح القدس، وجعلوا للتثليث المنقول عن دين الهنود قيمة دينية، وجعلوا لهم مبشرين متبعين البوذية التي ظهرت قبل المسيح بنحو خمسمائة سنة، ودين خريستا المنتشر قبل المسيح بما يقرب خمسة آلاف سنة. انظر هذا المقام في آخر سورة « المائدة » فإنك ترى ما في الأناجيل منقولاً عن دين بوذا وعن الدين الذي قبله بالحرف بلا تصرف ولا تعقل.

انتشر الإسلام في الأقطار ولا يزال ينتشر إلى الآن كما تقدم في سورة « العنكبوت » منقولاً عن علماء أوروبا وهناك للمسلمين ملوك عند خط الاستواء ولهم سياسات ونظم وجيوش وحفاظ للقرآن وعلماء وقضاة. لم يفعل فعل العرب أحد من الأمم في الأرض، لذلك اختارهم لنشر العلم في الأرض. هؤلاء نظروا. فماذا يجدون؟ يجدون الأمم ساكنة خاملة. بحثوا عن العلم لأنهم وجدوا الله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم آمراً له : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٩]، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الرعد: ١٩]. هنالك قالوا : لنبحث عن العلم، أما الدين فقد نشرناه، ولم يبق إلا العلوم والمعارف. والعلوم والمعارف إنما تكون بالعقول، والعقول كلها متضامنة.

وإذا كنا نجد الله يقول لنا: إن الغراب جاء معلماً لأبناء آدم كيف يوارون الأموات في قبورهم؛ وسمعناه يقول: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١]، سمعنا الله يقول: إن ابن آدم نادى بالويل والثبور على نفسه لأنه لم يتفطن لعلم عرفه هذا الغراب. هذا الغراب الذي هو حيوان خلق مقدمة وذخيرة لهذا الإنسان، فكيف يعرف المفضول ويجهل الفاضل؟ هذا عار، لذلك فعل ابن آدم فعل الغراب ووارى سوءة أخيه، عرف ذلك كله آباؤنا العرب منذ ١٣ قرناً فقالوا: لنبحث علوم الأول، وأي أمة أقرب لنا من اليونان، هذه الأمة التي حفظت علومها في خزائن ملوك النصرانية وحرموا قراءتها، فلنبعث تلك العلوم من خزائنها، هنالك أرسل أبو جعفر المنصور لملك الروم فأرسل له بعض الكتب الرياضية وغيرها، وهنالك أرسل المأمون لملك الروم أن يبعث له الكتب فأبى فحاربه، وبهذا انتشرت العلوم في الإسلام.

ثم ذهبت دولة العرب وحلت محلها أمم وأمم وتغيرت الأحوال وجاء قوم جهلاء فماذا صنعوا؟ حاربوا العلوم وقالوا: كفانا الوضوء والصلاة والإجارة والسلم والبيع وعقود الأنكحة والقضايا والدعاوى والطلاق، وهكذا مما دونه الفقهاء في كتب الفقه، وناموا نوماً عميقاً، فماذا تم بعد ذلك؟ أذن الله للعلم الذي نشره أولئك العرب أن ينتقل بحذافيره من بلاد الإسلام إلى أوروبا على أيدي تلامذة ابن رشد في الأندلس وقال الله: أيها العرب الأندلسيون، آباؤكم كانوا صالحين لحمل أمانتي.

أما أنتم فإنكم شعراء غزليون شهوانيون، فهاأنا ذا أخرجكم من الأندلس بعد أن أديتم وظيفتكم وهي نشر العلوم في أوروبا، لأن النبي العربي رحمة للعالمين، فرحمتي لكم بمحمد أنكم مؤمنون به، ورحمتي لأوروبا أن العلم الذي تسلمه آباؤكم من اليونان ينتشر على أيديكم في أوروبا وكفى، فاخرجوا من أوروبا فقد انتهى عملكم. كل ذلك تم في القرن السادس الهجري، وبعد ذلك تمزقت وحدة المسلمين في الأندلس وصاروا عشرين دولة، فالتهمتهم الأمم المسيحية ورجعوا بخفي حنين، ومات كثير منهم ورجع إلى بلاد الغرب منهم ألوف وألوف. هذا هو تاريخ العلم والدين.

انتشر العلم في ربوع أوروبا، وقد قلنا إن الذي أوصله لهم آباؤنا أولئك الذين صاروا في آخر أمرهم شعراء بدل أن يكونوا علماء، وكأن الله قال لهم: أيتها الأمم العربية، أنا أرسلت لكم رسولاً منكم لم يكن شاعراً بل كان نبياً، وأنزلت عليه ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]، وأنتم تركتم العلم واكتفيتم بالشعر ونبذتم الحكمة التي رقاها أسلافكم، فإنهم هذبوا علم اليونان ونشروه، فهاأنا ذا سأرفع هذا العلم منكم وأعطيه لقوم آخرين، فأما أنتم فإن ضياع أوقاتكم في مدح الملوك والغزل والمناظرة بين الورد والمطر وما أشبه ذلك من كل ما هو خيالي، فليس بعلم بل هو شعر، ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦]، وأنا أرسلت النبي العربي للعلم لا للشعر، ولم أسوِّ بين العالم والجاهل، هذا هو تاريخ أسلافنا وتاريخ ديانات الأمم إجمالاً مع العلوم.

يقول مؤلف هذا التفسير : فهاأنا ذا أحد أبناء حملة هذا الدين وهم العرب ، وقد جئت في زمن بين زمانين : زمن الخمول ، وزمن النهوض ، هاهي ذه روحي قد جاءت في هذه الأرض غريبة عنها كبقية الأرواح الأرضية ، وإنما قلت غريبة لأني أرى لها مطامح عالية ، وأرى هذه المطامح كلها يدل عليها العلم ويؤيدها الدين ، لأني أراها لا تقف عند حد فهي روح أرقى من أرواح هذه الحيوانات ولكني أراها روحاً مسكينة تتلمس العلم والمعرفة هنا وهناك ، وقد جاءت بين زمانين كما قلنا : زمان النهوض ، وزمان الخمول . لقد نظرت فرأت علوماً تنشر وعلماء في مصر وفي الشرق وفي الغرب . هنالك أخذت تقرأ تاريخ الأسلاف وتاريخ الإسلام ، ونظرت فهداها الله إلى هذا التفسير ، فعلي إذن أن أنظر في علوم الأمم التي جاءت بعد ذهاب مجد آبائنا العرب . هل زادوا في العلم شيئاً بعد ما تسلموه من آبائنا؟ فإذا رأيتهم زادوا شيئاً وجب علي أن أقول لقومي من العرب وغير العرب لأن النسب ليس له دخل في الإسلام بل الإسلام دين عام . فإذن أنا أخاطب كل عاقل ، لأن ديني هكذا شأنه ، فليس كدين اليهود الذي جعلوه خاصاً بهم ، ولا كالديانات الأخرى ، بل هو دين عام لجميع الأمم ، وعلى ذلك أخاطب كل الأمم فأقول : هاهو ذا العلم وقف حيث تسلمه الأوروبيون من تلاميذ ابن رشد ونام المسلمون نحو (٧) قرون ، هل زاد شيئاً؟ نظرنا فرأيناه زاد كثيراً ، فوجب علي إذن أن أدل الأمم الإسلامية على هذه الزيادة وأقول لهم : أيها المسلمون ، هذه بضاعتنا ردت إلينا ، بل إن الذين تسلموها من آبائنا قد زادوها ، والله يقول : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر : ٩] الخ ، فهاهو ذا سبحانه عبر بالفعل المضارع ، والفعل المضارع يقتضي التجدد بالقرائن ، كقوله تعالى : ﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾[التوبة : ١١٦] ، فالإحياء والإماتة تتجدد كل وقت ، هكذا العلم يتجدد كتجدد طلوع الشمس وغروبها في كل يوم ، إذن علينا أن نجدّ في العلوم دائماً لا أن نقف عند حد إطاعة لإشارة القرآن ، والله الذي له الملك وله السماوات والأرض لما نقل العلم عن آبائنا إلى أوروبا سخرهم له فزادوا فيه وجدّوا ، إذن فلنقرأ علومهم وإلا كان غيرنا أحسن منا في تلك العلوم لأنهم علماء ونحن جهلاء بها ، وهذه العلوم يأمر بها ديننا ويذم من يجهلها ، وفي هذا التفسير زهرات وثمرات من بساتين العلوم وحض على استكمالها .

أوَليس من العجب العجاب أن نرى القوم داوموا البحث في الراديوم حتى استخلصوه من البتشبلند؟ وأن مقدار ملء قمع من أقماع الخياطة « كستبان » يحتاج في تخليصه إلى قاطرة من البتشبلند وإلى خمسة آلاف عملية؟ فانظر إلى هذا الاجتهاد من أهل الغرب الذين أخذوا العلم عن آبائنا وزادوه وتعاونوا جميعاً على النهوض والارتقاء . وهاهنا أقول : أليس من العجب أن المقدار من الراديوم الذي لا يزيد عن مقدار ما يغطي رأس الدبوس يخلط بمقدار من سلفات الزنك فيغطي أوجه مئات آلاف من الساعات ، ونرى في أوجه هذه الساعات فرقعات صغيرات بين الذرات مسرعات في جريها (٢٠٠ ,٠٠٠) مرة في الثانية فتجعل الزنك كأنه ينير ، إذن هذا الراديوم أشبه بدين الإسلام لأنه جاء فملأ الكرة الأرضية ، فإذا كانت الديانات الأخرى قد دخلها التحريف من جهة ومن جهة أخرى أكثرها محصورة في أماكن خاصة ، فهاهنا هذا الدين انتشر في الكرة الأرضية وأصبح كالراديوم ينير

الأمم أينما حل ويحمل معه العلم، فالإسلام دين العلم وإن كان الحاملون له الآن أكثرهم جهلاء، الإسلام كالراديوم مجهول نوره، وسيستخرج العلوم التي أمر بها أناس من قراء هذا التفسير وأمثاله، كما استخرج «باكوريل» خواص الراديوم، وإذا كان دين الإسلام كالراديوم من حيث إنه انتشر في القارات كلها وليس ديناً منقولاً عن غيره ومن أكبر خواصه نشر العلم. والديانات الأخرى القديمة المبدلة منزلتها كمنزلة المعادن الأخرى التي صار الراديوم أرقى منها وله السلطان الأعظم عليها وعلى غيرها، فهكذا منزلة علماء الأمم في سائر العلوم كمنزلة المعادن، ومنزلة العلماء الذين لهم السلطان على العلوم كلها، بحيث يفكرون في النظام العام ويقرؤون العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية وينظرون في هذا الوجود نظرة عامة، منزلتهم من علماء العلوم الخاصة منزلة الراديوم من المعادن كلها، إذن العلماء الناظرون في هذا الوجود كله نظراً تفصيلياً هم القوامون على الشعوب في الأرض، وهم الذين يجددون البحث والتنقيب في هذه الأرض، والله يقول: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٩] بالفعل المقتضي للتجدد وقتاً بعد وقت كما يقوله علماء علم المعاني.

ثبت إذن أن العلماء الباحثين في هذا الوجود قليل ونادر، وإذا حكم الله عز وجل بأن لا نبي بعد خاتم النبيين، فهاهو ذا سبحانه يأمرنا بالبحث، وأشرف الباحثين هم الناظرون في هذا الوجود كله نظرة عامة، فهاأنا ذا الآن أيها المسلمون في الفصل الثاني الآتي بعد هذا سأنقل ما ذكره أكبر عالم في ألمانيا وهو «كنت» في علم التربية قياماً بحق أمانة العلم التي سلمها الله لآبائنا بالوحي أولاً وبالنقل عن العلماء ثانياً. فإذا نقلنا علم الأمم الأوروبية ثانياً إلى لغتنا العربية فمعنى هذا أننا نتسلم العلم من القوم كما تسلموه من آبائنا.

هاأنا ذا أيها المسلمون نظرت بعد مئات من السنين في العلوم التي نقلها الفرنجة عن آبائنا، وهاأنا ذا نقلت وأنقل بعضها، وهاهو ذا القرآن يحضكم على العلم والتعليم، فهاأنا ذا أقول لكم أنكم ستقرؤون علوم القوم، ولا بد من أن تستوعبوها نقلاً وفهماً. ثم لتقوموا برقي الأمم كرة أخرى. أنتم يا أمة الإسلام عليكم النهضة الحديثة التي ستكون بعد مغادرتنا هذه الدار، ستكونون أنتم: ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، ذلك أنكم بعد أن تستوعبوا علوم أمم أوروبا وأمريكا ستقولون: إن القوم لم يفعلوا شيئاً، نعم حصل بعض الارتقاء المادي الضعيف ولكننا لا نزال نرى الإنسانية في حال طفوليتها، فواسوأتاه، نبينا رحمة للعالمين، فلنكن نحن رحمة للعالمين وإلا فكيف نكون أتباعه، نحن رأينا الأمم اليوم أشبه بالنساء النادبات، يموت الميت فيشققن الجيوب ويلطمن الخدود، هكذا هذه الإنسانية الجاهلة لم نجد لها رقياً، وهل هذه العلوم هي الرقي؟ كلا. هانحن أولاء نرى الحشرات تفتك بالزرع فيقل المحصول ويهلك من الأمة المصرية وحدها في السنة نحو (٧) مليون جنيه بسبب الحشرات، فما بالنا بالأمم الأخرى؟وهكذا نرى الغابات في خط الاستواء لو استولى عليها النوع الإنساني وأخضعها له لأصبح الإنسان غير الإنسان اليوم، والأرض لا تزال مستعصية على الناس، فترك الناس هذا كله ورجعوا يتحاربون ويتقاتلون جهالة ونذالة وخسة، فهم لا يعدون في التشبه عن النساء النادبات، فإن الناس أشبه بجسم واحد تضرب الإنسانية بعضها ببعضها، ولو كان

فيهم حكماء وعلماء أحسن من هؤلاء لعلموهم أن الإنسانية كلها إذا ولت وجهها وجهة الطبيعة لحازت قصب السبق في السعادة، ولكان الإنسان أرقى من الحيوان الذي جعل مقدمة له وخادماً، فهو الآن لم يرتق عن النمل الذي يحارب بعضه بعضاً لقلة علومه ومعارفه.

ثم يقول المسلمون بعدنا: نحن أتباع نبينا صلى الله عليه وسلم وهو رحمة للعالمين، فلنقرأ علوم أوروبا وأمريكا ثم يأتي جيل آخر ويكون قد قرأ أمثال هذا التفسير، فيقولون: أيتها الإنسانية تعالي انظري معنا، ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، لننظر في الطبيعة، أليست مشتركة بين الأمم، قوموا فلنحاربها معاً ولنخضعها، وهناك تكون لنا سعادة لم يحلم بها آباؤنا، هنالك يأتي اليوم الذي أخبر به القرآن وهو اليوم الذي تعم فيه العلوم والمعارف سائر الأمم، ويذهب الحرب ويحصل السلم، ويذهب من الأرض ذلك الوصف القبيح وهو الدجل وادعاء المسيحية، وليس في الأرض الآن مسيحية، لأن المسيحية الحقة هي التي تمنع الحرب، والذين قالوا إنا نصارى اليوم يحاربون، إذن هم ليسوا أتباع المسيح. إذن هؤلاء الذين وردوا في الحديث أنهم أتباع المسيح الدجال الكاذب. والإسلام في المستقبل هو الذي يعلم الأمم هيئة السلام العام بالعلم والحكمة وانتشار الفضيلة. فالمسيحية الآن دجل وكذب لأنها مصحوبة بالحرب، ولا حرب في المسيحية، فأين هي اليوم إذن؟ والإسلام سيعلن الحقيقة ويقول: أيها المسيحيون، ارموا السلاح واقرؤوا العلم معنا، فلتخضع الطبيعة لنا لأن الله جعل لنا السلطان عليها، فمدوا أيديكم للتعاون على السلام العام وستتحد الأمم بعدنا على ذلك.

وليس يعمم ذلك إلا رجال مصلحون هم خيرة الأمم، ونسبتهم إلى العلماء بالعلوم الخاصة كنسبة الراديوم إلى بقية المعادن. إذا عرفت ذلك أيها الذكي فلأسمعك ما وعدت بنشره من آراء «كنت» الألماني فأقول:

الفصل الثاني: من المقام الأول
فيما قاله الفيلسوف «كنت» الألماني في كتاب التربية

اعلم أن هذا الكتاب المسمى «كنت في التعليم» قد ترجم من الألمانية إلى الإنجليزية بواسطة «انيت تشرتون» وقد وضعت له المقدمة السيدة «رايزدافيدس»، والكتاب مشتمل على مقدمة وخمسة فصول، المقدمة في النظام العام في التعليم وموازنة تعليم الإنسان بغرائز الحيوان، وكيف كان للحيوان غريزة استغنى بها عن التعليم، والإنسان محتاج إليه، وكيف يربى الأطفال والتلاميذ وهكذا.

الفصل الأول: في التعليم الجسمي الطبيعي ونظام الأطفال في الرضاعة والنظافة والملابس وما أشبه ذلك. الفصل الثاني: في تعليم العلوم. الفصل الثالث: في إخصاب هذه العقول الإنسانية بالعلوم وتحليتها بالبحث والتنقيب وإعطاء الشبان حرية البحث واستخراج المجهولات بما عرفوه في الفصل الأول بالتلقين. الفصل الرابع: في الأخلاق العامة لنوع الإنسان والتهذيب. الفصل الخامس: في مزاولة الإنسان أعماله ومعاملته للناس في الحياة، وذلك يشمل رحمته للإنسانية العامة وأعماله الخاصة في نفسه، واستنتاجه هو نفسه ببصيرته، وبالجملة كل ما يدخل في دائرة أخلاقه في نفسه ومع غيره،

فلنقتصر في هذا المقام على ترجمة المقدمة لأنها جامعة لمقاصد المؤلف إيفاء لبعض معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٩] ولقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ٣-٥]. ابتدأ المؤلف مقدمته قائلاً:

(١) الإنسان هو الذي يحتاج للتربية دون غيره، إن التربية تشمل: (أ) تربية الأطفال في المهود بالعناية الخاصة والتغذية. (ب) والتهذيب بمنع الطفل مما يضره. (جـ) وتلقيه العلوم. فهو طفلاً يحتاج إلى الحضانة، وغلاماً يحتاج إلى مراقبة أخلاقه وتهذيبه، وتلميذاً يحتاج إلى التعليم.

(٢) إن الحيوان قد أعطي غريزة أغنته عن التعليم فقد سنت سنن لا عوج فيها. أفليس من العجب العجاب مثلاً أن أفراخ الخطاطيف عند خروجها من البيضة وهي لا تزال مغمضة الأعين لم تر النور تراهن يحترسن غاية الاحتراس من أن يدنسن أعشاشهن. إذن الحيوان ليس في حاجة إلى حضانة تقوم بأمره، وغاية الأمر أنه يعطى الغذاء والدفء وبعض العناية بالمحافظة عليه. إن أكثر الحيوان في حاجة إلى الغذاء أما الحضانة فلا. إن الحضانة تشمل شدة العناية بلطف والحيطة الشديدة التي يقوم بها الوالدان محافظة على الأبناء، كأن يحمياهم من مزاولة أعمال تضرّ بهم، فهذا كله لا حاجة لصغار الحيوان به. ألا ترى أن صغار الحيوانات المولودة حديثاً لو أنها رفعت أصواتها بالبكاء كما يفعل صغار الإنسان لسارعت إليها الحيوانات المفترسة المحيطة بها وافترستها ساعة ولادتها.

(٣و٤و٥) إن التهذيب يقلب ما فينا من أخلاق حيوانية إلى أخلاق إنسانية. والحيوان بما منح من الغرائز لا يعوزه التمييز والاختيار. فهناك قوة أخرى دبرت له ما يحتاجه. أما الإنسان فهو الذي لا تقوم له قائمة إلا بتدبيره هو وعنايته. ولما كانت العناية لم تمنحه غريزة وجب عليه أن يجدّ في كل ما يزاوله ويفكر فيه بعقله. ولما كان الإنسان في أول نشأته لا علم له بما يحتاج إليه هناك قيض له أمثاله من الناس فعلموه ما يحتاجه. وليست خصائص الإنسان تأتي له فجأة بلا ترتيب ولا تعقيب، بل تظهر فيه تدريجاً شيئاً فشيئاً، ولكن ذلك أولاً بإدراك بصيرته، وثانياً بجده واجتهاده هو لا بالغرائز كالحيوان. وبعد التهذيب وتحسين الخلق يكون تعليم العلم. ولو أننا عكسنا القضية فبادرنا بالتعليم ثم أخرنا التهذيب لرجع الإنسان في آخر أمره إلى الحال الوحشية التي منها نفرّ كل حين. إلا أن التهذيب هو الذي يمنع المرء من رجوعه من حالة الإنسانية التي هي نهايته إلى الأخلاق البهيمية التي فرّ منها. بالتهذيب يحفظ المرء من الاندفاع في سبل الشر ومواقف الخطر والوحشية، والتهذيب أمر سلبي لا إيجابي لأنه يهدي الإنسان إلى أن تكون أعماله نظامية قانونية. فأما القسم الإيجابي في التربية فهو تلقين العلوم ودرسها وفهمها. إذن التهذيب منع فهو سلبي، والتعليم تلقين فهو إيجابي لا سلبي. أولهما نهي وثانيهما أمر. وأولهما تخلية وثانيهما تحلية. بالتهذيب يكون ضبط العواطف وسموّ الأخلاق. وذلك يجب أن يكون مبدأ الحياة. يرسل الصبي للمدرسة فليكن أول ما يفاجأ به من الأعمال تنظيم جلوسه ومشيه. يؤمر فيأتمر لا غير، ولا تبين له الأسباب لأنه لا يفهمها، بل يكون ذلك أمراً عملياً. هاهنا قيدنا حريته وأحطناه بقوانين، فإذا لم نفعل معه ذلك وشبّ وشاب وهو لم يعتد تقييد تلك الحرية بقوانين فإنه بعد فوات زمن الصبا لا يعدل بها شيئا ولا يمتثل لما ينصح به، وترسخ في

الناس عوائدها فلا تهذيب ولا تأديب، وهل يهذّب الذيب. لذلك تجب المسارعة إلى التهذيب من أول الحياة حتى لا يستعصي أمرها إذا كبر الإنسان، فلتصقل تلك الخشونة التي في الطباع بصقال التهذيب والتأديب، الأطفال يعوزهم حالان: حال التربية الجسمية، وحال التربية العقلية. فحال التربية الجسمية بالحضانة في حال الطفولة، وحال التربية العقلية بسبيلين اثنين: تهذيب النفوس وهذا سلبي، وإصلاح العقول وتكميلها بالعلوم والمعارف وهذا إيجابي.

(٦) إن صغار الحيوان لا تتعلم شيئاً كما يتعلم صغار الإنسان، اللهم إلا أن الطيور تعلم صغارها كيف تقلد أمهاتها في أصواتها الخاصة بها، إذ تقف الصغار حول أمهن مصطفات اصطفاف التلاميذ في المدرسة وتسمعهن نغماتها الخاصة بأبناء نوعها، وهن يقلدنها بحناجرهن الصغيرة حذو القذة بالقذة، فالتعليم لم يكن عند حيوان غير الإنسان إلا الطيور، فإنها هي التي تعلم صغارها أصواتها، بل لو أننا رفعنا نصف بيض عصفور الكناري المعروف ووضعنا بدل ما رفعناه منه بيضاً لعصفور دوري ثم فقس البيض كله وأخذ الكناري يغني بصوته الخاص فإننا نسمع مما خرج من بيض العصفور الدوري صوت الكناري المغني لا صوت الدوري، فدل ذلك على أن الطيور تتلقى الصوت بالتعليم، فهي كالإنسان يكمله التعليم، ومن المعروف أن الإنسان إنما يعلمه إنسان مثله، والذي يعلمه قد استكمل التعليم من قبل فلذلك استحق أن يعلمه، وكم من المعلمين من هم في حاجة إلى تهذيب نفوسهم وإكمال تعليمهم حتى يصلحوا أن يعلموا تلاميذهم، ولو أن عالماً آخر أعلى من هذا الإنسان علمه لعرفنا اليوم من هذا الإنسان، نحن الآن لا يسعنا تقدير هذه الإنسانية ولا معرفة قواها، وكيف يتسنى لنا معرفة ذلك ونحن لا نزال نرى صفات بارزة فيه واضحة أزالها التهذيب، وصفات أخرى مختفية أبرزتها التربية والعليم.

(٧) لو أن ذوي المنازل الرفيعة من الأمراء والملوك ومن نحا نحوهم تعاونوا مع ذوي المواهب العالية من الشعوب وأخذوا في ترقية الإنسانية معاً لأمكننا بهذه الطريقة القويمة أن نخبر عن مواهب هذا الإنسان وإلى أي حد يصل في ارتقاء مواهبه، ولكن مما لا يسع العاقل العادي أن يجهله، ويجدر بالحكيم المغرم برقي الإنسانية أن يعرفه، أن يقول: إن ذوي المقامات الرفيعة من الملوك والأمراء لا يهتمون بأمر الشعوب ولا الإنسانية العامة إلا بمقدار ما يسمو به سلطانهم، وترتفع به في الناس أقدارهم، فأما سعيهم لارتقاء الإنسانية درجة أو درجات لتقرب من الكمال، فذلك ليس يعنيهم ولا يهتمون به.

(٨) ليس من الناس أحد بلغ درجة التعقل والتبصر والتمييز بعد أن أهمل ذووه تعليمه في الصغر إلا أخذ يسأل نفسه قائلاً: أهذا الخلل جاء من نقص التهذيب أم من نقص التعليم؟ وهذان تشملهما التربية العامة. إن الرجل الذي لم يعلم يعدّ رجلاً غير ناضج فهو نيء وغير متقن، وأما الرجل الذي لا تهذيب عنده فهو غير منظم الحياة ولا موزون.

(٩) إن النقص الحاصل من إهمال التهذيب أشد وطأة وأضر بالإنسان من نقص التعليم، فإن العلم يمكن تداركه في الكبر، أما التهذيب وتحسين الخلق فهيهات هيهات أن يصلح شأنه بعد فوات فرصته في الصغر، إن الخطأ في تهذيب الطفل لن يصلح أمد الحياة.

(١٠) وعلى كل جيل أن يخطو في التهذيب والتعليم خطوة إلى الأمام ويسلمها للجيل الذي بعده، وهنالك ترتقي الإنسانية شيئاً فشيئاً جيلاً فجيلاً وتقترب من كمالها خطوة خطوة، إذ لا سبيل لبلوغ الإنسانية غايتها إلا بوسائل التربية والتعليم، ولا جرم أن هناك أمراً جديراً بالذكر وهو هذا السؤال: ما الذي تستفيده الإنسانية من دوام التعليم وارتقاء الإنسانية فيه جيلاً فجيلاً؟ وجوابه بيّن واضح، وهو: أن ارتقاء التعليم يوجب ظهور المواهب الكامنة في الإنسان واستكمالها، وهذا يجعل الإنسان أسعد حالاً وأنعم بالاً مما هو الآن، إن ما ننتظره من رقي القوى الإنسانية بكمال التعليم أمر جليل القدر عظيم المنزلة.

(١١) لنجعل نصب أعيننا هذه الفكرة ونقدر في أنفسنا أن هذه الإنسانية لا بد من ارتقائها، فإذا فعلنا ذلك أمكننا السير في هذه السبيل، أما إذا يئسنا من هذه الفكرة مدعين أننا لن ننالها لأننا لم نزاولها فذلك يبعدنا عنها مراحل، كما إذا فكرنا في أمر الحكومة وبحثنا عن هيئة الحكومة العادلة التي لا خطأ في أحكامها فقلنا لا سبيل إليها لأننا لم نزاولها.

(١٢) فلنجعل نصب أعيننا فكرة رقي الإنسانية ونحققها في أنفسنا ضاربين صفحاً عما أمامنا من العقبات الصادّة عن إتمام غاياتنا في ذلك، وإذن يكون تحقيقها ممكناً، ولا تحقيق لعمل إلا بعد إنضاج الفكر فيه والاقتناع بها.

إن التعليم في أيامنا الحاضرة لا يؤدي إلى رقي الإنسانية، وكيف يؤدي إليها والأمم مختلفون في الطرق التي يسلكونها. فما الذي يجمعهم إذن؟ فليكن اتحاد عام للتعليم. فهذا الاتحاد هو الذي يحدث في الإنسانية طبيعة جديدة، فلنعمل لتحقيق تلك الفكرة بالتعليم ويسلمها الجيل المتعلم إلى الجيل الذي بعده ليقترب كل جيل من الغاية العالية شيئاً فشيئاً، حتى تتحقق الآمال بالتدريج وهنالك تكون سعادة الإنسانية. ولأضرب لك مثلاً نباتاً يسمى «أريكيولا» إذا نبت بطريق بذره وحرثه وسقيه خرجت أزهاره ذات ألوان بديعات جميلات، فأما إذا بقيت جذوره للعام المقبل ونبتت شجيرات عليه فإن أزهاره لا تكون إلا ذات لون واحد، وتذهب منها تلك المحاسن والبهجة والزخرف والنضارة والرقش والتزويق التي كانت في زهرات العام الماضي. لماذا هذا؟ لأن النضارة والبهجة الكامنتين في النبات خبئت في البذرة فبرزت. أما الجذور الباقية فيما بعد فقد خلت من أكثر المحاسن. هكذا الإنسان، فإن لم يكن التعليم مستمر الرقي والإبداع فيه فإن ثمراته تكون ضئيلة ضعيفة لا تشفي من علة ولا تروي من غلة ولا تدفع عاراً ولا تطفئ ناراً.

كم في الإنسان من مزايا مخبوءة في جبلته لم تبرز للوجود، فعلينا نحن أن نجعل هذه الأصول الصالحة تظهر وتنمو حتى تصل بالإنسان إلى غايته المنتظرة. أما الحيوان فقد وصل إلى غايته واستكمل قوته التي لا قوة وراءها بلا روية ولا فكر. والإنسان عليه أن يجدّ ليصل لغايته، ولن يصل إلى ذلك إذا لم يضع الفكرة نصب عينيه، لأن أول الفكر آخر العمل. وبدون الجهاد الفردي لن تتم للإنسان غايته. فلنتصور والدين كملت أخلاقهما واستكملا مواهبهما وجعلا أنفسهما مثلاً لأبنائهما. فاتبع الأبناء الوالدين اتباعاً تقليدياً بلا روية ولا تعقل ولا بصيرة، فإن هذه الذرية تظهر بعض مواهبها لا

جميعها وذلك بمجرد التقليد. إن الناس في الأزمنة الحالية والقرون الماضية لم تكن لهم فكرة ثاقبة لترقي الإنسانية العامة. بل حتى الآن في أيامنا هذه لا نجد رأياً ثابتاً لهذا الغرض العام. إن الحق الصراح يقضي أن الجهاد الفردي لبلوغ الغاية الإنسانية هو السبيل الموصل لها، وبدون الجهاد الفردي لا نجاح في الوصول إليها بل لا تكفي أفراد قليلة. فليعمل كل فرد في الناس لهذه الغاية. إن الإنسانية العامة لا سعادة لها إلا بسعي جميع أفرادها في استكمال مواهبها.

هذه هي الحقيقة التي لا مراء فيها. إن التعليم صناعة ولا يتم كمالها إلا بجهاد أمم كثيرة فيها. وكل جيل يهب تجاربه ومعارفه إلى الجيل الذي بعده ليقترب من الكمال واستنبات بذوره الكامنة حتى يقترب من الغاية المنشودة. بهذه الوسيلة يتقدم النوع الإنساني نحو نصيبه من الكمال.

إن العناية المدبرة للإنسان قد أرادت منه أن يستخرج بنفسه من نفسه المزايا الشريفة التي كمنت في جبلته، وخاطبته تلك العناية قائلة له: أيها الإنسان، أنت على نفسك بصيرة ولو ألقيت إلينا معاذيرك، نحن منحناك كل موهبة وأعطيناك أصول الرقي الموصلة إلى غاية السعادة، فأما استكمال تلك المواهب واستخراج تلك الفضائل واستنبات تلك البذور فذلك عليك أنت، هكذا عليك قضينا أن سعادتك وشقاءك متوقفان عليك أنت وحدك.

إن العناية بذلت للإنسان بذور السعادة لا نفس السعادة، وعلى الإنسان أن ينمي تلك البذور الكامنة فيه، فهي لم تضع فيه نفس السعادة بل مقدماتها، ولم تحطها بغريزة تستكمل نموها بخواص الغريزة، فالواجب على الإنسان أن ينمي تلك البذور وينمي صفاته العقلية، وإذا أحس بالضلال في سيره فليهتد إلى طريق الصواب بقوانين الآداب العامة، وهاهنا تثور مشكلة يصعب حلها ويشكل فهمها، ذلك أننا إذا قلنا: إن الإنسان لا يصل إلى الكمال إلا بالتعليم؛ ولكن التعليم إنما يكون بالفطنة والبصيرة، والفطنة والبصيرة يتوقفان على التعليم؛ إذن صارت المسألة فيها الدور، والدور محال، فالتعليم متوقف على البصيرة، والبصيرة متوقفة على التعليم. فالشيء متوقف على نفسه وهو محال. ولكن هذا الإشكال يزول متى عرفنا أن كل جيل من الأجيال يحمل علم الجيل الذي قبله ويزيده شيئاً يسيراً من جهاده الخاص ويوصله للجيل الذي بعده، وبهذا زال الإشكال، لأن ارتقاء الدرجات ارتقاء بطيء تدريجي لا فجائي حتى يرد هذا الإشكال. فكل جيل يزيد على ما ورثه مما قبله قليلاً قبل أن يسلمه لمن بعده. فلعمري ما أوسع التعليم وما أكثر التجارب التي تضمنتها هذه السبيل التي شرحناها والطريق التي أبناها. وهل هي شيء غير تبيان إلا مكان فقط، أما الوصول إليها وتحقيقها فإنا لم نصل إليه بعد.

وهاهنا تثار مشكلة أخرى فيسأل هذا السؤال: هل نحن في جهادنا الفردي نسلك السبيل التي سيسلكها النوع الإنساني جميعه في أجياله المتتابعة؟ ولا جواب على هذا الإشكال إلا بالحيرة بأن نقول: نعم هنا مشكلتان كل منهما أصعب من الأخرى حلًّا وهما: صناعة الحكومة. وصناعة التعليم. والناس متنازعون في تحقيق معناهما. ولكن المدنية الحالية التي وصل إليها الإنسان هي التي تمكنه من أن يتصور إمكان الوصول إلى الغاية المنشودة التي نحثّ عليها، وليس في الإمكان أن تخطر هذه

الفكرة العالية في عقول الأمم أثناء وحشيتها. وعلى ذلك يعسر علينا أن نفهم كيف كان الإنسان الأول. إن السجلات القديمة والكتب الموروثة تدلنا على أن أرقى الأمم المتمدينة الآن كان آباؤهم ذوي صفات وحشية بربرية. فكم من أنواع الجهاد ابتدعوا، وكم من سبل سنوها حتى وصلوا بجدهم إلى مجرد القراءة. فهكذا نقول مع هذه الأمم الراقية بالنسبة للكمال المنشود الذي كلامنا فيه.

إن الإنسان حينما ابتدع صناعة الكتابة قديماً استحق أن يقال له إنه ابتدأ يعيش في الدنيا. إن الإنسان وهو يجاهد لاستخراج مواهبه المخبوءة فيه بالعناية المطلوبة وجده واجتهاده بنفسه يكون التعليم صناعة، فإذا استكمل الإنسان مواهبه في المستقبل فإن التعليم يكون أشبه بطبيعة ثانية لا صناعة، والعناية القدسية لم تضع فيه غريزة لهذا الغرض المطلوب.

ليس يمكن الإنسان أن ينال غاية مآربه واستكمال قواه بالتعليم التقليدي بلا بصيرة ولا فكرة ولا تعقل وتمييز. فبذور الكمال المخبوءة في الإنسان ومحاولة استخراجها بصناعة التعليم يكونان إذن أمرين متشابهين متحدين في أنهما لا بصيرة فيهما ولا كتاب منير. إن كل تعليم تقليدي بلا بصيرة ولا فكرة تستقر في ثناياه أنواع من الخطأ، لأنها تعاليم لا أساس لها ولا قانون تسير على مقتضاه. فلا رقي لنوع الإنسان إلا بالتعليم المبني على البصيرة والتعقل، لا أن يكون الأستاذ كالآلة المتحركة على مثال غيره. بهذا وحده يمكن ارتقاء نوع الإنسان واستخراج جميع مواهبه، تعليم الآباء للأبناء يكون بالقدوة والتقليد فيما يفعلون، فإذا نجح الأطفال في تقليد الآباء فإنه لا بد من الدراسة والتعليم ليميزوا الخبيث من الطيب بالتعقل والبصيرة. والذي يتعلم بلا بصيرة تعليماً آلياً ليس يفعل شيئاً إلا أنه يعطي الخطأ الذي استحوذ عليه وأنواع الغلط لتلاميذه ويكررها لهم كما وعاها.

إن الأصول التي يجب أن يكون عليها التعليم في المستقبل هي أن يضع المعلمون أمام أعينهم هذه الغاية، وهي أن التعليم لا يقصد منه الوقت الحاضر فقط بل يقصد منه أيضاً ارتقاء الإنسانية العامة في المستقبل واستخراج قوى كل فرد. تلك الطريقة التي تتخذ في فكرة الإنسانية العامة ووصولها إلى نهاية مستواها الرفيع، وهذه القاعدة تستحق العناية والاهتمام. إن الآباء يحتذون في تعليم أبنائهم المثال الذي يختطونه هم لأنفسهم، ولا يالون بالخير في المستقبل للعالم أيكون صالحاً أم يكون فاسداً، ولكنهم أجدر أن يذكروا الأبناء بالخير العام لنوع الإنسان في المستقبل، ولكن هاهنا تقابل مسألتين عويصتين: الآباء يربون الأبناء على ما يريدان من الحياة المعتادة. والأمراء والملوك يربونهم لأجل ممالكهم وبقاء سلطانهم. فهاهنا عاملان يتعاونان على حصر عقول الأبناء في خطة محدودة. أما الرقي الإنساني فلا نظر فيه لا للآباء ولا للأمراء. فالآباء غايتهم منازلهم والملوك غايتهم ممالكهم. فلا هؤلاء ولا هؤلاء موجهو هممهم إلى غاية الإنسانية العامة النافعة ولا إلى استكمال قوى الفرد الكامنة فيه التي يسعى إليها ويسعد لها بفطرته. فليكن التعليم مؤسساً على فكرة استكمال قوى الإنسان. وهنا يرد سؤال فيقال: إن التعليم بقصد ارتقاء الإنسانية ضار بالأفراد، لأن العناية بالعموم تلهي عن العناية بأمر الإنسان ومنزله، وهذا القول مردود على صاحبه، فإنه ـ وإن ظهر في بادئ الرأي أن قصد الفرد المنفعة العامة ضار بمصالحه الخاصة فهو يضحي بعضها لأجل المصلحة العامة بسبب هذه الفكرة ـ فإن

الرقي النفسي إذ ذاك حسن في ذاته ونافع أيضاً في أعماله الحالية الفردية فضلاً عن العامة. وكم من الفوائد العوائد على المرء بهذه السبيل. إنه بالتعليم العام تظهر المواهب الفاضلة الكامنة في الإنسان. وبذور الرقي يعوزها أن تظهر شيئاً فشيئاً، لأن الشرور وأخلاق السوء لم تخلق في طبيعة الإنسان، وهل الشر إلا نتيجة إهمال الطبائع الإنسانية وعدم قيادتها وحكمها حكماً لا هوادة فيه. ليس في الإنسان إلا قوى الخير. من هو الذي يعلم نوع الإنسان أحسن سبل هذه الحياة لإتمام سعادته. أهم الملوك أم هم الشعوب؟ إن الذي يعلمه هم نفس الشعوب. هم الذين يتقدمون إلى الكمال عن رغبة منهم واجتهاد فيصلون إلى نصف طريق الكمال، والملوك ينون بعد ذلك تعليمهم على ذلك ويثبتونه ويوطدونه، أما الأمراء فليس يحسن الاعتماد عليهم في تعليم الأمم، ذلك لأنه يعوزهم التثقيف والتهذيب في تعليمهم الأول. فكم يقاسون من مصاعب ومشاق في أعمالهم، وذلك نتيجة ما كان من خطأ في إبان تعليمهم، إذ هم لا يجدون في صباهم من ينهاهم عن شر أو يبعدهم عن ذنب، فكبروا وهم مغرورون، فلذلك يقاسون شدائد ومحناً لا يستطيعون الصبر عليها، فكيف يوكل لهم أمر تعليم الأمم. إن الشجرة التي تكون في حقل منفرد تنمو وهي معوجة ناشرة أغصانها باتساع ذات اليمين وذات الشمال، بينما الشجرة التي في وسط أشجار أخرى في غابة تنمو بضغط ما حولها عليها طولاً لا عرضاً مستقيمة لا معوجة تبحث عن الهواء وضوء الشمس من أعلى. هكذا تكون حال هؤلاء الأمراء. وعلى كل حال يجدر بهؤلاء أن يتعلموا مع أبناء شعوبهم، فذلك خير لهم من أن يتعلموا وحدهم، ذلك ليبلوا حلو العيش ومرّه. نعم نحن ننتظر الخير في التعليم العام من هؤلاء الأمراء فقط إذا كان تعليمهم أعلى من تعليم شعوبهم. إذن التعليم العام سياجه نفس الشعوب في جهادهم الخاص. فلا يصلح الأمراء أن يتكل الناس على مساعدتهم كثيراً كما يزعمه «باسيدو» وآخرون غيره، لأننا وجدنا بالتجربة أن هؤلاء لا ينظرون للإصلاح العام في التعليم كما ينظرون إلى إصلاح ممالكهم، وهم لا يريدون إلا الغاية التي يقصدونها في تلك الممالك. نعم هؤلاء ينفقون إذا كانت غاية إنفاقهم جر المنفعة إلى خزائن حكوماتهم، بل المجامع العلمية العالية «رجال الأكاديمي» لا يعيرون خير الإنسانية العام التفاتة وربما يفعلون ذلك في المستقبل، أما الآن فإنه قليل.

إن إدارة المدارس يجب أن يكون اعتمادها إذن على حكم ذوي الاختبار البارعين الماهرين من الحكماء، إذ يقولون: التعليم يجب أن يقوم بالجهاد الفردي أولاً وكامل التعليم يفيض على غيره بالتدريج. وبعبارة أصح: ليقم التعليم على جهاد أبطال العالم في العلم الذين لهم نظر ثاقب واسع ويجدون لذة في التثقيف العام للأمم، وهم متصفون بمسرة ولذة لا حد لها بالرأي المؤدي إلى أحسن الأمور في المستقبل، وهو أن النجاح المستمر للطبيعة الإنسانية نحو غرضها السامي أمر يمكن حصوله.

فهل بعد هذا نعتمد على الأمراء الذين ينظرون إلى رجال أممهم كأنهم قطعان من الأنعام في ضمن ممالكهم. وجلّ قصدهم إذا فعلوا خيراً عاماً أن يعلنوا الدعاية لأنفسهم أنهم يريدون خير الإنسانية، وهم إذا أرادوا تثقيف شعوبهم فلن يكون ذلك إلا لحاجة في نفس يعقوب قضاها، فهم لا يعلمون الشعوب إلا على نموذج ما يقصدونه هم أنفسهم لغاية يريدونها.

إذن فليكن التعليم أولاً بجهاد أفراد الأمم أنفسهم، وليجدّوا فيه على مقدار استعدادهم هم لا إرادات ملوكهم، ولكن عليهم مع هذا أن يجعلوا نصب أعينهم الخير العام وارتقاء الأمم، فلا نجتزئ بأن نجعل الأمم ذات نشاط في أعمالها، بل يجي أن نحمل الناس على الكمال الأدبي، وليجدّوا حتى يكون النسل المقبل خيراً من الجيل الحاضر في علومه ومعارفه وآدابه. وهاهنا أخذ يبين في الفصل الثامن عشر ملخص ما تقدم. أولاً أن التربية تشمل:

(١) تهذيب النفوس بمنعها من الشرور.

(٢) وتثقيف العقول بالمعارف.

(٣) وازدياد البصيرة والتعقل بما اكتسبه الناس من العلوم، ومعاملة كل امرئ بما يناسب عوائده.

(٤) وإعمال البصيرة في الغاية المطلوبة لكل امرئ بحسبه.

وأخذ في الفصل التاسع عشر يبين أن القسم الرابع وهو التعليم الأدبي العام متروك لا ينظر إليه الناس كثيراً، فعلى الأساتذة أن يبينوا للأطفال في إبان صباهم أن الرذيلة في نفسها ممقوتة مكروهة منبوذة، ولا يكتفون بقولهم بأن الله حرمها، كلا. بل هي في نفسها ممقوتة لذلك حرمها الله.

وأخذ في الفصل العشرين يبين أن التمرين العملي في المدارس لا بد منه، لأن ذلك مقدمة للتمرين في أمور الحياة العامة في المنزل وفي السياحة.

وأخذ في الفصل الحادي والعشرين يبين أن التربية تشتمل كما تقدم على عناية الوالدين أولاً، وعناية المدرسين ثانياً، وعلى الهداية في أعمال الحياة ثالثاً، في تهذيب الناس وفي نظام الأسرة ونظام السياسة العامة.

وفي الفصل الثاني والعشرين يقول: إن التعليم إما عام وإما خاص. وأطال في ذلك.

وفي الفصل الثالث والعشرين يقول: إن التعليم العام مكمل للتعليم الخاص في المنازل.

وفي الفصل الرابع والعشرين أبان صعوبة التعليم المنزلي، ثم حكم أن التعليم يستمر إلى السنة السادسة عشرة من الحياة، وبعد ذلك يعلم كيف يتعقل هو بنفسه، وعلى المدرس أن يهديه السبيل في تعليمه حتى يكتمل بنفسه تحت إرشاده، وأبان أنه في أول أمره يكون تأديبه عملياً، فإذا كبر وعقل أعطي الحرية في الاختيار بنفسه مع تعليمه احترام غيره بحيث لا نضر حريته بحرية غيره، ويعلم كيف يضبط عواطفه بنفسه لا بالخوف، حتى يكون ذلك نبراساً له في مستقبل حياته.

ثم أبان أن التربية من نتائجها ما يلي: تهذيب النفس وصلاحيتها لرعاية المنزل وتدبير الأمة، وموافقة الحياة العامة، والنظر لخير الإنسان العام، فالأول شخصي، والثاني منزلي ومدني، والثالث للإنسانية العامة. اهـ.

هذا ما أردت نقله من الكتاب المسمى «كنت في التعليم» إذ ترجمت أكثر المقدمة وعسى أن أترجم بقية الكتاب في مقام آخر.

هذه أيها المسلمون آراء الأستاذ «كنت الألماني» الذي تحترمه الأمم حولنا. ولم أنقل هذا إلا لأريكم أيها المسلمون الآراء الشائعة في أوروبا الآن. وأفضل ما ذكرت الآن فيه النفع العام، فهو

يحرص على أن يكون الإنسان الواحد مريداً الخير للأمم الإنسانية جميعاً، وهذا عجب جداً، وكيف يقول «كنت»: إن الإنسانية كانت وحشية ولما تعلموا الكتابة ابتدأت حياتهم الدنيوية. وهاهي ذه المدنية ارتقت ولم تبلغ النهاية. فإذا كان أولئك المتوحشون قد حاولوا الكتابة حتى نالوها، أفلا نحاول نحن الرقي حتى يستخرج الإنسان كل قواه الكامنة بجدّه كما استخرجت قوى الحيوان بغريزته، وهنالك يصل الإنسان إلى مقام عال وسعادة شريفة.

فيا عجباً أليس هذا تفصيل لقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤] ألم ينزل في أول سورة «العلق»: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ فذكر أولاً القلم، وثانياً تعليم الإنسان ما لم يعلم. وهل هاتان الجملتان إلا ملخص ما ذكره «كنت». أليس القرآن ﴿ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾[العنكبوت: ٤٩]. إذن كل ما وجدناه قولاً حقاً في صدور العلماء فهو تفسير للقرآن. وهاهي ذه آية: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٩] قد فصل بعض معناها في كتاب العلامة «كنت» فهذه الآية لا نهاية لمعانيها وهذه بعضها.

هاهو ذا «كنت» الألماني يقول هنا ما كتبته في سور كثيرة: إن المسلمين يجب عليهم أن يرتقوا أولاً ثم هم يقومون بالخير العام للأمم، لأننا جعلنا ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]. انظر في سورة «إبراهيم» في آية: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾[إبراهيم: ٥]، وفي آية: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤] في سورة «طه»، فهنالك تجد تفصيلاً لهذا المقام. وليعلم المسلمون أن «كنت» وأمثال «كنت» يكتبون ذلك بعقولهم وفطرتهم الإنسانية، ونحن نكتب بعقولنا وفطرنا مع ديننا.

فإذا كان هؤلاء بعقولهم أدركوا أن الإنسانية كلها إخوان وأنهم يجب عليهم أن يرقوها فكيف بنا نحن؟ فلنا عقول كما لهم. ولكننا نزيد بأن ديننا يأمر بجدّ الإنسانية جمعاء. فهذه ميزتنا وهذه هي التي ستحمل قراء هذا التفسير وغيره أن يكونوا: ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، لأن المدنية الأوروبية ناقصة، فليكن الكمال في مدنيتنا المستقبلة. أليس ما يقوله العلامة «كنت» بعض تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾[الحجرات: ١٣]. ألم يؤذن بلال الحبشي في الكعبة بمحضر من أهل مكة الذين لا يرون في الأرض من يساويهم.

إن الإسلام سوى بين الأمم ونحن أتباعه فلنكن نحن حراساً على كل أمة متى ارتقينا، ونحن الآن في مبدأ الحياة. هاهنا اطلع صديقي العالم الذي اعتاد أن يحدثني في هذا التفسير فقال لي: حسن ما كتبت عن الأستاذ «كنت» الألماني، وجدير بك أن تذكره هنا لأن مشربه مشرب الإسلام.

الإسلام جاء لرقي الإنسانية كلها والتعارف مع الأمم كلها، والمسلمون كانوا: ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠] كما قدّمت ذلك. فقلت: نعم. فقال: ولكني رأيت في كلامه ما يدل على الطعن في الأمراء فما الداعي لذلك؟ وهل أمراء المسلمين على هذا النمط الذي ذكره. إنا إذا لم نطبق العلم على أحوالنا فلا فائدة منه ومتى عرفنا ذلك فهمنا أيكون العلم تابعاً لأمرائنا أم ندرس

نحن فلا نتكل عليهم كما يقول هو . وقصدي من هذا السؤال أن يكون عندنا ذكر من التاريخ حتى نستنير به . فقلت : ليكن الكلام في زبرجدتين :

الزبرجدة الأولى : في ملخص أمراء ألمانيا الذين ذكرهم « كنت » .

الزبرجدة الثانية : في إجمال أحوال أمم العرب قديماً وحديثاً ، وكيف سطا الترك عليهم وسلبوهم ملكهم ، وكيف كان الحكم في مصر لهم ، وكيف ترقت البلاد المصرية في أيام المغفور له محمد علي باشا ، وكيف كان رقيها تبعاً للحكومة ، وكيف دخل الإنجليز بلادنا ، وكيف كان ذلك تبعاً لنقص التعليم ، وكيف تعلم المصريون بعد الاحتلال تعليماً شعبياً لا تعليماً حكومياً ، وكيف ظهرت ثمرة هذا ولم تظهر ثمرة التعليم الأول ، وكيف كان ذلك كله موافقاً لكلام الأستاذ « كنت » الألماني . ثم كيف كان القرآن والحديث ينصان على هذه الطريقة ، وهي أن التعليم لا بد أن يكون عاماً والشعب هو الذي يقوم به ، وبيان ما جاء في الأحاديث من الحث على العلم وفضله ، ثم أتبع ذلك كله بما جاء في الفصل الثالث من المقام الأول ، وهو أن بعض الملوك أحبوا العلم وتركوا زينة الحياة الدنيا ، والذي علمهم علماء تعلموا بطريق الشعب لا بطريق الحكومات لأن تعليمها ناقص . فلأبدأ بالكلام على الزبرجدة الأولى فأقول :

الزبرجدة الأولى
في فذلكة الكلام على أمراء ألمانيا بمناسبة كلام « كنت » عنهم

إن أهل ألمانيا فرع من العائلة « الآرية » وكانوا قديماً ليس لهم منازل بل يسكنون قرى كلها أخصاص ـ جمع خص ـ وهذه الأمة لم تتوطن أوروبا إلا بعد سقوط المملكة الرومانية ، ولم تكن هذه البلاد الألمانية إذ ذاك إلا موطن للحيوانات المفترسة ، ولا تصلح إلا للصيد والقنص ، ومناخها رطب كثير الضباب وأرضها كثيرة السباخ ، ولكن هم أصلحوها فيما بعد ، وهؤلاء القوم كانوا قبائل لم تجتمع إلا في الزمن الذي ذكرناه ، فهنالك اتحدوا ، وكان لكل قبيلة ملك يعتقدون فيه أنه من نسل الإله « أودين » ماعدا الصكصونيين ، وكان جلّ اعتمادهم على الصيد والحرب ، ثم أخذت ترتقي رويداً رويداً إلى أن حصل لها الذل من فرنسة نحو سنة ١٨١٠ ، فظهر الحماس في البلاد وارتقى التعليم ثم انتصرت وفازت ، والفضل في رقيها إذ ذاك إنما هو لمملكة بروسيا ، فإن القوم أدركوا أن « بونابارتو » وضع الأمة الألمانية في أدنى الدرجات وأذلها ذلّاً شديداً ، فبمساعدة الوزير « سطين » للملك إذ ذاك حصل إصلاح عظيم ، فالرق أبطل ، والحقوق الوطنية أعطيت للجميع ، فانتعش الشعب انتعاشاً لم يعهده من قبل . ولما شاع ذلك أدرك نابليون بونابارتو أن ذلك الإصلاح موجه للاستعداد لمحاربة فرنسا ، فضغط على الملك « فريدريك » فعزل وزيره الأعظم المذكور وهو « سطين » لأنه عدو لفرنسا ، فنجا بنفسه إلى روسيا ، ومع ذلك لم يقف الإصلاح بعد ذلك وصار للتعليم قواعد وقوانين لم تكن من قبل ، وحصل هناك اتحاد يسمى اتحاد الحقيقة ، ودخل فيه ألوف وألوف وأخصهم المدرسون والطلبة ، وكلها موجهة لتحرير الوطن من نابليون وفرنسا التي حددت الجيش بما مقداره (٤٢) ألفاً . فسارت بروسيا على هذا التحديد ، ولكنها كانت تعلم قوماً وتأتي بآخرين بدلهم حتى عم التعليم

الحربي روسيا، وانتصرت وفازت ألمانيا. وهي وإن انتصرت كان التجاسد لا يزال كثيراً بين الأمراء والولاة، إذ هي (٣٩) إياله، وأمراء الأيالات كانوا ظلمة، وقد وعدوا رعاياهم إذا قهروا نابليون أعطوهم الحرية والاستقلال. فلما قهروه وانكسر الفرنسيون وحبس نابليون في جزيرة القدسية « هيلانه » نسي أمراء ألمانيا عهودهم ووعودهم واستمروا في الاستبداد والظلم، ولكن الأمير الذي مال لتحرير رعيته من الظلم وحده موفياً بعهده هو « فريدريك غليوم » صاحب بروسيا التي هي أكبر إياله في ألمانيا، ولكنه لم يفعل شيئاً إلا أنه اكتفى بترتيب المجالس في كل مديرية.

هنالك قامت قيامة الأساتذة في المدارس والطلبة ونادوا بطلب الحرية وقاموا على الحكومة، فنكلت بهم الحكومات ومنعوهم من الخطب والكلام فزاد الطين بلة، فقاموا يهدمون صروح أمرائهم حتى إن أمير إياله « برونسويك » هو الدوق المغضوب عليه من الشعب فر هارباً لينجو بنفسه، وهكذا في سنة ١٨٤٨ انفجرت الثورة الفرنسية الثالثة في باريس وانتشرت بسرعة في داخل ألمانيا، فطلب الناس تشكيل حكومات حرة وأن يتم الاتحاد الجرماني، وقام أهل برلين بثورة بالسلاح. وفي ١٣ مارس سنة ١٨٤٨ وقعت حرب بين الأهالي والعسكر في برلين فتردد الملك في أمره طويلاً. وفي١٧ منه وعد بالحكومة المنظمة فطلب الأهالي إخراج العساكر من برلين. وفي ١٨ منه ازدحم الناس أمام السراي فما أطلقت رصاصتان من جهة مجهولة حتى قامت الحرب على ساق وقدم بين الجنود والأمة، واستمرت أكثر مدة الليل فهلك فيها كثير من الأنفس. هنالك في اليوم الثاني سلك الملك بمطالب الأم وأخرجت الجنود من برلين. فسلم الملك الأمر لأمته، وبعد أخذ ورد التأم مجلس عام من ٥٠٠ جرماني في مدينة فرنكفوت في ٢١ مارس من تلك السنة بصفة برلمان وقتي، وهكذا استمرت ترتقي إلى الآن.

هذا أيها الذكي القول المجمل في أمراء ألمانيا ذكرته لتعلم لماذا نرى « كنت الألماني » يظهر نقص الأمراء في تعليمهم شعوبهم وعدم إخلاصهم وأنهم قوم مراؤون، وأنا موقن أن هذه النظرية السطحية في أمراء الألمان تعرفنا أمرين: الأول: لماذا تحامل عليهم العلامة « كنت ». الثاني: أن سيرتهم تعرفنا لماذا تأخر المسلمون وكيف كان تقصير أمرائهم في تعليمهم هو أصل العيب والنقص في تعليمنا وتأخرنا وذلك هو الذي أذكره في الزبرجدة الثانية.

الزبرجدة الثانية: في أحوال أمم العرب قديماً وحديثاً إلى آخر ما تقدم

اعلم أيدك الله أن الأمم الإسلامية جعلها الله في الأرض لتكون نبراساً للأمم، وقد تم ذلك في العصور الأولى وبلغوا المشرقين والمغربين، ولكنهم لما جهلوا مركزهم في الأمم وإنهم لم يجعلوا كذلك لأجل قضاء شهواتهم بل هم نافعون للأمم، وجعلوا الأموال لمجرد الزينة والتفاخر وظلموا عباد الله، غار الله عز وجل على عباده وطرد أبناء الفاتحين من بلادهم وسلط الترك على أكثر بلاد العرب التي هي منبع العلم في العالم قديماً، فكسروا شوكة العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا، وهكذا توغل الترك في ظلم الأمم العربية وحكموهم باسم الدين، جزاءً وفاقاً لما فعل أسلاف آبائنا العرب المتأخرين بعد القرون الثلاثة الأولى، كما تراه موضحاً في آية: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾[النمل: ٣٤] الخ، إذ ترى هناك أنهم ظلموا الأمم بعد القرون الثلاثة الأولى فأزال الله

ملكهم لأنه رحيم وعدل وحكيم، فهؤلاء الترك لما سلطهم الله على بلادنا نحو ثلاثة قرون حكمها بعد ذلك المغفور له محمد علي باشا، وأخذ يرقيها هو ونسله نحو (٥٠) سنة، ففتح المدارس وقاد الجيوش وفتح الممالك، ولكن ماذا حصل بعد ذلك؟ ظهر فيهم كلام العلامة «كنت» المتقدم، فالتلميذ يتعلم لمقصد الحاكم لا لمقصد العلم نفسه ولا لترقية نفس الشعب، بل الشعب كان يتعلم باسم الأمير ولغايات مقاصده. وبعبارة أخرى: تعليم خال من الحرية، والتعليم إذا خلا من الحرية كان ضئيلاً، لذلك لم يكن في البلاد مدارس حرة مطلقاً.

فلما كانت سنة ١٨٨١ قام رجل جندي وهو أحمد عرابي باشا، وهل تعلَّم هذا في المدارس؟ كلا. بل هو جندي فلاح تعلم قليلاً من الدين وارتقى بنشاطه وخضع له الضباط المتعلمون في المدارس الحربية في مصر وألمانيا وفرنسا، والأمة مقهورة والمتعلمون فيها أذلاء لا حرية لهم. فلو كان لهم حرية لقام بالثورة الضباط المتعلمون في المدارس الحربية، ولكن الثائر جندي فلاح رأى الظلم فقام لحربه. قام يطالب بحرية أمته، ولكن أمته لا تزال جاهلة والجاهل جبان ذليل، فماذا حصل؟ قام أكثر المتعلمين واتبعوا الخديوي الذي اتحد مع الإنجليز، وهنالك انقسمت الأمة وحصلت الخيانة ودخل الإنجليز، فماذا يصنعون؟ ضيقوا دائرة العلم، فماذا تفعل الأمة؟ هنا انفتحت بصائرها فأخذت تعلم أولادها، لأنه أيقظها أمران: التعليم الحكومي السابق، والثورة العربية. فأخذت ترسل أبناءها للخارج وفتحت المدارس الأهلية وانتشرت الجرائد فيها، فاستيقظت في (٤٠) سنة فقامت بثورة ضد الإنجليز، فأعطوها الاستقلال الداخلي. فهذا إنما جاء بسبب تعليم الشعب نفسه بنفسه، والمتعلمون أنفسهم هم الذين قاموا بالثورة. فأما تعليم الحكومة الذي سبق الاحتلال؛ فإن الثائر جندي لم يدرس في المدارس، فما صدق على الأمة الألمانية صدق على الأمة المصرية من حيث إن تعليم الحكومة تبع أهواء الملوك والأمراء لا يكفي لرقي الأمة. إذن يجب أن الشعب هو نفسه الذي يضطلع بأمر التعليم، وهذا هو الدين الإسلامي.

أيها المسلمون: هاهي ذه ألمانيا منذ قرن كانت مهضومة الحقوق، أذلها ملوكها ومنعوها الحرية، فجاهدوا وارتقوا. والذي أسرع في رقيهم إذلال فرنسا لهم، فكان ذلك من أسباب تحريرهم، والأمم الإسلامية لم تكن العقبة في سبيل حريتهم واحدة بل ثلاث عقبات: عقبة الملوك، وعقبة أكبر شيوخ الطرق وقد أوضحت هذا المقام في سورة «الكهف» عند آية: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، وفي سورة «سبأ» عند آية: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ: ٣١] الخ، وفي سورة «الشعراء» عند الكلام على السحر. وعقبة الدول المستعمرة.

وهاهم أولاء الباطنية الذين علمهم «حسن بن الصباح» في أواخر القرن الخامس الهجري كانوا يحرّمون على أتباعهم النظر في العلم وعدّوه ذنباً. وهاهم أولاء شيوخ الصوفية في كل زمان ومكان يحضون على ترك العلم ولا يرون طريقاً للناس إلا نصائحهم، وهذه أكبر العقبات في نهوض المسلمين، وهاهم أولاء ملوك بني عثمان كانوا هم أهم السبب في نقص التعليم في ديار الإسلام، وهاهي ذه أمم أوربا ما دخلت بلاداً إلا جعلت أهلها جهلاء خيفة أن يطالبوا بحقوقهم.

اللهم إن هذه العقبات الثلاث هي المانعات من رقي المسلمين، وأنا أقول: بانتشار مثل هذه الآراء في هذا التفسير وغيره في بلاد الإسلام تزول هذه العقبات، وسيكون استعمار الأوروبيين من أهم أسباب ظهور الحماسة في قلوب الشعوب الإسلامية. وهاأنا ذا أوضحت الأمر للأمم الإسلامية، وأنا موقن أن هذا سيتم فيها، وهذا هو الذي حثت عليه الأحاديث النبوية الشريفة، والحمد لله رب العالمين.

نغمات الحكمة

لما ترجمت هذا الموضوع وكتبته هو وما بعده انشرح صدري انشراحاً تاماً بمسرة عظيمة، وبينما أنا سائر بعد ذلك في شارع السيدة زينب الذي أمام الباب الغربي للمسجد الزيني بمصر في يوم من أيام شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ أثناء طبع هذه السورة وكان ذلك ضحى، إذ سمعت نغمات موسيقى تصدح في دكان لجلب المشترين، فخيل لي في أقل من لمح البصر أن هذه حفلة أنس في أمم إسلامية بعد عشرات السنين قد انتظم التعليم عندهم وقرؤوا أمثال هذا التفسير وأصبحوا أرقى من الأمم الإسلامية الحالية فهم لذلك مبتهجون بنعمة العلم والحرية لا أنهم مستعبدون للفرنجة مثل كثير من المسلمين الحاليين لجهلهم، وهذا الخيال المفاجئ لي أوقفني ثواني وأنا بهج طرب فرح، واغرورقت عيناي بالدموع، ومن عادتي أن لا أظهر ما يجيش بخاطري مثل هذا لأن هذه خواطر لا تتعدى صاحبها، ولما أفقت من غشيتي السارّة أتممت المسير.

هذا ومن عجب أن الأمم الإسلامية الحاضرة لو علموا أن هولندا والدانيمارك والسويد والنرويج قد قطعوا أشواطاً بعيدة في التعليم وعمموه لأفراد الشعب، وبعض ولاياتهم قد أقفلت محاكم جناياتها كما مر قريباً، فهم إذن أرقى من المسلمين الحاليين أخلاقاً وآداباً، أقول: لو علموا ذلك لدهشوا أشد الدهش، وقالوا: كيف يكون ديننا أول ما نادى بالتعليم العام وأجابت دعوته أمم أخرى والمسلمون نيام، اللهم إني أبرأ إليك من الكتمان، وأسألك أن توقظ المسلمين للتعليم العام. اهـ.

زبرجدة
فيما جاء من الحث على العلم في الأحاديث الشريفة

نذكر هذا الفصل حتى يعلم المسلمون أن ما يسمعونه من الأحاديث في الحض على العلم الموجه للناس عامة، لا أنهم يتكلون على ملوكهم، هو آخر ما وصل إليه نوع الإنسان الآن بعد حروب دامت سنين وسنين، وأن ألمانيا التي يضرب بها المثل في العلم لم تهتد إلى النتائج التي جاءت بها الآيات، وهذه الأحاديث التي سأذكرها، إلا بعد قرون وحروب طاحنة سالت فيها الدماء، وهذه الأحاديث بين أيدي المسلمين ولكنهم يقرؤونها لمجرد التبرك ومجرد العلم، أما العمل فلا، فحق على المسلمين قول أبي الدرداء لزياد بن لبيد الأنصاري فيما سيأتي، لما سأل الثاني الأول قائلاً: كيف يختلس العلم منا وقد قرأنا القرآن، فوالله لنقرئنه أولادنا ونساءنا. فقال: ثكلتك أمك يا زياد إن كنت لأعدّك من فقهاء المدينة. هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فما تغني عنهم الخ. فهاك الأحاديث التي وعدتك بها من كتاب «تيسير الوصول لجامع الأصول» تحت العنوان التالي، وهذا نصه:

كتاب العلم: وفيه سبعة فصول

الفصل الأول: في فضل العلماء

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان عابد وعالم. فقال: فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم. أخرجه الترمذي وصححه. وفي رواية له ثم قال: إن الله تعالى وملائكته عليهم السلام وأهل السماوات وأهل الأرض حتى النملة في حجرها والحيتان في البحر يصلون على معلم الناس الخير.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد. أخرجه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الناس أكرم عند الله تعالى؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألوني. قالوا: نعم. قال: فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا. أخرجه الشيخان.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم الرجل الفقيه في الدين أن احتيج إليه نفع وأن استغني عنه أغنى نفسه. أخرجه رزين.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أحيا سنة من سنتي أميتت بعدي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي. أخرجه رزين.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سلك طريقاً يطلب به علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء. وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر. أخرجه أبو داود وهذا لفظه والترمذي.

الفصل الثاني: في الحث عليه

عن حميد قال: سمعت معاوية رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين. أخرجه الشيخان وأخرجه الترمذي عن ابن عباس.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع. أخرجه الترمذي. وفي أخرى له عن سخبرة مرفوعاً: من طلب العلم كان في كفارة لما مضى.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعلموا قبل الظانين يعني قبل الذين يتكلمون بالظن. أخرجه رزين وعقلة البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعلموا الفرائض والقرآن وعلموا الناس فإني مقبوض، أخرجه الترمذي. وعن ابن مسعود بمعناه. وزاد رزين: وإن مثل العالم الذي لا يعلم الفرائض كمثل البرنس الذي لا رأس له.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لن يشبع مؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة. أخرجه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها. أخرجه الترمذي.

وعن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة. أخرجه أبو داود. الآية المحكمة: هي التي لا اشتباه فيها ولا اختلاف وما ليس بمنسوخ، والسنة القائمة: هي الدائمة المستمرة التي العمل بها متصل لا يترك، والفريضة العادلة: هي التي لا جور فيها ولا حيف في قضائها.

وعن أبي واقد الليثي قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أحدهما فرجة في الحلقة فجلس وجلس الآخر خلفهم، وأما الثالث فذهب مدبراً، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله. وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله تعالى منه. وأما الآخر فأعرض فأعرض الله تعالى عنه. أخرجه الثلاثة والترمذي.

الفصل الثالث: في آداب العلم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار. أخرجه أبو داود والترمذي وهذا لفظه. والمرد بذلك العلم الذي يلزم تعليمه ويتعين فرضه، ككافر يسأل عن الإسلام والدين، وكحديث عهد بالإسلام يسأل عن الصلاة، وكمن جاء مستفتياً في حلال وحرام فيلزمه تعليمه وجوابه، ومن منعه استحق الوعيد، وليس الأمر كذلك في نوافل العلم التي لا يلزم تعليمها.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله لأن يهدى بهداك رجل واحد خير لك من حمر النعم. أخرجه أبو داود.

وعن أبي هارون العبدي قال: كنا نأتي أبا سعيد الخدري رضي الله عنه فيقول: مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا: إن الناس لكم تبع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم استوصوا بهم خيراً. أخرجه الترمذي وضعفه.

وعن يزيد بن سلمة قال: قلت يا رسول الله: إني سمعت منك حديثاً كثيراً أخاف أن ينسيني أوله آخره، فحدثني بكلمة تكون جماعاً. فقال: اتق الله فيما تعلم. أخرجه الترمذي. وزاد رزين: واعمل به. يقال: كلمة جماع، إذا جمعت كلمات.

وعن عمر رضي الله عنه قال: لا ينبغي لمن عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه. أخرجه البخاري تعليقاً.

الفصل الرابع: في آداب العلم والتعلم

عن عكرمة، أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدث الناس مرة في الجمعة، فإن أبيت فمرتين، وإن كثرت فثلاثاً. ولا تمل الناس هذا القرآن. ولا ألفينك تأتي قوم وهم في الحديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم، ولكن أنصت فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه، وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك. أخرجه البخاري.

وعن علي رضي الله عنه قال: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله. أخرجه البخاري.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. أخرجه مسلم.

الفصل الخامس: في رواية الحديث ونقله

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه. فرب مبلغ أوعى من سامع. أخرجه الترمذي وصححه. نضر الله امرءاً ـ بتخفيف الضاد وتشديدها ـ معناه: حسنه وجمله.

وعن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلغوا عني ولو آية. وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج. ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار. أخرجه البخاري والترمذي. قوله: حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ليس فيه إباحة الكذب في الإخبار عنهم ورفع الإثم عمن نقل عنهم كذباً، ولكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على معنى البلاغ، وإن لم يتحقق ذلك بنقل الإسناد لأنه أمر تعذر لبعد المسافة وطول المدة.

وعن محمد بن الربيع رضي الله عنه قال: عقلت من رسول الله صلى الله عليه وسلم مجة مجها في وجهي من دلو من بئر كانت في دارنا وأنا ابن خمس سنين. أخرجه الشيخان. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين: فأما أحدهما فبثثته فيكم، وأما الآخر فلو حدثتكم به لقطعتم هذا البلعوم. أخرجه البخاري. وقال: البلعوم: مجرى الطعام.

وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: لو وضعتم الصمصامة على هذه ـــ وأشار إلى قفاه ـــ ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها. أخرجه البخاري تعليقاً. الصمصامة والصمصام: السيف.

الفصل السادس: في كتابة الحديث

عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر

يتكلم في الرضا والغضب. فأمسكت عن الكتابة حتى ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فأومأ بإصبعه إلى فيه، وقال: اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا الحق. أخرجه أبو داود.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: شكا رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني لأسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: استعن بيمينك، وأومأ بيده إلى الخط. أخرجه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال. خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر قصة في الحديث، فقال أبو شاة: أكتبوا لي يا رسول الله؟ فقال: اكتبوا لأبي شاة. أخرجه الترمذي وصححه.

وعنه رضي الله عنه قال: ما كان في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثاً مني إلا ما كان من ابن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب. أخرجه البخاري والترمذي.

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية. وقال: إني والله ما آمن يهود على كتابي، قال: فوالله ما مر بي نصف شهر حتى تعلمته وجدت فيه، فكنت أكتب له إليهم وأقرأ له كتبهم إليه. أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي.

وعن المطلب بن عبد الله بن حطب رضي الله عنه قال: دخل زيد بن ثابت إلى معاوية رضي الله عنهما فسأله معاوية عن حديث فأخبره به، فأمر معاوية إنساناً يكتبه. فقال زيد: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نكتب شيئاً من حديثه، فمحاه. أخرجه أبو داود.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن، ومن كتب شيئاً غير القرآن فليمحه. أخرجه مسلم. والإذن في الكتابة ناسخ للمنع منه بإجماع الأمة على جوازه ولا يجتمعون إلا على أمر صحيح، وقد قيل: إنما نهى أن يكتب الحديث مع القرآن في صفحة واحدة فيختلط به فيشتبه.

الفصل السابع: في رفع العلم

عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً فينتزعه من الناس؛ ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا. أخرجه الشيخان والترمذي.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء. فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يختلس العلم منا وقد قرأنا القرآن. فوالله لنقرئنه أولادنا ونساءنا. فقال: ثكلتك أمك يا زياد إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة. هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فما تغني عنهم.

قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت رضي الله عنه فقلت: ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء رضي الله عنه. فأخبرته الذي قال، فقال: صدق فإن شئت أخبرتك ما أول علم يرفع. أول علم يرفع من الناس الخشوع، يوشك أن تدخل المسجد الجامع فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً. أخرجه الترمذي.

شخص ببصره: إذا نظر إلى شيء دائماً فلم يرد عنه نظره كنظر المبهوت والمغمى عليه. والاختلاس: الاستلاب وأخذ الشيء بسرعة. والثكل: فقد الأم ولدها.

وعن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء. ولا تقبل إلا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليفشوا العلم وليجلسوا له حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً. أخرجه البخاري ترجمة. يفشوا: يظهروا.

انتهى من كتاب «تيسير الوصول لجامع الأصول». وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني من المقام الأول. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث: من المقام الأول

في الكلام على الملك والوزير اللذين أحبا العلم والحكمة وزهدا في الملك

جاء في كتاب إخوان الصفاء ما نصه:

حكي أن ملكاً من ملوك الفرس كانت له نعمة ظاهرة وهيبة قاهرة وسلطان عظيم وملك كبير، وكان له وزير له رأي وعزيمة قد رأى السعادة في تدبيره والكفاية في توزيره، قد كفاه أمر التدبير مما يحتاج إليه، فهو مشغول بلذته وتناول نهمته في لذة من عيشه وأمان من مصائب الزمان وحوادث الأيام، والوزير يورد ويصدر بحميد رأيه وجميل نيته وحسن طويته، فأقام الملك على ذلك مدة من دهره وبرهة من عمره.

فلما كان في بعض الأوقات عرض للملك علة كدرت عليه عيشه ونغصت حياته فتغير لونه وهزل جسمه وضعفت قوته، واشتغل من تلك العلة واستدعى وزيره وقال له: قد ترى ما نزل بي من هذه العلة التي قد حالت بيني وبين اللذات حتى قد تمنيت الموت ومللت الحياة، فرق له الوزير وبكى عليه، ثم خرج فجمع الأطباء والتمس الدواء، ولم يدع مستطباً ولا معزماً ولا صاحب نجامة وكهانة إلا أحضره وأعلمهم علة الملك وما يجده من الألم والوجع وأنه يشكو ضربان جسده والتهاب حرارة في قلبه وكبده، فكل قال وما أصاب وعمل وما أفلح وعالج فما أنجح، واشتدت تلك العلة بالملك، واشتغل الوزير بذلك عن تدبير المملكة وسياسة الخاصة والعامة من خدم المملكة ورعيتها، واضطربت الأعمال وعصت العمال وكثرت الخوارج في أطراف المملكة وأقاصي الدولة، فعظم ذلك على الوزير وتحير وخاف على الملك الهلاك، فعاود إلى جمع الحكماء وإحضار العلماء ومن قدر عليهم من الشيوخ القدماء، وأعاد عليهم القول واستدعى منهم الجواب. وكان فيهم شيخ كبير قد عرف وجرب، فقال: أيها الوزير، إن العلة التي بالملك معروفة بظاهرها خفية بباطنها، ومثل هذه العلة لا تكون إلا عن حالين:

إحداهما في النفس والأخرى في الجسد، فالذي في النفس ينقسم قسمين: فأحدهما يختص بالنفس الناطقة والقوة العاقلة والآخر يختص بالنفس الحيوانية والقوة الشهوانية، والذي يختص بالجسم أيضاً ينقسم قسمين: بالحر واليبس، والآخر وهو البرد والرطوبة.

وأما ما يختص بالنفس الناطقة فهو الفكر في المبدع جل جلاله وما أبدع، والحيرة فيما خلق وبرأ وأنشأ، وإعمال الروية وإجالة الفكر في كيفية الابتداء والانتهاء وما شاكل ذلك من الأمور الإلهية، فإن النفس إذا غرقت في هذا الأمر وانغلقت عليها أبوابه وتعذرت أسبابه؛ ضاقت وحرجت فأحرقت طبيعة الجسد، فضعفت القوى الطبيعية عن تناول الغذاء وحدث بالجسم ما ترى من الضعف والتغير والهزال والضنى، ولا يزال ذلك كذلك يتزايد مادامت تلك العلة مستدامة والخاطر مشغولاً بها والأبواب عليه منغلقة والأسباب متعذرة ولا يجد من يفتح عليه ما انغلق من أبوابه ويسهل ما صعب من أسبابه.

وأما القسم المختص بالنفس الحيوانية والقوة الشهوانية فكالعشق للصورة البهيمية من النساء والصبيان والأحداث والمردان، مثل ما يحدث للعاشق إذا غاب عنه معشوقه وحيل بينه وبين محبوبه، فيظهر به من الضعف والتغيير ما يكون به تلف الجسد وانحراف المزاج وفساد البنية، وربما دخل عليه زيادة أدته إلى الماليخوليا، واحترق ووصل المرض إلى شغاف قلبه فهلك وباد، وإما ما يكون في الجسد من العلل العارضة من جهة الطبائع الأربع، فإن لكل علة تحدث من فساد المزاج وغلبة الطبائع بعضها على بعض فله علامات يستدل بها على تلك العلة ومواضع يقصد بالأدوية إليها، ولا يجب للطبيب الحاذق أن يبدأ بدواء العليل إلا بعد السؤال له عن السبب في تلك العلة ما هو، وكيف كان وعما كان وما أصله، أهو شيء من المأكولات أسرف في أكله، أم مشروب أترف في شربه، أو غم عرض له، أو هم دخل عليه، أو حال اشتغل به قلبه وفكره، أو صورة حسنة رآها فوقعت في قلبه ثم حيل بينه وبينها ومنع من تناول لذاته منها، وأي موضع يجد الوجع من جسمه، وبماذا يختص من أعضائه، وأي شيء يشتهيه وأي حديث يلهيه ويرضيه وأي سماع يطربه، فإذا أخبر العليل طبيبه بشيء مما ذكرناه إذا سأله؛ وكان العليل صحيح العقل؛ ازداد الطبيب الماهر علماً به، واستشهد على ما أخبره لفظاً بما يدل من البرهان عليه بالحس، وما تبين له من صحة النبض مما يستدل به على صحة ما أورده المريض، ويسترشد الطبيب على قول المريض وشهادة النبض بشاهد آخر وهو الماء، فإذا اتفق النبض والماء مع شكوى المريض فقد عرف حينئذ الطبيب العلة وما يختص بها من الأعضاء، فإن يغلبه إحدى الطبائع وضعفت الأخرى أرسل إلى ذلك العضو ما يوافق طبيعته ويلائم قوته، لينقمع به ضده الذي يضايقه في مكانه بالملاطفة والتدريج، ولا يحمل عليه بالدواء الحاد في أول دفعة، فإنه ربما أحدث له ذلك فساداً لا يرجى إصلاحه، والمثال في ذلك النار المشتعلة في الحطب أول ما وصلت إليه، فإنها إذا قويت وألقي عليها الماء ازدادت حرارتها وقويت بخاراتها فأتلفت ما وصلت إليه واحتوت عليه. فاسأل أيها الوزير عن بدء هذه العلة كيف كانت وما السبب فيها، والحال الموجب لها، فلعلنا إذا عرفنا ذلك نتداركه بالملاطفة وحسن التدبير إن شاء الله.

قال الوزير: أيها الحكيم إن في أدب وزراء الملوك: ومن الواجب على من صحب الملوك أن لا يبدؤهم بالسؤال لهم مما لا يجب له السؤال عنه، ولا يهجم عليهم بذلك إلا أن يبدؤوه به، ولا يطلب الدليل على ما يقولونه، بل يستمع ويصدق ويسلم إليهم في جميع أمورهم، ولا يعترض عليهم في

أفعالهم وأعمالهم، وأنا أهاب الملك وأخاف منه أن أسأله عن شيء لم يبده، وحال يخفيها ولم يطلعني عليها، لا سيما في أمر نفسه وجسمه. قال الحكيم: أيها الوزير إنه لا سبيل إلى شفائه ومعرفة دوائه إلا بعد الإبانة عما ذكرته لك، وأنا أرى أن سؤالك له عن أمره وما أخفاه من سره يكون سبباً لحياته ونجاته إن شاء الله، فإذا أعلمك ذلك فاعلمني به واحفظه عنه لئلا تنسى مما يحكيه شيئاً.

ثم انصرف ذلك الشيخ ومن حضر المجلس من الأطباء ونهض الوزير فدخل على الملك، فلما رآه أنس به وأدناه بقربه، وسأله هل وجد له دواء واتجه له عند شفاء، فأكثر الوزير من الدعاء له، ثم أقبل عليه فسأله عن بدء العلة كيف كان، وما الذي كان السبب في حدوثها به، فلما سمع الملك من وزيره هذه المسألة التي لم يكن سأله عنها قبل ذلك؛ أمر من كان بين يديه من خدمه أن يقعدوه ويسندوه، ففعلوا ذلك، ثم أمرهم بالبعد عنه، فلما رأى الوزير ذلك خاف على نفسه وفزع، واستوى الملك جالساً على فراشه وقال له: ادن مني وأعد هذه المسألة علي وأصدقني، فإني أرجو الشفاء بصدقك إياي، وإنك قدرت على الدواء في إزالة الداء إن شاء الله، فإني لم أسمع منك هذا السؤال قبل هذا، والواجب على الملوك في أدب المملكة أن لا يبدؤوا من يلم بهم من عبيدهم وخواصهم بكشف أسرارهم، وبما يحدث منهم في خلواتهم، وما يجيلونه في أفكارهم، لا سيما إذا لم يجدوا له أهلاً يكشفونه لهم ويودعونه عندهم ويرجون بهم فتح ما انغلق عليهم بابه وتعذرت أسبابه، وقد كنت في طوال هذه المدة التي حدثت بي فيها هذه العلة أريد من يسألني عن ذلك فأبديه له، فلم أجد سائلاً يسألني عن ذلك، وكلما عدمت من أبث إليه الشكوى وأخرج إليه بما أجد من البلوى صعبت العلة علي وتزايدت المحنة لدي.

فلما سمع الوزير ذلك من الملك تحقق قول الشيخ الحكيم المجرب، وعلم أنه صدق وأصاب، قال له الوزير: أرجو أن أكون موضعاً لهذا الأمر وكشف هذا السر، فقال الملك: إن شاء الله، ثم ابتدأ الملك فقال: إني كنت في بعض الأيام قد أظهرت نعمة الله تعالى علي، وأحضرت أجلها لدي، وأمرت بإخراج ما في خزائني من الجواهر النفيسة والآلات الثمينة مما جمعته أنا في أيامي وما ورثته عن آبائي، فأحضر بين يدي في خلوة من حشمي وعبيدي وخزاني الذين كانوا نقلوه إلى بين يدي، فرأيت منظراً أطربني غاية الطرب وفرحت بها وطربت لها، وأخذت منها بالنصيب الأوفر والحظ الأجزل من الغبطة والسرور والجذل والحبور، فكبرت نفسي وعظم قدري وظننت أني قد وصلت إلى ما لم يصل إليه أحد، وأني أسعد من السعداء، ثم إني نمت فرأيت في منامي كأني في تلك الحال على أحسن ما يكون وأتمه وأكمله، وكان رجال دولتي وعبيد مملكتي كلهم قيام بين يدي خاضعون لي ساجدون سامعون لقولي مطيعون لأمري، وأنا على سرير مملكتي في محل كرامتي، فبينما أنا كذلك إذ رأيت رجلاً شاباً مليح الصورة حسن الأثواب لم أره من قبل ذلك الوقت ولا عرفته، وكأنه بالقرب مني ينظر إلي نظر المستهزئ غير هائب لي ولا خاضع بين يدي ولا مسلم علي، مستقل بجميع ما أنا فيه، وكأنه يملك ما لا أملكه ويقدر على ما لا أقدر عليه ويصل إلى ما لا أصل إليه، فغاظني ذلك منه وكأني قد هممت بالإيقاع به، وأمرت به من كان بين يدي من خدمي وأصحابي من جميع أهل مملكتي

ورجال دولتي أن يقعوا به، وهو قائم في مكانه يضحك بي، وكأنهم لم يصلوا إليه ولا قدروا عليه، وكأنه قد زاد استهزاؤه بي واستزراؤه ولم يهله شيء مما رآه، فلما رأيت منه هالني ذلك وأفزعني، فقمت من مكاني وتنحيت عن سريري ودنوت منه، وقلت له: من أنت ومن أين أنت وكيف وصلت إلي ومن أين دخلت علي؟ فقال لي: يا مسكين يا مغرور بسلطان الأرض والملك الجزئي، أيّ ملك أنت؟ إنما أنت مملوك ولست بمالك، فلم تدّعي المحال وترضى لنفسك بالكذب وجميع ما أنت فيه زائل مضمحل فان، وعما قليل يفارقك وتفارقه، وإنما الملك الملك السماوي والسلطان الإلهي، فإن بادرت وعملت ما يقرب إلى ربك وصلت إليه وكنت ملكاً بالحقيقة ونلت ملكاً لا يبلى ولذة لا تفنى، فتكون ملكاً بالحقيقة تفعل نفسك إذا زكت روحك إذا صفت ما أنا فاعل، وتصل إلى مثل ما أنا إليه واصل، ثم إنه ارتفع من الأرض وأقبل يمشي في الهواء ويجول في الفضاء إلى أن رأيته وصل إلى السماء وغاب عني فلم ير، وسمعت هاتفاً يقول: لمثل هذا فليعمل العاملون، فلما رأيت ذلك منه أيقنت أني لست بمالك وأني مملوك كما قال، وأني لست بعالم وأني جاهل وأني لست بإنسان وأني حيوان، ثم انتبهت وأجلت الفكر وأعملت الروية وكثر تخيلي لذلك الشخص وما قال لي، ورأيت من مملكته وسعة قدرته والمكان الذي رقى إليه واشتهيت المعرفة بالعمل الذي هو وصلة إليه، فاشتغلت بهذا الشأن عن جميع ما كنت بسبيله عن تلك اللذات، وانقطعت عن جميع الشهوات، وزهدت في المأكول والمشروب وأقبلت أجيل فكري وأقلب نظري في أهل المملكة ورجال الدولة، فلم أر فيهم من يصلح أن أكشف لهم هذا السر، ورأيتهم كلهم مشاغيل بالحال التي أزرى بها علي ذلك الشخص، وأني وإياهم مماليك وأن الأسماء التي استعرناها لا تصلح لنا ولا تليق بنا وأنها ذاهبة زائلة عنا، وخشيت أن أبدي أمري إلى من ليس هو من أهله فأنسب إلى الجنون وقلة العقل، فصمت عن الكلام وزادني الفكر والغم والهم والأسف، فحدث بي من ذلك ما ترى من التحول والتغيير في الصفات، فهذا هو سبب وجعي ومبدأ علتي، وأظن أني خارج من هذه الدنيا بهذه الحسرة إن لم أصل إلى العمل الذي يوصلني إلى ما وصل إليه ذلك الشخص الذي رأيته، وقد خرجت إليك بأمري وكشفت لك ما أخفيت من سري، فإن كان لي عندك فرج فمنّ به علي، وإن عدمت ذلك فاكتم سري ولا تخرج إلى أحد بشيء منه كما خرجت به إليك من أمري، لئلا أنسب إلى الجنون وزوال العقل، فيذهب الملك مني ومنك ويطمع فينا الأعداء، لأن علة زوال العقل أصعب العلل، متعذر دواؤها معدوم شفاؤها، ولكن قد طمعت أن لي عندك فرجاً لما رأيتك قد سألتني عن هذا السؤال، ولم يكن هذا من عادتك معي، ولمعرفتي أن فيك من الأدب الذي يصلح للملوك ما لا يحملك على مثل ما أقدمت به علي من ابتدائك لي بالسؤال عن سري الذي لم أبده، فاصدقني كما صدقتك.

قال الوزير: فأعدت عليه ما كان وما جرى من الشيخ الذي أشار علي بذلك وأمرني به، فقال: علي بالشيخ فقد وضع يده على الداء وأرجو أن يكون عنده الدواء، فخرجت من عنده وأحضرت ذلك الشيخ وقصصت عليه الحال من أولها إلى آخرها، فبكى وقال: قد انكشفت العلة وعرفنا دواءها وقدرنا على شفائها إن شاء الله، ثم نهض معي حتى دخلنا على الملك، فلما رأى

الشيخ فرح به ورفعه وأقبل عليه وأنس به، وأقبل يعيد الحديث عليه من أوله إلى آخره، فأقبل الشيخ على الملك وقال له: إن العمل الذي يوصل إلى مثل ما رأيت لا يكون إلا بعد العلم بتوحيد الخالق جلّ جلاله ومعرفته حق معرفته، فإذا صح لك ذلك وعلمته ابتدأت تشرع في تعليم العلم المؤدي بك إلى عبادته الموصلة لك إلى جنته ودار كرامته، فإذا أحكمت العمل بتلك العبادة وصلت إلى مرادك ونلت غرضك، ولا يكون ذلك إلا بعد ترك جميع ما ملكته وقدرت عليه من أمور الدنيا. قال الملك: قد رضيت بذلك وطابت نفسي به، وقد تعجلت بترك جميع ما كنت فيه، وتمنيت الموت والراحة من هذا العالم، فقال الشيخ: إن هذا العلم غير موجود عند أحد في بلدنا هذا وإنما هو موجود بحقيقته عند رجل من الحكماء، مقامه في إقليم الهند بجبال سرنديب تحت خط الاستواء، فإن عنده مفاتيح ما انغلق من هذا الأمر وصعب من هذا السر. قال الملك: فأنى لي بالوصول إليه والقدوم عليه وأنا على ما ترى من نحول الجسم وضعف القوة وكثرة الأعداء، وما تراه من اضطراب الحال وفساد الأعمال وكثرة الخوارج علينا والأعداء لنا، وتمنيهم الوصول بالأذية إلي وانتزاع ما في يدي من هذه المملكة الفانية والوقتية المضمحلة، وإن كنت غير متأسف على فقدها ولا حزين على زوالها بعد ما سمعت ورأيت، وإنما أخشى أن أدرك إذا خرجت منها وبعدت عنها فأقتل وأموت ولا أصل إلى ما يكون به السعادة بعد الموت، وأكون قد تعجلت الذل والهوان في الدنيا وسرعة القدوم عليه في الآخرة. قال الشيخ: صدق الملك فيما ذكر، ولنا في ذلك تدبير آخر. قال: ما هو. قال: أنا أكتب إلى الحكيم أعلمه بالحال، وننظر ما يكون من جوابه فنعمل به إن شاء الله. قال الملك: افعل ذلك. وخفّ على الملك ما كان يجده وسكنت نفسه إلى قول الشيخ. وقال للوزير: اعلم أني قد وجدت العافية، وقد سكنت تلك الحركة الفكرية وبردت الحرارة التي كنت أجدها في قلبي. واستدعى من الطعام والشراب ما أمسك به القوة ودعت إليه الحاجة، وفشا في أهل المملكة من أعمال الدولة أن الملك قد أفاق من علته وزال عنه ما كان يجده، ففرح الناس بذلك وسكنت الفتنة، فتسارعت الخوارج إلى الطاعة وعمت البركة وشملت النعمة، وعاد الأمر إلى أحسن ما كان في مدة يسيرة، وقويت نفس الملك ووثق بما وعده الشيخ الموفق الرشيد، فكتب الشيخ إلى رب بيت الحكمة في ذلك الزمان يعلمه بما جرى، ويسأله أن ينفذ إليه من يراه ليفتح عليه من العلم ما يصلح له، ويعلمه ما ينبغي له في جسده، فلما وصل الكتاب إلى الحكيم ووقف عليه استدعى تلامذته، وكان له اثنا عشر تلميذاً حاضرين معه، فأعلمهم بما وصل إليه وقرأ عليهم الكتاب، فقالوا: مرنا بما تريد لنمتثله ونأتي فيه ما تؤمله، فأفرد رجلين منهم وقال لهما: اذهبا إلى الملك، فإذا دخلتما عليه فليبدأ به أحدكما فيلزمه حتى يبلغ في العلم الرياضي إلى حد يجب له إذا وصل إليه ووقف عليه الارتقاء إلى العلم الإلهي، ثم ينفصل عنه ويلزمه الآخر حتى يوقفه منه عند الحد الذي ينبغي له، فإذا رأيتماه قد حسنت أفعاله وزكت أعماله فانصرفا عنه ولا تطلبا إليه جزاء ولا شكوراً. ثم ابتدأ بوصيتهما وبتحذيرهما من الوقوع في حبائل الدنيا وشبكة إبليس، وقال لهما: إنكما في مكان بعيد عن محاسن الدنيا وزخارفها ونضارتها وبهجتها وما يجده أهلها من فتنتها، وستردان على الملك وعلى مملكة واسعة ونعمة ظاهرة ولذات متواترة، وإياكما الميل إلى شيء منها والمحبة لها

فإنكما إن فعلتما ذلك وملتما إلى شيء مما تريانه انفسدتما وأفسدتما وخرجتما من الصورة الإنسانية إلى الصورة الحيوانية والرتبة الشيطانية بالفعل، وخرجتما من فسحة الجنان وروضة الروح والريحان، وجاورتما الشيطان في دار الهوان، وخرجتما من سعة الكل إلى سجن الجزء. قالا: سمعنا وأطعنا، وتوجها من حيث هما إلى إقليم الملك.

وكتب الحكيم إلى الشيخ يعلمه بذلك، وجعله عيناً عليهما ينقل إليه أخبارهما وما يعملانه ويعاملان به الملك، ثم قدما على الشيخ بالذي هما عليه من الشعث وقلة الجمال وما يليق بالنساك الفقراء وسوء الحال، فأخبر الملك بقدوم الرجلين من عند الحكيم ففرح بهما الملك واستبشر، ثم أمر بإيصالهما إليه، فدخلا عليه فقام لهما قائماً على قدميه وأمرهما بالجلوس، فجلسا مجالس العلماء المفيدين، وجلس الملك والوزير مجالس المتعلمين المستفيدين، ثم تقدم المبتدي بالعلم الرياضي فعلم الملك والوزير حتى أحكماه وتعلماه الملك ووزيره وقاما بموجباته وأحكامه، ثم انفصل الأول وتقدم الثاني فتلا عليهما الحكمة الإلهية إلى أن بلغا من ذلك غاية ما كان عنده واستفاد ما كان في وسعه، فلما فرغا ما أمرا به وأرادا الانصراف أقبل عليهما الملك وقال: إني لأجد لكما مكافأة على ما فعلتماه بي وتوليتماه من أمري ألا أن أسلم إليكما ملكي فتدبرانه وتحكمان فيه بما أردتما، وقد أبحتكما جميعه وهو عندي قليل لكما، فلما سمعا ذلك منه ردا عليه رداً جميلاً وانصرفا إلى مكان كان الملك قد أعده لهما، فتشاورا فيما عرضه الملك عليهما وأهداه إليهما من ملكه، وقد مالت أنفسهما إلى ما رأياه من حسن الدنيا وبهجتها وما عايناه من حسن قنيتها وطيب لذتها، فقالا: لا بأس أن يجتمع لنا المنزلتان وننال السعادتين الملك في الدنيا والآخرة، وعزما على قبول ما أهدى الملك إليهما من ملكه والجلوس فيه والقيام به، ثم خلا الملك بوزيره فقال له: اعلم يا أخي أن هذه الدنيا فانية ولسنا فيها مخلدين، وقد نلنا من لذاتها ونعيمها ما قد نلناه، ووصلنا منها إلى ما وصلنا إليه وقدرنا عليه، فهلم بنا نتخلى عنها ونلزم مداومة النظر في هذا العلم الشريف والعمل اللطيف الذي نصل به إلى الفوز والنجاة من بعد الموت، فإننا لا نشك في وصول الموت إلينا ونزوله علينا، فلعلي وإياك نجتمع في الملك السماوي كاجتماعي وإياك في الملك الأرضي، فقال: افعل، وقويت نيتهما وطابت أنفسهما بذلك، فلما دخل الرجلان في وقت دخولهما على الملك أعاد القول عليهما وما يريده من تسليم الملك إليهما، ورجا بذلك سعادة المملكة وأهلها بتدبيرهما وحكمتهما، ورجا لأهل بلده ومن يكرم عليه من أهله أن يصلوا إلى مثل ما وصل إليه من ملك العلم والعمل فتعم البركة وتشمل النعمة وتكمل السعادة، فقبلا ما أهداه إليهما وتقلدا ما اعتمد فيه عليهما، وجعل أحدهما وهو المعلم له العلم الإلهي في مقام المملكة، وصاحبه في مقام الوزارة، واشتغل هو ووزيره في مداومة النظر في العلم والقيام بالعمل والاجتهاد في العبادة والزهادة في الدنيا والتهاون بها واطراح شهواتها وترك لذاتها، فكتب الشيخ إلى الحكيم بذلك فأيس من عودتهما إليه، وعلم أنهما افتتنا بما رأياه، ومالت أنفسهما إليه، وتمنيا الخلود فيه، وأقاما على ذلك في تدبير الملك وسياسة المملكة إلى أن مات الملك ولحق به وزيره بعد مدة يسيرة، وصارا إلى رحمة الله سبحانه ودار كرامته، ونالا الملك السماوي ووصلا إليه، وافتتن الرجلان

بالدنيا وتخليا عن العلم والعمل وانهمكا في اللذات الدنياوية، واسترجع الحكيم ما كان أودعهما إياه من حكمته، فنسيا ما كانا له ذاكرين، وغاب عنهما ما كانا له حاضرين، وفارقا ملك السماء وأخلدا إلى ملك الأرض، فهبطا من الجنة وبعدا من الرحمة، وانقلبا على عقبيهما خاسرين، فأهارا وأمارا من حضرهما بما فعلا، وافتتن الناس بهما وتعلموا منهما ما يضرهم ولا ينفعهم، وبدت سوءاتهما وقالوا: هذان العالمان اللذان كانا يأمران بترك الدنيا والزهد فيها، قد عادا إلى ما كانا ينهيان عنه ويحذران منه، ولو لم يعلما أن العاجلة هي النعمة الحاصلة لما اختاراها ولا رجعا إليها بعد ما علما، وزاد بهما جموح الطغيان واستحوذ عليهما الشيطان فأنساهما ذكر الرحمن، فصارا أعداء للحكماء وأضداداً للعلماء، وكتب الحكيم إلى الشيخ يأمره بالتنحي عنهما والبعد منهما خوفاً عليه من شرهما، ففعل ذلك، وأقبلا على تناول أمور الدنيا وشهواتها، وفارقا السحر الحلال الذي أنزل عليهما وأمرا بفعله وعمله، وكان به نجاة من نجا، ورجعا إلى السحر الحرام فضلا وأضلا.

وهذا الحدث يدل على حالة الملكين هاروت وماروت وما كان من أمرهما وهبوطهما من السماء إلى الأرض ومفارقتهما جوار ربهما والملائكة الذين كانوا معهما، كمفارقة إبليس للملائكة باستكباره وعصيانه، ومفارقة آدم للجنة التي كان فيها بما كان من خطئه ونسيانه، فهذا بيان معرفة ماهية السحر والسحرة والعمل به وكمية أقسامه وما الحق منه وما الباطل بحسب احتماله البيان واتسع له الإمكان. انتهى ما أردته من «إخوان الصفاء». وبهذا تم الكلام على المقام الأول وفصوله الثلاثة، والحمد لله رب العالمين.

المقام الثاني في شذرات

في هذا المقام خمس شذرات:

(١) في إصلاح التعليم.

(٢) وفي العجائب السماوية وما يوصل إليها.

(٣) وفي غرائز الحيوان.

(٤) وفي الفوائد الطبية.

(٥) وفي الفوائد الأدبية العامة.

الشذرة الأولى: في إصلاح التعليم

اعلم أيها الذكي أن الأمم الإسلامية الآن أشبه باليتيم الذي ترك وشأنه فلا مربي له، وإنما هو متروك للمصادفات، ولما كانت الأمم الإسلامية قد سارت في طريقة عتيقة مثل أن تحفظ المتون بلا عقل ويحفظ القرآن بلا فكر وجب أن أبين هنا ما ساقه الله إلينا من نعمة العلم والحكمة، إذ حضر أثناء طبع هذا الكتاب عالم سويسري ليبحث في نظام التعليم عندنا بمصر، فأظهر أنه ناقص نقصاً محزناً. ولما كان تقريره مطولاً جداً بل هو كتاب كبير؛ وقد وجدت ملخص هذا الكتاب منشوراً في جريدة الأهرام يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٢٩؛ رأيت أن أثبت هذا الملخص هنا ليطلع المسلمون على نظام التعليم في الأمم الراقية الذي بينه وبين عصر الصحابة شبه من جهة الحرية الفكرية وعدم الوقوف عند الحفظ

والتمتع بالخلوات ونقاوة الهواء والاجتهاد الفردي وما أشبه ذلك. فهاك ما جاء في الجريدة المذكورة تحت العنوان التالي وهذا نصه:

مشكلة التعليم

نواجه اليوم مشكلة لا تقل خطورة عن مشكلتنا السياسية، وهي مشكلة التعليم التي لا بد أن تتضافر الجهود على إيجاد حل لها حرصاً على مستقبل الشباب أو بالحري البلاد. فصيحات الشكوى التي تملأ أعمدة الجرائد وشعور الخوف والحيرة الذي يمتلك الألوف من الطلبة والوالدين ما هو في الواقع إلا خوف مصر على مستقبلها ممثلاً في شعور أبنائها. ولهذا أرى لزاماً على كل متخصص وخبير بشؤون التعليم أن يدلي برأيه مبيناً خير ما يراه كفيلاً بحل مشكلة التعليم، كما يتحتم على كل وطني يغار على مصلحة بلاده أن يتعاون على تنفيذ ما يقترحه الخبيرون بعد الدرس والتمحيص. فالمسألة أهم من أن تهمل، وأعقد من أن تحل بزيادة الفصول وإيجاد أماكن لطالبي الالتحاق، وأعظم من أن تقوم بعبئها الحكومة وحدها.

ثلاثة أمور لا مندوحة عنها لحل مشكلة التعليم وإزالة أسباب الشكوى فهي:

أولاً: تتطلب تغييراً في جو المدارس وأساليب التدريس يتمشى مع روح العصر وتقدم علوم التربية الحديثة.

ثانياً: تستلزم تعديلاً في مناهج التعليم يتفق مع حاجات البلاد، وتنوّعاً يلائم الاستعدادات المختلفة.

ثالثاً: اهتماماً من الأهالي وتعاوناً على رفع مستوى المدارس الأهلية وزيادة عددها لتساعد على حل الأزمة ونشر الثقافة في البلاد. فأما الأمر الأول فقد كفانا مؤونة البحث فيه التقرير الوافي الذي رفعه لوزارة المعارف الأستاذ الفاضل اد. كالا باريه الخبير المنتدب، فقد استوفى فيه الموضوع بحثاً من جهة الأساليب وجو المدارس، وأظهر مواطن الضعف في نظامها، ثم أشار بما رآه علاجاً لتلك العلل، ويتلخص ذلك في عشرين اقتراحاً، وأذكرها ليطلع عليها من القراء من لم يقرأ التقرير، ويستفيد منها أصحاب المدارس الأهلية، فالداء يكاد يكون عاماً شاملاً وليس قاصراً على مدارس الوزارة، أما الاقتراحات فهي:

(١) إنقاص عدد التلاميذ في الفرق التي يتجاوز عددهم فيها الحد المناسب.

(٢) الزيادة في تجنيس الفرق من حيث سن التلاميذ ومستواهم العقلي.

(٣) اختبار كل طفل على حدته اختباراً فردياً.

(٤) تعيين معلمي فرق في المدارس الأولية والابتدائية والفرق الأخيرة من المدارس الثانوية، وجعل تعليم صغار الأطفال إلى سن التاسعة على أيدي معلمات فرق إن أمكن.

(٥) تضيق نطاق المنهاج.

(٦) تعديل نظام الامتحانات الحالي تعديلاً شاملاً، لأنه السبب في اعتماد التلاميذ على الاستظهار لا على التفكير والتروي.

(٧) زيادة ما للامتحان من قيمة وأثر في اختبار التلاميذ. ولا ينبغي أن تكون الحافظة في الأطفال الذين يمتحنون الغرض الذي يقرطس الامتحان، بل القدرة على أداء عمل شخصي مبني على التفكير والتأمل.

(٨) حذف دروس الإملاء والاستظهار ومنع استظهار المتون ومنع التلاميذ من نسخ ما لا يفهمونه من النصوص واستظهارها.

(٩) توسيع نطاق العمل الفردي وإنشاء مكتبة في كل مدرسة وقاعات يمارس التلاميذ فيها الأعمال بمفردهم.

(١٠) الاستفادة بالألعاب التي تعزز التربية في جميع درجات التعليم، وتأليف جماعات من التلاميذ للعمل معاً في أشغال معينة استفزازاً لغيرتهم وتنمية لروح التعاون والتضامن في نفوسهم.

(١١) جعل التعليم أكثر مطابقة على العمل ولا سيما في المدارس الإبتدائية والأولية والاستفادة بالأعمال اليدوية في أغراض التعليم ومراميه.

(١٢) الترخيص للمعلمين بإلقاء دروسهم على الفرق في الهواء الطلق وبالتنزه والتريض مع التلاميذ.

(١٣) إنشاء عدد أكبر من المدارس الابتدائية والثانوية للبنات.

(١٤) الاتئاد فيما يتعلق بنشر التعليم «مشروع التعليم الإلزامي» في إنشاء المدارس ريثما يتخرج المعلمون القادرون على القيام بأعباء هذا التعليم.

(١٥) إنشاء فرق متنقلة أو جوالة لنشر الثقافة العقلية في الأرياف وإنشاء مكاتب في القرى وإقامة سينما للتربية والتعليم.

(١٦) تعديل أسلوب إعداد المعلمين تعديلاً شاملاً.

(١٧) إقامة محاضرات أسبوعية بيداجوجية ودروس إتقان وتجويد للمعلمين.

(١٨) تعيين مفتشين بسيكولوجيين لمواصلة البحث والتحقيق في المدارس ولإرشاد المعلمين بنصائحهم وبخاصة منهم معلمي الأرياف، على أن يكون تفقدهم إياهم في مواعيد دورية منتظمة.

(١٩) تضييق دائرة التركيز المدرسي وإرخاء العنان لحرية المعلمين ونظار المدارس والإلانة من شدة البرامج وصرامتها وتقديم الجانب التثقيفي من العمل المدرسي على الجانب الإداري.

(٢٠) الاستمرار في البحوث والتحقيقات البسيكولوجية والبيداجوجية التي بدئ بها سنة ١٩٢٨ـ ١٩٢٩م. اهـ.

أما الأمر الثاني أي تعديل المناهج فلم يتناولها التقرير بأكثر من اقتراحه تضييق نطاقها وتحسين نوعها، وإليك ما قاله: اتضح لنا أن المناهج في جميع المدارس على اختلاف درجاتها خاصة بمواد التدريس، فمن الواجب المبادرة بالاستعاضة عن وفرة الكمية بجودة الصنف، وعن التوسيع بالتعمق، وعن الحافظة بالتفكير. ثم قال: وليس بطاقتنا أن نشرح بالتفصيل ما ينبغي إدخاله على المناهج من التعديلات والتحويرات، فإن هذا الشرح يتطلب بحثاً لم تتهيأ لنا الفرصة للقيام به، كما ينبغي أن ينى

هذا البحث على محادثة التلاميذ وفحص مفكراتهم ومطالعة منشآتهم في الامتحان الخ ؛ لتعرف الأجزاء التي يفهمها الأطفال وتتمثلها أذهانهم من منهج كل فرع ، والأجزاء التي تستظهرها الحافظة دون أن يدركها العقل .

وظاهر من هذا القول أن الأستاذ كالا باريه نظر لتعديل المناهج من جهة الأساليب وملاءمتها لقوى الطالب ، أما من الجهة الاجتماعية العامة وما تتطلبه حاجة البلاد من التعديل فلم يعالجها ، وعذره كما قال أن هذا الشرح يتطلب بحثاً لم تتهيأ الفرصة للقيام به ، أضف إلى ذلك أنه غريب عن البلاد لا يعرف كل ما تحتاجه وتشكو منه ، لهذا قلت : يجب على كل وطني خبير بشؤون التعليم أن يدلي برأيه ، ولهذا رأيت أن أعالج الموضوع بقدر إمكاني ، فإن أصبت فقد قمت بواجب علي لبلادي ، وإن أخطأت شفع لي إخلاصي وسرني معرفة خطئي وإصلاحه من ردّ ناقد خبير . انتهى ما جاء في الجريدة المذكورة .

إنما نقلت هذا المقال برمته لأنه استوفى التقرير الذي كنت أود تلخيصه وقد كتبه العالم السويسري المتقدم ذكره ، فهو الآن أشبه بتطبيق على أحوال المسلمين العملية بعد الشرح العلمي ، فهاهنا أشبه بالعمل وفيما تقدم أشبه بالعلم ، وهذا هو التوفيق أن يجتمع كلام ألماني وسويسري يوجهان لرقي المسلمين . وأنا الآن أريد أن أبين للأمم الإسلامية فوائد التعليم الثانوي مما اطلعت عليه وقرأته في كتب مختلفة وفي كلام الكاتب المتقدم أيضاً .

اعلم أيها الذكي كما تقدم فيما نقلته عن « كنت » الألماني أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يعوزه التعليم والتربية ، وإذا نحن نظرنا إلى الأمة كلها وجدناها كالفرد الواحد ، والإنسان الواحد نجد له مطالب كثيرة :

(١) من طعام وشراب وهكذا نجد له أعضاء كثيرة لتناول هذه المطالب .

(٢) وهذه الأعضاء تختلف باختلاف تلك المطالب .

(٣) وهذا الاختلاف يشتد تباينه كلما اشتد تباين المطالب ، فلاختلاف بين حاسة الذوق واللمس أقل من الاختلاف بين حاسة الذوق والبصر ، لأن الأولين خصا بما هو قريب للامس ، والآخر لا ملامسة له . ففي المدارس الثانوية :

(١) أولاً : تنمي القوى في التلاميذ بحث تصلح للسير في المجتمع أولاً ، وتستفيد من الأحوال الطارئة في الحياة فلا تقف على حال واحدة بحال جمود .

(٢) ثم يجب أن يفرق بين المواهب المختلفة فتوزع على مطالب الحياة كما وزعت الأعضاء والحواس على مطالب الإنسان .

(٣) وكما أننا نجد حاسة اللمس تبعد عن حاسة البصر من حيث متعلقها وتقترب من حاسة الذوق إذ هاتان متعلقتان بما هو ملاصق ، وحاسة البصر لا تقدر على مشاهدة الملاصق ، هكذا أفراد الأمة فإنها كلما ارتقت اشتد تباين الأفراد ، فيكون أحدهم كالعين والآخر كاللمس أو كالذوق ، ولكن لا بد من نظرة هنا ، ذلك أن الأعضاء المتنافرة في بدن واحد لا تجتمع بل تتفرق ، ألا ترى أن الحيوان إذا

مات تفرقت أجزاؤه، إن الذي جمعها الحال العامة في الجسم من التغذية والشراب والأعصاب والعروق والدم والشحم واللحم وما أشبه ذلك، فهذه الأعضاء وإن اشتد الخلاف بينها ففيها اتفاق واتحاد، وعلى مقدار التباين بينها اشتد اتحادها، فبواعث الاتحاد كثرت على مقدار بواعث الاختلاف، هكذا في الأمة، فإذا رأينا الأمة ارتقت وظهرت فيها أفراد نابغون كل وصل إلى منتهى الكمال بحسب زمانه، بحيث صار القاضي والمهندس وعالم الزراعة كل واحد من هؤلاء قد برع في فنه، فهذه البراعة تقطعه عن أمته ويصبح كأنه ليس منها، لأنه لا صلة بينه وبين المتعلمين إلا صلة ضعيفة، فهنالك يجدر أن يكون التعليم الثانوي كثير المواد غزيرها حتى يجعل بين النابغين اتحاداً أتم على مقدار الاختلاف الشديد في المهن المختلفة.

(٤) ومن جملة المطالب التي تقتضيها المدارس الثانوية الاستعداد للمدارس العالية والخاصة، وقد كان هذا هو المطلب الذي لا يطلب سواه قديماً بالمدارس الثانوية، أما الآن فإن الأمر أعظم كما قررناه، بل لها وظائف أخرى تقدمت ويأتي باقيها.

(٥) الانتخاب المدرسي، ومعنى هذا أن في الناس من ليس لهم استعداد ولا ميل للتعليم العالي فهؤلاء يجب أن يتعلموا ما يليق لهم، ومن لا يستعد للتعليم الثانوي يجب أن يتعلم صناعة تليق له.

(٦) وكما أن كل ما احتاج إليه الفرد في حياته من مطعم ومشرب وملبس موجود في هذه الأرض يراه ويحس به فيطلبه؛ هكذا يجب أن يجعل للمتعلمين في المدارس نماذج لكل ما تحتاج إليه الأمة، فتكون في المدارس أنواع الصناعات وأنواع الفنون ليتخذ كل ما يليق له. وكما أن الإنسان لو لم يرَ الثمر أو الموز أو التفاح فإنه لا يطلبه؛ هكذا لا يتسنى لامرئ أن يطلب علم الجبر أو صناعة الحدادة أو صناعة الكهرباء إلا بالاطلاع عليها ومعرفة شيء يختص بها.

فائدة: لقد كان قدماء اليونان يضعون في هياكلهم صوراً مختلفة للصناعات المختلفة، ويمر عليها الصبيان فإذا رآها الصبي وأحب إحداها عرفوا أن هذا هو استعداده، وهذا المقام قد بينته في كتابي «أين الإنسان» تبييناً أتم وكشفاً أظهر، فاقرأه إن شئت.

وهنا يجدر أن أثبت هنا مقالاً كتب في جريدة الأهرام في يوم الخميس ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٢٩ في الرد على من ذمّ التعليم الإجباري العام وهذا نصه: معنى التعليم الإجباري

حول مقال كاتبة

حملت الكاتبة النابغة الآنسة في عدد الأهرام الصادر في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٩ حملة شعواء على التعليم الإجباري، بحجة أنه مؤدّ للبطالة وإقفار الريف وازدحام المدن وغيرها، وبحجة أن كل أمي في مصر يشتغل، وأما طائفة العاطلين فهي من المتعلمين. وبحجة أنه لو كانت الغاية من التعليم جعل كل متعلم أفندياً معسكره العام في القهاوي والبارات في انتظار وظيفة تهبط عليه من السماء على أجنحة ملائكة الرحمن؛ إذن لكان الجهل خيراً. وبحجة أنه لو كانت الغاية من التعليم قذف المتعلمين إلى العواصم لكان الجهل خيراً، وبحجة أنه لو كانت الغاية إيجاد الشبان ذوي المناديل المشربة من الجيوب وذوي ربطة الرقبة المرصعة بالدبوس، إذن فالجهل خير من العلم.

ثم ختمت الآنسة مقالها بقولها إنها واثقة من أن الشبان المصريين لا يحنقون عند قراءة ما تكتب الخ . كلا . ثم كلا ـ على رأي زكي باشا ـ لقد أخطأت الكاتبة النابغة في الخاتمة كما أخطأت في المقدمة كما أخطأت في جوهر موضوعها . والويل ثم الويل لمن يخطئ ثلاثاً .

إن الشبان المصريين يحنقون ثم يحنقون لمناصرتها الأمية . اللهم إلا إذا كانت تعني بالشبان الشيوخ المتصببين أو الشبان المتكهلين من أنصار القديم . بيد أني أجلّ الكاتبة عن هذا الخطأ المثلث وألتمس لها العذر ثلاثاً، لأني لا أخالها إلا جاهلة معنى التعليم الإجباري فظنته تعليماً راقياً يخرج شباناً مثقفين وفتيات مثقفات ملمين وملمات باللغات الحديثة وآدابها، ومبادئ العلوم السياسية والاقتصادية والمواد الطبيعية والاجتماعية والرياضية .

هذا ما فهمته الكاتبة النابغة بنتيجة التعليم الإجباري . فإذا كان هذا ما تريد وتعني فإنني أوافقها وأشد أزرها فيما زعمت، لأن انتشار الثقافة في طول البلاد وعرضها فوق الحاجة مما يدعو إلى كثرة الياقات البيضاء كما يعبر عن ذلك علماء التربية اليوم ؛ ومعنى الياقات البيضاء هو عين ما قصدت السيدة بالمناديل المشرئبة من الجيوب الخ؛فإن الأمم المتمدينة جميعها خصوصاً التي يكثر بينها العاطلون كإنكلترا وألمانيا على الأخص، قد فطنت إلى ازدياد عدد الشبان المتأنقين ذوي الياقات البيضاء والأردية الثمينة الذين لا ينزلون إلى حلبة الأعمال اليدوية في المصانع والمناجم مهما ارتفعت أجورها، بل يفضلون الانتظار شهوراً بلا عمل ريثما يجدون لهم عملاً كتابياً في مكتب أو مصرف أو مصلحة، حفظاً على ما يزعمونه في تلك الوظائف من الكرامة والمعزة، وحباً في جعل أقمصتهم وياقاتهم ناصعة البياض .

وهذه الحال بعكس ما هي عليه في ولايات أميركا المتحدة تماماً، فهنالك يباهون بالأعمال اليدوية فينزلون إلى ميادينها بثغور باسمة مهما بلغوا من الثقافة، لأن مدارسهم على اختلاف درجاتها تعوّدهم احترام العمل، لأن الحصص الدراسية هناك تتخللها الصناعات والأعمال اليدوية، ولا يجد الشباب من خريجي الكليات عاراً في غسل الأطباق وحمل الأثقال والعمل في المناجم، لأن الأقذار التي تعلق بالشاب من جراء هذه الأعمال يطلق عليها اسم الأقذار الشريفة أو النظيفة، كذلك الفتاة المثقفة وإن كان والدها من أصحاب الملايين قد تجدها عاملة في مطعم أو متجر أو منزل حباً بعظمة العمل وشغفاً بما تسميه الفتاة الأميركية الاستقلال الاقتصادي .

وليسمح لي القارئ أن أضرب مثلين واقعين حدثا معي فعلاً، كنت يوماً أتناول العشاء مع فريق من الطلبة في دار أحد أساتذتنا في ضاحية من ضواحي نيويورك، وفي نهاية العشاء أخذنا نطل من الشرفة الكبيرة على حديقة المنزل، فلاحظ أحدنا أن سيارة فخمة مقفلة أوقفت أمام المنزل وخرجت فتاة أنيقة من باب المنزل ودخلت السيارة وغابت عن الأنظار، فسأل أحدنا الأستاذ : أليست هذه الفتاة التي كانت تخدمنا على المائدة؟ أجاب : نعم هي بعينها وهذه سيارتها كما رأيتم فخمة، وهذه سيارتي في الحديقة من طراز فورد المتواضع، ثم أردف ذلك بقوله : إنها من طالبات الكلية وتقوم بخدمتنا فقط عند الحاجة القصوى بأجرة ريال عن كل ساعة . وأذكر مرة أني دخلت مطعماً ذات ليلة في منعطفات نيويورك وما كدت أجلس إلى مائدة من الموائد حتى أقبل عليّ أحد طلبة الجامعة التي كنت بها وكان

من طلبة الدكتوراه يقدم إليّ قائمة الطعام، وقد تأثرت كثيراً من هذا المنظر، وزاد تأثري أن شاهدت زوجه تقوم بالخدمة معه في ذات المطعم في أوقات فراغهما، وقد قام رجال التعليم في إنجلترا والنمسا وروسيا وهنغاريا وشيكوسلوفاكيا وألمانيا وخصوصاً في الأخيرة بحملات شعواء ضد التعليم الثانوي الذي يكثر من العاطلين ذوي الياقات البيضاء ويقلل من الأيدي العاملة، وكانت النتيجة أن التعليم الثانوي هناك قد انقلبت نظمه رأساً على عقب، وأدخل فيه التعليم العملي الذي يتفق مع حاجة البلاد، وتقضي على البطالة والتنزه عن الأعمال اليدوية، ويقلل من الثقافة الأدبية التي لا توافق روح العصر الحديث، وروح العلم والعمل. وقد احتككت برجال التعليم في ألمانيا صيف هذا العام في مؤتمر العليم في جنيف، وقد شاقني ما رأيت فيهم من التغيير وما سمعت من خطبهم من الانقلاب، وقد زادتني دهشة زيارتي لألمانيا وما شاهدت في حياتها الاجتماعية والاقتصادية من التغيير، وقد كنت زرتها قبل هذا العام منذ أربع سنوات فقط، ولا يسع الزائر إلا الاعتراف بأن ألمانيا اليوم تقتفي أثر أمريكا أولاً في نظم التعليم، وثانياً في الديموقراطية واحترام الأعمال اليدوية.

يفهم مما سبق أن الأخطار الاجتماعية والقلاقل الاقتصادية تنجم عن تعميم الثقافة الأدبية والإكثار من المواد العلمية البحتة. لذلك أشترك مع النابغة الآنسة مي في الاقتراح على وزارة المعارف أن تقلب نظام التعليم الثانوي في بلادنا، لأنه من النوعين المشار إليهما، والبلاد في حاجة إلى قليل من هذين النوعين من الثقافة الأدبية والعلمية البحتة، وكثير جداً من التعليم العلمي العملي من صناعي وزراعي وتجاري.

بقي عليّ الآن أن أقول للآنسة الكاتبة: إن معنى التعليم الإجباري بسيط جداً، وهو أنه يرمي إلى تعليم الأمة بأسرها، بنيها وبناتها، معرفة المبادئ الأولية من قراءة وكتابة وحساب أو كما يسمونه في أمريكا وأوروبا، أو ما يسميه العامة في بلادنا « فك الخط ». فهل تخشين أيتها النابغة عاقبة هذا النوع من التعليم الساذج البسيط؟ إذن فكيف يستطيع أبناء الأمة في الأرياف والمدن أيضاً أن يقرؤوا منشورات مصلحة الصحة عن الأمراض المعدية والحميات وعزل المريض والتدرن والبلهارسيا والانكلستوما والماء الراكد وماء القنوات والمجاري. وكيف يتفهمون منشورات وزارة الداخلية عن الأمن العام ومطاردة الجراد واستئصال دودة القطن وعدم قتل الطيور النافعة؟ هل تريدين العمدة أن يبعث برجاله ينادون في الشوارع كما يفعلون الآن وكما كانوا يفعلون منذ القرون الخالية؟ وكيف يقرؤون التعليمات المكتوبة على محطات السكك الحديدية بخصوص مواعيد القطارات وصرف التذاكر، وعلى لوحات الإعلانات في المحاكم ونقط ومراكز البوليس، وعلى واجهات دور الحكومة ودور الحوانيت التجارية والمدارس وأماكن العبادة والمستشفيات والمصانع والملاهي الخ؟ وكيف تريدينهم يحترسون من النشالين إذا كانوا لا يستطيعون قراءة اليفطة البسيطة المكتوب عليها « احترس من النشالين » في الأماكن المزدحمة من أسواق ومحاكم والعتبة الخضراء والموسكي وشارع فؤاد الأول وعماد الدين وتياترات وأماكن عبادة؟ وكيف تريدينهم يمتنعون عن مخاطبة السوّاق في عربات الترام وعدم البصق في الأماكن العمومية الخ إذا كانوا لا يستطيعون قراءة الإعلانات الدالة على ذلك؟

وكيف يستطيع العامل البسيط أن يدوّن في مذكرة جيبه ما له وما عليه، وكيف يكتب خطاباته الخصوصية لزوجه وأولاده، ولمَ تريدينه أن ينشر أسراره على الملأ ويلجأ لكتاب ـ بتشديد التاء ـ العرائض فيسلبون ماله ويفشون أسراره؟ لمَ تريدينه أن يحرم من هذه النعمة الأولية البسيطة، نعمة القراءة والكتابة؟ لمَ تريدينه أن يبقى كل حياته بهيماً وأن يظلّ حيواناً أعجم؟

كان معلم الإنشاء في السنوات القليلة الماضية يعلم تلاميذه هذه الجملة المحبوبة التي إذا أغفلها تلميذ كان جزاؤه صفراً، وهذه الجملة هي: خلق الله الإنسان وميزه عن سائر الحيوان بالنطق والعقل والبيان. وترجمة هذه الجملة بلغة القرن العشرين: ......الحيوان بالنطق والعقل والبيان والقراءة والكتابة على الأقل.

إن التعليم الإجباري إذن ليس من الكماليات، بل من الضروريات، لأن القراءة والكتابة كالكلام واسطة التعارف. وقد كان الإنسان في عصور الفطرة يكتفي بالكلام ولا يحتاج للقراءة والكتابة حاجتنا إليها اليوم لأسباب لا تخفى. أما اليوم وقد سهلت المواصلات وكثرت حاجات الإنسان وتعقدت وسائل الحياة ومرافقها، فقد أصبحت القراءة والكتابة لازمة لبني الإنسان لزوم النطق والكلام.

واسمحي لي أيتها الآنسة النابغة أن أذكر أن التعليم الإجباري المقصود في بلادنا هو هذا التعليم البسيط الذي لا يتجاوز علاوة على القراءة والكتابة ومبادئ الحساب شيئاً من علم تخطيط البلدان والقوانين الصحية، وهذه لا تدفع صاحبها إلى ارتداء الملابس الأنيقة أو الهروع إلى المدن. وإذا فرض أن تناول التعليمين الابتدائي والثانوي، كما يحدث في معظم ولايات أمريكا اليوم، فإنه لا يأتي بقلاقل اجتماعية ولا يكثر من الياقات البيضاء إذا كان المنهاج منوعاً شاملاً للأعمال والصناعات اليدوية كما هي عليه مدارس أمريكا وألمانيا والنمسا وروسيا اليوم. واسمحي لي أن أقول أيضاً: إن التعليم الإجباري علاوة على ما ذكرت لازم لكل أمة لأنه يظهر الذكاء الكامن في عقول صبيانها وبناتها. ومتى استكشف هذا الذكاء في فرد من أبناء الأمة أشار القائمون بتربيته على الحكومة حتى تساعده على مواصلة الدرس على نفقتها، لأن النبوغ والعبقرية جديران بالاهتمام والعناية. ومن المتفق عليه الآن أن الحكومة مسؤولة عن تعليم أبناء الأمة ليس حباً في سواد عيونهم بل تخليداً لكيان الأمة ومحافظة على حياتها. كما أن الحكومة مكلفة بالبحث عن النبوغ والعبقرية والانتفاع بهما. والعقول الراجحة الذكية كالدرر واللآلئ لا يظهر لمعانها وقيمتها حتى تعمل فيها يد الصانع الماهر الذي يخرجها من أصدافها ويصقلها بعد تنظيفها من الأقذار اللاصقة بها.

وأخيراً أطمئنك أيتها الآنسة النابغة أن مشروع التعليم الإجباري يتطلب عشرات السنوات قبل اكتماله، لأنه يحتاج إلى المال والمعلمين والأماكن والوسائل لتنفيذه. والبلاد التي عمّ فيها التعليم الإجباري منذ مائة عام لم تصل فيه إلى درجة الكمال، لأنه ليس من السهل القبض على جميع من يمتنعون عن إرسال بنيهم وبناتهم إلى المدارس ومحاكمتهم، وليس من السهل عد الأسابيع التي يمكثها التلميذ سنوياً في المدرسة وتحديد نهاية صغرى لهذه الأسابيع بشرط أن يزجّ في أعماق السجون والدو التلاميذ الذين لا يمكث أولادهم في المدارس هذه النهاية الصغرى على الأقل، وستخبط البلاد المصرية

خبط عشواء في خلال ثلث قرن على أقل تقدير حتى يتاح لها تنفيذ هذا المشروع الخطير على الوجه الذي يوجب الارتياح . ولتتأكد الآنسة أن تحرير المرأة لن تقوم له في مصر قائمة ما لم يعمم التعليم الإجباري ، وسيكون شأن المرأة منه أكبر مما للرجل ، لأن الأمية بين النساء أكثر انتشاراً بكثير منها بين الرجال ، ولعلّ هذه العبارة الأخيرة ـ إن لم يكن غيرها ـ تحمل الآنسة على تغيير رأيها . اهـ .

أمير بقطر

وبهذا تم الكلام على الشذرة الأولى في إصلاح التعليم العام ، والحمد لله رب العالمين .

الشذرة الثانية: في العجائب السماوية وما يوصل إليها

جاء في جريدة الأهرام تحت العنوان التالي ما نصه :

عجائب فلكية

يقال : إن أقرب نجم من الأرض هو « الألفا » من نجوم برج العيوق ، ويبعد عنا نحو ٤٠ ترليون كيلومتراً ، ويقضي نوره أربع سنين وسبعة أشهر وستة أيام حتى يصل إلينا ، وهناك نجم معروف باسم « غمامة مجلان الصغيرة » وهي بعيدة عنا بعداً شاسعاً ، حتى إن نورها لا يصل لنا في مدة أقلّ من ألف قرن ، فنحن نبصر نجم « الألفا » كما كان عليه منذ أربع سنين و٧ أشهر و٦ أيام وغمامة مجلان الصغيرة في المكان الذي كانت فيه منذ ألف قرن ، وإذا فرضنا أنها انطفأت منذ ٩٩٩ قرناً فإن النور الذي صدر منها في ذلك العهد يظل على سيره إلينا في الفضاء ويبقى منظوراً في أثناء مائة سنة أخرى . اهـ .

ومما يلحق بالعجائب السماوية ما يوصل إليها من الصناعات ، فانظر ما جاء في جريدة الأهرام أيضاً في يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٩٢٩ تحت العنوان التالي وهذا نصه :

رصد الجو بالسهام النارية

منذ أكثر من اثني عشر عاماً أخذ الأستاذ جودارو العالم الأمريكي يهتم بأمر استعمال المواد المنفجرة لإرسال سهام نارية « صواريخ » إلى طبقات الجو العليا ، وهو الذي خطر له أن يصنع صاروخاً كبيراً جداً ليطلقه من أرضنا إلى القمر ، على أن هذه الفكرة أخذت تتطور في أثناء التجارب الكثيرة التي قام بها من إطلاق سهام صغيرة على سبيل الاختبار ، وقد توصل أخيراً إلى فكرة استطلاع طبقات الجو العليا بهذه السهام فصنع صاروخاً كبيراً كلفه نحو ١٢٠٠٠ ريال وحشاه بمادة قوية الانفجار من ابتكاره ، وأطلقه من فوق برج مرتفع من الحديد في مدينة ورسستر ، وقد دهش أهل المدينة إذ رأوا ذلك السهم الناري العظيم يشق عنان الجو في ليلة ظلماء ، وخيل إليهم أنه نيزك هائل مر بجو مدينتهم ، وزعم البعض بأنه طيارة ملتهبة انفجر حوض وقودها .

ويعتقد الأستاذ جودارو أنه يستطيع بهذه المادة المنفجرة الجديدة أن يرسل مثل هذه المقذوفات إلى ارتفاع عظيم في الجو ، وأنه إذا تمكن من توصيلها إلى علو مائتي ميل ؛ تسنى له الحصول على معلومات عن أحوال الجوّ في ذلك العلوّ تكون ذات أهمية كبيرة لدى أهل العلم ، وسيجهز الأستاذ هذه المقذوفات بعدة أجهزة لتسجيل الأرصاد الجوية متى بلغت آخر حد ، وعندما تنقلب هابطة إلى الأرض تنفتح فيها المظلة المعروفة بـ « البراشوت » ، فتصل إلى الأرض سالمة بما فيها من المعلومات ،

وقد كانت التجربة الأخيرة باعثاً على التشجيع، فإن الأسطوانة الفولاذية التي أطلقها في الجوّ بعد ما فرغت منها المادة المنفجرة هبطت بالمظلة هبوطاً طبيعياً ووصلت إلى الأرض سالمة من العطب.

أما الصاروخ التالي الذي سيكون أكبر من هذا كثيراً فستوضع فيه أربعة أجهزة، أحدها للحصول على نموذج من الهواء لتحليله كيميائياً، وآلة تصوير شمسي لاختبار أشعة الشمس في ذلك العلو، إذ يظن أن الأشعة فوق البنفسجية قوية جداً، وجهاز لقياس الحرارة وتسجيلها وجهاز لقياس الضغط الجوي. انتهت الشذرة الثانية.

الشذرة الثالثة: في غرائز الحيوان

جاء في مجلة «السياسة الأسبوعية» ما يأتي:

غريزة النظام عند الحيوان

قد نتصور أن الحيوانات المتوحشة التي لا تدخل في دائرة الإرادة البشرية فوضوية، أي لا قانون لها، ولكن جميع المخلوقات الحية ليست إلا نتيجة قوانين كيميائية وأخرى طبيعية. فالمواد الكيميائية التي تتكون فيها خاضعة لقوانين ونظريات الكيمياء وليست نتيجة فعل إجباري للإنسان، بل هي عمليات فسيولوجية محضة، مما يجعلنا نجزم بأن أفعال وطباع الكائنات الحية مقيدة بقوانين ثابتة لا يمكن الاستغناء عنها، ولا شك أن عالماً بدون قوانين لهو عالم «فوضى» بقطنه مجانين.

إن حجراً تقذف به من أعلى في الهواء يسقط دائماً تجاه الأرض، ودائماً يسقط بحالة منتظمة ثابتة. وإذا أكل الإنسان شيئاً كثير العصارة، فإن هناك غدداً تفرز مادة بالفم تعرف باللعاب. وهذه المادة دائماً تفرز تبعاً لقوانين فسيولوجية وكيميائية، ولها دائماً تركيب مخصوص حيث تفرز من خلايا معينة وبنسب ثابتة تحت شروط معينة، ولا يمكن ذلك إلا إذا كان هناك قانون تخضع له كل هذه الأشياء. فمثلاً الإنسان لديه قوة يعبر عنها بالتفكير والإرادة، وأما الحيوان فلديه قوة يعبر عنها بالغريزة والأميبا والبكتريا التي هي حيوانات طفيلية يتمشى نموها وحياتها تبعاً لقانون، وليست حركاتها تأتي جزافاً، أو هي متغيرة الأطوار، وإنما هي على الدوام تأتي بنتائج مؤدية على الأقل لما فيه راحتها، ومن ذلك نعرف أن الحيوان مهما صغر فإنه خاضع لقوانين لا يمكن البقاء له بدونها، ولنأخذ الآن مثلاً العنكبوت، فإنه ينسج بيته بغاية الدقة المقرونة بكل صبر، حيث يعمل عقدة وحشية من الخيوط، ويكون بعمله هذا كأعظم مهندس فني يعمل تبعاً لنظريات وقوانين هندسية محضة، فيبتدئ بوضع خيوط دائرية ثم يحدد بها المساحة التي يريد النسج عليها، ثم يضع خيوطاً مشطرية تتقاطع في الوسط وتعمل خيوطاً حلزونية أخرى هي عماد ما ينسجه.

ولننتقل إلى شمع العسل الذي يصنع بواسطة النحل العادي نجد أنه لا يصنع جزافاً، بل تبعاً لقانون، إذ أن كل نحلة تعمل ما يخصها من العمل القليل ليس إلا، وكل هذه النحلات تعمل وتتبع قوانين الهندسة بعملها خلايا سداسية هي غاية في الدقة والجمال، بل وتعمل قاع الخلية من ثلاث مستويات تتقابل في زاوية أثبت الرياضيون أنها زاوية اقتصادية، أي غاية ما يمكن عمله لتوفير المادة والوقت.

زد على ذلك أن العمل يوزع بينها توزيعاً منتظماً ينفذ بكل دقة كأنه صادر بمنشور، فبينما يوجد عدد كبير يقوم بملاحظة النحل الصغير؛ نجد عدداً نيط به تغيير أهوية الخلايا وتبخير الماء من العسل بمروحة الأجنحة، وعدداً آخر عمله معماري محض يقتصر على عمل قرص العسل، كما أنه يوجد رعاة بينها لإحضار الحبوب والملح والماء، هذا خلاف عدد كبير عمله كيميائي يتلخص في تجهيز حامض الفورميك، هذا ولم يفت النحل أمر حراسة الخلية حيث يوكل أمر الحراسة إلى فريق آخر يحافظ عليها من أي خطر عدائي، كما أن هناك الملكة التي تلد، فإذا نظرنا إلى ما يحدث بين طائفة النحل نجد أنه لا يمكن حدوث ذلك إلا بقانون ينفذ بكل دقة دون أي خلل كعمل الساعة حتى ولو كان في ذلك ضرر بالأفراد.

هذا ويوجد خلايا رئيسية هي بمثابة الإدارة الحكومية حيث يستمد منها الأوامر، وهذه بعيدة عن مقر الملكة، ولقد تتكون الخلية من عشرة آلاف غرفة صغيرة لوضع البيض.

والآن إذا نظرنا إلى الطيور نجد أنها تهاجر من مكان إلى آخر تبعاً لقانون في أوقات وفصول معينة إلى جهات مقصودة، فأبو جديح يطير من ألمانيا إلى جنوب أفريقيا ويقطع آلاف الأميال، ولا يمكن ذلك إلا إذا كانت هجرته هذه طبقاً لقانون. والحيوانات التي تعيش قطعاناً نجد أن لها قانوناً وقواعد تعيش بواسطتها، فالصغار تحت محافظة الأمهات، ولا حرب بين أعضاء القطيع الواحد إلا في أوقات الجدل كاجتياز رياسة أو قيادة «انتخاب».

هذا وحركات هذه القطعان دائماً متمشية مع قوانين غير مكتوبة يعاقب كل مخالف لها. مما تقدم نعرف أن القانون في عالم الحيوان أساسه ليس العقل، وإنما أساسه الغريزة، وكلها تعمل من أجل الصحة والدوام والمحافظة على الأفراد، وإطاعة هذه القوانين حياتها ومخالفتها دمارها.

هذا ما يختص بالحيوان. ولنلق نظرة إلى الإنسان الذي كان في عصره الأول خاضعاً لقوانين الحيوان، أي القوانين الغريزية كميله إلى الغذاء والانتقام من العدو والقنص واللعب. ثم وجد نفسه بمضي الزمن محتاجاً إلى التعديل والتبديل، فأدخل ما ارتآه يناسب حالته وعصره فوضع قوانين مدنية وأصبحت هي القوانين الخاضع لها، مزيجاً من الغريزية والوضعية التي استمدها من الكتب السماوية ومن أفكاره، مما جعله حاملاً القيادة الفكرية لجميع الحيوانات. انتهى ما أردته من مجلة «السياسة الأسبوعية»، والحمد لله رب العالمين.

نظرات في بلدة المرج

منذ ليال في هذا الشهر وهو أكتوبر سنة ١٩٣٠ كررت راجعاً من حقلنا، وكان ذلك بعد غروب الشمس في نفس المكان الذي كنت أراقب فيه القمر، وكتبت تلك المراقبة في سورة «فاطر» عند آية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [فاطر: ٢٧]، وفيه أيضاً نظرت مزرعة القطن وأزهارها وقطنها، وكتبت ذلك في أول سورة «الصافات».

أقول: في نفس هذا المكان نظرت أمراً عجباً! نظرت مئات من الغربان أتت أفواجاً متلاحقة لتبيت في شجر النخل، وقد قدّرتها فوق الألف لأن النخل هناك كثير جداً، فلم أكد أراها حتى أخذت

النفس تفكر في هذا الإنسان، هذا الإنسان ذو العقل وذو العلم وذو الأنبياء كيف عاش أجيالاً ولم يرتق عن الغربان! غربان قرية من القرى لا تعيش مع غربان قرية أخرى، إذ لا سبيل للاتصال، والغريزة لم تعطها ذلك، ولكن الإنسان له عقل، فماذا فعل بعقله؟ عقله المخبوء، عقله الجوهر المكنون. الإنسان لا يكون إنساناً حتى تكون أممه كلها متحدة. فهذه الغربان التي أشاهدها الآن راجعة إلى هذا النخل لتبيت فيه. والإنسانية بدون هذا غبية جاهلة. ولما استتممت فكرتي انطلقت راجعاً إلى القاهرة وعرفت أني أتممت درس الموضوع بقدر الإمكان. انتهى الكلام على الشذرة الثالثة.

الشذرة الرابعة: في الفوائد الطبية

الكلاب وأخطارها

قليل من الناس عدد الذين يعرفون الأخطار التي تتعرض لها حياة الإنسان من مساكنة الحيوانات الأليفة التي اعتادت عليه فأمن لها وأمنت له. والواقع الذي لا شك فيه هو أن ثلاثة أرباع الأمراض الخبيثة التي يصاب بها الإنسان تنشأ في جسمه من المكروبات القتالة التي تندس من كلب أو حصان أو غيرهما من الحيوانات التي يقترب منها وتقترب منه.

وقد أدركت الحكومات الراقية أخطار هذه الحيوانات فحذرت الإنسان منها وكيف يتقي أخطارها بقدر الإمكان إن لم يستطع الاستغناء عنها تماماً. ورأينا مرات كثيرة على جدران الدوائر العمومية في أوروبا وأميركا صور الحيوانات الأليفة، وقد كتبت فوقها بخط عريض عبارات التحذير منها والابتعاد عنها ووصفها بكونها ألد أعداء الإنسان.

وبلغ جهل أخطار هذه الحيوانات في الناس أنهم يسمحون لها ـ لا سيما الكلاب والقطط ـ بالنوم في أسرتهم وبجانب أولادهم جاهلين أنهم بهذا العمل يضعون الموت بجانب أولادهم بما تنفثه هذه الحيوانات في وجوههم من المكروبات القتالة، وبما يسري إلى جسوم الأولاد من جسوم الحيوانات من الأوبئة الجلدية كالجرب وغيره بواسطة الاحتكاك وانتقال جراثيم الأمراض السريعة العدوى. وأشد الحيوانات الأليفة خطراً على الإنسان هي الكلاب والقطط. وبحثنا اليوم بنوع خاص في الكلاب وأخطارها. وقد أخذنا هذه المعلومات الصحية عن اختبارات كبار رجال علم الطب في العالم الراقي الأميركي، وإذا استصعب الإنسان الحياة بدون كلب في بيته مثلاً فليعلم أن حياته أثمن وأنفع له ولغيره من حياة كلب. ومن الجهل الفاضح أن يعرض الإنسان حياته وحياة عائلته لخطر الموت من أجل سلواه بمعاشرة كلب أو أي حيوان آخر. ومثل الكلب خطراً الطيور البيتية التي يدخلها الإنسان إلى بيته كالحجال والببغاوات والنموس والعصافير وغيرها. ولكن أشد الحيوانات خطراً آكلات الأوساخ والهوام والديدان التي تحمل جراثيم أوبئة خبيثة.

للكلاب مرض خاص خبيث اسمه مرض الدود، فإن الدود الصغير سريع النمو وكثير العدد في الكلاب. وينشأ فيها من أكل الهوام والحشرات كالبراغيث والعث والعناكب والذباب. وهذه الهوام كلها سموم وجراثيم أوبئة خبيثة محمولة من الأقذار والجيف المنتنة التي تتغذى بها أحياناً كثيرة، وبرغوث واحد يأكله كلب كاف لإملاء جسمه كله بمكروبات هذا المرض الخبيث ولجعل أمعائه

وكل أعضائه الداخلية تعج بالدود الصغير الذي قلما يزول إلا بموت الكلب ودفنه في مكان لا تصل إليه بقية الحيوانات. والكلب المصاب بمرض الجراثيم الدودية يعدي سواه حتى بأنفاسه، والناس عادة يقبلون الكلب في وجهه وفمه ويسمحون له بتقبيلهم ولحس وجوههم ووجوه صغارهم، ومنهم من يطعمهم بيده ويدخل أصابعه إلى فمه، ويسمح له بالنوم في فراشه غير عالم بأنه يعرض نفسه للموت السريع بهذا العمل الفظيع والقذر.

ولو أن الحكومات تأمر الناس بالابتعاد عن الكلاب وتمنع تربيتها وتقتلها كما تفعل في أحيان اشتباهها بمرض الكلب ـ بفتح اللام ـ فيها لأحسنت صنعاً توفر عليها وعلى شعبها أهمّ أسباب الموت الذي يجهل الناس أسبابه، وزادت في رفاهيته وسعادته، لأن السعادة تنتج أو ينتج أهم أسبابها من حسن الصحة العمومية وبعد الناس عن الأمراض.

أعراض المرض في الكلاب

إن للأمراض الخبيثة في الكلاب أعراضاً لا تخفى على الناظر، ولكن من الأمراض الخبيثة ما لا أعراض لها في بدايتها ولا يشتبه بها أحد، فتعدي أسيادها بدون أن يشعروا وقبل ظهور الأعراض عليها، ولهذا سواء ظهرت أعراض المرض في الكلب أو لم تظهر فخير لنا إبعاده عنا، إذ لا فائدة لنا منه، والرجل الذي لا يستطيع أن يحرس مواشيه أو بيته بنفسه فماذا تفيده الكلاب. والصيادون بغنى عنها أيضاً، وإذا استغنى الإنسان عن الكلب يتحول قسم كبير من عناية الكلب وانتباهه إليه بدلاً من أن يتكل في كل شأن وعمل على كلبه. وأعراض المرض في الكلب أنه يصاب بإسهال دائم وضعف عزيمة وخوار وفقد شهية الأكل وسوء هضم وفقد النعومة في الشعر، وأكثرية الكلاب التي تصاب بهذه الأمراض تصاب باضطرابات وضيق نفس وحك جلدها وتركض من مكان إلى آخر وتصرخ بدون داع من الألم.

وأهم أسباب نقل هذه الأمراض إلى الإنسان أكل اللحوم غير الناضجة على النار لا سيما لحوم الخنازير التي تعيش على الأقذار والأوساخ والحشرات. وجراثيم الدود تنتقل من الكلب إلى الخنزير والإنسان بسهولة وسرعة غريبتين، وتدخل إلى الإنسان من فمه ومن عينيه بواسطة أنفاس الكلب، ومتى تكاثرت تتجمع في الأمعاء. وقد صورت هذه الجراثيم في أمعاء كلب فوجدوها تبيض بيوضاً صغيرة لا تكاد ترى بالعين المجردة، ويبلغ مجموعها أكثر من ٤٠ مليون بيضة كلها تنقف وتتوالد وتكبر وتنمو حتى تقتل الجسم كله. والكلاب أيضاً مرض اسمه مرض الجرب، وهو مشهور ينتج عن وفرة الأقذار والمكروبات على جسمه وتغلغل البراغيث والبق الجربي فيه. وهذا ما يشاهد كثيراً في الكلاب. فإذا أصيب الكلب بمرض الجرب فقتله يقي العائلة كلها من عدوى هذا المرض وجراثيمه المنقولة عنه بواسطة البراغيث والبق والبرغش والقمل. وللجرب جراثيم تتولد على سطح الجسم فتأكله وتسقط عنه الشعر وتفسده وتدخل إلى داخله فتقتله.

أما الأدوية المستعملة لشفاء الكلاب من أمراض الدود فكثيرة، منها المسهلات القاتلة لجراثيم الدود. وعندنا أن أفضل دواء لشفاء الكلب من أمراضه ومنع سريان المرض إلى سائر أفراد العائلة هو

قتله أو إبعاده عن البيت إلى حيث يموت وحده وتموت معه كل جراثيم مرضه . وإننا ندهش من الإنسان الذي يعرف شدة أخطار الكلاب والقطط والخنازير وسائر المواشي عليه وعلى عائلته كيف يسمح لها أو لنفسه بعد أن يعرف ذلك أن تقترب منه أو يقترب منها وهو المعروف بأنه الحيوان الراقي الذي يمتاز عن أخيه الحيوان المنحط بسعة العقل والإدراك والانتباه والحذر ، وإن لم يكن كذلك يفقد كل حق يدعيه للتفوق على الحيوان الذي يدب على أربع . انتهى من مجلة « الشمس » .

فائدة طبية في الخرشوف

جاء في جريدة الأهرام ما نصه :

فائدة الخرشوف الطبية

نبحث في هذه العجالة عن الخرشوف من جهة فائدته في مداواة أمراض الكبد . وقد كان الأقدمون يعرفون هذا الأمر ، ولكن أهمل استعماله حيناً من الزمان ، والآن عادوا إليه في معالجة اليرقان وحصاة الكبد وغير ذلك من الأمراض التي تصاب بها الكبد . وطريقة ذلك أن يغلى ورق الخرشوف ويحلى بالسكر ويشرب ، وقد لاحظوا أن منفعته لا تلبث أن تظهر . وفي الخرشوف مادة تقوي الكبد على التملص من السموم المتسربة إليها وتساعد خلاياها على القيام بمهمتها ، وهذا الأمر تهم معرفته الكثيرين ، لأن المصابين بأمراض الكبد كثير عددهم ، والناس يعودون شيئاً فشيئاً إلى التداوي بالعقاقير الطبية التي كان الأقدمون يعولون عليها في معالجة المرضى ، وكان الأطباء قد انصرفوا عنها وآثروا عليها الأدوية الكيماوية .

ومن النظريات الأولية أن الطبيعة أوجدت الدواء بإزاء الداء فهي صيدلية واسعة ، ولكن يجب البحث فيها وتعرف ما تحتوي عليه ، لوجود أدوية فيها تفضل كثيراً الأدوية التي يلقونها في دور التحليل والصيدليات وتكون معقدة التركيب ، وقد فهم الناس من عهد بعيد أن الطبيعة بنجوة من التعقيد ، ولذلك رأوا أن التداوي بالأدوية البسيطة أفضل من التداوي بالأدوية المركبة المعقدة .

وفي لبنان أسرتان فيهما أطباء لا يزالون يعالجون مرضاهم بعقاقير يجمعونها بأنفسهم من البرية ، ولهم منزلة عند أبناء وطنهم ، ولهؤلاء ثقة عظيمة بهم . انتهت الشذرة الرابعة .

الشذرة الخامسة: في فوائد أدبية

مقالات في كلمات

جاء في مجلة « كل شيء » ما نصه :

(١) المواهب المعتدلة تكسب صاحبها الحمد ، وكثيراً ما تفوق شهرته شهرة صاحب الذكاء العالي .

(٢) إذا كنا أصحاب كفاية احترمنا الرجال الحقيقيون . وإذا كنا أصحاب سعد وبخت احترمنا جمهور الشعب .

(٣) إن حلاوة اللقاء هي ثمن مرارة الفراق . وإلا ما احتمل هذه المرارة إنسان .

(٤) الفراق يطفئ الشهوات الصغرى ويزيد العظمى ، كالريح تطفئ الشمعة وتزيد النار التهاباً .

(٥) كثيراً ما تصادفنا في هذه الحياة مفاجآت لا تزول إلا باستعمال شيء من الحمق .

(٦) ليس بين المصائب مصيبة لا يستطيع اللبيب أن يجني منها فائدة له، ولا الغبي أن يجني منها شراً عليه.

(٧) إذا كان المرء لا يصطنع لنفسه أصدقاء جدداً كل يوم إلى نهاية عمره فسيجد نفسه وحيداً. فالواجب عليه أن يرمم صداقته على الدوام.

الماء والصحة

الماء أهم مواد الطعام طراً، والرجل البالغ الصحيح الجسم يحتاج كل يوم إلى ٧٠ أوقية ماء حتى (١٠٠) أوقية. وثلث هذا القدر من الماء في الطعام الذي نأكله، فإن الأثمار والبقول تحتوي على مقدار عال من الماء بالنسبة إلى قيمتها الغذائية. أما الثلثان الباقيان فنشربهما ماء أو سوائل أخرى. وبعبارة أخرى: إن الجسم الصحيح البالغ يحتاج إلى نحو ستة أرطال ماء يومياً. ووظيفة الماء بناء أنسجة الجسم وتحليل الطعام، وبذلك يساعد على حمله إلى الدم وتنظيف الأمعاء ومنع تجمع الفضول فيها مما يفضي تجمعه إلى تسمم الجسم، كذلك ينبه غدد اللعاب في الفم على الإفراز، واللعاب يساعد على هضم المواد النشوية في الطعام ويحل المواد الملحية والسكرية. انتهى من مجلة «كل شيء».

لطيفة: في قوله تعالى:

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

هذه الآية أصل عظيم في الإسلام توجب أن تنقب الأمم الإسلامية عن العلوم والصناعات والاختراعات، وتصطفي أحسن ما أنتجته عقول الأمم، وأبدع ما أبرزته مباحث العلماء، وخير ما أظهره الجد وأبرزه الاجتهاد وأدى إليه القياس وأوضحه الدليل، وأضرب لهذا مثلاً واحداً من آلاف. ذلك اختزال الكتابة. فاسمع ما جاء في جريدة الأهرام يوم الجمعة ٤ يوليه سنة ١٩٣٠ وهذا نصه:

طريقة الاختزال في الكتابة

اختراع شرقي لا غربي

حضر صاحب العزة المفضل رئيس تحرير الأهرام الغراء. يظن الناس أن طريقة الاختزال في الكتابة هي حديثة العهد، وأن الذين اخترعوها الغربيون أسوة بغيرها من المخترعات التي اخترعوها، ولكن الحقيقة أن هذه الطريقة هي قديمة العهد جداً، والذين اخترعوها هم الصينيون منذ نيف وألف سنة، والدليل على ذلك ما جاء بكتاب «الفهرست» لابن النديم المتوفى في أواخر القرن الرابع الهجري صفحة ٢٤و٢٥ طبع مصر، قال: وللصين كتابة يقال لها كتابة المجموع، وهو أن لكل كلمة تكتب بثلاثة أحرف وأكثر صورة واحدة، ولكل كلام يطول شكل من الحروف يأتي على المعاني الكثيرة، فإذا أرادوا أن يكتبوا ما يكتب في مائة ورقة كتبوه في صفح واحد بهذا القلم. قال محمد بن زكريا الرازي: قصدني رجل من الصين فقام بحضرتي نحو سنة تعلم فيها العربية كلاماً وخطاً في مدة خمسة أشهر، حتى صار فصيحاً حاذقاً سريع اليد، فلما أراد الانصراف إلى بلده قال لي قبل ذلك بشهر: إني عزمت على الخروج فأحب أن تملي علي كتب جالينوس الستة عشر لأكتبها. فقلت: لقد

ضاق عليك الوقت ولا يفي زمان مقامك لنسخ قليل منها . فقال الفتى : أسألك أن تهب لي نفسك مدة مقامي وتملي عليّ بأسرع ما يمكنك ، فإني أسبقك بالكتابة ، فتقدمت إلى بعض تلاميذي بالاجتماع معاً على ذلك ، فكنا نملي عليه بأسرع ما يمكننا ، فكان يسبقنا ، فلم نصدقه إلا في وقت المعارضة ، فإنه عارض بجميع ما كتبه ، وسألته عن ذلك فقال : إن لنا كتابة تعرف بالمجموع ، وهو الذي رأيتم ، إذا أردنا أن نكتب الشيء الكثير في المدة اليسيرة كتبناه بهذا الخط ، ثم إن شئنا نقلناه إلى القلم المتعارف والمبسوط . انتهى .

وإذا كان هذا الكتاب قد طبع لأول مرة في أوروبا سنة ١٨٧٢ ميلادية فلا يبعد أن يكون الغربيون لما اطلعوا على هذه الطريقة أخذوا في الأسباب التي توصلهم إليها كما توصلوا إلى غيرها من المخترعات الأخرى ، وفق الله الشرقيين إلى اقتفاء أثر الغربيين إلى ما فيه نفع المجتمع الإنساني .

وبهذا تم الكلام على سورة « الزمر » ، والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله وحسن توفيقه
الجزء الثامن عشر من كتاب
الجواهر في تفسير القرآن الكريم
ويليه الجزء التاسع عشر
وأوله سورة « غافر »

فهرس الجزء الثامن عشر من كتاب
تفسير الجواهر